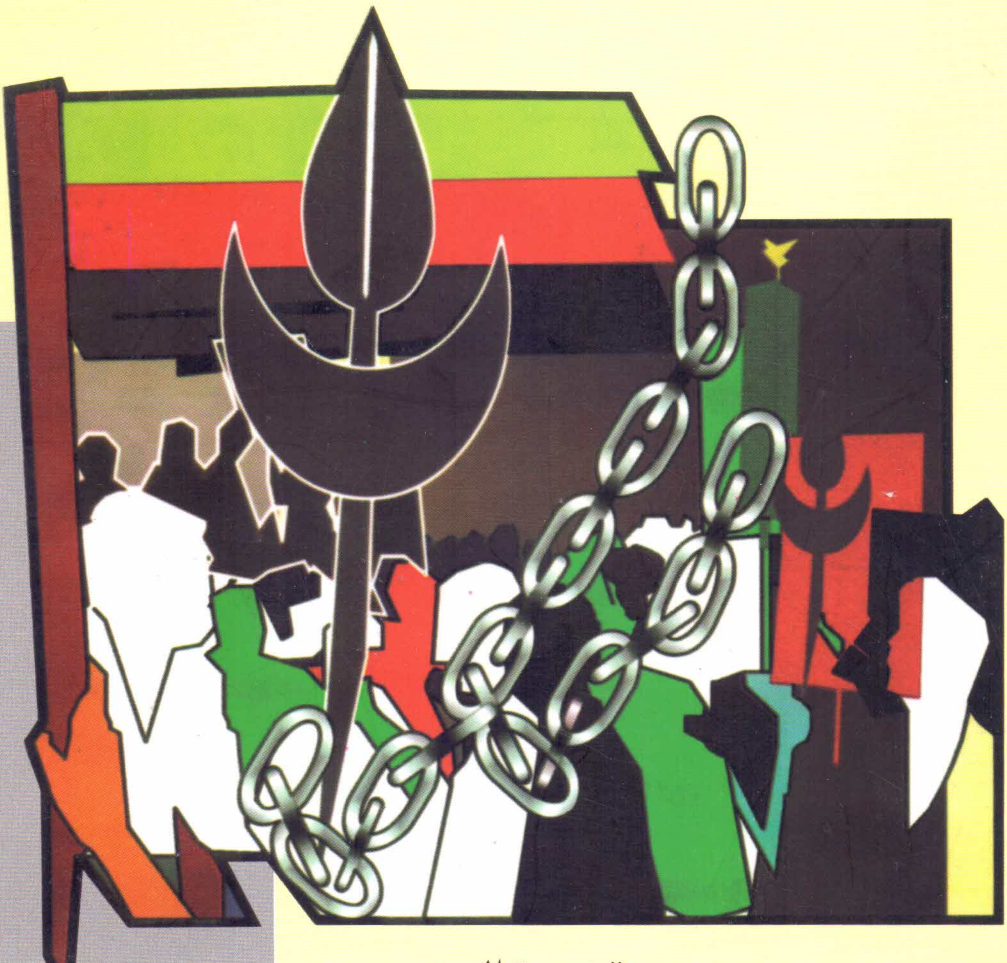
المرتضى

مكتبة السودانية

الطبعة الثانية

عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدى

بقلم الأب : جوزيف أورڤالدر ١٨٨٢م - ١٨٩٢م



ترجمة السفير

عوض أحمد الضو

نبذة عن المترجم ,,



السفير / عوض أحمد الضو

- ولد المترجم بمدينة مدني في عام ١٩٣٥م.
- متزوج وله ولدان وبنتان.
- درس بمعهد بخت الرضا وعمل بالتدريس حتى وصل إلى مرتبة مدير مدرسة.
- نال شهادة كمبردج الثانوية من الدرجة الأولى ودرس القانون بجامعة القاهرة فرع الخرطوم وذلك أثناء عمله بالتدريس.
- التحق بوزارة الخارجية وتدرج فيها حتى مرتبة سفير وعمل في نيجيريا وألمانيا والصومال وبريطانيا.
- أحيل إلى التقاعد في عهد الرئيس نميري، وذلك في عام ١٩٧٦م ثم تم إنصافه بقرار من مجلس الوزارء بتاريخ ١٩٨٩م في عهد حكومة الصادق المهدي وأعيدت إليه جميع حقوقه.
- عمل بالترجمة بوزارة الدفاع السعودية متعاوناً مع فرق التدريب العسكري الامريكية التي كانت تقوم بتدريب الجيش السعودي على الأسلحة الحديثة.
- عمل بإدارة الترجمة بشركة أرامكو للبترول وبعدها في نفس المجال بشركة صدف للبتروكيمياويات ثم تم تعينه من مجلس الادارة كسكرتير للمجلس وسافر في مهام الشركة إلى هيوستن ولوس انجلوس بأمريكا واكوبولكو بالمكسيك وجنيف بسويسرا.
- عضو المنتدى التربوي ورابطة شعراء السودان ومنطمة قدامى السفراء.
- له ديوان شعر بعنوان (ليالي النيل) طبع في عام ٢٠٠٥م ضمن منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية.

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٦٣٨م

ردمك : ISBN : 978 - 99942 - 869 - 4 - 2

عشر سنوات من الأسر
في معسكر المهدي
١٨٨٢م - ١٨٩٢م

الأب جوزيف أورڤالدر

ترجمة

السفير/ عوض أحمد محمد الضو

فهرسة المكتب الوطنية – السودانية

٩٦٢,٤٢ عوض أحمد محمد الضو

ع ع

عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي/ عوض أحمد محمد الضو

ط ١ – الخرطوم : د . م ، ٢٠٠٧م

٢٥٦ ص : إيض : ٢٤ سم.

ردمك : ٢ – ٤ – ٨٦٩ – ٩٩٩٤٢ –٩٧٨ ISBN

١ – السودان – تاريخ – العصر الحديث – الثورة المهدية

أ – العنوان :

رقم الطبعة : الثانية ٢٠١٥م

المقاس : ١٧× ٢٤ سم

الاخراج الفني : محمد يس

الطابعون / مطبعة التمدن المحدودة

عشر سنوات من الأسر

في معسكر المهدي

١٨٨٢م – ١٨٩٢م

- كتب هذه المذكرات القسيس النمساوي الأب جوزيف أورفالدر باللغة الألمانية .
- ترجمها إلي الإنجليزية الرائد ريجنالد ونجت ، مدير الاستخبارات العسكرية للجيش المصري آنذاك والذي أصبح فيما بعد الجنرال ونجت باشا حاكم عام السودان.
- ترجمها إلي العربية السفير عوض أحمد محمد الضو



الأب أورفالدر

TEN YEARS' CAPTIVITY
IN THE
MAHDI'S CAMP
1882 - 1892

FATHER JOSEPH OHRWALDER

شكر وتقدير

أتقدم بهذا بشكري وتقديري لتلميذي علي عبد الواحد الكاشف ، المدير الإداري لمكتب وزير الخارجية ولابنه عبد الواحد اللذيّن تعاونا على طباعة هذا الكتاب بالكمبيوتر على أحسن صورة . كما قاما بتنسيق وترتيب الصور الموجودة بالكتاب مما مكنني من إصدار الكتاب في أجمل ما يمكن .

كذلك أتقدم بالشكر الجزيل للاقتصادي المرموق الدكتور محمد ميرغني عبد السلام لتكرمه بتتبع الأخطاء المطبعية التي وقع معظمها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب . أيضاً للأخ الكريم الدكتور محجوب الباشا ، مدير المركز القومي للدراسات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية ولاستاذي الجليل الدكتور أحمد إسماعيل البيلي لملاحظاتهما القيمة .

مقدمة المترجم

قضى القس النمساوي الأب جوزيف أورفالدر عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي . وبموجب ترتيبات الكنيسة في مصر وونجت باشا ، مدير الاستخبارات العسكرية في الجيش المصري ، تمكن أورفالدر من الهرب على ظهور الجمال عبر الصحراء النوبية إلي مصر . وكان ذلك في ديسمبر ١٨٩١م . بينما لم يتمكن رودولف سلاطين من الهرب بنفس الترتيبات إلا في فبراير ١٨٩٥م . وقد أدى هرب القس أورفالدر إلي تشديد الرقابة على سلاطين . بعد وصول القس إلي مصر سالماً ، طلبت منه الاستخبارات كتابة تقرير مفصل عن رحلته وعن الأوضاع في السودان . وكانت النتيجة هي هذا الكتاب الذي نحن بصدده . كتب أورفالدر قصته بلغته وهي الألمانية ثم قام بترجمتها ترجمة أولية من الألمانية إلي الإنجليزية موظف سوري تابع للحكومة المصرية اسمه يوسف أفندي قدسي . ثم أعاد كتابتها بالإنجليزية في صورة قصة (Narrative) ونجت باشا ، مدير الاستخبارات العسكرية في الجيش المصري ، الذي أصبح فيما بعد حاكماً عاماً للسودان .

حدثت محاولة لترجمة الكتاب إلي العربية من قبل . ففي مجلة النهضة السودانية الأسبوعية التي كان يصدرها الأديب محمد عباس أبو الريش في الثلاثينات نشر الأستاذ هاشم الكمالي ثلاث مقالات الأولى بتاريخ ١١/١٠/١٩٣١م بعنوان " أسر عشر سنين في معسكر المهدي " . والثانية بتاريخ ١٨/١٠/١٩٣١م بعنوان " أسر عشرة أعوام في معسكر المهدي " والثالثة بتاريخ ٨/١١/١٩٣١م بعنوان " أسر عشرة أعوام في معسكر المهدي " ثم توقفت المقالات . والمجلة نفسها لم تعش أكثر من سنتين ١٩٣١م و ١٩٣٢م . فقد صدر أول عدد منها في ٤/١٠/١٩٣١م وآخر عدد منها وهو رقم ٣٢ بتاريخ ١١/١٢/١٩٣٢م . وكل ما ترجمه الأستاذ الكمالي لا يزيد عن عشر صفحات من كتاب

فيه ٤٥٠ صفحة . كما أن ما ترجم كان يشوبه ضعف شديد . وأول ما يلفت الانتباه هو الخطأ في ترجمة اسم الكتاب . ففي المقالة الأولى يسميه " أسر عشر سنين في معسكر المهدي . والواقع أن الأسير أو المأسور ليست هي السنين العشر كما يبدو من الصياغة وانما هي عشر سنوات من الأسر قضاها القس في معسكر المهدي . ثم يغيِّر في المقالة الثانية والثالثة كلمة سنين إلي أعوام . كذلك يخطئ في الأسماء النمساوية والألمانية مثلما أخطأ غيره من المترجمين . فالقس هو أورفالدر (OHRWALDER) وليس أوهروالدر . وهو خطأ وقع فيه نعوم شقير في كتابه " تاريخ السودان " وكذلك الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك محقق مذكرات يوسف ميخائيل وغيرهما . وقد اضطررنا إلي كتابة اسم أورفالدر هكذا بالفاء لأنه لا يوجد لدينا حرف طباعي يقابل حرف " V " الموجود في اللغات اللاتينية حيث أن حرف " W " الموجود في اسم القس ينطق في الألمانية مثل حرف " V " .

لقد ساعدتني معرفتي البسيطة باللغة الألمانية في أن أشك في صحة نطق وكتابة كثير من الأسماء الألمانية والنمساوية الواردة في الكتاب . فبحثت الأمر مع القنصلية النمساوية والسفارة الألمانية ومع أساتذة للغة الألمانية وتوصلنا إلي تصحيح تلك الأسماء . كذلك ترجم اسم "GIEGLER" بكلمة ججلر والحقيقة أن مترجمين آخرين ترجموا هذا الاسم بطرق شتى مثل جيكلر وجيقلر . وكل هذا خطأ . فالترجمة الصحيحة هي قِيقلر . فهو ينطق بقاف يمنية كما أن القاف الأولى بكسرة مشبعة . وترجم اسم الدكتور " ZURBUCHEN " بكلمة زيربوخن والصحيح تسوربوخن . وترجمة كلمة "NIHILISTS" بأنهم الإباحيون والأصح العدميون . وترجم اسم القرية المعروفة في النيل الأبيض باسم الترعة الخضراء بكلمة (طور الخضره) . وهكذا نجد أن الأستاذ الكمالي قد وقع في أخطاء كثيرة في الصفحات التي ترجمها . ولست أدري ما سبب توقفه عن تكملة ترجمة الكتاب .

كتب ونجت باشا مقدمة قصيرة لهذا الكتاب تقع في حوالي الصفحتين . ولما لم أجد فيها إضافة جدية إلي مادة الكتاب فقد استغنيت عن ترجمتها .

هـذا ويجب التنبيه إلي أخذ معظم ما ورد في كتاب أورفالدر وكتاب سلاطين " السيف والنار في السودان " عن المهدية بحذر شديد نظراً لما عاناه الأول من شظف العيش وهو قس ومن مواطني دولة متقدمة كالإمبراطورية النمساوية وكذلك ما عاناه سلاطين وهو أيضاً من النمسا وكان حاكماً مطلقاً على دارفور . وذلك لأن معظم المعلومات السياسية التي وردت في مذكرات سجناء المهدية كانت تصب في معين الحرب الدعائية التي نظمها رئيس قلم المخابرات المصرية ونجت باشا لكسب تأييد الرأي العام البريطاني لسياسة حكومته الإمبريالية المعلنة تحت مظلة محاربة الرق والانتقام من قتلة غردون ونشر قيم الحضارة والمدنية في أوساط الشعوب البدائية ..[1] » .

« ورغماً عن هذه التحفظات فإن مذكرات سجناء المهدية تحمل بين طياتها كثيراً من التجارب الشخصية والملاحظات المفيدة[2] » التي يمكن مقارنتها ومضاهاة بعضها ببعض للتوصل إلي بعض الحقائق .

ونرى أن ما وصفه أورفالدر من حكم الخليفة بالطغيان والقسوة كان راجعاً في جزء منه إلي محاولة الخليفة الإبقاء على السيطرة على استقلال البلاد في ظروف لم تكن مواتية داخلياً وخارجياً . أولاً موت المهدي المفاجئ بعد سقوط الخرطوم وزوال الغطاء الديني الذي يعتبر أقوى محركات الثورة المهدية . ثم تهجير الخليفة للبقّارة إلي أم درمان ومحاباتهم من أجل تدعيم سلطته وإبعاد أولاد البلد أو أولاد البحر وسجن زعمائهم في أم درمان مما نفّر كثيراً من الناس من المهدية . أضف إلي ذلك المجاعة المهلكة المعروفة بمجاعة « سنة ستة « ١٣٠٦ هـ (١٨٨٩/٨٨م) التي كانت نتيجة لترك الزراعة والانشغال بالحروب وما أعقبها من كارثة الجراد . بالإضافة إلي ذلك تفتيت قوة البلاد العسكرية في تحرش بالبلاد المجاورة مثل الحبشة ومصر ومحاولة غزوهما . وذلك في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر برلين ١٨٨٥/٨٤م وتقرر فيه مصير القارة السوداء فيما عرف بالتسابق نحو أفريقيا «SCRAMBLE FOR AFRICA» الذي

---

١ - الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك في التقديم لمذكرات يوسف ميخائيل .

٢ - نفس المصدر أعلاه .

اقتسمت فيه الدول الأوروبية مناطق النفوذ في القارة وأصبح سقوط الدولة المهدية مسألة وقت . وكان آخر ما هزم الدولة المهدية والخليفة السيئ الحظ اختراع المدفع الرشاش « المكسيم » واستعماله في أول حرب في أفريقيا في معركة كرري غير المتكافئة .

هذا ونحن لا ندعي الكمال ولكن أعتقد أن واحداً وعشرين سنة في مجال الترجمة العلمية والأدبية والعسكرية قد ساعدتني كثيراً في الاقتراب من نقل الأصل نقلاً أميناً . ومع ما يمكن أن أكون قد وقعت فيه من أخطاء – وكلنا خطاؤون – آمل أن يجد هذا العمل القبول والله ولي التوفيق .

عوض أحمد محمد الضو

الخرطوم في أغسطس ٢٠٠٧م



الأب أورفالدر والراهبات

عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي

١٨٨٢ - ١٨٩٢

الأب جوزيف أورفالدر

قسيس البعثة النمساوية بالدلنج في إقليم كردفان بالسودان

رحلة الأب أورفالدر إلي السودان ووصف إقليم كردفان وجبال النوبا والبعثة النمساوية بالدلنج

مقدمة :

غادرت القاهرة في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٠م وقلبي يجيش بآمال براقة لمستقبل سعيد كأي شاب يتمنى ذلك . ولم يدر بخلدي المصير البائس الذي انتهيت إليه.

كانت مجموعتنا تضم الأسقف كمبوني والمبشرين يوهان دشتل وفرانز بمزوني وعدة راهبات . ركبنا السفينة من السويس في اليوم الأول من عام ١٨٨١ وفي اليوم الرابع من يناير نزلنا في سواكن . وكان حاكمها في ذلك الوقت علاء الدين باشا الذي أصبح فيما بعد حاكماً عاماً للسودان ورافق الجنرال هكس في حملة شيكان وقتل معه . وبعد رحلة استغرقت ثمانية وعشرين يوماً عن طريق بربر وصلنا إلي الخرطوم حيث أعجبتنا حدائقها الجميلة وأشجار النخيل الظليلة . واستقبلنا أعضاء البعثة الكنسية أمام حدائق البعثة على شاطئ النيل وعلى رأسهم الأب ألويس بونومي والقنصل النمساوي هانسل والقنصل الإيطالي ليقناني الذي استقبلنا بحرارة . كانت المدينة بأكملها في حالة احتفال بعودة الحاكم العام رءووف باشا من مدينة القضارف .

بعد نزولنا مشينا خلال الحدائق الجميلة إلي مباني البعثة . وقد تجمع هنا في الردهة الرئيسية رءووف باشا وقيقلر باشا وجيسي باشا الذي عاد من حملاته في بحر الغزال مرهقاً للغاية . كما عاد للتو كذلك سلاطين الشجاع من دارفور . وبالإضافة إلي ذلك كان هنالك ماركوبولي بك والدكتور تسور بوخن والسيد ماركيت والرحالة المتجولة في أفريقيا جين شوفر وآخرون أتوا لاستقبال الأسقف كمبوني لدى وصوله .

في الخامس عشر من مارس احتفلنا بعيد الميلاد الخمسين للأسقف كمبوني . وفي المساء تناولت الجالية الأوروبية العشاء في البعثة وتلت ذلك ليلة ساهرة . هذا ولم يدر بخلدنا في تلك الأمسية السعيدة المصير المخيف الذي خبأه القدر لمعظم أولئك المحتفلين .

وفي غضون ذلك كان قد تم تعيين سلاطين بك حاكماً عاماً على دارفور . واعتبر سلاطين أن من واجبه أن يواصل السفر بأسرع ما يمكن لتولي وظيفته الجديدة . وقبل الأسقف كمبوني دعوة سلاطين لمرافقته في السفر حتى مدينة الأبيض . وفي التاسع والعشرين من شهر مارس ركبنا الباخرة التي وضعها رءووف باشا تحت تصرفنا وذلك حتى وصلنا بلدة الترعة الخضراء . وكان يرافقنا حتى تلك البلدة ماركوبولي بك والدكتور تسور بوخن والسيد ماركيت . ومن هناك ركبنا الإبل وأسرعنا السير عبر صحاري كردفان حتى بلغنا مدينة الأبيض في الخامس من أبريل . وما إن وصلنا إلي الأبيض حتى وصلتنا برقيتان . إحداهما أبلغتنا بالوفاة المفاجئة للدكتور تسور بوخن بمجرد رجوعه للخرطوم . والأخرى وصفت اغتيال الاكسندر قيصر روسيا على أيدي جماعة العدميين (NIHILISTS) الإرهابية .

بقينا في الأبيض بينما سلاطين يضع الترتيبات لرحلته إلي دارفور . أما الأسقف كمبوني فقد قام بجولة في جبال النوبا وعاد إلي الأبيض وفيما بعد إلي الخرطوم حيث مات في العاشر من أكتوبر . وكان من رحمة الإله عليه هذه الوفاة حتى لا يرى الأحداث المروعة التي وقعت في السودان بُعيد وفاته .

غادرت الأبيض في الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨١م ووصلت إلي الدلنج بجبال

النوبا في الخامس من ديسمبر . لقد انبهرت بجمال منطقة جبال النوبا . فبينما كردفان مجرد سهول واسعة لا تتغير مناظرها كثيراً فإن جبال النوبا تمثل منطقة مختلفة تماماً. فهنا سلاسل من الجبال الرائعة المناظر تمتد في مختلف الاتجاهات وترتفع فوق السهل وتتخللها العديد من مجاري المياه . وجبل الدلنج الذي يقع فيه مقر بعثتنا من أصغر الجبال .

وأما مجموعات الجبال الرئيسية الأخرى فهي نعيمة وكورون ودوباب والداير وكدارو وتقلي وقدير والطيره حيث يوجد الذهب وذلك بجانب عدد من الجبال الصغيرة . وتقدر جميع الجبال المأهولة بالسكان بأكثر من مائة جبل .

أما السهول والوديان التي تتخلل سلاسل الجبال فهي غنية بالنباتات من كل لون ، إذ توجد الأشجار الضخمة خاصة في الخيران أو مجاري المياه كما توجد النباتات الكثيفة التي لا تخترقها أشعة الشمس . فالأرض خصبة بصورة استثنائية والأمطار غزيرة ونتيجة لذلك فإن كثافة الحشائش ، لمدة ستة أشهر من السنة ، تكاد تجعل من المستحيل عبور هذه الأودية . ولكن عند ما ينتهي موسم الأمطار وتجف الحشائش فغالباً ما يتم حرقها وبذلك تصبح السهول والوديان سهلة الاجتياز مرة أخرى . وتتدفق كمية من مياه الأمطار من هذه الجبال إلي بحيرة البركة ويتدفق بعضها نحو خور أبو حبل الذي يختفي في الرمال قبل أن يصل إلي النيل الأبيض . أما مياه الأمطار المنحدرة من الجبال الجنوبية فإنها تذهب إلي بحر العرب . وتزخر السهول بأعداد من الغزلان والزراف وبقر الوحش والخنزير البري بينما تموج الغابات بعشرات الألوف من الطيور ذات الريش الجميل والقرود من جميع الأنواع . وخلال موسم الشتاء تشاهد الأفيال كثيراً بجوار الدلنج وكذلك تكثر الثعابين ومن بينها أفعى البوا التي تقتل الفريسة بالالتفاف حولها بقوة .

إن تعداد سكان جبال النوبا الذي كان كبيراً في وقت ما لا يزيد الآن عن ٥٠٠٠٠ نسمة فقبائل البقارة المنتشرون والذين يجوبون السهول مع عرب البديرية والغديّات قد أهلكوا النوبا وأجبروا من بقي حياً على الهرب إلي معاقلهم في الجبال حيث يعيشون

حياة بائسة . وما يحميهم هو طبيعة معاقلهم التي يصعب الوصول إليها .

لقد وجدت النوبا أناساً لطيفين وذوي فطرة طيبة . وفي الحقيقة لديهم سمعة في السودان بأنهم أفضل جميع العناصر الزنجية . وهم يزرعون فقط الكميات التي تكفي لمعيشتهم من الذرة الشامية والسمسم والبقول كما توجد بإقليمهم وفرة من الفاكهة والخضراوات البرية تكاد تكفي حاجتهم إذا لم يستطيعوا زراعتها . ولديهم أعداد من الماعز والأبقار تمدهم باللبن والزبد . وهم مدمنون على شرب المريسة (وهي نوع من الجعة المحلية تصنع من الذرة) وتستهلك كميات كبيرة من هذا الشراب في احتفالاتهم وأساساً في عيد مهم يسمى " زبير " . في هذه المناسبة يشرب الرجال والنساء ويرقصون معاً . ولكن بالرغم من رفع الكلفة هذا غير المألوف ، فإنني لم أشاهد أي شيء مما قد يعتبر انتهاكاً لحرمات المجتمع . وفيما عدا " الكجور " الذي سأتحدث عنه هنا وكذلك كبير شيوخهم فإن النوبا ملتزمون بعدم تعدد الزوجات .

والنوبا يحتكمون كلياً إلي قوانينهم وأعرافهم التقليدية . ولا يتدخل الكجور إلا في حالة الضرورة . والكجور في الواقع هو نوع من الرئيس الديني وتعتمد سلطته على شعبه كلياً على مدى مهارته وحكمته . وأثناء وجودي في هذه المنطقة كان الكجور شخصاً يدعى كاكوم ويعرف باسم "كاكوم الدلنج" .

لقد مضى وقت قصير منذ أن صار للحكومة المصرية وجود في الدلنج . فقد حلت مؤخراً هنا سرية من الجنود السودانيين تحت قيادة نقيب وتم تعيينهم لمحاربة تجارة الرقيق كما أوكلت إليهم حماية بعثتنا التبشيرية .

لقد كنت سعيداً في الدلنج حيث وجدت العديد من الهوايات التي تملأ وقتي . وجدت تسلية في جمع الحشرات وقد جمعت منها في وقت قصير مجموعة كبيرة . كما كنت أقوم بسلخ الطيور والثعابين . هذا وكانت أساليب الحياة والزراعة لدى النوبا بالنسبة لي مصدر اهتمام بالغ . وإن إهداء بضع حبات من السكسك الزجاجي قد مكنتني من الحصول على العديد من الأشياء الغريبة في المقابل . وكان الأهالي يضجون بالضحك عند ما يرونني أفحص باهتمام الحشرات الغريبة التي يحضرونها إليّ .

كانت لدينا حقاً مستعمرة من السود في البعثة التبشيرية . وحينما زاد العدد صار من الضرورة توسعة السكن . لذلك بدأنا في صناعة وحرق الطوب . وحصلنا على مادة الجير من جبل صابوري (وقد أمدنا بهذه المعلومة النوبا أنفسهم) كما حصلنا على الخشب من أشجار الدليب . وبمساعدة الأب بونومي صنع نجار البعثة جبرايل ماriاني عربة بأربع عجلات يجرها بغلان قويان . وعملنا جميعاً بمرح ونشاط تحدونا الآمال فانجزنا صنع ٢٠٠٠ من الطوب الجيد . وكان السود قانعين للغاية وبعيدين من فساد المدن وغواياتها . فقد حرصوا عل مواصلة عملهم وزراعة مساحاتهم المحدودة من الأرض . وكان كل شيء يسير بصورة طيبة وكنا نتوقع نتائج عظيمة . ولكن فجأة اضطرب هدوءنا . ففي أوائل أبريل ١٨٨٢م أحسسنا في الدلنج دمدمة العاصفة الهوجاء التي ستغرق السودان بأكمله في طوفان من الدماء وتجلب البلاء والنكبات على البلاد وعلى بعثتنا السعيدة . هذا وسوف أصف هذه الأحداث في الصفحات التالية .

الباب الأول

المهدي وصعوده إلى السلطة

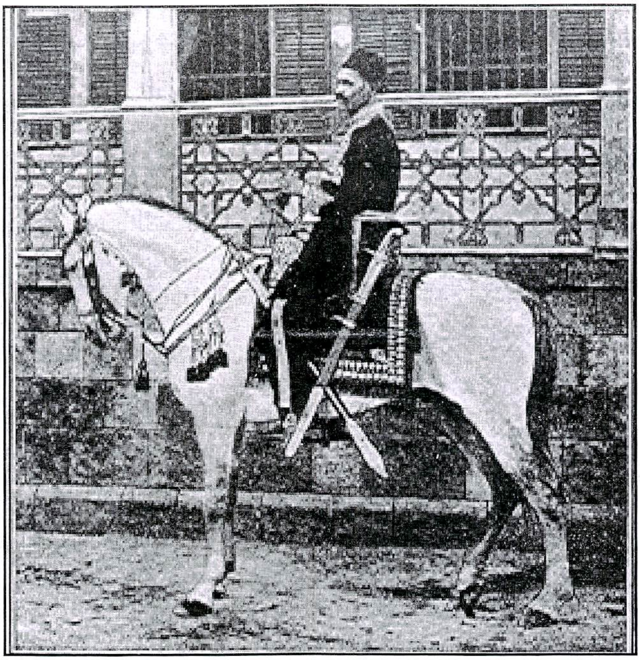
ظهور المهدي – النجاحات الأولى – مظهره الشخصي – وصف خلفائه – التنظيم العسكري – وضع القوانين الجديدة – دعوته الأبيّض للاستسلام .

قبل بضعة سنوات من الوقت الذي أتحدث عنه جذب انتباه الناس شخص سمى نفسه بالدرويش. وقد تجول في بقاع السودان في جبة درويش وناضل لدفع المسلمين للتعصب الديني وألح على أنه لم يعد هناك دافع للدين ولم تعد للعقيدة أهمية وأن هذا الانحطاط الديني يرجع إلي أسلوب الحياة المرفهة والاتصال بالمسيحيين . وقد اتبعه عدد من الشيوخ والتجار ذوي النفوذ وأقسموا ليظلوا على الولاء له . وفي هذا الوقت كان هناك في الأبيض شخص يسمى السيد المكي له سمعة كرجل تقي . وقد عمل الدرويش كل ما في وسعه لإقناعه بإتباعه ولكن السيد المكي عارض بأن الدين لم ينحدر إلي هذا المستوى من سوء السمعة وأن كل شيء سوف يتحسن إذا بني المزيد من المساجد . ولكن « الدرويش» هدده بأنه سوف يرسم خطة لإهلاكه إذا رفض إتباعه وتحت هذا التهديد أخذ عليه عهداً أن يحفظ خطته في سرية . ثم مهد الدرويش سبيله بمواصلة تجواله وهو يخطب في كل مكان ضد ظلم الأتراك وانحطاط العقيدة الحقة للمسلمين . وتحت بصر الحكومة وسمعها ألف مجموعة صغيرة من أتباعه المخلصين وذهب بهم إلي جزيرة أبا على النيل الأبيض . وهناك أعلن دعوته جهراً . وصلت إلي الخرطوم الإشاعات التي تقول بأنه يريد إثارة الناس للثورة . وكان الحاكم العام في هذا الوقت هو رءووف باشا الذي أرسل أحد أعيان الخرطوم المسمى أبو السعود إلي جزيرة أبا بتعليمات لدعوة «الدرويش» للقدوم إلي الخرطوم لمقابلة الحاكم العام . وكاد أبو السعود أن ينجح في مهمته ولولا نصيحة أحمد شريف أحد أتباع الدرويش فلربما كان الدرويش سيقبل الدعوة . وما أن علم رءووف باشا برفضه قبول الدعوة حتى أرسل سريتين من القوات إلي جزيرة أبا في نهاية يوليه ١٨٨١م بتعليمات لإحضار الدرويش بالقوة إلي

الخرطوم . وكان لدى النقيبين القائدين للسريتين وجهات نظر مختلفة وأنزلا قواتهما بطريقة في غاية الإهمال . واستدرجهم أتباع الدرويش إلي منطقة مستنقعات وهجموا عليهم وتم قتل عدد منهم بالعصي فقط . وقد أخبرني بذلك أحمد شريف نفسه . وقد أفلح بضعة أفراد في الهرب والعودة إلي الباخرة حيث عادوا إلي الخرطوم .

أحدثت هذه الواقعة إثارة عظيمة . وقد كنت في الأبيض عند ما حدثت وقد أخبرني فيقلر باشا الذي كان موجوداً بالأبيض في ذلك الوقت عن الواقعة . أرسل فيقلر باشا محمد سعيد باشا على الفور إلي النيل الأبيض بأوامر لمنع الدرويش من الهرب جنوباً ولكن محمد سعيد باشا رجع بعد قليل دون أن يفعل شيئاً . ربما لأنه لم يجرؤ على مهاجمة الثوار . وفي أثناء ذلك غادر الدرويش جزيرة أبا ونجح في الوصول إلي تقلي وصار في مأمن . من هناك توجه إلي جبل قدير واستقر في سفح الجبل . يسمي أهالي هذه المنطقة باسم كواكلا ويسكنون في قمة الجبل . وكان بحوزتهم حجر مقدس مشهور قيل إن النبي محمد (ص) جلس وصلى عليه . هنا أقام الدرويش محمد أحمد وانتظر ليرى الإجراء الذي سوف تتخذه الحكومة حياله .

في الدلنج كانت أنباء هذا الدرويش قليلة جداً ومع ذلك كان هناك حديث كثير عن معجزاته الباهرة . وقيل إن أهمها قدرته لتغيير رصاص قوات الحكومة إلي ماء . وقد نمت سمعته كصانع للمعجزات بسرعة . وكان ذلك سبب زيادة عدد أتباعه بصورة كبيرة فقد تدفق على جبل قدير الساخطون والعبيد الآبقون والمجرمون الفارون من وجه العدالة والمتدينون المتعصبون . لكن ربما كان أغلبية أتباعه من رجال عاشوا على السرقة والنهب ، وهم مؤيدو الحركة الرئيسيون . وقد أطلق الدرويش وعوداً للجميع بنيلهم لأنصبة ضخمة من الغنائم والسعادة الدائمة في الآخرة .



الزبير باشا

ولكن بالنسبة لتجار الرقيق فقد ظهر لهم محمد أحمد في صورة المنقذ وإنه يعزو نجاحه اللاحق إليهم .

فمنذ الوقت الذي وضع فيه جيسي باشا حداً لتجارة الرقيق في بحر الغزال بهزيمته لسليمان بن الزبير باشا وتشتيت قواته حسبما أخبرني كثيراً بذلك جيسي – عزا عدد من تجار الرقيق الهاربين إفقار حياتهم إلي جيسي وقد أكدوا لي ذلك فيما بعد . جميع هؤلاء الرجال من المحاربين المتعودين على جميع أنواع الشدائد والمتدربين جيداً على استخدام الأسلحة النارية والمعتادين على الحرب من جراء قتالهم الدائم للرقيق . فقد اندفعت أفواج منهم إلي الدرويش وقام هو ببذل الوعود لهم بالغنائم الوفيرة واستئناف تجارة الرقيق كما كانت من قبل . وقد كانت لمحمد أحمد قدرة على شحن هؤلاء الرجال بطاقة كبيرة من الحماس الديني المتعصب إلي الحد الذي – كما سنرى – لا يترددون في الاندفاع نحو موت محقق إثر كلمة واحدة منه . وهو يقارن بين هؤلاء

الرجال وقوات الحكومة ويبرهن إلي أي مدى أن قوات الحكومة دون مستوى رجاله . ومن ناحية أخرى فإن قوات الحكومة قد ارتكبت خطأً قاتلاً بالتقليل من شأن أعدائها . فهي تجري عملياتها بتجاهل تام للأعداء الحذرين الذين تتعامل معهم . فليس هناك مثل أكثر وضوحاً على هذه الثقة المفرطة بالنفس من الهزيمة المهينة لحملة راشد بك مدير فشودة الذي زحف نحو الدراويش دون أية تعليمات فانتهى إلي تقطيعه إرباً إرباً على أيدي الدراويش في التاسع من ديسمبر ١٨٨١م .

وكما حدثني شاهد عيان بأنه قد تم استدراج راشد بك إلي وسط غابة وهناك تمت إبادته مع رجاله حتى قبل أن يستطيعوا النزول من جمالهم حيث أخذوا تماماً على حين غرة . وهكذا كسب الدراويش نصراً مهماً وحاسماً مع عدم خسارة نسبياً على الإطلاق . وقد سقط في هذه المعركة أيضاً الألماني بيرقهوف مفتش قمع تجارة الرقيق في فشودة . فلا عجب أن مثل هذه الانتصارات قد قوت من اعتقاد الناس بأن المهدي يستطيع تحويل رصاص المصريين إلي ماء . وقد أعطى هذا الانتصار دفعة قوية للحركة . فليس فقط أن كمية من الأسلحة والذخائر والإمدادات قد تم الاستيلاء عليها ولكن النفوذ الأدبي لمحمد أحمد قد ازداد كثيراً . فقد رسخ الاعتقاد في أنه المهدي الحقيقي . اندفع الرجال للانضمام إلي رايته من جميع الجهات وكانوا مستعدين عن طيب خاطر في وضع أرواحهم في الدفاع عن دعوته .

لقد أخبرني محمد أحمد ود البدري أحد خلصاء المهدي وأتباعه الأوائل بأن هدف المهدي كان مواصلة السير إلي دار فرتيت وتنظيم ثورة كبيرة هناك ضد الحكومة . ولكن إلياس باشا ، من قبيلة الجعليين ، ومدير سابق للأبيض جادله ضد هذه الفكرة . وكان إلياس باشا عدواً لدوداً لمحمد سعيد باشا مدير الأبيض ولأحمد بك دفع الله أحد أهم تجار الأبيض . وقد انتهز هذه الفرصة ليشفي غليله بالانتقام منهما . لقد أقنع المهدي تماماً بعدم مقدرة حامية الأبيض من إبداء أية مقاومة لفترة طويلة حيث أن عدد القوات قليل وأنه يمكن الاعتماد على أن جميع السكان سوف ينضمون إليه . لقد كانت هذه النصيحة هي التي جعلت المهدي يتجه إلي كردفان .

خلال جميع هذه الفترة ظلت أعداد أنصار المهدي في ازدياد مستمر وأخيراً قررت الحكومة إرسال حملة ضده . وفي الخامس عشر من مارس ١٨٨٢م غادر الخرطوم يوسف باشا الشلالي الذي كان فيما مضى نائباً لجيسي باشا في قيادة الحملة ضد سليمان الزبير . اتجه الشلالي نحو الجنوب على رأس قوة مؤلفة من ٤٠٠٠ جندي . وكثير من هؤلاء قد فر من القوة أثناء الطريق . وفي حوالي منتصف شهر مايو غادر فشودة متقدماً نحو جبل قدير . وفي نفس الوقت كانت هناك حملة أخرى بقيادة عبد الله أخ أحمد بك دفع الله ومعه عثمان زاحفين من الأبيض على جبل قدير . وكانت هذه القوة مؤلفة كلياً من المتطوعين الذين استغرق جمعهم حوالي شهر . وكانت النقارة تدق ليلاً ونهاراً كدعوة لحمل السلاح . وكان المتطوعون مسلحين تسليحاً سيئاً . وبالرغم مما عرف عن عبد الله من شجاعة فقد غادرت الحملة بأمل ضعيف في النجاح . وبالإضافة إلي ذلك فقد وقعت حادثة كانت بالنسبة لرجال الحملة نذير شر مستطير . فبمجرد بدء القوات في التحرك سقط عبد الله من جواده وحسب الخرافات في السودان فإن مثل هذه الحادثة المشؤومة تعتبر دائماً علامة على أن الحملة سوف تواجه سوء الحظ . اتصل جيش عبد الله بجيش يوسف الشلالي ووصلت القوة المشتركة إلي جبل قدير وتحصنت داخل زريبة بالقرب من سفح الجبل . اقتربت بهدوء مجموعة من الثوار ليلاً من الزريبة وأفلحت في فتح ثغرات فيها دون ملاحظتها . وفي الصباح الباكر اندفع الدراويش إلي داخل الزريبة وهم يصيحون صيحات مفزعة وانقضوا على القوات الحكومية التي فزعت من مفاجأة الهجوم ولم تقدم إلا مقاومة ضعيفة .وتم التغلب عليها بسرعة ووقعت فريسة لحراب الدراويش القاتلة . عبد الله وحده أبدى مقاومة باسلة وقاتل بضراوة ولكنه سقط أيضاً في النهاية . ولم ينجح إلا قليلون في الفرار إلي فشودة . وكان أمين بك الذي كان هناك في ذلك الوقت في طريقه إلي المديرية الاستوائية أول من تلقى الأنباء الحزينة . وقد وصف لنا شاهد عيان وقائع هذه المجزرة التي حدثت في السابع من يونيه ١٨٨٢م .

والآن صمم المهدي على حصار الأبيض وهي خطوة رحب بها عن قناعة جميع أنصاره

. وتجمعت أعداد غفيرة من قبائل عرب دار حامد والغديات والبديرية في البركة التي تصبح في وقت الشتاء بحيرة كبيرة تتجمع حولها قرى عديدة .

في يوليه ١٨٨٢م أرسل محمد سعيد باشا الرائد نسيم وعثمان أخ عبد الله الذي قتل في قدير على رأس قوة تبلغ ١٥٠٠ رجل ومعهما أوامر بتشتيت العرب . وبعد مقاومة عنيفة هزم نسيم العرب ولكن بعد أن تكبد خسائر فادحة وكان عثمان بين القتلى . وعاد نسيم فيما بعد إلي الأبيض .

وفي هذه الأثناء توالى سقوط الحاميات العسكرية في كردفان الواحدة تلو الأخرى على أيدي أنصار المهدي . ففي يوليه قام الفكي رحمه على رأس عرب الجوامعة بمهاجمة أشاف (ASHAF) والاستيلاء عليها وتسويتها بالأرض . وهنا ارتكبت فظائع ولم تنج امرأة وحتى من كانت حبلى فقد شقت بطنها وتلقوا الطفل برأس الرمح . وفي الثامن من أغسطس قام ود المكاشفي بالاستيلاء على شات وتدميرها واقتحم الفكي المنّة قرية الطيارة واستولى عليها وقتل جميع من فيها . وبذلك أصبحت بارا والأبيّض المدينتين الوحيدتين في جميع مديرية كردفان التي ما زال يرفرف فوقهما العلم المصري . وأصبحتا تدريجياً مطوقتين وتفيع بداخلها روح الخيانة وتم بث دعاية المهدي سراً في عقول متفتحة للقبول . وفي الأبيض كان إلياس باشا العميل الأكثر نشاطاً . وقد أرسل إليه المهدي الميداليات والساعات وغيرها من الأشياء الثمينة التي استولى عليها في قدير وذلك مع أوامر لبيعها في الأبيّض .

أصبح المهدي الآن رجلاً يبعث اسمه الرعب في المصريين وأصبح الطريق إلي الأبيّض ممهداً أمامه . وعند ما رأى كيف أنه صعد بسرعة إلي السلطة فلا شك أنه قد أيقن بأنه المهدي الحقيقي الذي أرسله الله لتنفيذ هذه الثورة العظيمة . كما أن الإطراء المبالغ فيه من قبل أتباعه العديدين قد قوى إيمانه بهذه الفكرة . وليس في غير محله أن نذكر هنا بضعة ملاحظات عن خلفيات المهدي .

ينتمي محمد أحمد إلي قبيلة تعرف باسم الدناقلة وهم سكان مدينة دنقلا وهم معروفون في السودان بأنهم أذكى تجار الرقيق وأقواهم عزيمة . وقد شيدوا العديد من

البزرائب على النيل الأبيض وبحر الغزال وأنه بواسطة وسائلهم عرف هذا الإقليم لأول مرة . وفي دارفور كانوا دائماً يحتلون مناصب الوزير الأول أو الوزراء لدى السلاطين . وحتى الوقت الحاضر فإن رئيس وزراء سلطان البرقو دنقلاوي . وبالرغم من قدراتهم فإن الدناقلة محتقرون نوعاً ما في جميع أرجاء السودان . ولم ينسبهم المهدي إلي الأشراف إلا فيما بعد . وقد تم تقدير سن محمد أحمد عند وفاته بحوالي خمسة وأربعين عاماً . وعلى ذلك يكون لا بد أنه ولد في حوالي سنة ١٨٤٠م . ويبدو أن والده جاء إلي السودان وهو صغير جداً وأرسل ابنه إلي " المسيد " أو الخلوة القرآنية في منطقة كرري . ومما سمعته لا شك أن محمد أحمد الصغير قد أظهر في تلك السن المبكرة علامات على طبيعة دينية متعصبة عنيفة . وبعد سقوط الأبيض جاء مدرسه السابق محمد شريف نور الدائم لمقابلته وقد استقبل من قبل تلميذه السابق بكثير من التجلة كما رتب له على الفور راتباً شهرياً .

قضى محمد أحمد شبابه الباكر في تعلم القرآن . وفيما بعد عاش حياة الدراويش متنقلاً من مكان إلي آخر يوزع الأحجبة ويكتب في قطع صغيرة من الورق أدعية بكلمات غريبة يفترض أنها تحمي حاملها ضد جميع الشرور والأمراض التي يتعرض لها البشر . ومن خلال الدراسة المستمرة وإتباع حياة التقشف اكتسب مقدرة على الخطابة مما جلب له سمعة عظيمة بين طبقات غير المتعلمين والمؤمنين بالخرافات الذين يعمل بينهم . وقبل أن يجهر بدعوته اعتزل لبعض الوقت في كهف حيث انقطع للصلوات . وقد كانت شهرته كرجل تقي واسعة لدرجة أن المراكب وحتى بواخر الحكومة كانت تتوقف وتطلب بركاته أثناء رحلاتها وكان يتلقى هدايا قيمة في المقابل . وكما ذكرت من قبل فإنه لم يجهر بدعوته إلا بعد أن أعد الأرضية بخطب الوعظ أثناء تجواله .

كان مظهره الخارجي جذاباً بصورة غريبة . كان رجلاً قوي البنية داكن البشرة وعلى وجهه دائماً ابتسامة لطيفة عوّد نفسه عليها بطول الممارسة . وتحت هذه الابتسامة تلمع مجموعة من الأسنان البيضاء المفلّجة . وفي وسط السنّين العلويين فلجة تعتبر في السودان علامة على أن صاحبها سيكون محظوظاً في حياته . وكذلك طريقة حديثه

أصبحت بالتدريب لطيفة وحلوة بصورة غير مألوفة . وكرسول من الله حسب ادعائه فإنه على اتصال مباشر مع الإله . ومن المفترض أن جميع الأوامر التي يصدرها قد أتت إليه عن طريق الإيحاء وبذلك يصبح إثماً عدم إطاعتها . ويصبح عصيان أوامر المهدي مما يرقى إلي مقاومة إرادة الله ولذلك فعقوبته الإعدام .

وقد سمى نفسه مهدي الله خليفة الرسول بينما أنصاره يسمونه بكلمة " السيد " فيقولون : سيدنا المهدي أو سيدنا الإمام . وقد حاول المهدي تقليد وإتباع خطى النبي في كل تصرف .

وهكذا فقد جعل هجرته إلي قدير وهناك عيّن خلفاءه الأربعة وكان أولهم الخليفة عبد الله الذي اتخذ لقب خليفة أبي بكر أو خليفة الصديق . وهو ينتمي إلي التعايشة وهم فرع من قبيلة البقارة . وبواسطة نفوذه انضم التعايشة والرزيقات وحمر البقارة إلي دعوة المهدي . هذا وقد اتفق على أن يتولى الخليفة عبد الله في حالة وفاة المهدي .

الخليفة الثاني هو علي ود حلو زعيم قبيلتي دغيم وكنانة القويتين وهو أيضاً ساهم إلي حد كبير في نجاح المهدي . والثالث هو محمد شريف ، دنقلاوي وصهر المهدي . وقد أطلق عليه لقب شريف بوصفه عضواً في عائلة المهدي . وهو ممثل الجلابة أو (التجار) وسكان الجزيرة وبربر ودنقلا . ومحمد شريف في الواقع هو آخر خليفة لأن الخليفة الرابع لم يتم تعيينه قط . فالمهدي عرض على ابن الشيخ السنوسي لقبول المنصب حيث حاول استمالة مصر إليه بنفوذ السنوسي ولكن رفض العرض . ونتيجة لذلك لم يتم ترشيح شخص آخر لتقلد المنصب بالرغم من أن الإتباع الأكثر طموحاً قد بذلوا جهوداً جبارة للحصول على هذا المنصب المغري . ومن نافلة القول أن نضيف أن العديد ممن سعوا إلي هذا التشريف قد زج بهم في السجن بوصفهم منافسين محتملين . الخليفة عبد الله الآن في حوالي الثالثة والأربعين . بشرته برنزية داكنة عليها آثار الجدري . وجهه ينم عن الذكاء وهو رجل ممتلئ بالطاقة الحيوية . وهو موهوب بالفطرة بحسن الإدراك وهو لم يتعلم ولا يستطيع القراءة أو الكتابة . أما الخليفة على فهو أميل إلي القصر . ولو كان أطول قليلاً لكان رجلاً حسن المنظر . بشرته محمرة وله لحية كبيرة

وقد تعلم في الجامع الأزهر بالقاهرة وله معرفة كبيرة بالفقه الإسلامي وهو الآن دون الأربعين وينبغي أن يخلف عبد الله . أما الخليفة شريف فلا تزيد سنه الآن عن واحد وعشرين عاماً .

هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم القادة العموميون للجيش وكان لكل قسم من الجيش شاراته المميزة له والخاصة به بينما لم تكن للمهدي نفسه شارات عسكرية مميزة أو علم أو طبل للحرب (نحاس) . فكل خليفة لديه عساكره الخاصون الذين يطلق عليهم اسم " الجهادية " أو العساكر النظاميون وكذلك لديه الخيّالة حملة الرماح . وجميعهم من القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة المعني . ولدى كل واحد منهم أيضاً رايته المميزة . فالخليفة عبد الله له الراية الزرقاء (السوداء) والخليفة علي ود حلو له الراية الحمراء . والخليفة شريف له الراية الخضراء . وبالإضافة إلي ذلك لدى كل خليفة طبل للحرب مصنوع من النحاس ويسمونه لذلك " النحاس " تمييزاً له من الطبل العادي الذي يسمى " نقّارة " وهو يصنع من الخشب وتشد عليه قطعة من الجلد . ولدى الخليفة عبد الله أيضاً ما يسمى " أمبايه " وهو بوق مصنوع من ناب الفيل المجوف يحدث بالنفخ عليه صوتاً عالياً مدوياً ومؤثراً .

فجميع قوات المهدي موزعة هكذا إلي ثلاثة أقسام تحت راياتها المذكورة وكل خليفة يقود بالفعل قسمه من الجيش . فالمهدي والخليفة شريف يمثلان مجموعة الجلابة الذين يعرفون باسم أولاد البلد أو أولاد البحر لأنهم يسكنون على ضفاف النيل في مقابل مجموعة البقّارة أو عرب البقّارة الذين يمثلهم الخليفة عبد الله والخليفة علي ود حلو . فالمجموعة الأولى هي الأكثر اقتداراً والأكثر عدداً ولكن كما سنرى فإن مجموعة الخليفة عبد الله بسبب قائدها ذي الطاقة الحيوية الهائلة فقد كسبت في النهاية جولة الصعود إلي السلطة . ولدى كل خليفة عدد من الأمراء تحته وجميعهم لديهم رايات مختلفة . وهذه الرايات بسيطة جداً ولا تحتاج إلي عمل كثير . فهي من ألوان مختلفة وعلى كل منها عبارة " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " مع إضافة " محمد أحمد المهدي خليفة الرسول " . وهذه العبارة الأخيرة موجهة بصورة خاصة ضد سلطان

تركيا الذي يدعي هذا اللقب . وفيما بعد عملت الرايات لتمثل عدداً معيناً من الجنود . فمثلاً في الأيام الأولى للثورة أصبح لقب عبد الرحمن النجومي " أمير الأمراء " وذلك لأنه في البداية كان يقود ما بين ٢٠٠٠ إلي ٤٠٠٠ من الجنود وثانياً لأن هؤلاء الجنود كانوا يتقاضون رواتب ثابتة ومنتظمة . وهذه الرواتب تأخذ طريقها إلي جيوب الأمراء . لكن مؤخراً صار كثير من الأمراء يقود خمسين جندياً فقط . ويعاون الأمير عدد من المقدمين وكل مقدم له أيضاً مساعد .

وهكذا نظم المهدي القوة التي أخضع بها السودان . ولم تكن له معرفة أو نظام للتدريب على الإطلاق ولكن لديه وفرة في الرجال . وبما أنه تبنى القول المأثور " نخرب الدنيا ونعمر الآخرة " كشعار له فلم يفكر في الإبقاء على حياة رجاله ولكن بالأصح حرض على أنه بموتهم فإنهم يذهبون إلي الجنة مباشرة . ولذلك خطته هي أن يهاجم بأعداد هائلة وصرخات همجية وألا يضع حساباً لأية خسائر . ومؤخراً في " أبو كرو " بصحراء بيوضة أطلق الأنصار الصيحات بشراسة آملين بذلك إخافة الإنجليز ولكن قائدهم النور عنقرة حاول منعهم من ذلك بإبلاغهم أنهم إذا استمروا في الصيحات فإن الإنجليز سوف يضحكون منهم سخرية . وبالرغم من تكتيكاته الجريئة فإن المهدي لم يتردد في ممارسة أي نوع ممكن من الخداع والكذب . وبالفعل فإن معظم نجاحاته الأولى قد حققها بهذه الوسائل . وفي بداية الثورة كان استعمال الأسلحة النارية ممنوعاً فالعصي والحراب شكلت الأسلحة الوحيدة حيث كان هدف المهدي في هذه الحالة أن يقتفي أيضاً خطى النبي الذي كسب جميع انتصاراته بدون أسلحة نارية .

لم يخفف المهدي أية درجة من حماسه الديني بينما كان يعد للحرب . فهدفه الأساسي أن يكون مصلحاً دينياً وأن الدعوة إلي الإصلاح عهدت إليه بمهمة تطهير الدين الذي دنسه الأتراك وإعادته إلي نقائه الأصلي . ولذلك صاغ كثيراً من الأوامر الصارمة . فاستعمال المشروبات الكحولية التي يدمن عليها السودانيون كثيراً ممنوع بتاتاً وأية

مخالفة لهذا الأمر يعاقب عليها مرتكبها بستين جلدة بالكرباج[1]. وأما التدخين ومضغ التبغ وهي عادة شائعة كثيراً بين السودانيين فهو أيضاً ممنوع قطعياً . وأما استعمال الحشيش الذي يدمن عليه الأتراك والمصريون فهو محظور كلياً . وعدم إطاعة هذا الأمر يعاقب عليه بثمانين جلدة . وغالباً ما تتبع ذلك الوفاة قبل إتمام عقوبة الجلد ولكن ذلك لا يمنع إكمال عدد الجلدات دائماً . وإذا عاش أي شخص بعد نيل العقوبة فإنه يعتبر قد تطهر خارجياً وداخلياً . وكذلك أية كلمة سباب غير ضارة مثل كلمة « كلب » يعاقب عليها بسبعة وعشرين جلدة . وهذه العقوبة تسمى « حق الله » وقد كانت تطبق في عهد النبي . وكان لكي يجعل تطبيقها خفيفاً حقاً أمر بتغطية الجزء الأعلى من ذراع وكتف منفذ العقوبة بجلد الإبل ولا يحرك إلا ساعده فقط أثناء تنفيذ العقوبة . فالعلامة على أن العقوبة قد نفذت بصورة صحيحة هي عدم تحرك جلد الإبل من مكانه في أعلى الذراع والكتف أثناء تنفيذ العقوبة . لكن المهدويين كانت لهم وجهة نظر أخرى في المسألة . فهم يرون أن الطريقة الصحيحة الوحيدة لتطبيق « حق الله » هي إهراق الدم بغزارة .

وقد أصدر المهدي أوامر أخرى جديدة فيما يتعلق بالزواج فحتى الآن في السودان وفي بلاد الشرق عامة فإن حفل الزواج تصاحبه حفلات كبيرة . فقد جرت العادة على أن يحصل والد الفتاة عند خطوبتها على أكبر قدر ممكن من المال في مقابل ذلك . وهذا هو السبب في أن الآباء يفضلون كثيراً البنات على الأولاد لأنهم يحصلون على ثروة من زيجاتهن . ولكن المهدي غيّر كل هذا وأمر بألا يصرف الزوج أكثر من عشرة ريالات . وذلك بالإضافة إلي تقديم قُرباب[2] وثوب وعطور ودهانات لشعر العروس . ونوع آخر من الدهان[3] يحبه السودانيون كثيراً ويستعمل عموماً لدهان جسد العريس . وعليه أيضاً أن يقدم للعروس زوج حذاء . ومراسم الخطوبة والزواج بسيطة للغاية . فعندما يتم إبرام

١- سوط من جلد فرس البحر

٢- إزار

٣- الدلكة

العقد ويقوم العريس بتسليم الأشياء المذكورة أعلاه فإن أصدقاءه وأقاربه يتجمعون عموماً في يوم جمعة أو اثنين (وهما يعتبران يومان مباركان) . وبعد وليمة جيدة فإن « الفكي[4] » يسأل العروس أو من ينوب عنها إن كانت موافقة على الزواج كما يسأل العريس نفس السؤال ولا بد أن يذكر اسم المهدي في ذلك وبذلك تنتهي المراسم . ويعلن إتمام الزواج بزغاريد النساء . والنساء الشابات ممنوعات من قبل المهدي بالخروج كاشفات الوجوه . وتعتبر المرأة غير المنقبة بأنها عارية . ولكن إذا كانت تلبس الخمار ولكن باقي جسمها غير مغطى فليس في ذلك جريمة . ويمنع منعاً باتاً لبس حلي الذهب والفضة وصوف الماعز المجعّد الذي يلصق مع الشعر بالصمغ كعادة بعض النساء السودانيات آنذاك . والويل للمرأة التي تزيّن نفسها بهذه الطريقة . فلا ينزع شعرها المستعار بالقوة بل كذلك شعرها الحقيقي .

لقد برر المهدي جميع هذه البدع برسالته الإلهية . فقد أعلن بأنه آخر الأنبياء وأن نهاية العالم قد اقتربت . كذلك ذكر بأن عيسى عليه السلام سوف يظهر أثناء حياته هو . وأن جميع العالم سوف يعتنق الإسلام ولذلك حث الناس على التوبة والصلاة وأن يبذلوا الجهد لمناصرة الجهاد . وتقول تعاليمه لماذا يسعى الناس وراء الثراء بينما العالم سينتهي في وقت قريب ؟ إن من السهل أن نرى كيف أن مثل هذه التعاليم سوف تؤدي في النهاية إلي المجاعة والخراب . وقد منع المهدي كل بكاء أو عويل على الميت على أساس أن من يموت في مثل هذه الأوقات كالوقت الحاضر مؤيداً دعوة المهدي فإن ذلك يعتبر شرفاً وثواباً ويضمن لصاحبه الجنة حتماً . وأما أولئك الذين لم يسعدهم الحظ ليموتوا في عصره فإن المهدي يحثهم على إبداء احتقارهم لملذات هذه الحياة بمداومة الصوم والصلاة والاستغفار . وإذا كان شخص يعاني من الجوع فإنه ينصحه بشد « الكرّابة[5] » بينما ينصح أنصاره الأكثر تعصباً بربط حجر ثقيل على المعدة . كذلك أمر

٤- الفقيه

٥- الحزام

بلبس أكثر الثياب المهلهلة الممزقة والمشي حفاة أو يلبس « الشقيانة[6] » . وتقليداً للمثال النبوي ينبغي اختيار الأرض الصلبة للنوم عليها . وقد أصدر تنظيمات غريبة لتصنيع الجبب (والجبة هي زي الأنصار) فيجب أن تصنع من الدمّور[7] » وإذا تمزقت فيتم إصلاحها برقع جديدة أو خرق قديمة ولكن على ألا يتم لبس جبة جديدة بأية حال من الأحوال .

جميع هذه البدع التي بنيت على دوافع دينية قصد منها فرض الوحدة والتماسك بين أنصاره وفي نفس الوقت لها تأثير في جعلهم أصلب عوداً لمواجهة مخاطر الحرب دون شكوى . فالمهدي قد فهم تماماً أنه طالما أصبح الناس أغنياء فإنهم يخشون الموت وأن أسلوب الحياة المرفهة المريحة هو أسوأ تدريب ممكن للحرب . كان المهدي يقيم الصلوات دائماً في مكان عام . وقد اعتبر أنصاره أن من يصلي خلفه من المحظوظين السعداء . وتبعاً لذلك عند ما يصلي المهدي يهرع أنصاره بالآلاف ويصطفون خلفه في صفوف طويلة منتظمة وعند ما تنتهي الصلاة كان من عادته أن يدلي بحديث ديني يشرح فيه العديد من الفقرات من الكتب الدينية ويجادل بأنها تشير إلي الرسالة الإلهية المتعلقة ببعثته وتدمير الأتراك والمشركين . وكان الناس الذين يخاطبهم جهلة وأميين بحيث أنهم صدقوا دون أدنى ريب كل كلمة قالها . فهؤلاء هم البسطاء الذين لا يعرفون المكر وقد خدعهم المهدي كلياً . ولكن كان هناك آخرون عرفوا تماماً أن كل كلمة قالها كانت كذباً ومع ذلك استمعوا إليه ولكي يتملقوه أبدوا اهتماماً واضحاً بدعوته الجديدة .

وهكذا لما جهز المهدي نفسه كما رأينا وبعد أن انتصر على قوات المصريين ثلاث مرات أخلى الآن ملجأه في قدير وانطلق نحو كردفان التي قصد إلي إخضاعها تماماً . ولكي يؤمّن تراجعه في حالة الفشل فقد ترك عمه الشريف محمود مع بعض القوات في قدير حيث ترك أيضاً المدافع لأن نقلها في ذلك الوقت من السنة صعب للغاية نظراً لأن

٦- الصندل

٧- نسيج خشن من القطن يصنع محلياً باليد

الأمطار قد ملأت الخيران والوديان . كذلك ترك وراءه الأسلحة التي استولى عليها من الأتراك . وحتى هذا الوقت لم يكن قد جمع كمية كبيرة من الأموال وعانى كثيراً من ضيق الحال في قدير .

عند ما أعلن المهدي تحركه من قدير كتب رسائل إلي القبائل وبسرعة هرعوا بأعداد كبيرة للانضمام إلي راياته من جميع الجهات . البقّارة من سهول ديار النوبا والمسيرية ودار أبو دالي وعرب الحوازمه . وتجمعت هذه الحشود حسب أوامر المهدي في « بركة » . كذلك جاء إلي هذا المكان عرب البديرية والغديّات ودار حمر بينما في الجانب البعيد من الأبيض كان الفكي المنّة القاسي القلب يجمع عرب الجوامعه وعساكر أبو كلام ودار جِمع وكان يهدف بذلك مهاجمة الأبيض من جهة الشمال في نفس الوقت الذي يهاجمها فيه المهدي من الجنوب . إن الإشاعات بوجود كميات هائلة من الأموال مخزونة في الأبيض قد ضللت حشود الأعراب . ومما لا شك فيه أن المدينة ما كانت لتسقط إذا ظل السكان موالين للحكومة . لقد حفر سعيد باشا خندقاً وزاد من تعلية الأسوار حول المدينة ولكن خط الدفاع هذا كان طويلاً يحتاج إلي ٢٠,٠٠٠ رجل على الأقل لحراسته . وبجانب ذلك فإن الخندق لم يكن عميقاً أو عريضاً بصورة كافية ولم يشكل عقبة صعبة العبور .

بعث المهدي من البركة بثلاثة رسل إلي محمد سعيد باشا يطلب منه الاستسلام والاعتراف به كمهدي . وفي حالة رفضه توعده بالهلاك العاجل . جاء الرسل الثلاثة وهم يلبسون جببهم المتسخة الممزقة فأدخلوا على اجتماع فيه جميع أعيان الأبيض ولكن بالرغم من مظهرهم القذر كان سلوكهم فيه كثير من التعالي وسوء الأدب . وقام محمد سعيد باشا بالرغم من نصيحة عدد من الحاضرين الذين كانوا في الحقيقة في تحالف مع المهدي بإصدار أمر إلي إسكندر بك بإعدامهم على الفور . وتم تنفيذ الأمر وفي لحظات تدلت جثثهم من حبال المشنقة .

لو أن محمد سعيد باشا كان قد اتخذ إجراءات صارمة في التعامل مع بعض أعيان المدينة لكان أنقذ الأبيض . وقد حثه أحمد دفع الله وهو مؤيد مخلص للحكومة أن يضع

جميع المشتبه فيهم بما فيهم هو نفسه في الأغلال بالمديرية . فبذلك يتم التخلص من إلياس باشا ومحمد ود العريق وحاج خالد وبانقا وسوار الدهب . وكان من المحتمل بمجرد أن يرى عامة الناس أن زعماءهم قد أبعدوا أن يعودوا إلي سابق ولائهم للحكومة . ولكن محمد سعيد باشا رفض قبول الاقتراح وبدلاً من محاولة كسب عدوه اللدود إلياس باشا فقد زاده نفوراً بالاستيلاء على منزله الجديد الذي بناه قرب المديرية وسلمه إلي عدو إلياس اللدود أحمد دفع الله ليسكن فيه وبذلك أبدى عدم اعتبار تام لإلياس باشا . والآن فرصة إلياس باشا للانتقام لنفسه من عدويه الاثنين . كانت حامية الأبيض ضعيفة بصورة غير عادية . وقد أرسلت إليها تعزيزات غير كافية من الخرطوم تحت قيادة محمد باشا الخبير . ولكن لما كان هو أيضاً عدواً للمدير فقد التحق بالمهدي كما سأروي في الباب التالي .

الباب الثاني

الأب أورفالدر وزملاؤه أخذوا كأسرى

العاصفة تهب على جبال النوبا – بدء البقَارة في الإغارة – كاكوم - كجور الدلنج – الملك عمر يحاصر الدلنج – حراس الرقيق يهجرون - البعثة – القسس والراهبات يستسلمون ويرسلون إلي المهدي.

لنترك المهدي الآن في البركة وسوف أعود الآن لسرد الأحداث التي ألمت بنا في جبال النوبا .

كما ذكرت من قبل فإن أول دلالة على الثورة ظهرت في هذا الجزء من البلاد في أبريل ١٨٨٢م . عند ما استقر المهدي في قدير فإن صيادي الرقيق الذين تعطلت مهنتهم بفعل الحكومة والذين اغتاظوا كثيراً نتيجة لذلك كانوا ضمن أوائل الذين انضموا إلي المهدي . وكان أشهر تاجر رقيق في ذلك الوقت هو إسماعيل ود الاندوك من بلدة هبوبة الذي انتهز الفرصة عند ما كانت الحكومة تجمع القوات لمهاجمة المهدي إذ جمع ١٦٠٠ من الرجال وقام بغارة لصيد رقيق غلفان نعيمه . وكان قد أحرق أكثر من مائة بيت وقبض على ساكنيها . وفر بعض النوبا المساكين ووصلوا ليلاً إلي الدلنج واستعطفوا مفتش تجارة الرقيق روفيرسي طالبين النجدة . وقد وعدهم روفيرسي بالمساعدة واستخدم جميع ما لديه من حجج الإقناع لحث النقيب محمد سليمان على الموافقة لتقديم المساعدة . وفي الحقيقة لم تكن المخاطرة بسيطة في الزحف بثمانين رجلاً فقط وهو العدد الذي استطاع روفيرسي جمعه لمهاجمة هذه العصابة القوية من اللصوص . على أية حال فقد وضعنا ثقتنا في الله وطلبنا مباركته لمساعينا الرحيمة . وغادر روفيرسي في ذلك المساء ومعه النوبا المزعوبون كأدلاء . وتستغرق الرحلة من الدلنج إلي غلفان نعيمه حوالي عشر ساعات ولكن روفيرسي سار سيراً حثيثاً أثناء الليل فوصل إلي هناك مع انبلاج الفجر وأخذه النوبا إلي جبل عال حيث رأي هناك معسكر العدو بأكملة دون أن يروه . وفي الحقيقة كان قريباً جداً بحيث يسمع صهيل الخيول وثغاء الأغنام . وبعد أن

أخذ الرجال قليلاً من الراحة استعدوا للهجوم وبعد بزوغ الفجر بقليل أعطى روفيرسي الإشارة للهجوم بنفخ البوق . ولما كان العدو قد أخذ تماماً بالمفاجأة فلم يفكر إلا في الفرار . وكانت الطلقات تأتي من كل اتجاه فلم تعط العدو وقتاً للتفكير أو التأكد من أي اتجاه تأتي أو كم من أفراد العدو يواجهون . فروا بأسرع ما يستطيعون تاركين وراءهم جميع الرقيق والماشية التي استولوا عليها وكذلك عدداً من نسائهم . وسرعان ما أصبح رجال روفيرسي سادة الموقف ورحب بهم النويا المغاثون بكل تعبير عن الفرحة والسرور . وأما النويا الأخرون الذين فروا إلي الجبال عادوا ونزلوا وقطعوا طريق الانسحاب على العرب . هذا وقد استولى روفيرسي على كمية كبيرة من الغنائم وتلقى أحر الشكر من الأسرى الذين أنقذهم . وسرعان بعد ذلك ما أطلق سراح عدد من النساء اللائي أسرهن . وقد أثبت العدد الكبير من البقر والضأن الذي تم الاستيلاء عليه من العرب في هذه الحملة بأنه لا يقدر بثمن أثناء حصار الدلنج الذي تلا هذه الأحداث بفترة قصيرة . لقد عادت القوة الصغيرة أدراجها محملة بغنائم من كل صنف ونوع واستقبلت من السكان بكل مظاهر الفرح . كان هذا على أية حال آخر انتصار لنا .

ينبغي عليَّ الآن أن أعطي وصفا مختصراً للدلنج قبل متابعة سرد الأحداث التي وقعت هناك فيما بعد . تقع الدلنج على مسيرة خمسة أيام جنوبي الأبيض وهي على واحد من أصغر سلاسل الجبال . ويتألف جبل الدلنج نفسه من خمس قمم وهي تتدرج في الانخفاض من الجنوب إلي الشمال . وأعلى نقطة حوالي ١٥٠٠ قدم فوق السهل . وتشكل هذه الجبال الخمسة مجموعة رائعة المنظر . وتتكوم كتل حجر الجرانيت الضخمة فوق بعضها تاركة فجوات كبيرة فيما بينها مما يشكل مأوى للنمور وغيرها من الحيوانات المفترسة . والمطر الذي ينزل مراراً قد جرف جميع التربة تاركاً وراءه فقط الصخور العارية واقفة في هذه الأكوام الضخمة . ومن أعماق الشقوق بين الصخور ينمو نوع من أشجار التين البري التي تعطي ظلاً طيباً وتخفف بذلك من منظر الصخور العارية . ومن هذه الجبال الخمسة هناك جبلان فقط مسكونان . وفي كليهما لا يوجد أكثر من ألفين (٢٠٠٠) من السكان وهم مشهورون بطول القامة والرشاقة والشجاعة

الخارقة . وتقع بعثتنا الكنسية الصغيرة عند سفح الجبل الواقع في أقصى الشمال ، بينما تقع زريبة العساكر المسيّجة بسياج خشبي عند سفح الجبل الواقع في الجنوب الشرقي . ونحو الغرب والشمال وبالقرب من مباني البعثة تنتشر قرى النوبا ممتدة من سفوح الجبال إلي قمتها .

يسكن النوبا وكجورهم كاكوم الجبل الثاني من ناحية الشمال الذي يبعد حوالي ٦٠٠ ياردة من الجبال الأول . كان كاكوم في ذلك الوقت في حوالي الخمسين من العمر . وهو ذو مظهر آسر ويحترمه السود احتراماً كبيراً . وقد اعتاد أن يلبس بنطلوناً واسعاً أبيض وجلابية وعلى رأسه طاقية مطرزة تطريزاً جميلاً ويتدلى منها زر كبير مثل زر الطربوش . وقد صنعت له الراهبات هذه الطاقية . لقد قضى أيام شبابه في الإسكندرية كجندي وقد أخلي سبيله بصورة عجيبة ككجور ليس فقط للدلنج ولكن أيضاً للتلال المجاورة . وقد اعتاد عدد من الناس المجيء إليه وطلب التبريك والنصح . وعند ما وصل أسقفنا كمبوني إلي الأبيض كان هو هناك ليطلب منه إرسال مبشرين لتعليم أهله وليصنع منهم رجالاً . لقد ظل دائماً مخلصاً وموالياً للحكومة . وعند ما حلت بنا الأيام الصعبة كان شعاره الدائم « إيد أفندينا طويلة » ويعني بذلك أن سلطة الخديوي عظيمة .

كان يقيم في الجبل الثالث شخص يسمى دقمان وله مجموعة صغيرة من الأتباع وهم في الغالب يميلون إلي الدعوة المهدية . في ذلك الوقت لم يكن هذا الرجل مصدر خطر وظل الناس في الجبلين الآخرين موالين لنا . وعند ما رفعت البلاد بأكملها السلاح ضد الحكومة كان إخلاص وولاء هؤلاء النوبا المساكين هو الاستثناء . وكانوا يمكن أن يقاتلوا دفاعاً عنا إذا كان في ذلك فائدة أو أننا اعتبرنا ذلك ضرورياً .

إن الأعداء الذين كنا نخشاهم كثيراً هم البقّارة الذين يسكنون سهول النوبا ومركزهم السنجكاية التي تقع على مسيرة ست ساعات شمالي الدلنج . لقد التحق رجال القبيلة هؤلاء بالثورة منذ البداية وقطعوا اتصالاتنا بالأبيض ونظموا أنفسهم في وحدات من ١٥٠ إلي ٢٠٠ فارس على ظهور الخيل وقاموا مراراً بغارات على السكان في المناطق المجاورة للدلنج . وهم يظهرون فجأة راكضين بخيولهم بأقصى سرعة ويختفون كذلك

فجأة بعد التدمير أو الاستيلاء على كل شيء في طريقهم . وكانت غاراتهم موجهة أساساً نحو النوبا الذين يعملون في حقولهم وعلى نسائهم وهن يحملن الماء من الآبار . وقد ظهر هؤلاء اللصوص – الدراويش – لأول مرة في الثامن من أبريل ١٨٨٢م إذ انطلقت صيحة تنبيه إلي الخطر من سكان الجبال وتردد صداها بين الجبال مئات المرات .

فر كل واحد إلي الجبال وحتى الأبقار هربت بغريزتها نحو حظائرها . بعض النوبا تمت مهاجمتهم وقتلهم في الغابات كما قتل اثنا عشر عسكرياً كانوا يراقبون إبلهم وهي ترعى ونجا واحد بجروح بليغة في الظهر . وأخذ المغيرون جميع الإبل . وعند ما اختفى البقّارة ، نزل النوبا من قمم الجبال إلى مسرح الغارة . وعند ما وجدوا جثث القتلى أخذوهم إلي قراهم بين بكاء وعويل . أما النساء فقد نتفن شعورهن وحملن التراب على رؤوسهن وتمرغن على الأرض . لقد تركت الحراب الكبيرة العريضة « الكبس » جروحاً مفتوحة عميقة في أجساد أولئك العساكر التعساء الذين سقطوا في الغارة .

في تلك الليلة عند ما عم السكون صعدت الزوجات الأرامل لأولئك القتلى من النوبا إلي قمة صخرة عالية وأنشدن مرثية حزينة على قتلاهن مما ترك أصداءً كئيبة في المخابئ العميقة بالجبال . وإنني لم أسمع مطلقاً من قبل مناحة على الأموات أكثر تأثيراً في النفس . فكأنما جميع الطبيعة قد شاركت في التعاطف مع هؤلاء المساكين الذين تم تدمير مساكنهم الوادعة . لقد تأثرت تأثراً عميقاً ، ويزداد تأثري كلما فكرت في المصير القاسي الذي يبدو أنه ينتظرنا .

سرعان بعد ذلك ما ظهر البقّارة مرة أخرى ولكن هذه المرة تمت مشاهدتهم عن بعد . وبإشارة متفق عليها سلفاً هرب الجميع إلي أماكن آمنة ورجع اللصوص بخفي حنين . أراد النوبا الآن أن يترصدوا للبقّارة وطلبوا من النقيب الذي يقود السرية مساعدتهم بعشرين من العساكر .ولما رفض ذلك أعطيناهم عشرين بندقية من البعثة . عند ذلك أعدوا كميناً للعرب الغافلين الذين عادوا بعد بضعة أيام راكبين على خيولهم المجهدة . انتظر النوبا حتى اقترب المغيرون ثم فتحوا عليهم النار . سقط خمسة عشر من العدو

وهرب الباقون بأقصى سرعة . وسقط في يد النوبا ثمانية خيول وبعض الغنائم الأخرى . وعاد النوبا إلي القرية منتصرين واستقبلوا بمظاهر الفرح . وكان من الممتع أن تراهم وهم يمرون ببطء يقودون الخيل التي استولوا عليها بينما فتيات القرية يرقصن أمامهم ويغنين أغان في تمجيد الشجعان .

صارت لدينا فترة قصيرة من الهدوء ولكن سرعان ما جدد البقّارة هجماتهم وأصبحنا في حالة رعب مستمر . وكانت معلوماتنا عن المهدي مشوهة ولا يمكن الاعتماد عليها . ولم تكن لدينا عملياً أية أخبار من الأبيض . ووصلنا إلي نتيجة مؤداها أن الحكومة قد أصبحت عاجزة وإلا لماذا يهاجمنا البقّارة ؟

في إحدى الأمسيات أبلغنا النقيب أن لديه معلومات معينة بأنه سيتم قتلنا في تلك الليلة . وأنه سمع بأن اتفاقاً قد تم بين البقّارة من ناحية والكجور كاكوم والنوبا من ناحية أخرى على قتلنا . ويمكن تفهم وقع الرعب الذي حملته هذه الأنباء على جاليتنا الصغيرة .

كانت ليلة حالكة السواد وعلى البعد رأينا خطاً من النيران التي ظنناها نيران مخيم البقّارة . وحسبما صدق جميعنا معلومات النقيب فقد أعددنا أنفسنا للدفاع . لكن بعد مراجعة التفكير في الوضع بدأنا نستغرب كيف لكاكوم الذي كان حتى الآن صديقنا الحميم والمشترك معنا بعلاقة الأخوة أن ينضم فجأة لأعدائه الألداء البقّارة ويعمل على هلاكنا . لذلك إذا كانت هذه الأخبار غير صحيحة فلماذا نقضي الليلة في كرب وغم ؟

بعد شيء من النقاش ، قرر الأب بونومي التحقق من صحة الأنباء وأخذ معه اثنين من الشبان وفانوساً وذهب لمقابلة الكجور نفسه . ونحن غارقون في أفكارنا القلقة رأينا الضوء أثناء تحركه نحو الفجوة بين الجبال . وفي النهاية وصل الضوء إلي سفح الجبل وبدأ الصعود ببطء . وساد سكون مشئوم جميع المكان وهو أمر غير معتاد بالنسبة للنوبا الذين يحبون الثرثرة إلي ساعة متأخرة من الليل . ولم نزل نركز أعيننا على الضوء الذي اختفى في النهاية .كيف انتظرنا بقلق ظهوره مرة أخرى ! إذا نوى الكجور خيانة

فقد أدركنا أننا لن نرى بونومي مرة أخرى . كيف مر الزمن ببطء ! لكن في النهاية ظهر الضوء مرة أخرى . وبدأ في النزول من الجبل . تنفسنا الصعداء مرة أخرى . فضلاً عن ذلك ينبغي ألا نفقد الأب بونومي .

خلال بضعة دقائق كان الأب بونومي معنا مرة أخرى وبضحكة مرحة أخبرنا كيف أن جميع معلومات النقيب خطأ وكيف كان الكجور غاضباً أن نشك فيه أبداً . وعلى ذلك أسرعت إلي مقر العساكر لطمأنة النقيب المسكين . كان محمد سليمان رجلاً طيباً حقاً ولكنه كان رجلاً مسناً وغير لائق لوظيفته . وبالرغم من أن الوقت كان منتصف الليل فقد عاد معي هو وروفيرسي إلي البعثة وحكى كيف أن واحدة من رقيقه الإناث التي كانت لها معرفة ضعيفة بلغة النوبا قد ذهبت للكجور لطحن بعض الذرة وهنا استرقت السمع والكجور يتحدث سراً إلي بعض النوبا . ثم إن بعضهم غضب ونهض وضرب الأرض بحربته . واستنتجت المرأة أن ذلك يعني قسماً بإهلاك أعضاء البعثة . وأما فيما يتعلق ببقية القصة فكانت من نسج خيال المرأة . الآن تم إيضاح كل شيء وحل الإنس والمرح محل خوفنا وذلك حتى بزوغ الفجر وعندها قرع جرس « السلام » الذي أيقظ أصداء جبال الدلنج السوداء .

عند طلوع الشمس وصل الكجور مصحوباً بعدد من أتباعه وبكثير من شخصيات النوبا ذات النفوذ . فهو لم يقنع بما أعلنه في الليلة الماضية من ولاء لذلك أتى الرجل الطيب ليؤكد لنا بقسم مغلظ أنه أبعد ما يكون من القتال ضدنا وأنه هو ورجاله مستعدون للقتال والموت من أجلنا . وفي خطبة جادة مفعمة بالحماس الجدي أكد لنا صداقته وصداقة النوبا . أما نحن من جانبنا فقد شعرنا بالتأكيد بإخلاصه وشربنا نخب نجاح اتفاقنا من زجاجة نبيذ استمتع بها كثيراً صديقنا الكجور الطيب .

عشنا في هذه الحالة من القلق والخوف إلي خمسة أشهر لا نعلم ما سيجيء به الغد . كنا منقطعين تماماً عن بقية العالم واضطربت جميع أعمالنا وأشغالنا السلمية . ولم نعد نجرؤ على تعريض أنفسنا في السهول ولكن حصرنا أنفسنا في الجبال حيث نقوم في بعض الأحيان باصطياد ظباء الكودو (Kudu) الكبيرة . وفي إحدى المناسبات عند

ما ذهبنا إلي جبل دوقمان فقد ثارت شكوكنا من الطريقة التي تجمع بها الناس حولنا وأظهروا رغبة فضولية لفحص أسلحتنا . وفي أثناء رجوعنا فإن الشيخ السابق لهذه المنطقة واسمه عيسى قد حذرنا بألا نأتي للجبل مرة أخرى حيث أن بعض الرجال قصدوا قتلنا وكانوا سيفعلون ذلك لولا خشيتهم من أسلحتنا . كانت ببندقية روفيرسي خزانة تحمل ست عشرة طلقة .

في مطلع سبتمبر صار وضعنا حرجاً . فالمهدي بعد أن غادر قدير زحف داخل كردفان وتجمع أنصاره حوله في " بركة " قادمين من جميع الجهات . ومن هنا أرسل المدعو الملك عمر برسائل ومجموعة صغيرة من الأنصار للاستيلاء على الدلنج . وصل الملك عمر وخيم في الجبل مع صديقه دوقمان وركز رايته وبدأ يضرب طبول الحرب ليلاً ونهاراً . ثم أرسل رسالة يقول فيها إن المهدي قد استولى على الأبيض وأن جميع السكان قد انضموا إليه باستثناء محمد سعيد باشا وبضعة جنود ما زالوا يدافعون عن مبنى المديرية . وفي نفس الوقت حثنا على الاستسلام حيث أن المقاومة لا فائدة منها . وحقيقة أن الملك عمر ومعه خمسون فقط من الرجال وربما أقل كانت له الجرأة المتهورة بإقامة معسكره تحت أنظارنا قد دفعنا إلي الاعتقاد في صحة ادعاءاته . ومع ذلك كان روفيرسي مصمما على مهاجمته ولكن النقيب أقنعه بالعدول عن ذلك .

عندئذ عقدنا مجلساً للنظر في أفضل السبل التي نتبعها . وبعد كثير من المداولة (وهي دائماً الحالة التي نتبعها في التعامل مع العرب) فقد قررنا بالإجماع محاولة الهرب إلي فشودة . كذلك النوبا الذين قدموا لنا خدماتهم كأدلاء للطريق نصحونا بإتباع هذا السبيل . وكان من المحتمل جداً أن ننجح في هذه المحاولة حيث أن معظم العرب تقريباً الذين يرغبون في القتال قد تبعوا المهدي إلي الأبيض توقعاً للغنائم التي سرعان ما ستؤول إليهم حسبما اعتقدوا .

يقع الطريق إلي فشودة بعيداً نحو الجنوب من مسرح العمليات الحالية . وبوجود الثمانين بندقية من نوع الرمنجتون التي كانت مع العساكر والثلاثين بندقية الجيدة التي معنا شعرنا بالثقة بأننا سوف نستطيع شق طريقنا إلي هناك لذلك تقرر أن نبدأ

الرحلة في هدوء وفي جوف الليل . وجهز كل منا صرة صغيرة فيها بضعة أشياء مما يريد حمله ويحتاج إليه أثناء الرحلة . إما كهدايا أو ليشتري بها أو ليقدمها كمقايضة بالطعام . كان لدينا أيضاً عدد كاف من الجمال والبغال والحمير للراهبات والمرضى . لقد جهزنا كل ما نحتاج إليه في صرر وأهدينا باقي أمتعتنا للنوبا حتى لا يقع أي شيء في يد الملك عمر . لقد قدم لنا النوبا كل مساعدة ممكنة . وكنا نستطيع أن نراهم خلال الظلام يتحركون كالأشباح بين الصخور السوداء وهم محمَّلين بكل ما يمكن تخيله .غادرنا البعثة في منتصف الليل وذهبنا إلي زريبة العساكر آملين أن نجدهم جميعاً جاهزين للتحرك . لكن بدلاً من ذلك وجدناهم جميعاً في أسرتهم والنقيب لم يصدر إليهم أمراً بأن يكونوا جاهزين وقد ذهب نفوذ روفيرسي أدراج الرياح . لقد حاولنا بطرق عديدة إقناع النقيب لإصدار الأوامر ولكنه كان يجيب فقط بأنه ينتظر تسلم رد من الملك عمر الذي كتب إليه . ولما نفد صبر النقيب أرسل شخصاً موثوقاً به إلي الملك عمر ولكن الشخص لم يرجع . أصبح الوقت الآن حوالي وقت طلوع الشمس وجميع مجهوداتنا لتحريك النقيب قد باءت بالفشل . عند ذلك عزف البوق النشيد الوطني الخاص بالخديوي وهو يعزف دائماً في نوبة الفجر لإيقاظ العساكر لكن أصوات قرع النقّارة المصم للآذان غطى على صوت البوق . لقد كان في ذلك استهزاء يبين أن حشود جبال النوبا المتوحشة كادت أن تطفئ نور المدنية . وفي نفس الوقت تجهز العساكر من تلقاء أنفسهم وأعلنوا أنهم مستعدون لتحمل أي تعب وإذا اقتضى الأمر فإنهم سوف يموتون دفاعاً عنا . لكن الخوف والتردد الذي ظهر على نقيبهم فتَّ من عضدهم وكلما ارتفعت الشمس ترك العساكر المعسكر واحداً بعد الآخر وسلموا للملك عمر . ولم يبق مع روفيرسي إلا عدد قليل منهم . وعند ما غادر النقيب الزريبة حتى هؤلاء الباقين انضموا إلي العدو .

وهكذا تركونا وحدنا تماماً – مجموعة من ٢٠٠ شخص والعدد الأكبر منهم نساء وأطفال . فالهرب أصبح الآن خارج الموضوع . فلم يبق لنا شيء إلا أن نرجع إلي مساكننا وقد أعلنا ذلك . لكن أي منظر وقعت عليه عيوننا – لقد حمل النوبا كل شيء . لقد

رجعنا إلي غرفنا في البعثة بقلوب حزينة . كل شيء هنا قد تم تحطيمه وتدميره . فما رآه النوبا أنه غير ذي فائدة لهم فقد حطموه إلي قطع . وروفيرسي الذي كان دائماً في غاية الإخلاص والصدق نحونا ذهب الآن إلي الملك عمر ليرتب معه سلامته الخاصة . ولما زالت مرارة الشعور التي أحسسنا بها أول الأمر . بحثنا الخطوة التالية التي ينبغي أن نتخذها . لم يبق شيء بتاتاً في البعثة ولم يبق لدينا أي شيء من الطعام .

عندئذ ذهبت أنا في صحبة بونومي إلي الملك عمر . هذا تاجر رقيق سابقاً تكروري مسن قذر قصير القامة وأعرج . وكان معروفاً لدينا منذ زمن بعيد . لقد استقبلنا بصورة ودية وقدم لنا قهوة وحكى لنا من الشجاعة العظيمة لدى المهدي ثم ختم حديثه بالكلمات التالية : " أعرف أنكم لن تتحولوا إلي مسلمين لذلك يجب أن تفهموا أن أموالكم وعبيدكم لن يكونوا لكم بعد الآن وفي نفس الوقت فإنني سوف أعطيكم رسالة إلي المهدي فيما يتعلق بوضعكم " . ورغم صعوبة هذه الشروط إلا أنه لم يكن لدينا بديل غير القبول . وعند ما انتهى لقاؤنا به أخذت منا أسلحتنا كما فقدنا فجأة وبضربة واحدة قاسية جميع أتباعنا السود الذين ضحينا بكثير من الأرواح وواجهنا كثيراً من المتاعب من أجل رفاهيتهم . رجعنا عندئذ إلي البعثة حيث قضينا الليل وحدنا جاثين على ركبنا .

وقعت هذه الأحداث في الرابع عشر من سبتمبر ١٨٨٢م . وفي صباح الخامس عشر من سبتمبر قرعنا لآخر مرة جرس السلام " السلام عليك يا مريم " . عند الظهر وصل الملك عمر مع أتباعه وهم يرددون الشهادة . دخل أولاً الكنيسة . وقد اعتصرنا الألم ونحن نشاهد بأعيننا تدمير الكنيسة وأخذت قوات الملك عمر أتباعنا السود وضمهم إلي عساكر الحكومة الذين انضموا إليه . ظن الملك عمر أنه سيجد بعض الأموال ولكنه كان مخطئاً لأننا قد أخفينا القليل الباقي لنا من المال لمواجهة احتياجاتنا في المستقبل . ولما كنا قد قطعنا من الأبيض لمدة سبعة أشهر فقد استهلكنا جميع مخزوناتنا الاحتياطية . ولمدى الأربعة عشر يوماً السابقة على هذا لم يكن لدينا حتى الملح لنخلطه بطعامنا .

اضطررنا للبقاء في الدلنج لمدة ثلاثة أيام منتظرين مشيئة الملك عمر ليأذن لنا في

التحرك . إنه مما يرثى له أن نرى الطريقة الوحشية التي يعامل بها أتباع الملك عمر أتباعنا السود . وقبل أن نغادر زرنا الكجور كاكوم . وقد أبدى الشفقة علينا ومزيداً من الشفقة خاصة على الراهبات . وتاقت نفسه أن يبقى معنا وودعنا وهو يبكي بمرارة . وتوقع تماماً أن يلاقي هو أيضاً مصيراً محزناً . وأخيراً غادرنا جبال النوبا الحبيبة في الثامن عشر من سبتمبر وبعد متاعب لا تنتهي نجحنا في الحصول من الملك عمر على أربع رواحل نحمل عليها الراهبات . الأب بونومي وشخصي واثنان من الرهبان غير المرسمين أخذنا في المشي والركوب بالتناوب . وتألفت رواحلنا من جمل وبغل وحمارين . وضعنا الملك عمر تحت مسئولية ابنه ناصر وجماعة من العرب . وقد صاحبنا عدد من النوبا إلي مسافة من الطريق . وعندما تجاوزنا جبل كاكوم كنا نستطيع أن نرى الرجل المسكين واقفاً وهو يمد يديه نحونا كآخر وداع . كذلك تبعنا كثير من الشبان السود ولكن أجبرهم أسيادنا الجدد على الرجوع . ولقد سببت لنا مغادرتنا كثيراً من المواجع والحزن .

في المساء وصلنا إلي جبل صغير يسمى " كودرو " وفي سفحه توجد بئر وهنا نزلنا وقضينا الليلة . وهنا أيضاً نزل النوبا من تلالهم ليحيونا . غادرنا في صباح اليوم التالي ويقع طريقنا الآن عبر السهول التي تغطيها الحشائش الطويلة . وفي هذا الوقت من السنة يوجد دائماً بجانب الأمطار ندى غزير يبلل ثيابنا وينفذ إلي الجلد . وبالإضافة إلي ذلك كثيراً ما يتحتم علينا خوض أنهار يصل الماء فيها إلي أعناقنا ونخرج منها وثيابنا تقطر ماءً لنواصل المشي بعد ذلك . لقد أدركنا أن هذا بالتأكيد سيجلب علينا الحمى والإسهال . وقد ثبت ذلك بعد قليل من وصولنا إلي الأبيض .

أخيراً وصلنا إلي السنجكاية وهي مقر رئاسة البقّارة ووجدنا أعداداً من العرب الرحل يعيشون في خيام . وعند وصولنا أسرع كل واحد صغيراً كان أم كبيراً لمشاهدتنا والتحديق في المسيحيين المكروهين المعتقلين . لقد استهزأ بنا هذا الحشد الفضولي وصب علينا الإساءات . أما النساء القبيحات العجائز اللواتي لا يستطيع الإنسان إلا أن يقارنهن بالضباع فربما كن الأشد مرارة في تقريعهن المشين . بقينا هنا ليوم واحد

ثم استأنفنا رحلتنا . وكلما وصلنا إلي قرية تعرضنا إلي معاملة أكثر فظاظة . وإذا لم نكن محروسين بمرافقين فلا بد أننا كنا حتماً سنقتل . وكان يتم تفتيشنا باستمرار على أمل أن يجدوا لدينا مالاً . وعندما اقتربنا من الأبيض وضعنا ناصر في كوخ وأخبرونا أن ننتظر إلي أن يقابل ناصر المهدي ويتأكد منه من التعليمات الخاصة بنا . وقد استنتجنا مما قاله إنه ذاهب ليعرف ما إذا كان ينبغي قتلنا حيث نحن أو أن يأخذونا لنمثل أمام المهدي . وهكذا تركنا ناصر في حراسة مشددة .

الباب الثالث

المبشِّرون والمهدي

وصف الأبيض - نظام دفاع سعيد باشا - أتباع المهدي يحيطون بالمدينة - أهل المدينة يلتحقون بالمهدي - هجوم غير ناجح على مباني الحكومة - دحر الدراويش يكبدهم ١٠٠٠٠ قتيل - المبشرون يُحضرون أمام المهدي - تهديدهم بالموت - التحضيرات للإعدام - تأجيل التنفيذ في آخر لحظة - وصف معسكر المهدي - موت بعض المبشرين ومرض الباقين

أثناء إقامتنا في الكوخ أخبرونا كيف أن سكان الأبيض قد التحقوا بالمهدي وأنه لم تصمد إلا الحامية . وسوف أسرد هنا ما حصل بالفعل .

لقد غادرنا المهدي آخر مرة في « بركة » بينما تم شنق رسله الثلاثة في الأبيض . غادر المهدي « بركة » في الرابع من سبتمبر وعسكر في « كابا » وهو مكان على مسيرة بضعة ساعات من الأبيض وسط سهل واسع يصبح في الصيف مثل الصحراء تماماً . وتوجد هنا وهناك بضعة أشجار تبلدي تكسر الملل من هذا المنظر الكئيب . وتحفُّه من الجنوب الشرقي جبال كردفان . وعلى مسافة حوالي خمس كيلومترات نحو الشمال يرتفع الجبل ذو الشكل المخروطي المعروف باسم كورباتش بينما يظهر نحو الشمال الغربي جبل أم حريزة الصغير . وتقع الأبيض في نوع من المنخفض في السهل . وتبعاً لذلك تصبح الآبار ممتلئة بالماء في زمن الشتاء وتشكل إمداداً كافياً طيلة السنة .

منذ الاحتلال المصري للسودان أصبحت الأبيض مدينة لها بعض الأهمية ولكن معظم المنازل مبنية من الطين فيما عدا مباني الحكومة المبنية بطوب مجفف بالشمس . ومدخل هذه المباني خلال بوابات عظيمة مقوسة وفوقها طابق ثان مرتفع مما يجعلها بارزة للعيان ويمكن رؤيتها من مسافة بعيدة . كانت الأبيض في الوقت الذي أتحدث عنه مدينة مهمة ومزدهرة ويبلغ سكانها حوالي ١٠٠٠٠٠ نفس . وهي مشهورة أساساً لصمغها . وأفضل نوع منه كان يعرف باسم صمغ كردفان . وتأتي الكميات الكبيرة من الطياره ودار حمر حيث زرعت أشجار الصمغ في مزارع كبيرة استثمرت بانتظام . واستخدمت آلاف الجمال في نقل هذه السلعة القيمة إلى شات على النيل الأبيض

ثم إلى أم درمان ودنقلا . وشكّل ريش النعام أيضاً سلعة تجارية أخرى هامة . يوجد في دار حمر عدد من مزارع النعام حيث تحفظ هذه الطيور في زرائب كبيرة . ولكن كسلعة تجارية فإن ريش النعام البري أعلى قيمة من ريش النعام المدجّن . ويباع ريش النعام دائماً بالوزن . والصادرات الأخرى من كردفان هي التمر هندي (العرديب) والسنامكة وجلود البهائم . كذلك يوجد الحديد في كردفان . وفي يوم من الأيام عند ما كنا نحفر بئراً في الدلنج عثرنا مصادفة على الزئبق .

الأبيض هي أيضاً محطة الإمداد لدارفور وشاكا ودار النوبا . وهكذا أصبحت مركزاً تجارياً هاماً . وعاش عدد من التجار الأغنياء هنا مثل إلياس باشا أم برير وحاج محمد بانقا وأحمد بك دفع الله (الذي يملك آلاف العبيد) ومحمد ود العريق وحاج خالد وابراهيم ود عدلان بجانب أعداد من الأقباط والمصريين. كما يوجد أيضاً وكلاء لعدد من البيوت التجارية الرئيسية في القاهرة من سوريين واغريق ويهود في الأبيض . وكردفان غنية أيضاً في الماشية إذ يمتلك عرب دار حمر وبني جرّار ودار حامد أعداداً كبيرة من النوق . وتحفظ هذه الحيوانات دائماً في الصحراء لأغراض التكاثر فقط وتذبح كمية من صغار الجمال ويفضل لحمها على أنواع اللحوم الأخرى في السودان ويعتبر أكل لحمها ترفاً عظيماً وعموماً يؤكل غير مطبوخ[1] . وتزرع الذرة الشامية على نطاق واسع في كردفان وكذلك السمسم وهو يفضل على النوع الذي يزرع في نواحي النيل الأبيض . كذلك يزرع بكميات كبيرة بطيخ أبيض كبير الحجم . وقد يفهم لذلك لماذا كانت كردفان أغنى مديرية في السودان وجلبت للحكومة أكبر إيرادات .

جميع هذه المنطقة الغنية الآن في قبضة المهدي باستثناء الأبيّض التي سيكون مصيرها قريباً أن تصبح مسرحاً لإراقة الدماء والحرب بدوافع التعصب الديني بين أناس من نفس العنصر والدين . فالعرب من مختلف القبائل الذين كانوا في وقت السلم يأتون ببضائعهم إلي الأبيّض لمقايضة وتبادل السلع يتصايحون الآن لتدمير المدينة وقتل

١- وقع المؤلف في خطأين : الأول أن اللحم المفضل في السودان هو لحم الضأن . والثاني أن ما يؤكل غير مطبوخ هو كبد الإبل بعد معالجته بالليمون والشطة والفول السوداني والثوم.

ساكنيها . وكما ذكرت من قبل فإن محمد سعيد باشا قد أحاط المدينة تماماً بخندق وسور . ولكن بما أن هذا يحتاج إلي عدد كبير من الرجال للدفاع عنه ، كما أنه يعلم بأنه لا يستطيع الاعتماد كثيراً على السكان لذلك قام بتحصين مباني المديرية والمباني الحكومية الأخرى تحصيناً قوياً . وفي نفس الوقت وضع في حالة دفاع الثكنات العسكرية ومنازل الضباط والموظفين والتجار الإغريق والسوريين . وترك أعضاء بعثتنا منازلهم وكنيستهم الجميلة واستأجروا غرفاً داخل التحصينات . وكذلك فعل المواطنون والتجار الموالون للحكومة . بينما استمر بقية السكان في العيش بالمدينة والتآمر مع المهدي . وفي السابع من ديسمبر أي اليوم الذي وصل فيه المهدي إلي كابا ، فإن جميع هؤلاء السكان قد تركوا المدينة وانضموا إلي المهدي في معسكره . وكان التجار الأغنياء منذ مدة في اتصال مع المهدي . وانضم إليه آخرون لأنهم قد شحنوا بأفكار دينية متعصبة همجية . والبعض خاف من عدم إطاعة النداء إذ أنهم يرون كيف أن قوات الحكومة ضعيفة وكيف أن المهدي ناجح . ومن ضمن من تركوا الحكومة وانضموا إلي جانب المهدي محمد خبير باشا من دارفور وعدد من القوات غير النظامية التي أرسلت من الخرطوم كتعزيز لقوات الأبيّض .

وهكذا وبشتى الوسائل بلغت قوة المهدي الآن أكثر من ٣٠٠٠٠ مقاتل . وبمثل هذا الجيش رأى أن إخضاع محمد سعيد باشا وحاميته الضعيفة مسألة في غاية السهولة . وزاد المهدي في تحريض رجاله على القتال بأن أكد لهم أن أبواب الجنة مفتوحة لجميع الشهداء الذين يقضون نحبهم وأن كلاً منهم ستقوم على خدمته أربعون حورية جميلة عند ما يدخلون من أبواب الجنة . كذلك أثار مشاعر الطمع فيهم بوصفه لقيمة الكنوز المحفوظة في المديرية بأكثر العبارات مبالغة . وأبلغهم أن النصر مؤكد لأن الله ورسوله قد قضيا بأن يبيدوا أعداءهم بالعصي المجردة . وقد قال هذا لأنه كان يعلم أن القليلين فقط من أتباعه لديهم أسلحة نارية . ولما حمسهم هكذا إلي درجة الهياج الطائش تقدم بهم من كابا نحو الأبيّض .

في نفس الوقت لما رأي المدير أنه لا يمكنه الاعتماد على السكان فعل كل ما في

استطاعته لتحسين تحصيناته وانتظر هجوم العدو . عند انبلاج الفجر ظهرت الحشود على الأرض المرتفعة بالقرب من الأبّيض . سمع المدافعون فقط الهدير الكئيب الناجم عن ألاف الأصوات عن بعد ولكن سحب الغبار منعتهم من رؤية أي شيء . فقط عندما تعصف الريح على فترات وتحمل الغبار بعيداً يستطيعون أن يروا آلاف الفرسان وهم يعدون بخيولهم بصورة متهورة ثم يختفون مرة أخرى وراء الغبار . ولكن الضوضاء مثل الرعد القادم أصبحت في كل لحظة أكثر وضوحاً وسرعان ما ظهرت فوق سحب الغبار عشرات الآلاف من الأعلام والرايات . اقترب الفكي المنّة بحوالي ١٠٠٠٠ رجل من ناحية الشرق ، بينما هجوم المهدي موجّه على طرف المدينة الجنوبي الغربي . وسرعان ما تم عبور الخندق الأول ثم انتشر أنصار المهدي وأحاطوا بالمدينة تماماً واندفعت كتل من المتحمسين المتهورين كالموج عبر شوارع المدينة المهجورة . إنهم لم يندفعوا عبر هذه الشوارع فقط بل أسرعوا في اندفاعهم من بيت إلي بيت ومن حائط إلي حائط ومن فناء إلي فناء حتى وصلوا إلي خندق المديرية وكسيل مندفع فجأة بالرغم من كل عقبة وبصيحات همجية اندفعوا عبره حتى وصلوا الأسوار التي انطلق منها فجأة أزيز آلاف البنادق وهدير المدافع ولكن هذه الحشود المتوحشة وهي لا تخشى الموت مطلقاً ولا تسمع صوت بنادق الرمنجتون القاتلة ولا هدير المدافع وهي تندفع إلي الأمام بأعداد متزايدة.

أصبحت الحامية البائسة غير قادرة مطلقاً على مقاومة مثل ذلك الهجوم وجرى أفرادها إلي أسطح المنازل واستمروا في صب النيران التي لا تنقطع على الحشود التي شكلت الآن تكتلاً بحيث لا يستطيعون التحرك والحقيقة أن مواسير البنادق من جراء سرعة إطلاق النار أصبحت محمّرة من الحرارة . وسرعان ما امتلأت الشوارع والساحات بجثث الذين سقطوا . ولما حدث توقف لإطلاق النار للحظات انتهز علي بك شريف هذه الفرصة وجمع مجموعة من الرجال واندفع بهم نحو مخزن الذخيرة حيث كان هناك صراع مرير بين الحراس والدراويش وأصبحت للدراويش اليد العليا عندما وصل علي بك فجأة إلي مسرح الأحداث وبدأ في إطلاق النار على الحشد سواء أكان من الأصدقاء أو الأعداء وبذلك طرد الدراويش إلي ما وراء الخندق ووضع تشكيلاً قتالياً في

الثغرة واستعد لدحر أية محاولة أخرى للدخول .

في هذا الأثناء كان محمد سعيد باشا مشتبكاً بشدة مع العدو أمام المديرية . هنا اقتحم أمير يسمى ود جبارة على رأس جماعته وهم يصيحون « الموت للأتراك هؤلاء الكلاب والخنازير ! » ولكن مقاومة المدير الصامدة أجبرتهم على التراجع عبر الخندق . أما أحمد دفع الله فقد دافع عن ذلك الجزء من خط الدفاع الذي هاجمه الأمير إبراهيم ود عبد الله الذي كسب شهرة عظيمة بين الدراويش . هاجم هذا العربي الشجاع مرات ومرات آملاً أن تملأ جثث الذين يسقطون الخندق ليعبر عليها ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وقد أجبر هو أيضاً على التراجع .

المهدي يراقب كل هذا من مسافة آمنة وظل يأمر بمواصلة الهجوم . ولكن كان من المستحيل الوقوف أمام النيران الموجهة بدقة من الدفاعات . ونتيجة لذلك أجبر بعد منتصف النهار على التراجع . ولما رأت الحامية الصغيرة الشجاعة ما حدث لم تستطع أن تسيطر على أفرادها واندفعت فوق أكوام الجثث في هجوم وحشي على البيوت في المدينة التي امتلأت بالدراويش الباحثين عن الغنائم . وأثناء غضب الحامية قتلت جميع من اعترض سبيلها وربما كانوا معذورين في ذلك لأنهم كانوا في حالة هياج جنوني بسبب هذا المنظر المخيف من سفك الدماء .

إنه من المستحيل ألا تعجب من الشجاعة المتهورة لدى هؤلاء المتحمسين الدينيين الذين يندفعون حتى فوهات البنادق وهم يرقصون ويصيحون وليس لديهم في أيديهم إلا عصياً ذات عقد ليسقطوا صرعى الواحد فوق الآخر . وحمل عدد منهم حزما كبيرة من قصب الذرة رموها في الخندق على أمل أن يردموه ثم يعبروا فوقها . وعند ما تم تنظيف المدينة من الأعداء أقامت القوات المنتصرة وليمة كبيرة وابتهاجاً عاماً . وقد وجد بين قتلى الدراويش أحد أقرباء المهدي القريبين المسمى سيد محمد وكذلك ود جبارة . والأخير تركي التحق بالمهدي في قدير مع اثنين من إخوانه . وقد كان واحداً من أشرس الأمراء . فقد قاتل بأشد الإصرار أمام المديرية وهو راكب على جواد يحض أتباعه ولكن العساكر لاحظوا وجهه الأشقر فصوبوا عليه بثبات وفي النهاية خر صريعاً

هو وجواده على أكوام الجثث . وعند ما وجد العساكر جثته فيما بعد فقد أصابهم كدر شديد أن ينضم تركي إلي المهدي فقطعوا رأسه وقطعوا جثته إرباً إرباً .

بينما كان الجنود يجلون العدو من المنازل ، كان المهدي قد تراجع إلي كابا بخسارة ١٠٠٠٠ مقاتل . وعقد سعيد باشا مجلساً للنظر فيما إذا كان ينبغي مطاردة العدو . لكنه كان هو شخصياً ضد المطاردة . فقد فكر أنه ربما يهجم الفكي المنّة على المدينة في غياب المدافعين . وبالإضافة إلي ذلك فإنه لم يكن لديه أكثر من ٣٠٠٠ مقاتل . أما بالنسبة للمهدي وأمرائه الرئيسيين فقد انزعجوا كثيراً وكان من المحتمل إذا طاردهم محمد سعيد باشا لكانت النتيجة نصراً مؤزراً له . ولما كان الحال كذلك فإن المهدي كان على وشك التراجع إلي الجبال . ولولا أهل الأبيّض الذين كانوا يفكرون في منازلهم وأموالهم وأقنعوه بالعدول عن رأيه لكان قد تراجع إلي الجبال . هذا وقد ظلوا يحضّونه على مواصلة الحصار . وبناء على ذلك اتخذ موقعاً له في اليوم التالي على تل يسمى « الجنزاره » يبعد حوالي كيلومترين إلي الشمال الغربي من المدينة ولا يبعد أكثر من كيلومتر واحد من بئر العُشَرة (أسميت كذلك لنمو نبات العُشَر بكميات كبيرة بالقرب منها) . أما الفكي المنّة فقد اتخذ موقعاً له في الشمال الغربي من المدينة . وسرعان ما اكتنف المدينة عن قرب أكثر من ذي قبل . ومنذ ذلك اليوم لم يدخل أو يخرج من المدينة المشئومة أي شيء .

أمضينا يوماً واحداً في الكوخ وعلمنا بجميع التفاصيل عن هجوم المهدي على المدينة عند ما وصل رسول من ناصر وأمرنا بالتحرك إلي معسكر المهدي إذ أن قصد المهدي أن يسمح لنا بالنظر إلي وجهه الكريم . وبعد قليل من بدء تحركنا قابلنا ناصر عائداً ومصحوباً بمجموعة من الدراويش .

كلما اقتربنا من الأبيّض أصبحت قعقعة البنادق ويقطعها من وقت لآخر هدير المدافع مسموعاً أكثر فأكثر . لقد أوقفونا تحت شجرة تبلدي كبيرة وأمرونا بأخذ قسط من الراحة . وما أن أضجعنا حتى هوجمنا فجأة من قبل ناصر وجماعته الذين أخذوا ساعاتنا وغيرها من الأشياء الثمينة ثم جردونا من ملابسنا . وقد حاولوا حتى إزالة

البراقع والثياب الخارجية من الراهبات . ولكننا اعترضنا بقوة على ذلك وأمسكنا بالعصي محاولين طردهم . وفي النهاية خجل هؤلاء اللصوص اليائسون من هذا النزاع غير المتعادل وانسحبوا وأمر ناصر بإعادة ثيابنا إلينا . ولكن بدلتي التي خطت بداخلها ثلاثين ريالا لم تتم إعادتها إليّ . وقد أخضعت للظهور أمام المهدي بقميص وسروال . أما مرافقونا بعد أن أشبعوا جشعهم امتطوا حميرنا وأجبرونا على المشي راجلين والشمس المحرقة تلفح رؤوسنا والرمضاء والرمال الثقيلة جعلت تقدمنا مرهقاً للغاية .

عند ما اقتربنا من المعسكر ازداد الحشد كثافة في كل خطوة . وقد تراءت لنا الأبيّض على مسافة قصيرة . وكان منظر المنازل والأشجار ترويحاً ساراً من رتابة هذا التيه المقفر . وكانت أصوات الطلقات المستمرة التي لا يقطعها إلا هدير المدفعية إشارة إلي أن هناك اشتباكاً نشيطاً يجري . وعند ما دخلنا المعسكر كانت الحشود ضخمة حتى كدنا أن نختنق بالغبار المثار . وسرعان ما أصبحنا مجهدين إجهاداً تاماً . أما أخونا مارياني الذي كان مريضاً عند مغادرتنا للدلنج لم يستطع أن يواصل مما اضطرنا إلي حمله معنا تقريباً .

الآن أحاط بنا الدراويش المتعصبون وظلوا يهددونا بحرابهم وهراواتهم وعصيهم . وناصر نفسه حين رأى بعض الدراويش في هياج شديد وهم يوجهون حرابهم نحو صدورنا ، خشي على سلامتنا . وقد بدا لنا أنه ليس هناك أدنى شك أنهم ينوون قتلنا . لذلك أمر مرافقينا أن يشهروا سيوفهم ويشكلوا فريقاً نمشي في وسطه . إن إجهاد الأيام القليلة السابقة بالإضافة إلي الحرارة وصراخ الحشود وأناشيد الدراويش الرتيبة وأخيراً ضوضاء هذا المعسكر الضخم الذي يشتمل على أكثر من ١٠٠٠٠ شخص خلاف النساء والأطفال أثر فينا إلي درجة أننا أوشكنا على عدم القدرة على الكلام . وببطء أخذنا طريقنا نحو مركز المعسكر حيث الدرويش العظيم محمد أحمد قد نصب خيمته.

أخذونا أولاً إلي كوخ الخليفة شريف وهنا وجدنا صبياً في سن أثنتي عشر أو ثلاثة عشر عاماً يرقد نصف عار على سرير . وقد دعانا إلي الدخول في الظل وأخذ الراحة . وفي نفس الوقت قام بسوطه بطرد الحشد الفضولي الذي أخذ يتدافع للنظر إلينا

. وأعطانا ماء لنشرب ولكننا كنا في حالة إعياء وإجهاد شديد حتى أننا لم نستطع ابتلاع الماء لبعض الوقت . كما أن الحرارة والغبار قد صمّغت حقيقة ألسنتنا ولذلك لم نستطع الكلام . سمحوا لنا بالراحة لفترة قصيرة حيث أن المهدي لم يستيقظ من قيلولة الظهيرة . وقد مكنتنا هذه الراحة القصيرة من تجميع أفكارنا التي تشتت من جراء أحداث الأيام القليلة السابقة وضجيج المعسكر .

أخيراً جاء الأمر بأن المهدي قد استيقظ وأنه يرغب في رؤيتنا . عندئذ أخذونا إلي كوخ صغير مفتوح الجانبين يهب إلي داخله نسيم بارد وبالقرب من الكوخ نصبت خيمة من الخيام التي تم الاستيلاء عليها من يوسف باشا الشلالي . وعند ما وصلنا خرج المهدي من الخيمة وجلس بالطريقة العربية على حصير من القصب مفروش على أرضية الكوخ . حيانا بلطف وسألنا عن جنسياتنا وهدفنا من المجيء للسودان . وكذلك عما إذا كنا سمعنا أي شيء عن المهدي ثم شرح لنا باختصار طبيعة رسالته الإلهية وعدّد انتصاراته العظيمة على « أعداء الله ورسوله » وبهذا الاسم أشار إلي الأتراك .

ولما رأى أننا مجهدين للغاية قدم لنا شراب القمردين (مشمش مجفف مخلوط بالماء) لكن حتى قبل أن نقربه من أفواهنا كان ممتلئاً بالذباب . وفي نفس الوقت دخل شخص ما يسمى جورج استامبولي كان التحق بالثوار مع سكان الأبيّض الآخرين . ومن خلاله حاول المهدي أن يضع أمامنا الفائدة العظيمة للدين الإسلامي . المهدي نفسه لم يطلب منا اعتناق الدين الإسلامي لأنه خشي أن نجيب سلباً. ثم إنه استلقى على الحصير كأنما كان يتجهز لاستقبال رؤية .

كان محمد أحمد رجلاً قوي البنية ولونه أسمر داكن وبشرته مصونة بعناية . كانت لديه ابتسامة لطيفة تظهر فلجة في مقدمة أسنانه . وبالمران المستمر اكتسب طريقة دمثة في الحديث . وبخلاف هذه الاستثناءات فليس هناك شيء غير عادي في مظهره . كان يلبس جبة قذرة مرقعة بشرائط من القطن ذي الألوان المتعددة ، وعلى رأسه طاقية بيضاء ملفوفة حولها عمامة . كذلك كان يلبس سراويل فضفاضة ونعلاً (صندل) .

بعد أن استلقى لبعض الوقت وهو مغمض العينين قام وقدم لنا بعض شراب القمردين

وبدأ هو بنفسه استخراج الذباب منه ولما وجد أنه لا فائدة من فعل ذلك ترك الأمر ورجع إلي خيمته . ربما لعقد مجلس . بعد قليل عاد وهو يلبس جبة نظيفة مرقعة بقطع من ملابس كهنة كنيستنا في الأبيّض . ثم بدأ يسرد علينا تاريخ المحادثات العديدة التي جرت في الأيام الأولى للدعوة المحمدية . ولما رأى أن اهتمامنا بما يرويه كان قليلاً نهض وأمر بأخذنا إلي الخليفة عبد الله (حاكم السودان الآن[٢]) بينما رجع هو نفسه إلي خيمته .

عند وصولنا إلي كوخ الخليفة عبد الله ، وجدنا أنفسنا مع مجموعة من عشرين لصاً مقيدين من أيديهم وأرجلهم . وهناك حشد ضخم يقف حولنا . وقد لاحظت من بين الوجوه بعض أصدقائنا من الدلنج الذين من الواضح أنهم تبعونا لمعرفة كيف تكون نهايتنا . حراسنا المسلحون ببنادق الرمنجتون . كانوا يقفون حولنا وبالقرب منا حصان الخليفة عبد الله الذي كان مسرجاً بصورة دائمة – وذلك شاهد على طاقته غير المحدودة . وعلى مسافة قصيرة هناك حوالي ثمانين راية مغروزة في الأرض وبجانبها طبول الحرب . وبمجرد جلوسنا دخل الخليفة عبد الله . وكان في ذلك الوقت رجلاً في حوالي سن الثلاثة والثلاثين ، متوسط القامة ، نحيف جداً وفي الحقيقة لم يكن سوى جلد وعظم . حيانا بلطف ودعانا لاعتناق الإسلام . ومن محادثته الطنانة سرعان ما رأينا أنه رجل ليس لديه تعليم من أي نوع . وقد أنهى حديثه بقوله إننا إذا رفضنا الطاعة فما علينا إلا أن نتوقع الموت . ثم صرفونا من أمامه .

في مساء السابع والعشرين من سبتمبر عند ما جاء جورج استامبولي ليبلغنا بأننا إذا لم نعتنق الإسلام فمن المؤكد جداً أن نموت لم نعطه أملاً بأننا سوف نغير رأينا . أرسل إلينا المهدي مراراً أناساً ليعلمونا حقائق الدين ولكننا سرعان ما تعبنا من ثرثرتهم الفارغة . وقد اعتاد الأب بونومي على صرفهم بكلمات قوية . وعقب ذلك بقليل جاء الخليفة عبد الله مرة أخرى حاملاً معه بطيخة . ولعدم وجود سكين كسرها على الأرض

---

٢ – وقت كتابة هذا الكتاب

ولكننا رفضنا أن نتناول منها شيئاً . عند ذلك تكدّر بصورة كبيرة وخرج مهتاجاً وهو يقول إنه يجب قطع رقابنا في صباح اليوم التالي .

في منتصف الليل جاءنا جورج استامبولي مرة أخرى ليقول إنه قدم مبلغاً كبيراً فدية لنا ولكن المهدي رفض ذلك . لذلك أعطيناه الريالات القليلة التي تبقت معنا وطلبنا منه أن يحضر لرؤيتنا في الصباح التالي وقد وعد بأن يفعل ذلك . استخدمنا الساعات القليلة الباقية للاستعداد للموت . أخيراً انتهى الرعب والمخاوف التي عانينا منها خلال الأشهر الخمسة الأخيرة . ففي خضم معاناتنا . فإن فكرة الموت الذي سرعان ما ينقذنا من أيدي هؤلاء المتوحشين كانت راحة لنا . خيّم الآن هدوء عميق على المعسكر ولم يقطع الهدوء إلا قعقعة سلاسل المساجين من حين لآخر .

ظهر قبيل الفجر بقليل مذنّب عجيب في ناحية الشرق وقد بدا ذيله الذهبي ممتداً إلي حوالي ١٠ أقدام في السماء الزرقاء . وكان منظراً ملفتاً للنظر إلي درجة كبيرة . لقد أعاد إلي أذهاننا النجمة في الشرق التي وقفت على المِزْود في بيت لحم . لقد سمّاها العرب " نجمة المهدي " . وحسب الخرافات السودانية فإن ظهور مذنّب يفترض أن ينذر بشر . وحقيقة أي كارثة يمكن أن تكون أكبر مما يحدق بالسودان الآن ؟ لقد أفزعني القرع المفاجئ لطبول الحرب وأفاقني من التأملات التي جلبها ظهور ذلك المذنّب الغريب . إن قرع الطبول ونفخ الأمبابة هو الإشارة لبدء العرض الكبير للجيش . أما الآن عليّ أن أتأمل في شئوني الخاصة وأن أدع النجم يتابع طريقه في السماء .

الآن تلقت طبول الأمراء الإشارة وسرعان ما اندفع الناس من كل اتجاه نحو الرايات المعينة المغروزة في الأرض شرقي الأبيّض . ظهر الاستامبولي مرة أخرى وأعلن لنا أن معاناتنا توشك على الانتهاء . أعطيناه قصاصة صغيرة من الورق كنا كتبنا عليها كلمات وداعنا الأخيرة إلي أحبائنا في الوطن ووقعناها بأسمائنا ورجوناه أن يرسلها عند ما تحين فرصة . وقد بكى بمرارة عند ما أخذ الورقة وذهب إلي كوخه وهو يقول بأنه لا يحتمل أن ينظر إلينا أثناء إعدامنا .

كنا جميعنا جاهزين وفي حوالي الساعة التاسعة وصلت مجموعة من ثلاثين رجلاً

مسلحين وأمرونا أن نتبعهم . كنا ما زلنا نعاني من الإجهاد لكننا قمنا وتبعناهم . بعد حوالي نصف ساعة من المشي وصلنا أمام جيوش الدراويش وحمدنا الله أن النصر قد أصبح الآن قريباً جداً . وقف حوالي ٤٠٠٠٠ رجل في العرض وكانت آلاف أخرى تتجول في المعسكر كالنمل . أخذونا إلي موقف في الوسط وأمروا بحني رقابنا لتلقي الضربة بالسيف . ودون أي تردد فعلنا ما أمرنا به ولكن ساعتنا لم تحن . فقد استدعونا أمام المهدي الذي كان يركب على جمل أبيض رائع ومن خلفه ركب عبد يحمل شمسية لتظليله من أشعة الشمس . عند ما اقتربنا التفت إلينا وقال : " لعل الله يقودكم إلي طريق الحق " . ثم استمر في سيره .

الآن تم صرف القوات وفي الحال أحاط بنا حشد هائج وهدد بسحقنا حتى الموت . لكن المهدي عند ما رآنا في خطر رجع وأمرنا أن نمشي أمام جمله من أجل الحماية . فعلنا ذلك ولكن من الضعف بحيث لم نستطع مواكبته في السير . وعندئذ أعطى المهدي أوامره التي لم نستطع فهمها إلي عدد من الأمراء المختلفين . وقد أمرنا هؤلاء الأمراء بأن نتوقف إلي أن تمر الحشود الضخمة ثم شكلوا مربعاً وسألوا كل واحد منا على انفراد إن كان قد وافق على أن يصبح مسلماً أو أنه يفضل معاناة الموت . كل واحد منا أجاب بحزم – الموت ! عندئذ دفعونا إلي الأمام وهم في غاية الغضب وكنا نحن مجهدين وكل منا مغطى بالغبار من الرأس إلي القدم حتى وصلنا إلي كوخ المهدي . وعند ما وصلنا إلي هناك قال لنا المهدي : " ألم تروا جيشي ؟ " وعندئذ بدأ بالفخر بعدد أنصاره وبشجاعتهم العظيمة . لم ننبث ببنت شفة . عندئذ غادرنا وأخذونا مرة أخرى إلي كوخ الخليفة عبد الله .

الآن عقد مجلس للنظر في مصيرنا . الأغلبية كانت تنادي بقتلنا . ولكن شخصاً يدعى حاج خالد – هو الآن أمير في أم درمان[٣] – أشار إلي أنه حسب الشريعة لا يجوز قتل القسس الذين لم تبدر منهم أية مقاومة مسلحة والذين بالإضافة إلي ذلك أسرى

٣- يتحدث عن وقت تأليف هذا الكتاب .

. قبلت وجهة نظره في القضية وتم تسليمنا إلي جورج استامبولي الذي عين مسئولاً عنا . وعندئذ غادرنا كوخ الخليفة عبد الله وسرنا إلي كوخ استامبولي الذي يكفي بالكاد له ولأسرته . لذلك أجبرنا على الإقامة خارج منزله في العراء حيث ظللنا على هذا الحال لمدة خمسة عشر يوماً معرضين لإساءات العرب المستمرة إلي أن استطعنا بناء كوخ لأنفسنا . واستطعنا الآن أن نعاين هذا المعسكر الضخم من تل الجنزاره إلي سفح جبل أم حريزه إذ يتكون من كتلة واحدة من الأكواخ الصغيرة . وهذه هي مجرد فسحات مسيّجة بفروع شجيرة العشر وسيقان الذرة وهي تكفي لصد أشعة الشمس الحارقة . هنا وهناك خيمة بيضاء تشير إلي أنه مقر رئاسة بعض الأمراء المهمين . معسكر الفكي المنّة ملاصق للجنزاره وهو يمتد من الفولة (بركة صغيرة تجف في الصيف) . إلي سفح جبل أم حريزه . وكانت الأكواخ مبنية بالقرب من بعضها مما جعل الحرائق تشب بصورة دائمة وهي تنتشر بسرعة وتسبب دماراً هائلاً .

هذا المعسكر الضخم يمثل مشهداً مدهشاً خاصة في الليل عند ما يقوم كل واحد تقريباً بإشعال نار لطبخه إذ يشبه جميع السهل بحراً من النيران تختفي عند الأفق البعيد . وإن الدوي والضجيج الصادر من مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال يمكن تخيله أفضل من وصفه . يعرف مقر كل أمير[٤] برايتين تغرزان دائماً قرب المدخل وبجانبهما توضع طبول الحرب التي تقرع ليلاً ونهاراً ودون انقطاع تقريباً . وبجانب كل هذا فإن صهيل آلاف الخيول يجعل الدوي لا يحتمل بصورة أشد . وجميع الهواء فاسد بأشد الروائح الكريهة التي تجلب المرض . ولكن بالنسبة لهؤلاء التعساء فإنه لا فرق لديهم بين الهواء النقي وغير النقي . فهم لا يبالون . وجميع الأقذار مكومة خلف الأكواخ ، حمير نافقة ملقاة دون دفنها . ولا توجد محاولة للمحافظة على نظافة المكان وكل هذه الكتلة الضخمة من البشر تعيش في وسط أكوام من النفايات المتعفنة التي تزداد باستمرار . يعقد سوق يومي والناس يضعون بضائعهم على الأرض ويتقون

٤- لقب أمير أعلى بكثير من أن يطلق على هؤلاء الزعماء التعساء . ولكنها عادة السودان وعليّ أن أبقيه .

الشمس بقطعة قماش تسمى « الفرده » تشد على رؤوس الحراب المغروزة في الأرض . الأبيّض قريبة جداً وبوابة المديرية المقوسة عالية تشاهد فوق منازل المدينة الأخرى . وفوقها يخفق العلم المصري الأحمر الذي يرفع كل يوم جمعة . اعتاد بعض الدراويش الاختباء في منازل المدينة المهجورة وإطلاق النار على الطابية بينما يقوم آخرون بهدم السقوف والجدران وسحب الدعامات الخشبية إلي المعسكر وتقطيعها هناك لاستعمالها كخشب وقود . أما كنيستنا المسقوفة بألواح الزنك فقد تم تدميرها كلياً وحتى المسجد لم ينج من التدمير . وكان هناك مشهد كثير الحركة ليلاً ونهاراً عند بئر العُشرة . فهنا آلاف من العبيد ذكوراً وإناثاً يسحبون الماء بالدلاء وتقع بينهم مشاجرات وقتال بصورة متكررة .

تغيّر المشهد هذا بأجمعه ترك أثراً عميقاً في نفسي ، توتر الأيام القليلة الماضية والرحلة المرهقة من الدلنج إلي الأبيّض وعدم اليقين المستمر بالنسبة لمصيرنا والغم والخوف والدوي والضجيج والطعام الرديء كلها أثرت على صحتنا بصورة كبيرة . والآن ونحن في استراحة والعرب توقفوا عن مضايقتنا جاءت ردة الفعل وسقطنا ضحية للمرض . فالجو الفاسد في « البقعة » — حيث أن معسكر المهدي يسمى دائماً كذلك — أصبنا بحمى مرتفعة الحرارة وإسهال مستمر . وبجانب جميع هذا عند ما حبسونا مع اللصوص في بيت الخليفة عبد الله غطى أجسامنا قمل فظيع وكان من المستحيل التخلص منه إذ يبدو أنه يزداد يومياً . ولم تكن لدينا ملابس لنغيّر الملابس المتسخة ولم يكن لدينا ما يكفي من الماء للشرب ناهيك عن الاغتسال . وبشعور من اليأس المطلق كنا نرقد على أرضية ذلك الكوخ الأسود الحقير عاجزين ومفتقدين للراحة . ازدادت أمراضنا سوءاً قبل مضي شهر كان ثلاثة منا قد ماتوا . الراهبة يولاليا بيسافنتو من فيرونا ماتت بالحمى في ٢٨ أكتوبر . والنجار جبرائيل مارياني مات بالدوسنتاريا في الحادي والثلاثين من نفس الشهر . والراهبة إميليا أندريس ماتت في السابع من نوفمبر . بينما نحن الأربعة الذين ما زلنا باقين نتأرجح بين الحياة والموت . نرقد عاجزين جنباً إلي جنب مع إخواننا وأخواتنا الأموات . لقد كان إجهاداً فظيعاً بالنسبة لنا أن نخيط

الجثث في حصائر ونجرها إلي باب الكوخ . وأخيراً قام بعض العبيد – ضد رغبتهم ولكن بوعد أن ندفع لهم بصورة مجزية – أزالوا الجثث التي بدأت تتعفن ودفنوها في حفر غير عميقة وغطوها بالرمل . لم يقدم لنا أحد يد العون لدفن هؤلاء « المسيحيين الكلاب » حسبما يسموننا . لقد كان حزناً فظيعاً بالنسبة لنا ألا نرافق رفاقنا المساكين في هذه البلوى إلي القبر ولكننا كنا جميعنا في غاية المرض بحيث لا نستطيع الحركة . وهكذا حملوهم إلي مستقرهم الأخير دون صلاة أو إنشاد . وإنني حتى يومنا هذا لا أستطيع أن أقول إذا كان العبيد قد دفنوهم بالفعل أو أنهم سحبوا الجثث إلي ما وراء الأكواخ وتركوهم هناك في العراء .

إن حالتنا نحن التعساء البائسون الذين ما زلنا أحياء لا يمكن وصفها . لقد حسدنا رفاقنا الذين الآن في منأى عن المعاناة الإنسانية . ولكن ساعتنا لم تأت بعد . ونحو أواخر نوفمبر استرددنا عافيتنا نوعاً ما . ولكن يبدو أن حياتنا قد استبقيت فقط لنشاهد مشاهد ومعاناة أكثر فظاعة مما عانيناه سابقاً .

في أثناء ذلك وصل المزيد من رفاقنا في البلوى من دار النوبا . وبعد قليل من ذلك سلمونا إلي استامبولي . وجاء روفيرسي . وقد قابله المهدي واستقبله أحسن استقبال وأهدى إليه حصاناً . حكى لنا روفيرسي قصة مصائبه . فخلال رحلته من الدلنج إلي الأبيّض كان مراراً في خطر فقد حياته . فالبقّارة وهم يتذكرون هزيمتهم على يديه كانوا متعطشين للانتقام . وروفيرسي يدين بحياته لبندقيته المزودة بخزانة رصاص . قد اعتاد أن يزورنا يومياً ويخبرنا بالمؤامرات العديدة التي تستهدفنا . أخبرنا كيف أن العرب قد عزموا على أخذ الراهبات وعلى توزيعنا على الأمراء العديدين .هذه الأنباء أرعبت الراهبات . وهناك القليل من الشك في أن مجرد التفكير في ذلك قد عجّل بموت الراهبتين اللتين كانتا في غاية المرض . كذلك أخبرنا روفيرسي بأن نزاعاً قد وقع بين الملك عمر والنوبا فيما يتعلق بتوزيع الغنائم التي أخذت من كنيستنا بالدلنج . وفيه فقد الملك عمر عدداً من رجاله . واضطر إلي الانسحاب من الدلنج إلي السنجكايه . بعد وصول روفيرسي كتب المهدي إلي سعيد باشا مرة أخرى يدعوه إلي الاستسلام

. وبأمر من المهدي أضطر روفيرسي أن يكتب أيضاً إلي المدير مبلغاً إياه أن لا فائدة من المقاومة إذ لا أمل في إرسال تعزيزات من الخرطوم . ونحو نهاية أكتوبر سقط روفيرسي مريضاً بالدوسنتاريا بسبب جو المعسكر الفاسد المتعفن . وفي المرة الأخيرة التي جاء لزيارتنا كان ضعيفاً للغاية . ثم سمعنا أن المهدي قد أمره فجأة بالذهاب إلى كاشقيل لتغيير الهواء وبعد بضعة أيام فيما بعد سمعنا أنه مات . البعض يقول إنه قتل وآخرون قالوا إن إسماعيل ود الأندوك قد سمّمه انتقاماً لهزيمته في غلفان نعيمه . خادمة روفيرسي عائشة وهي بنت سوداء تربت في القسطنطينية وخادمه حاج سليم ذكرا أنهما وجدا حذاء روفيرسي في الغابة وجثته في كوخ . كان الشاب روفيرسي التعيس بالكاد في الثلاثين من العمر وهو بروتستانتي العقيدة وهو رجل نكن له جميعنا حباً كبيراً . تاريخ وفاته ربما كان الثالث من نوفمبر ١٨٨٢ . بعد هذا التاريخ بأيام قليلة وصل الملك عمر وجماعته إلي المعسكر وأتى بجماعتنا السود من الدلنج معه . وفي الحال جاءوا ليرونا . وسرعان بعد ذلك ما بيعوا أولاداً وبناتاً كعبيد بينما ألحقوا الشبان الكبار بجيش المهدي. اثنتان من البنات واحدة إثيوبية والأخرى سوداء صرنا محظيات للمهدي . وسرعان ما لحق بالملك عمر مصير عنيف . لقد قيل إنه أخفى بعض الغنائم التي تم الاستيلاء عليها وفي الحال تم تقييده بالسلاسل بأمر المهدي . وبُعيد ذلك بقليل أرسل إلينا وزرناه أنا وبونومي ووجدناه مصفّد الرجلين بسلسلتين وسلسلة أخرى طولها حوالي ١٥ قدماً حول عنقه . كان الرجل المسكين منحنياً تماماً من ثقل هذه السلاسل . وتوسل إلينا بضراعة للتوسط من أجله وأخبرنا بأن المهدي يريد قطع رأسه . لقد تأثرنا كثيراً لحالة هذا الشخص سيء الحظ وذهب بونومي إلي المهدي وأوضح له أن النوبا في الحقيقة هم الذين سرقوا الغنائم وبذلك تم إطلاق سراح الملك عمر .

عند ما بدأنا في الشفاء من مرضنا أصبحت فكرة إطلاق سراحنا باستمرار في أذهاننا. قدمنا طلباً بذلك إلي إلياس باشا القوي النفوذ الذي عرفناه معرفة جيدة في الأبيّض. استقبلنا هذا الباشا المسن الأعمى بلطف ولكنه قال إن عبد القادر باشا في الخرطوم غاضب عليه لأنه انضم إلي الثوار . لذلك قال إن أفضل طريقة هي أن يتقدموا يومياً

بطلبهم إلي المهدي والذي ربما بمرور الوقت أن يتأثر ويسمح بإطلاق سراحهم . اتبعنا نصيحته ولكن لم يكن الأمر سهلاً أن نشق طريقنا بين حشود الدراويش المتحمسين الذين أحاطوا بكوخه ليلاً ونهاراً والجميع يناضل ليلقى نظرة على وجهه الذي قيل إنه يشع بالنور . بدفعنا في كل اتجاه والإساءة إلينا ربما نجحنا في الوصول إلي باب كوخ المهدي . ولكن هنا يتم إيقافنا بالحراس . ويكاد يكون من المستحيل تخطيهم . ومع ذلك وبعد مجهودات خارقة نجحنا مرتين في مقابلة المهدي . استمع بلطف إلي استرحامنا ثم قال « في الوقت الحاضر الطرق خطرة وأتمنى ألا يصيبكم سوء . وعند ما تستسلم الأبيّض سوف نسمح لكم بالذهاب إلي وطنكم » ونصحنا بأن نلبس القفاطين لأننا حتى تلك اللحظة كنا نلبس فقط قميصاً وسروالاً . وحسبما ذكر أن لبسنا بهذه الصورة سوف يجنبنا النظرات الفضولية من الجمهور وقد أخذنا بهذه النصيحة الجيدة .

الباب الرابع

حصار الأبيّض

معاناة المحاصرين الفظيعة – الكبابيش – سقوط بارا – سقوط الأبيّض – المهدي يدخل المدينة – مصير بعثة الأبيّض – القتل ببرود للمدافعين الشجعان – الدراويش يعيشون حياة رفاهية في الأبيّض – المهدي يصدر القوانين – ويرسل البلاغات – تزداد هيبة المهدي بالاستيلاء على المدينة – الأخبار من الخرطوم – بونومي وأورفالدر يستدعيان أمام المهدي – المقابلة

بدأت الحامية في الأبيّض الآن معاناة من تأثيرات الحصار وسد الطريق . فضروريات الحياة تتناقص بسرعة وارتفعت أسعار المؤن بدرجة كبيرة . فأكثر طعام شائع مثل الدخن ، ارتفع إلي ١٥٠ ريالاً وفي النهاية إلي ٥٠٠ ريال للأردب . أما اللحم فيكاد أن يكون قد نفد كلياً . إخواننا في البعثة بداخل الطابية يملكون جملاً واحداً لم يكن أكثر من جلد وعظم وقد بيع بمبلغ ١٠٠٠ ريال وبعد يومين من ذلك عرضه المشتري للبيع بمبلغ ١٥٠٠ ريال . وأخيراً اشتراه الجزار بمبلغ ٢٠٠٠ ريال . وأما الدجاجة فارتفع سعرها إلي ٣٠ ريالاً . والبيض بريال للواحدة ورأس السكر بخمسين ريالاً ورطل البن بعشرين ريالاً وملء كستبان الخياطة من الملح بريال واحد . كانت هذه هي الأسعار بعد شهر من بدء الحصار . أما الزبد والزيت فلا يوجد بأي ثمن . وقد بدأ الفقراء في الجوع منذ بدء الحصار وسرعان ما صاروا يموتون بأعداد كبيرة . وبعد قليل وصلت الأمور إلي مأزق فظيع ، جميع الجمال والأبقار قد انتهت واستهلك الناس الحمير والكلاب والفئران وحتى الجنادب والصراصير التي اعتبرت لقماً سائغة جداً . وكذلك أكلوا الأرضة أو النمل الأبيض .

الآن وصلت الوفيات بالمجاعة أرقاماً مفزعة . فالموتى والذين ينازعون الموت ملأوا الطرقات . المساحة داخل الاستحكامات محدودة . فلا يوجد مكان لجميع هؤلاء الناس . ونتيجة لذلك يرقد الكثيرون في الشوارع والساحات المكشوفة . الهواء مسموم بأعداد الجثث الملقاة دون دفن بينما الخندق ممتلئ إلي منتصفه بالجثث المتحللة . وأصبح داء الإسقربوط والدسنتاريا منتشرين . وأصبحت السماء مسودة من تحليق مئات الصقور

آكلة الجيّف التي وجدت وليمة في جثث الموتى . وقد أصبحت هذه الطيور القبيحة منتفخة بما تلتهمه باستمرار حتى أنها أصبحت لا تستطيع الطيران وأصبح العساكر يقتلونها بأعداد كبيرة ويأكلونها بشراهة .

وفيما بعد أصبح الصمغ هو الطعام الوحيد . وهناك كمية منه . لكنه أصاب الناس بالإسهال وسبب انتفاخاً للأجسام . وفي الحقيقة ماتت أعداد من الناس من أكل الصمغ . وقد حفرت الأرض في جميع الاتجاهات بحثاً عن أعشاش النمل الأبيض . وأما الطعام الذي جمعه النمل للشتاء فكان يتم استهلاكه بشراهة . وأما بعض المعانين المساكين فقد عاشوا حياة بائسة على الحبوب غير المهضومة من براز الحيوانات وعلى جميع أنوع الجلود والأحذية والصنادل التي يتم غليها وأكلها . كان منظراً مفزعاً أن ترى هذه الهياكل البشرية عيونهم غائرة في مؤخرة رؤوسهم وهم يهيمون على وجوههم بحثاً عن الطعام . استولى المدير على جميع ما استطاع من الذرة والمال من التجار الأغنياء . ولكن ماذا تفيد حفنة من الذرة للعساكر . لقد أصبحوا يائسين وانفرط عقد الانضباط وكثيراً ما كانوا يقتحمون البيوت ليلاً بحثاً عن الطعام .

خلال طيلة هذا الوقت استمر الدراويش من الخارج في الصياح باللعنات والشتائم والسخرية من أولئك الموجودين بالداخل الذين يأكلون لحم الكلاب لأنه خلال المجاعة الفظيعة في المدينة كانت هناك وفرة في الطعام في معسكر الدراويش . وهذا ما جعل المحاصرين أكثر جرأة وإساءة من ذي قبل لأنهم أدركوا أن المدينة كانت عملياً في أيديهم . لقد حاولنا كثيراً إقامة نوع من الاتصال مع إخواننا في البعثة بالمدينة ولكننا لم ننجح في الحصول على معلومات منهم يعتمد عليها . وأخيراً نحو نهاية ديسمبر استطعنا من خلال وساطة جورج استامبولي إرسال رسالة وتلقي جواب من الأب الأعظم يوهان لوسي حملته إلينا إحدى أرقائنا من النساء . والأنباء التي يحتويها الجواب تقطع نياط القلب . فجميع إخواننا مرضى بالإسقربوط وأعني بذلك الأب روزقنولي والأخ لوكاتلي وأربع راهبات بينما الأب لوسي نفسه كان على شفا الموت . لمدى شهر عاشوا على الدخن وحده والأرز . فأي شيء آخر انتهى . الأب لوسي أرسل إلينا ثياباً وهي بالنسبة لنا هبة

غير منتظرة وكذلك أرسل إلينا ٢٠٠ ريال بينما نحن بالمقابل لا نستطيع أن تفعل شيئاً لإخواننا المساكين المحاصرين . وبعد بضعة أيام سمعنا أن الأب لوسي قد مات في السابع والعشرين من ديسمبر بمرض الإسقربوط .

حاولت الحامية مراراً القيام بهجمات إلي الخارج ضد المحاصرين أملاً أن يستطيعوا الحصول على شاة أو ثور أو بعض الحطب . وقد سببت هذه الهجمات بعض الهياج في المعسكر . وإذا حدث أي شيء من هذا النوع ، فإن الصيحة المعتادة هي « التركي مرق » أي التركي خرج . وعندئذ فإن المعسكر يصحو فجأة ويموج كالنمل ويتحرك نحو المدينة لطرد أفراد الحامية إلي الداخل مرة أخرى . في هذه المناسبات تستنفد كميات من الذخيرة دون نتيجة كبيرة . وفي الوقت نفسه استمر المهدي في مواصلة مواعظه اليومية ضد غرور هذه الحياة وعن رسالته الإلهية وعن اقتراب نهاية العالم . وأثناء هذه المواعظ يقف الناس غارقين في العجب والدهشة من الحكمة العظيمة التي يتحلى بها المهدي .

المدافع المصرية تطلق النار مراراً على المعسكر . وفي مناسبتين انفجرت القذائف قريبا من كوخنا ولكن لم يصبنا منها أذى . والدراويش يردون النار ولكن طلقاتهم تقع دائماً متجاوزة بعيداً . ولو كانوا فقط مهرة في استخدام المدفعية التي لديهم فإنه ما كان يمكن الدفاع عن التحصينات ليوم واحد ولكن يبدو أن المهدي كان يرغب في أن يطول الحصار وبذلك يهلك المدافعون بالمجاعة . الآبار كانت على بعد حوالي كيلومتر واحد من الطابية وبذلك فهي في مدى نيران المحصورين . ولكن المهدي لم يكن يعبأ بهذا وكثيراً ما كان يشكل قواته هناك . وهي عملية نتج عنها عموماً خسارة بعض الرجال .

حوالي هذا الوقت جاء الشيوخ الرئيسيون لقبيلة الكبابيش القوية وهما الشيخان صالح والتوم أبناء الشيخ سالم لتقديم فروض الولاء للمهدي . وكهدية أحضروا معهم مائتي جمل ورداً على هديتهم أمر المهدي باستعراض عسكري كبير وضرب الأبيّض بالمدفعية على شرفهم . على أية حال لم يعر الشيخان كثير اهتمام لهذه الإجراءات

. وفي يوم من الأيام ترك الشيخ صالح المعسكر فجأة وذهب . ومنذ ذلك اليوم أصبح صالح عدو المهدي اللدود إلي يوم مماته . وكما سنرى كان صالح واحداً من آخر الشيوخ الكبار الذين أطاح بهم المهدي . أما أخوه التوم فقد وضع فجأة في الأغلال دون أي إنذار . وقد ذكر المهدي كسبب لذلك أن النبي قد ظهر له في رؤيا وأمره أن يفعل ذلك .

نحو أواخر نوفمبر وصلت أنباء بأن تعزيزات إضافية من القوات قد غادرت الخرطوم في طريقها إلي الأبيّض . أحدثت هذه المعلومات هرجاً ومرجاً كبيراً في المعسكر لأن هناك فكرة ما بأن قوات إنجليزية قد أرسلت . لا بد أن ذلك كان وصول الدفعة الأولى من القوات المعينة لتشكل في النهاية جزءاً من حملة هكس . ولكن حتى لو كان ذلك كذلك فقد أصبح إرسال أية نجدة للأبيّض متأخراً جداً .

في يوم من الأيام سمع المهدي أن المؤن يجري تهريبها إلي داخل الأبيّض وبيعها بأسعار عالية جداً . وليوقف هذا التهريب فقد جعل قواته تقترب أكثر من الأبيّض وتضيّق عليها الحصار . وتم القبض على بعض المهربين وكعقاب قطعت أيديهم اليمنى وربطت أذرعهم التي ليس بها كف إلي أعناقهم وساروا بهم حول المعسكر كإنذار للآخرين .

في أثناء ذلك وعند ما أوشك حصار الأبيّض على الانتهاء سقطت أماكن أخرى في كردفان في يد المهدي . فبلدة بارا تم تضييق الخناق عليها وكانت هناك قوة تتقدم لنجدتها بقيادة أبوكوكا ولكن الفكي المنّة هاجمها وقتلت أغلبية القوة ولكن بفضل شجاعة سرور أفندي نجحت بضعة مئات من الرجال من الوصول إلي المدينة . كان النور عنقرة المشهور على أسوار المدينة ولم يبد مقاومة أثناء الحصار وتحول إلي جانب الأعداء . وأخيراً في الخامس من يناير أجبرت بارا على الاستسلام من جراء المجاعة وأرسلت الحامية إلي معسكر المهدي .

تم الاحتفال بالنصر بتحية من المدفعية وظنت حامية الأبيّض سيئة الحظ أن هذا هو قدوم قوات النجدة . ولكن المهدي أوضح لسعيد باشا أن الأمر بالعكس وأن الاحتفال هو بسقوط بارا . وهذه الواقعة زادت من كآبة المدينة المنحوسة . وتخلت من جميع آمال الخلاص . ومع ذلك استمر المدير في التعلق بحبال الهواء وأن الخرطوم سوف تنجده .

وقد أبقت روحه المتفائلة على شجاعة الحامية . ولكن ذلك لن يدوم طويلاً . فالعساكر أصبحوا من الضعف بحيث لا يستطيعون حمل بنادقهم في أيديهم . وأدرك سعيد باشا أن المزيد من المقاومة لا فائدة منه . وفي حالة يأس اقترح أن ينسف نفسه في مخزن البارود . وكان من المؤكد أن يفعل ذلك لولا أن كبار الضباط عارضوه وقالوا إنه إذا فعل ذلك فإن أعداداً أخرى من الناس سوف تصبح ضحية كذلك. الآن لم يبق شيء يمكن فعله خلاف الاستسلام . وقد تم ذلك في التاسع عشر من يناير ١٨٨٣م .

الآن دخل المهدي وحشوده إلي الأبيّض وجعل مقره في المديرية . الحراس تحت قيادة المقدمين وضعوا خارج كل بيت كبير لمنع الأعيان ولمزيد من سلب الأموال والبحث عن الكنوز . وأما الأطفال والخدم والعبيد فقد حفظوهم جانباً وبالجلد المستمر أجبروا على كشف المخابئ السرية . وأما مباني البعثة بالطبع دخلها آلاف الأنصار . كان الأب بونومي والأخ لوكاتيللي طريحي فراش المرض وأما الراهبات فكن في غاية الإجهاد . مئات الدراويش تدافعوا للدخول في السياج الضيق حيث يرقد الأخوين المريضين . نزع الأنصار الصلبان من أعناق الراهبات وحطموها قطعاً قطعاً بالفؤوس . الراهبة كونشيتا كورسي التي كانت في ذلك الوقت أقواهن هاجمت هؤلاء الدخلاء القساة وجعلتهم يتعجبون من شجاعة هذه المرأة الضعيفة المسكينة . عندئذ دخل بعضهم بسيوف مسلولة ووجهوا حرابهم حتى أصبحت على بعد بوصة واحدة من صدرها وهددوها بالموت الفوري إذا أبدت أقل مقاومة . لكنها ردت عليهم بقولها : « أنتم كلاب ولستم رجالاً ! » . عندئذ وجه لها أحد الواقفين بالقرب منها ضربة على وجهها كسرت عددا من أسنانها وجعلت فمها يجري دماً .

بعد ثلاثة أيام من دخول المهدي إلي الأبيّض أخذ المبشرون إليه . وفي اجتماع مهيب حاول دون جدوى إجبارهم على أن يصبحوا مسلمين . وعندئذ أرسلوهم دون أي شيء خلاف ملابسهم التي يلبسونها إلي معسكر الدراويش في معية الآخرين الذين ظلوا أحياء بعد الحصار .

مجموعتنا الصغيرة قد ازدادت الآن بوصول الأب روزقنولي والأخ لوكاتيللي الذي كان

ميتاً أكثر من كونه حياً حيث حملوه على عنقريب[1] وأربع راهبات كن جميعهن يعانين من مرض الإسقربوط . أحضروهم إلي كوخنا . ولم يكن اجتماعنا أكثر من اجتماع حزين . الراهبات تصحبهن بنت تسمى بيانكا ليمونا وهي بالرغم من أنها سودانية إلا أن وجهها كان أشقر وتشبه الأمهق (ALBINO) صادف غردون عند ما كان يسافر من دارفور إلي الأبيّض شاباً من نفس النوع وجاء به إلي البعثة واقترح أن يزوجه من البنت. ولكن بما أنه مسلم متعصب فقد رفضت البنت رفضاً مطلقاً .

لما لم يكن لبيانكا قيمة تجارية فقد سمح لها الدراويش بالبقاء مع الراهبات أما جميع البنات السوداوات الأخريات من بنات البعثة فقد ظللن مع العساكر ولكن الصغيرات تم بيعهن . ومن بين البنات المسيحيات اختار المهدي اثنتين كمحظيات – إحداهن إثيوبية والأخرى سوداء . والأخيرة كانت حسنة التربية وتعلمت الأشغال اليدوية المتنوعة وسرعان ما أصبحت رئيسة جميع المحظيات .

استولى الدراويش على كميات من الأسلحة والذخيرة في الطابية وكذلك كمية كبيرة من الذهب غير المصقول وبضائع من جميع الأصناف وأثاث . حمل جميع هذا إلي بيت المال . وتم حفر جميع أرضيات البيوت بحثاً عن الكنوز المخبأة . وحتى الجثث تم نبشها وفحصها . جثة الأب لوسي الذي مات قبل شهر أخرجت وفتشت . حيث جرى اعتقاد أنه كانت لديه كميات من المال . لا بد لي هنا أن أقص واقعة تعطي فكرة عن الولاء الرائع من قبل السود المساكين التابعين لنا وحبهم لنا . كان الأب لوسي قد اشترى ولداً أسود صغيراً في الأبيّض . ولمدة السنوات العشر التي عمل خلالها هذا المبشر باستمرار لرفاهية وسعادة السود خدمه هذا الولد سعيد بإخلاص شديد . وخلال جميع أهوال ذلك الحصار المخيف لم يترك هذا الولد جانب " والده " حسبما كان معتاداً أن يدعو الأب لوسي . وعندما مات لوسي ، اعتاد الولد أن يقضي معظم اليوم باكياً على قبره . وفي يوم من الأيام وجدوه مستلقياً ممدداً على القبر وميتاً – لقد مات من حزنه على لوسي .

---

١ – سرير محلي

تم وضع المدير سعيد باشا والضباط العظام لفترة من الوقت تحت الحراسة وقد رفض المدير حتى تحت التهديد بالقتل أن يدل على الكنوز ولكن عند ما سمع سعيد باشا بأن محظيته وخدمه قد جلدوا بقسوة لجعلهم يبوحون بالأسرار سلم أخيراً جميع ممتلكاته إلي المهدي وكذلك مبلغ ٦٠٠٠ جنيه .

بعد بضعة أيام من سقوط الأبيّض شب حريق في الجانب الشمالي من المعسكر . وحملت الرياح القوية اللهب إلي الأكواخ الملاصقة وسرعان ما أصبح نصف المعسكر مشتعلاً . واضطررنا إلي الفرار من كوخنا الذي سرعان ما أحاطت به النيران بعد ذلك . واضطررنا مرة أخرى للعيش في العراء . وعلى أية حال نجح صديقنا استامبولي في الحصول على خيمة صغيرة لنا . أمر المهدي الآن باحتلال العرب لجميع مدينة الأبيّض . ولكن لما كانت المدينة ليست كبيرة لدرجة تكفي لاستيعاب جميع الناس سرعان ما أحاطت بها دائرة كبيرة من الأكواخ . ونحن من جانبنا شيدنا كوخاً صغيراً فيما وراء نطاق معسكر المهدي مباشرة . وهناك بعض الإغريق والسوريين الذين أخرجوا من الأبيّض جيران لنا .

إلي حوالي خمسة عشر يوماً كان معظم سكان المدينة من كتبة وموظفي حكومة وأقباط محروسين بصورة لصيقة ويجري جلدهم باستمرار لإجبارهم على الكشف عن أماكن إخفاء كنوزهم . ومعظم الأعيان تم تسليمهم إلي الأمراء . فسعيد باشا وضع تحت إشراف إسماعيل ود الأندوك وأرسل إلى علُّوبه . وعلي بك شريف أرسل إلي بركة . والعديد من الكتبة الأقباط أرسلوا إلي السنجكاية . وأحمد بك دفع الله والرائد ياسين سحبوهما إلي شكّا . وقد انتشرت تقارير شريرة عنهما وقد شاع أن المدير وعلى بك شريف قد كتبا إلي الخرطوم . وبناء على ذلك أمر المهدي بقتل المدافعين الشجعان مبرراً فعله بقوله إن النبي أمره في رؤيا بأن يفعل ذلك . على بك شريف أعدم بالسيف بالقرب من الخيمة التي تقيم فيها زوجته وطفلاها . وقد أخذهم فيما بعد سيد عبد القادر عم المهدي . وأما سعيد باشا فقد قتل بطريقة قاسية جداً بالفؤوس في علُّوبه . لقد كان مكروهاً من الناس الذين سمّوه " جراب الفول " لأنه كان سميناً وقصيراً .

وأما أحمد بك دفع الله والرائد ياسين فقد أعدما في شكّا . وهكذا كانت نهاية المدافعين الشجعان عن الأبيّض الذين في الحقيقة كانوا يستحقون مصيراً أفضل .

واستطاع المهدي أن يتنفس بحرية بعد أن تخلص هكذا من أعدائه . وكأنما أراد المهدي أن يجد عذراً لنفسه من أعمال القسوة الفظيعة إذ نشر رؤيا قال فيها إنه قد أخبر بأن سعيد باشا لم يذهب إلي النار وحيث أنه هو (المهدي) قد توسل في شأنه بحرارة فقد سمح له أن يذهب إلي الجنة .

في أثناء حصار الأبيّض كان هناك كثير من الاحتكاك بين المهدي والفكي المنّة حيث وصلت إلي سمع المهدي أخبار شربه للمريسة وسرقته للغنائم . وطالما كان الفكي المنّة مفيداً للمهدي فقد احتمله . ولكن عند ما سقطت الأبيّض أرسل إليه وجعله يقتسم غنائمه بالقوة معه . لذلك رجع الفكي المنّة إلي قريته الطياره متبرماً ساخط المزاج . ومنذ ذلك الوقت أصبح عدواً للمهدي . وبصورة مكشوفة جمع كمية من الدخن وجمع قوته المقاتلة . لذلك أرسل المهدي أبو عنجه والقائد العام لقواته عبد الرحمن النجومي وعبد الله ود النور مع عدد كبير من العساكر وبسير سريع ظهروا فجأة في قرية الطياره . وقد هرب الجوامعه أتباع المنّة من أول صليّة من الرصاص . هذا وقد قبض على أخي المنّة وعمه واثنين من أولاده وأعدموا في نفس المكان الذي أعدم فيه المنّة بنفسه في العام الماضي العساكر وزوجاتهم وأولادهم . وأخذت الرؤوس وعلقت في سوق الأبيّض كتحذير للآخرين .

الآن بدأ المهدي وأمراؤه يعيشون حياة يسر . فالأمراء احتلوا المباني العديدة حول المديرية وأصبحوا مرتاحين ولم يضعوا على أنفسهم قيوداً فيما يتعلق بالطعام والشراب . فالمال موجود بوفرة والمؤن كثيرة . وتبعاً لذلك أصبح الانغماس في الشهوات وحياة الترف أصبحت بديلاً للحياة المتقشفة التي حثت إليها دعوة المهدي في البداية . فالأمراء الرئيسيون فرحون بالعدد الكبير من الحريم وبمظاهر الفخامة . الجبّة ما زالت تلبس ولكن حالتها الممزقة التي كانت ضرورية في أيام الدعوة الأولى قد اختفت وخضعت لكثير من الزخرفة بقدر ما تسمح به . ونافس الأمراء بعضهم بعضاً فيما

يملكون من عبيد وماشية وخيل وحمير . وأصبحت قوائم سيوفهم مزخرفة بالفضة . وبدلاً من الرقاد على الأرض القذرة وملابسهم ممتلئة بالقمل فقد اتخذوا أسلوب حياة الأتراك والمصريين المترفة المريحة . وقد أصيب الشريف محمود عم المهدي بصدمة شديدة عند ما وصل من قدير ليرى حياة السكر والفجور التي يقودها الأمراء وخاصة ود النجومي . وقد حث المهدي ليأمر ود النجومي تخفيض حريمه بعشرين زوجة حيث باعوهن فيما بعد كرقيق في بيت المال . وفي نفس الوقت أصدر المهدي أوامر صارمة ضد حياة الترف وأصر على عدم لبس الحلي الذهبية والفضية . كذلك أمر أن يتألف اللبس في المستقبل من طاقية مصنوعة من سعف النخيل وتلف حولها عمامة لها عزبة تتدلى على الجانب الأيسر وجبّة وسروال وحزام (كرّابة) من القصب . وقد أصبح ذلك هو الزي الرسمي لهؤلاء المحاربين الغبش .

القواعد المتعلقة بالتدخين والسكر يتم تكرارها بصرامة شديدة . وقد كان من الصعب جداً إقناع السودانيين بترك التدخين ومضغ التبغ . فالمرء قد يعطي كل ما معه من مال عن طواعية للحصول حتى على كمية قليلة . ثم إن السود وخاصة الأمراء فإنهم مدمنون كثيراً على شرب المريسة التي وجد أنه من الصعب إيقافها . واذا قبض على رجال ونساء وهم يدخنون أويتعاطون المسكرات فإنهم يجبرون على المشي خلال السوق مع ماعون الشراب أو التبغ محمولاً على رؤوسهم وخلفهم جمهور يسبهم ويصيح فيهم باستهزاء . وكانت العادة أحياناً كسر ماعون المريسة على رأس الشارب وغمره بالمحتويات . وقد كانت هذه إشارة إلي جميع الأطفال لقذف المجرم بالطين وبالغبار إلي أن يصبح لا يمكن التعرف عليه . ثم يتم سحبه ليمثل أمام القاضي في السوق حيث يتلقى ثمانين جلدة شديدة جداً . وعموماً فإن أول جلدات تسيل الدم . وكان المكان مليئاً بالجواسيس الذين كانوا يراقبون دائماً للإبلاغ عن المدخنين والشاربين إلي المهدي . وأحياناً يدخلون البيوت عنوة وعندما لا يجدون شيئاً فإنهم يرمون خلسة بعض التبغ على الأرض والذي يكتشفونه فجأة ويعلنون أنه تابع لصاحب المنزل ويسحبونه على الفور ويجلدونه دون رحمة بالرغم من أنه برئ تماماً .

تطبق العدالة وفقاً للشريعة الإسلامية . فمن يكفرون بالله أو يسبون الدين يعاقبون بالموت على الفور وكذلك جميع أولئك الذين لا يؤمنون بالمهدي . والقاتل تقطع عنقه في الحال ولا تقبل أية ظروف مخففة. واللص تقطع يده ورجله . والزنا بين المحصنين قطع رأس الزاني ورجم الزانية ولكن في هذه الحالة الأخيرة فلا بد من دليل ضروري وهو أن يكون للزانية ولد . أما الزنا بين غير المحصنين فعقوبته ثمانون جلدة . هذه القوانين فيما يتعلق بالأمور غير الأخلاقية فهي في حالة الأرقاء على أية حال مخففة إلي حد ما وهي كقاعدة عامة يعاقب عليها بالجلد فقط . والأشخاص الذين يوجدون يقومون بعمليات الخصي يعدمون . ولو أنه من الغريب أن الخلفاء والأمراء جميعهم يحتفظون بالخصيان لحريمهم . والأرقاء الذين حررتهم الحكومة المصرية لم يعترف بحريتهم وقد أجبروهم مرة أخرى ليصبحوا أرقاء . وشهادة العبد لا تقبل في المحاكمات . وجميع القضايا الهامة يفصل فيها أمام المهدي وهو يحاكم الأشخاص حسبما يراه مناسباً . والقانون الموسوي – العين بالعين والسن بالسن – غالباً ما يتبع . وعموماً يقوم أقارب القتيل بتنفيذ الأحكام على المجرم شريطة أن يوافق القاضي والعقوبة قد يتم تعديلها أو إلغاؤها كلياً عند دفع الدية . وبالإضافة إلي المهدي فإن أقاربه وخلفاءه مسموح لهم بالفصل في القضايا . وهذه العملية نتجت عنها فوضى كبيرة وإهدار للعدالة . ومكان السوق هو المركز الرئيسي للنشاط . فهنا القاضي يعقد محكمته ويمكن أن يجعل من ذلك عملاً مربحاً باستبدال العقوبات بالمال .

بعد قليل من سقوط الأبيّض ، قام المهدي بتنظيم أموره المالية . فعرب كردفان الذين أحرزوا نجاحات كثيرة ضد الحكومة والذين أيدوا بالفعل دعوة المهدي توقعاً لما سيحصلون عليه من غنائم ، أمروهم بأن يحضروا الغنائم حتى أصغر شيء إلي المهدي في الأبيّض . ولتنفيذ هذا الأمر أرسلت فرق من الدراويش إلي الاتجاهات المختلفة لإحضار العرب بالقوة . وقد ندم هؤلاء العرب الآن لانضمامهم بتسرع في المقام الأول إلي المهدي . أحضر كل شيء إلي بيت المال وبيع هناك علناً . ومن العائدات أعطي خمس إلي المهدي شخصياً وباقي الأربعة أخماس رصدت كإيرادات إدارية . ولكن في الواقع

جزء كبير من هذا المبلغ يجد طريقه أيضاً إلي خزانة المهدي الخاصة . وقد كان أحمد ود سليمان المحسي من خلصاء المهدي وقد أعطاه سيطرة غير محدودة على بيت المال . وكان لدى سيده (المهدي) إلهام إلهي يشير إلي أنه هو الرجل الوحيد الذي يتولى هذه الوظيفة المسئولة ونتيجة لذلك فلا يمكن مهاجمته . وحينما يخرج المهدي راكباً على جواده يمسك أحمد باللجام ويمشي حافياً بجانب الجواد .

جميع المتعلمين كانوا محتقرين ومكروهين لدى المهدي لأنه بطبيعة الحال قد أدرك الخطر من معارضتهم لدعواه بالرجوع إلي الكتب الدينية . وبناء على ذلك فإن جميع مثل تلك الوثائق الدينية قد أمر بحرقها وكل من أخفى كتاباً فإنه يفعل ذلك مغامراً بحياته . وكان هدف المهدي هو إبقاء الناس في الجهل بدعواه أنه هو مركز كل الاستنارة والمعرفة . وقد وجد متملقون ادعوا أنهم رأوا إشعاعات من النور تخرج من رأسه . وقد انهمك مراراً في رؤى يحكي فيها أحياناً أنه عرج بروحه إلي السماء حيث تحدث مع الله ونبيه . وكان يعتبر الشك في صحة هذه الرؤى جريمة لا تغتفر . وقد أبطل كلياً جميع القواعد والأعراف التي كانت تمارسها الحكومة . فلبس الطربوش أصبح ممنوعاً قطعياً وإذا شوهد أحد يلبسه ينزع من رأسه ويمزق قطعاً . وتم حرق جميع سجلات الحكومة كما تعتبر الديون الناتجة عن تعاقدات مع الحكومة بأنها ملغاة . وأمر أتباعه بأن يدعو أنفسهم بكلمة " فقراء " أو " أسياد " .

كانت عادته المألوفة أن يصلي على حصير صغير من القصب يوضع له في ديوان المديرية في حضور جميع أتباعه . وعموماً يقف عبد بجانبه يحمل له مخدة إما يجلس عليها أو يبرك عليها حسب مقتضى الحال . وعند ما تنتهي الصلاة يستقبل الزوار ويتحدث في الأمور العامة ويقرأ خطاباته ويتحدث عن أخلاق وعادات الأتراك بهدف أن يجعل سامعيه يحتقرونهم ويضحكون منهم . هذا وقد انغمس بشراهة في الملذات الحسية لدى عدد حريمه الضخم . وبدلاً من النبيذ فقد استبدله بشراب يجد إعجاباً كثيراً في السودان يتألف من منقوع التمر مع الزنجبيل الذي كان يشرب منه كميات بأكواب فضية أخذت من كنيسة البعثة في الأبيّض .

وبالرغم من كل هذا العيش المترف لم يغفل المهدي من نشر دعايته الجديدة على نطاق واسع . كتب عدة خطابات إلي سكان إقليم الجزيرة يدعوهم إلي الثورة وهدد جميع من يرفضون الإذعان لدعوته . وانضمت أعداد كبيرة إلي راياته جزئياً نتيجة الخوف وجزئياً لأنهم أدركوا عدم قدرة الحكومة على مواجهة الثورة . ففي هذا الوقت أرسل عثمان دقنه – الذي أصبح فيما بعد مشهوراً جداً – إلي شرق السودان . إن هذا المتعصب الديني التابع للمهدي اقتفى مثال سيده في كل شيء . فلا يلبس حذاء ولا صندلاً ولا يركب إلا خلال زحف طويل بصورة استثنائية . وحجته في ذلك أنه طالما أن المهدي يفضل المشي على الأرض فقد جعلها بذلك مقدسة . أرسلت الآن قوة للقبض على الشيخ التوم من الكبابيش الذي قيل إنه على اتصال حميم مع الخرطوم . لقد تمت مهاجمة الرجل السيئ الحظ ليلاً وتم القبض عليه وسحب مقيداً بالسلاسل ومعه زوجته وطفله وعبيده وجماله إلي الأبيّض . كان المهدي مستعداً للعفو عنه ولكن الخليفة عبد الله أصر على قطع رأسه وقد تم ذلك . هذا العمل القاسي أخاف بقية القبيلة . وخلال الخمسة عشر يوماً الأخيرة من رمضان كان المهدي يعتكف وينقطع للصوم والصلاة . وأما أيام العيد التي تعقب رمضان فإنها تخصص للاستعراضات والمناورات العسكرية التي ترفع من حماس أنصاره المتعصبين الذين صاروا الآن كثيرين .



إمرأة دنقلاوية

وفي حوالي هدا الوقت وصلت رسالة من مصطفى ياور مدير دنقلا إلي عثمان طبجي . وكان هذا الأخير رجلاً كريماً للغاية أعطى معظم أمواله إلي الفقراء والأرامل والأيتام خاصة أثناء حصار الأبيّض . وهكذا كسب طبجي إكرام واحترام الجميع . وعند سقوط الأبيّض أعاد إليه المهدي ما صودر من ممتلكاته . وعندئذ بدأ على الفور في العمل على إغاثة الأسر المصرية المكروبة التي طردت من بيوتها وأخذت أموالها . في رسالته سأل مصطفى ياور صديقه طبجي إذا كان محمد أحمد هو المهدي الحقيقي أم لا . هذا الخطاب وقع في يد المهدي . وفي الحال أرسل المهدي إلي طبجي فأحضر وسأله المهدي عن الإجابة التي يريد أن يرسلها فأجاب طبجي بقوله : " عندما ترتفع الشمس فوق الأفق فإنها تكون مرئية للجميع ولا حاجة إلي دليل آخر إلي وجودها . وهكذا فإذا كان المهدي هو المهدي الحقيقي فإن أعماله سوف تدل على الحقيقة " . هذه الإجابة المراوغة لم تقنع المهدي على أية حال . وقد أجبر طبجي على التوقيع على خطاب يعلن

أن محمد أحمد هو المهدي الحقيقي . ثم أرسل الخطاب إلي مدير دنقلا .

كان المهدي بارعاً في فن كسب الناس . ابتسامته الهادئة وأخلاقه اللطيفة وكرمه ومزاجه المعتدل ولو أنه يكون أحياناً قاسياً . جميع ذلك أفضى إلي تحسين الفكرة الشعبية عنه . وقد نسب إعدام سعيد باشا وعلي بك شريف إلي الخليفة عبد الله . وعندما جاءوا إليه بالابنين الصغيرين لعلي بك شريف بكى المنافق الباسم على مصير والدهما . والنساء خاصة يتحدثن عنه كثيراً ويعتقدن أنه أجمل الرجال وهن يحلفن به بقولهن : " وحق رب المهدي " أو " حق سيدنا الإمام " وكل قول أو قسم مغلظ يبدأ بكلمات مثل " عليك المهدي المنتظر "[٢] . ويجري تمجيد فضائله في قصائد ويشار باستمرار إلي جماله وحكمته وقامته وانتصاراته المتكررة على الأتراك . واعتاد المتسولون حفظ أشعار مديح خاصة وبإنشادها من بيت لبيت كانوا يضمنون إعطاءهم الصدقات . وقد نجح هذا المديح إلي درجة أنه إذا أنشد المتسول مدائح يأتي فيها اسم النبي فإنهم يقاطعونه ويأمرونه بوضع اسم المهدي مكان اسم النبي في المديح . وكانت مدائحه تنشد في كل ركن شارع . فالعساكر أثناء طابور السير ينشدون عن انتصاراته العظيمة والإناث من الأرقاء أثناء جمع الحطب أو حمل الذرة أو طحنها بين حجارة الرحى (المرحاكة) جميعهن ينشدن نفس المدائح التي يمكن أن تسمى حقاً بالنشيد الوطني للمهدي . وتبدأ بالكلمات : « المهدي نور عينينا » أي المهدي نور أعيننا . أو بالكلمات : « المهدي كمّل الترك في كانا » والعرب يبتهجون للشعر . وهم يتجمعون أثناء الليل في مجموعات على الرمال وينشدون مدائح في المهدي . والمنشدان الرئيسيان يحفظان الإيقاع بضرب الأرض بعصيهم بينما يشارك الباقون في الكورس عند نهاية كل قافية . وأحياناً يحركهم موضوع هذه المدائح فيهبون واقفين ويلوحون بسيوفهم في الهواء كأنما يقاتلون الأتراك وهم يصيحون « في شأن الله » . وهكذا تملق المهدي امتد من أعلى أمير إلي أوضع عبد والويل لمن يسمع عنه أنه قال كلمة واحدة في التقليل من مكانة النبي الجديد أو لومه . فعلى الفور سيقفزون عليه ويضربونه بالعصي حتى الموت.

---

٢ - المترجم : أخطأ المؤلف فذكر أنهم يقولون « عليك المهدي المنتصر »

أحياناً يدعون المهدي بعبارة « خليفة الرسول » وأحياناً يبجلونه حتى بلقب نبي . وفي الحقيقة فإن النبي محمد يحتل في عقول الناس مركزاً ثانوياً تماماً وأن الاحتفال بالمولد النبوي قد منع بأمر المهدي .

في إحدى المناسبات حدث نزاع بين رجلين ، جادل أحدهما بأنه سيكون للمهدي مقام أعلى من النبي يوم القيامة بينما أصر الآخر بأن النبي أعلى مقاماً من المهدي . ولما احتدم النزاع وتم تحويل الموضوع للقاضي حسم القاضي الأمر بقوله : « إن الحي أفضل من الميت » ولكن في نفس الوقت فإن الرجل الذي دافع عن أفضلية النبي أودع السجن . ليس بسبب تمسكه بما هو صحيح تماماً وهو « أن النبي أعلى مقاماً من المهدي » ولكن لأن النبرة التي قال بها الجملة ترقى إلي إساءة للمهدي . وطبيعياً أن أولئك المسلمين الذين ما زال لديهم إحساس بالعقيدة الصحيحة قد انزعجوا جداً لهذا القرار .

في أوائل أبريل وصل رسول من الخرطوم برسالة من القنصل النمساوي هانسل . والآن وبينما نحن غرباء للغاية في الأبيّض فالناس لم يجرؤوا على الاختلاط بنا . لذلك يسلم الرسول الرسالة إلي جورج استامبولي الذي كان في ذلك الوقت معروفاً للجميع . استامبولي الذي كان يمدنا بجميع ضروريات الحياة جاء إلينا الآن في حالة إثارة عظيمة محضراً معه الرسالة التي كان يأمل أن يجد فيها بعض أخبار العالم الخارجي . فتحنا الرسالة التي كانت طويلة ومكتوبة بصورة جيدة فوجدنا أنها موجهة إلي المهدي . قرأناها واعتبرناها رسالة مكتوبة بطريقة جيدة . وفيها خاطب هانسل المهدي بلقب « الشيخ » وتوسل إليه بإطلاق سراحنا على أن يتسلم كفدية المبلغ الذي يطلبه وأنه هو (هانسل) مستعد لدفعه . هذا وقد أمر حامل الرسالة بأخذها مباشرة إلي المهدي . ولكن خوفاً أن تعرّضه محتويات الرسالة للخطر فقد أعطاها لاستامبولي . ولكن في رأي استامبولي أن الرسالة لا فائدة منها حيث أنه حاول كل ما يستطيعه لإطلاق سراحنا ولكنه لم يستطع ودافع الأب بونومي بأنه طالما كانت الرسالة بدون فائدة فإنها لذلك لا ضرر منها وأنه قد لا يكون هناك اعتراض على تسليمها إلي المهدي . وعلى ذلك تم تسليمها إليه . وقد عبّر المهدي عن سروره العظيم بتلقيها . وبالرغم من إقراره بأن

نظام الفدية كان شائعاً أثناء أيام النبي إلا أنه قد غيّر ذلك كما قال وكذلك الجزية على عدد الرؤوس التي كان يدفعها المسيحيون من قبل .

على أية حال فقد وعدنا بالحماية إلي حين مجيء سيدنا عيسى وعند ذلك إما أن نتحول إلي مسلمين أو نقتل . وهكذا فإن الرسالة لم تكن ذات فائدة لنا . وفي اليوم التالي انتشرت إشاعة في الخارج أن القنصل النمساوي قد انضم إلي المهدي . هذا وقد طلب الرسول أن نكتب له بضعة أسطر ليعود بها ولتكون دليلاً على أنه سلم الرسالة إلينا . وقد كتبنا له مع استامبولي الرد وغادر الرسول إلي الخرطوم . ولكن تبعه الجواسيس . وعندما وصل إلي كورسي وهي تبعد مسيرة يوم ونصف ، قام الجواسيس بتفتيشه ووجدوا الخطابات في حقيبة السرج على الحمار . وبناء على ذلك اعتقلوه وعادوا به ورموه في السجن مقيداً بالسلاسل .

انتشرت بسرعة أخبار كاذبة بأن بريداً إنجليزياً قد وصل . وقد استدعيت أنا والأب بونومي على الفور لقراءة الخطابات . وقد خطر لنا أن خطاباتنا ربما تم الاستيلاء عليها وأننا قد نكون في شيء من الخطر . أما أنا فلم أكن خائفاً فيما يتعلق بخطابي إلي هانسل لأنني كتبته بالألمانية . ولم يكن هناك شخص بخلافي يفهم الألمانية في الأبيّض . ولكن خطابات بونومي كانت مكتوبة بالإيطالية وهناك عدة أشخاص يفهمون تلك اللغة . وعندما دخلنا المديرية رأينا أستامبولي قادماً أيضاً . أخذونا أولاً إلي الخليفة شريف الذي كان راقداً على حصيرة من القصب في كوخه . وبعد أن حيّانا رفع طرف الحصير واستخرج عدة خطابات أدركنا على الفور أنها الخطابات التي كتبناها . وسأل الخليفة إن كنا قد كتبناها ورددنا عليه بالإيجاب . وعلى ذلك استخرج ورقة كتب عليها بونومي أنه يجب أن يتلقى الرسول ستة جنيهات . وقد ترجم الأب بونومي هذا للخليفة واستدعى عندئذ استامبولي حيث أنه يتظاهر بمعرفة عدد من اللغات الأوروبية بينما هو في الحقيقة يعرف القليل أو لا شيء . وعندما عرضت عليه الورقة ليقرأها ، قال إنها تحتوي على وصفة طبية « روشته » وهذه الترجمة لم تتفق مع ترجمة بونومي . وأثناء همهمة المتفرجين ، قام الخليفة الآن وطلب منا متابعته إلي ديوان المديرية ومن هناك

إلي غرفة مجاورة للديوان حيث يجلس فيها المهدي مع الخليفة عبد الله . و
الخليفة عبد الله إلي ملازمة الفراش بسبب كسر ساقه عندما سقط من حـ
اصطدام بفارس آخر وفي أثناء سقوطه رفسه الحصان بقوة . الأب بونومي وا
وحدهما أخذا إلي حضرة المهدي بينما تركوني في الغرفة بالخارج . كان هنا
وأيضاً إغريقي في الغرفة . وبينما كنت أجلس على الأرض بالقرب من البا
الإغريقي وقال لي إن هناك شيخاً يود أن يتحدث إليّ . رددت عليه بقولي « ا
يأتي إليّ إذا أراد أن يتحدث إليّ فأنا لم أطلب منه شيئاً » .

بعد لحظات أتي إليّ الشيخ في ثورة غضب وبدون مزيد من اللغط هاجمني
ورفسني وسبني بعبارة « كلب مسيحي » ثم أمسكني من رجلي وسحبني إلي الـ
البوابة حيث قال إنه يريد قطع رأسي .

وصلت أصوات هذا الصراع إلي أذن المهدي فأرسل مخصياً لتخليصي
الشيخ . وبعد قليل خرج إلينا المهدي بنفسه وبونومي واستامبولي وكانوا مسر
حد أكثر من أن حادثتي مع الشيخ قد قطعت عليهم محادثة مؤلمة نوعاً ما . ة
يبد عليه غضب وكالعادة ابتسم ابتسامته اللطيفة في كل اتجاه . ثم صلى صـ
في الديوان وهو محاط بأمرائه الرئيسيين بينما صلى الجمهور معه في فناء
وبعد انتهاء الصلاة جلس على حصيرته وافتتح مجلسه الرسمي بينما وقف
خلفه يدفع الهواء نحوه بمروحة يدوية ويطرد الذباب عنه . وعرض عدد
قضاياهم عليه بصوت خفيض جداً ومتواضع النبرة . ومن الإشارات العد
صدرت استنتجت أنه قد أرضى الجميع . ثم إنه قرأ بصوت عال خطاباً مـ
نفوذ في الخرطوم والذي نسيت اسمه . وبعد قراءة الخطاب دخل عدد من الشـ
قسم الولاء للمهدي .

خلال هذه المراسم يضع الشخص المؤدي للقسم يده في اليد اليمنى للمهدي
المهدي القسم حسب الصيغة التالية « لقد نذرت نفسك وأبناءك وأموالك
. يجب ألا تقع في دنس وألا تسرق وألا تشرب الكحول وأن تلزم نفسك بأ

في الجهاد » . ويختم الشخص المؤدي للقسم بكلمة « آمين » . وإذا أدى القسم عدة أشخاص معاً فإنهم يرددونه في كورس وفي النهاية يصيحون بقولهم « في شان الله » . وعندما انتهى المجلس طلبنا من المهدي السماح لنا بالانصراف وقد سمح لنا بذلك .

والآن حكى لنا بونومي مقابلته مع المهدي والخليفة عبد الله . لقد اعتقدوا أننا كتبنا خطابات إلي الحكومة في الخرطوم ، ولكنهم لم يستطيعوا قراءة الخطابات وهي لم تحوي في الحقيقة على أي شيء سياسي . أعطى بونومي المهدي ملخصاً مختصراً عما حوته . وقد بدا المهدي مسروراً لذلك ولكن الخليفة عبد الله بدا غير مقتنع .

خلال الأيام الثمانية التالية كنا في خطر عظيم . وكان موضوع الحديث الوحيد بيننا هو ماذا سيفعلون بنا . وكانت الفكرة العامة أنهم سيقومون بقطع رؤوسنا . ولكن استامبولي كان يستخدم أصدقاءه وبقوة الرشاوى تم كتمان الأمر ورغم ذلك فإنني اعتقد بأننا نعزوه بصورة رئيسية إلي فضل المهدي ولطف مزاجه . بعد حوالي عشر أيام استدعونا أمام أمير يسمى حاج خالد كان قد أجرى تحريات عن الخطابات وقد أخبرناه أننا مستعدون لترجمتها حرفيا « كلمة كلمة » وكان إصرارنا على ذلك دون خوف قد ترك انطباعاً جيداً لديه ولم يزعجنا أحد بعد ذلك بهذا الأمر .

كان يستطيع بعض التجار الأوروبيون ترجمة الخطابات ولكن استامبولي رشاهم بعشرين جنيها . وفي السادس والعشرين من أبريل وذلك بثلاثة عشر يوماً بعد اعتراض الخطابات والاستيلاء عليها ، عفا المهدي عن استامبولي في اجتماع عام وأعاد الخطابات إليه . ثم قمنا بترجمتها كلمة كلمة إلي العربية في حضور اثنين من أصدقاء المهدي الذين يثق فيهم وأعدنا الترجمة إلي المهدي الذي يبدو أنه اقتنع من مضمونها العام بأن محتوياتها غير ضارة .

الباب الخامس

انتصار المهدي على هكس باشا

الأسرى الأوربيون يعلمون أن هكس يتقدم – دفاع سلاطين بك عن دارفور – بطولته – المهدي يتجهز لمقاومة هكس – سير حملة هكس – مقتطفات من يوميات الرائد هيرلث – بسالة العقيد فارقوهر في الرهد – غوستاف كلوتز يفر إلي المهدي – مقابلة كلوتز للمهدي حيث قام أورفالدر وبونومي بالترجمة – الحملة تتقدم نحو شيكان – تمت الإحاطة بالحملة وإبادتها – وصف المعركة – المهدي منتصر كردفان

في ورطتنا التعيسة الحالية كانت جميع آمالنا متجهة إلي الخرطوم
منها النجدة . حتى الآن سمعنا فقط إشاعات غامضة . ولكن أخبار هز
المكاشفي على النيل الأبيض شجعتنا على مواصلة الأمل . لم تكن لدينا ف
يقود القوات المصرية في هذا القتال . ولم نكن متأكدين بالمرة من السيا
تتبعها الحكومة فيما يتعلق بكردفان . وبالطبع في هذا الوقت كانت التقارير
في كل مكان ومن الصعب أن تصل إلي الحقيقة . في البداية كنا نميل إلى
شيء نسمعه ولكننا وجدنا تدريجياً أننا نعيش في جو من الكذب والخداع .
نكاد لا نصدق أي شيء نسمعه . والمثل السوداني القائل « اعتبر جميع
وصحيحة حتى وإن كانت كاذبة » مطبق بصورة عامة في العالم الإسلا
الذين ينتظرون النجدة من الحكومة يأملون دائماً في تلقي الأخبار الط
بأصغر الذرائع لإعطاء لون لتوقعاتهم . وتصديقهم الأحلام التي لا تتحقق
شقائهم . فلا فائدة من محاولة تنوير هؤلاء الجهلة الفقراء . فالتكذيب
. وهم يسألون دائماً العرّافين عن المستقبل ومن الطبيعي أن العرّافين
يودون سماعه وهكذا يعطونهم أملاً لفترة قصيرة . ولكن عندما يتضح
غير صحيح كما هو الأمر دائماً — فإن ذلك يزيد من اكتئابهم .

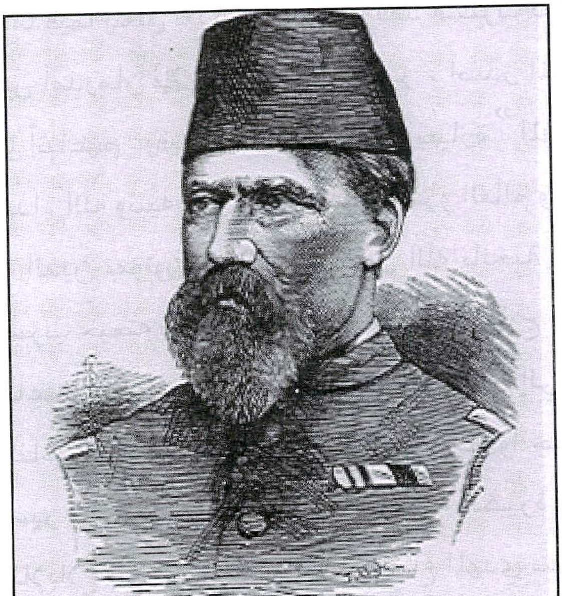
إن الله برحمته قد أرسل لنا شعاعاً من الضوء في ظلام أسرنا مما أث
أمل الإنقاذ الذي كاد أن ينطفئ . ففي الحادي والعشرين من يونيه ٨٣
إلي كوخنا الصغير وسأل بصورة فيها شيء من التقديس إن كنا نحن ا

التأكيدات المتكررة بأننا نحن هم ، تشجع الرجل وأخرج من بنطلونه مذكرة صغيرة كان أخفاها بعناية وسلمها إلي الأب بونومي الذي فتحها بسرعة عصبية ومر بنظره بسرعة على الأسطر القليلة التي أعطتنا حياة جديدة . المذكرة موقعة من ماركوبولي بك بأمر من الجنرال هكس وفحواها أنه يجب علينا التمسك بالأمل وأنه سرعان ما يبدأ الشتاء فإن جيشاً كبيراً سوف يتقدم داخل السودان لمهاجمة المهدي . قبّلنا تلك الورقة المتسخة الصغيرة وشكرنا الله من قلوبنا لإرساله إلينا أنباء مفعمة بالعزاء والمؤاساة . لقد أصبحنا مطمئنين والآن انفرج مستقبلنا المظلم وحلت مكانه الآمال السارة التي أضاءت الشهور القليلة من التأخير المقلق التي تلت تسلم هذه المذكرة . المذكرة مؤرخة من النيل الأبيض حيث كسب الجنرال انتصاراً على ود المكاشفي . وسرعان ما انتشرت أخبار الحملة ضد المهدي انتشار النار في الهشيم داخل المعسكر .

يبدو أن القنصل هانسل كتب أيضاً خطاباً إلي المهدي ولكن المهدي لم يذكر لنا شيئاً عنه . قالت أمينة إحدى البنات السود التي اتخذها المهدي محظية أنها رأت في يد المهدي خطاباً بختم كبير.وعليه صورة الصقر ذي الرأسين . لكن يبدو أن المهدي لم يعطه كبير اهتمام . في دارفور كان لأخبار حملة هكس المرتقبة تأثير عظيم . فسلاطين ، الحاكم العام ، كان يحارب بصورة مستمرة ضد أهالي دارفور وضد الرزيقات والهبّانية والقبائل العربية الأخرى . فهو الآن في الشمال ، ثم في الجنوب يقاتل بشجاعة وبسرعة غير عادية الثورات المتعددة التي اندلعت في جميع أنحاء المديرية . لقد كان كارثة على العرب وقد قتل آلافاً منهم وطاردهم إلي جبال ووديان جبل مرة التي تكاد أن تستعصي على الاقتحام . كانت قدراته على التحمل مدهشة . وكثيراً ما يقضي أربعاً وعشرين ساعة على ظهر السرج وهو يقاتل بلا انقطاع وبدون أكل أو شراب . كان ينام على الأرضية أو الأرض العارية بجانب عساكره المحليين وعاش على الذرة المنقوعة في الماء . وكان عادلاً لا يأخذ الرشاوى وكريماً مستعداً دائماً لمساعدة الفقراء والمحتاجين . ولم يرفض مقابلة قاصديه من كبار وصغار لطلب عونه . وكما أخبرني بنفسه فإنه بالرغم من أنه قاتل في سبع وعشرين معركة ضد العرب فإنه لم يستطع القضاء عليهم

لأنهم كانوا مثل نبات عش الغراب ينبتون من الأرض .

كان سلاطين في القتال أكثر بطولة . ففي إحدى المناسبات أصابته طلقة حطمت أحد أصابعه ولكنه وبدون وجل أمسك بالباقي المتدلي من الإصبع بيده الأخرى وأمر الشخص الذي يقف بجواره أن يقطعه بسكينه ثم انضم مرة أخرى إلي القتال وشجع رجاله حتى النصر . ليس فقط في كردفان بل في جميع أنحاء السودان كان مشهوراً بشجاعته في وجه العدو . وما زال غير قادر على مواجهة الثورة المنتشرة في مديريته . ولم يجد دعماً كبيراً من ضباطه المصريين الذين كانوا يحسدونه ويتآمرون ضده باستمرار . ومع ذلك كان من المدهش نجاحه مع كل ذلك في المقاومة كل ذلك الوقت الطويل . وأخيراً وعندما كادت أن تنفد ذخيرته ، جاءت الأنباء بحملة هكس المزمعة وليكسب الوقت لجأ إلي



هكس باشا

التالية . كان وكيله محمد زُقل عم المهدي وهو رجل ذو إدراك . توصل معه إلي تفاهم خاص وافقا بموجبه على أن يقوم زُقل بزيارة إلي المهدي . ويبلغه أن مستعد للاستسلام شريطة أن يسمح له بالاحتفاظ بوظيفته الحالية . ثم على ود بمعلومات كاملة عن المهدي وقوته إلخ . وفي نفس الوقت يحاول ترتيب وقف حتى وصول هكس . فإذا انتصر هكس فإن سلاطين ودارفور سوف تسلم من الا فإن كل شيء سوف يضيع . فهذه الخطة إذا نجحت سوف تمكن سلاطين مود إلي أن يصل هكس وإلا فلن يستطيع الصمود . بدأ زُقل رحلته ووصل في بداية سبتمبر ١٨٨٣م حيث استقبله المهدي بحرارة . وقد سر المهدي كثيراً ح سلاطين وأمر بضرب مائة قذيفة مدفعية لإعلان استسلام سلاطين .

ع المهدي الآن أن يكرّس اهتمامه كله للاستعدادات المتعلقة بمقاومة تقدم ، هكس . وأما فيما يتعلق بعدد قوات هكس فقد انتشرت تقارير طائشة . وعند غادرة هكس أمدرمان في التاسع من سبتمبر ، أصدر المهدي بياناً يأمر فيه بقراءته على أتباعهم . وفيه كالعادة لقّب نفسه بعبارة " المهدي الذي أرسله الله الأتراك أعداء الله ونبيِّه " وأن رسالته هي غزو العالم ومدح فضائل الجهاد ميع أولئك الذين يموتون مقاتلين في سبيل الله بالجنة ونعيمها . وقام الآن لأبيّض وضرب خيمته تحت شجرة تبلدي عظيمة خارج أسوار المدينة . وقام ثلاثة وأتباعهم بفعل نفس الشيء . وكانت تلك إشارة إلي جميع سكان المدينة . ترك الناس الحياة السهلة وحياة الراحة وتجمعوا حول رايات أمرائهم . وقت قصير قام معسكر ضخم توقعاً للمعركة الكبيرة . وأرسلت الرسل في جاهات للإبلاغ بأن أي شخص يرفض إتباع المهدي ستقطع يده ورجله من ضم جميع الرجال عن طواعية واتسع معسكر المهدي يومياً وسرعان أكواخ القش (التُّكل) السهل بالرغم من أنه قد سمح للناس بالذهاب إلي ذ بالتناوب . وأرسلت مفارز من القوات إلي أجزاء مختلفة (من كردفان) اويش . وقد تدفقت قبائل كاملة من جميع الاتجاهات نحو الأبيّض . وأقيمت

مناورات واستعراضات يومية وأطلقت المدفعية بصورة متكررة حتى تعتاد الخيول على الضجة . وهكذا بث المهدي حماساً قوياً في الجماهير وقد بدأنا نشعر ببعض الخوف على هكس .

أرسل المهدي الآن ثلاثة أمراء وهم عبد الحليم ود الهاشمي وحاج محمد أبو قرجة وعمر إلياس باشا مع أتباعهم إلي الدويم . وقد أمرهم بمراقبة تحركات قوات هكس . وعندما تترك قواته النيل الأبيّض عليهم بقطع اتصالاتها ثم عليهم إزعاج ومضايقة زحفه بقدر المستطاع ولكن دون الدخول في اشتباك عام . وقد تم تنفيذ هذه التعليمات بصورة مدهشة .

غادر الجنرال هكس الدويم في الرابع والعشرين من سبتمبر ١٨٨٣م وسار في اتجاه جنوب غربي عبر شات وزريقه وعقيله وشركيله والرهد التي وصلها في العشرين من أكتوبر تاركاً تقلي وجبل الداير على يساره . وقام سكان المناطق التي مرت بها قوات هكس بإخلاء قراهم وحمل جميع أمتعتهم وبضائعهم بحيث أنه عندما وصلت القوات لم تجد شيئاً خلاف أكواخ من القش . وفي البداية قام العساكر بإشعال النار فيها ولكن الجنرال هكس سرعان ما منعهم من ذلك . فنادراً ما صادف الجيش المنحوس شخصاً بخلاف أسراب النسور التي كانت تتابعهم كأنما كانت تنتظر موتهم . بعد قليل من إبادة الجيش وقع في يدي دفتر يومية صغير وغير مكتمل وهو لضابط نمساوي هو الرائد هيرلث . ورغم عدم اكتماله إلا أنه كان كافياً لإعطائي صورة عن حال هذه القوة التعيسة . فالوقائع باختصار كالآتي : كان من المتوقع أنه عند وصول الجيش إلي شركيله أن تنضم إليه عدة ألوف من أهالي تقلي . وكان من المأمول أن هذه التعزيزات سوف تنفخ في القوات بعض الروح والطاقة التي كانت تحتاجها ولكن هذه التعزيزات لم تظهر مطلقاً .

وصف الرائد هيرلث بأن القوات لم تكن بحالة جيدة . وهو يشير مراراً إلي فقدان الاتفاق بين قائدي الجيش . الجنرال هكس مع مجموعة صغيرة من الضباط الأوربيين من ناحية وعلاء الدين باشا حاكم عام السودان وهو رجل متشرّب بالنظام التركي

القديم من ناحية أخرى . الضباط الأوروبيون مقتنعون بأن الحملة لن تكون ناجحة . فالجمال لا تجد عناية فالمئات منها تموت يومياً . وتم تحويل أحمالها إلي الجمال الأخرى التي ما تزال حية . وكانت السروج في معظم الأحوال بدون قش بحيث يحتك خشب السرج العاري بظهورها ويحدث جروحاً فظيعة . وتكاد تكون جميع الخيول قد ماتت قبل وصول القوة إلي الرهد . وقد وجد الجنرال صعوبة كبيرة أيضاً في الحفاظ على وحدة العساكر .عدد منهم كان يقاتل قريباً مع عرابي باشا ضد الإنجليز . وقد أرسلوهم بالقوة إلي السودان ومن الغريب أيضاً أن الطريق الأقصر من الدويم إلي بارا حيث يوجد كثير من الماء لم يتم اختياره مفضلين عليه الطريق الطويل غير المستقيم الذي سلكوه . وبينما الطريق الأخر يمر خلال غابات وأعشاب طويلة فإن الطريق الأول خال تماماً من هذه العوائق . وبالإضافة إلي ذلك فإن قبيلة الكبابيش الصديقة كانت ستدعمهم من ناحية الجناح الشمالي للجيش . وهناك ظرف آخر ساهم في الكارثة النهائية فالأدلاء كانوا خونة وقادوا الجيش إلي أيدي الدراويش . وحقيقة أنه كان من المعروف في المعسكر بالأبيّض أن الأدلاء قد أرسلهم المهدي .

في الرهد توقع هكس أن ينضم إليه خمسمائة من فرسان البقّارة على خيولهم . وحقيقة أنه قد شوهد عن بعد عدد من الخيّالة رفعوا راية بيضاء ولكنهم لم يقتربوا وسرعان ما كان واضحاً أنهم من الأعداء . كانت القوة في حالة من البؤس والتعاسة حتى أن الأمير عبد الحليم توسل إلي المهدي ليأذن له بمهاجمتها بأتباعه فقط ولكن هذا لا يسمح به المهدي حيث أنه أراد أن ينسب جميع الفخر ومجد النصر إليه . ففي كل يوم ترسل إلي المهدي معلومات عن تحركات القوات المصرية . وأحياناً تصله التقارير مرتين في اليوم وكانت دائماً تحمل نفس المضمون وهو أن رجال هكس ليست لديهم شجاعة للحرب . إذا كانت لدى الحملة القادمة عناصر نجاح لأظهر الرأي العام نفسه بأعداد كبيرة تهرب من الخدمة تحت رايات المهدي ولكنهم لم يسمعوا شيئاً عن نجاحات هكس المبكرة . والآن فالتقارير الوحيدة التي تصلهم هي أن حالة الجيش ميؤوس منها . وجميع هذا جعل مكانة المهدي هي الأعظم . ويجب أن نتذكر أن المهدي كان حاذقاً

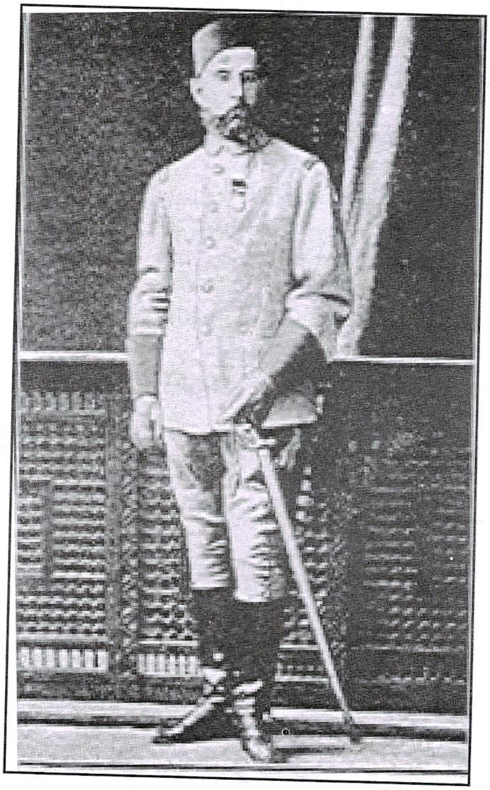
في إشعال الحماس الديني . قبض على أحد جواسيس هكس وفي الحال تم وضعه على خازوق من الحراب . المقتطفات التالية التي أسردها من الذاكرة من يوميات الرائد هيرلث توضح كيف أصبحت الحملة موهنة العزيمة . أقيم معسكر هكس في الرهد على ربوة صغيرة بالقرب من خور أبو حبل بينما العدو مخفي في الجانب المقابل وسط الحشائش الطويلة وتحت الأشجار يطلقون النار بصورة متواصلة على المصريين وقتل عدد منهم . واخترقت رصاصة واحدة خيمة هكس وضربت المقعد الذي كان يجلس عليه . وعندئذ أعطى أوامره بتنظيف الحشائش والغابات من العدو في الحال . كان ما يزال هناك قليل من الماء في الخور . وحسبما بدا أنه عميق جرى التشاور عن كيفية أفضل طريقة لعبوره . استغرق البحث ساعة . وفي النهاية قرر قليلون أكثر شجاعة من البقية محاولة العبور خوضاً . ولدهشتهم الشديدة وجدوا أن الخور ضحلاً للغاية ومن السهل خوضه . وعندئذ عبروا وطردوا العدو بعد قتل سبعة منه .

بينما كان هكس في الرهد ، اكتشف أن المعسكر الذي تركوه في اليوم السابق دخلته القوات المعادية وأخذت كل شيء تركه جيش هكس وراءه . أصبح الآن من الواضح أن العدو في قوة أكبر مما اعتقدوه . ونتيجة لذلك أحاط الجنرال هكس معسكره بخندق ووضع المدافع في وضع الاستعداد وأطلقت المدافع وتركت بعض الأثر حيث قتلت قذيفة واحدة ثلاثة عشر شخصاً على الأقل ، هذه الأنباء أرسلت إلي المهدي .

أما في الأبيّض فإن التقدم البطيء للقوات لم يكن مفهوماً . وكان لهذا مزيد من التأثير المقنع للدراويش بأنه لا بد أن تكون الحملة في وضع سيء . لم يكن الأمر مثار دهشة أن تكون القوات غير منتصرة حيث من المعلوم أنها تفتقد كل عناصر النجاح . وأما بالنسبة للمصريين المساكين فإن الاستيلاء على بقرة كان مناسبة ذات أهمية كبيرة . وقد أمر الجنرال هكس بإعطاء كل ضابط قطعة منها .

العقيد فارقوهر ، رئيس الأركان ، فعل كل ما في وسعه لرفع معنويات الجنود . في إحدى المناسبات شوهد بعض الخيّالة جالسين على بعد مسافة قصيرة على خيولهم كأنما كانوا يتحدّون أي شخص للبروز إليهم ومقاتلتهم . وعندما رآهم فارقوهر

ركب حصانه وتقدم إليهم مباشرة . وعندما اقترب منهم بدأوا في التراجع ولكنه بدأ يطاردهم ولحق بهم وقتل اثنين منهم وأما الثالث فهرب . واستولى فارقوهر على الخيل وعاد بها إلي المعسكر . وبالرغم من هذا المثال على البسالة فإن رجال فارقوهر كانوا فاتري الهمة وضعيفي العزم . فالمسيرات الطويلة قد أنهكتهم تماماً .



العقيد فارقوهر

في الرهد هرب من الجيش غوستاف كلوتز وهو مواطن من برلين وكان يعمل خادماً للبارون سكندروف ولكن في شركيله ترك خدمته وأصبح خادماً للسيد أو دونوفان مراسل جريدة الديلي نيوز . وكانت لكلوتز ميول اشتراكية معينة مما جعله يغيّر مخدمه . ولا شك أن هذه الأفكار كانت لها علاقة بهروبه من الجيش . كان هو ومواطن من

ساكسوني قد عزما على الهرب سراً . وبحجة جمع الحطب من خارج المعسكر نجح الرجلان في إحدى الأمسيات في عبور نقاط الحراسة الخارجية وبتخطيهم لخطوط الحراسة سرعان ما سمعا إطلاق نار . وخشي المواطن الساكسوني من هجوم مباغت لذلك رجع على الفور إلي المعسكر ، بينما واصل كلوتز الهرب . وعندما سار إلي مسافة قصيرة أطلق طلقتين . واحدة لجعل المصريين يعتقدون أن العدو قريب منهم والأخرى لجعل العدو يعتقد أنه قريب من نقاط الحراسة الخارجية للمصريين . وعندما أقبل الليل رقد تحت شجرة لينام بغض النظر عن حقيقة أنه كان بين عدوين . وفي صباح اليوم التالي بدأ يناقش نفسه عما إذا كان من الأفضل الرجوع مع ذلك . ما كان ليتردد للحظة في الرجوع لولا أنه فكر في أن يكون زميله من ساكسوني ربما أفشى سر هروبه من الخدمة . وفي النهاية قرر أنه لا يوجد حل غير الذهاب نحو الدراويش .

بعد سيره لبعض المسافة رأي ثلاثة رجال قذري المظهر صوبوا بنادقهم عليه . أفهمهم بالإشارات أنه ليس قادماً كعدو . وليطمئنهم أكثر ألقى ببندقيته ومسدسه أرضاً وتقدم نحوهم . واقترب العرب منه أيضاً . ولكن كلوتز الذي لا يفهم كلمة عربية واحدة صاح : " الدراويش . أين الدراويش ؟ " وكان يقصد بالدراويش المهدي . فهم العرب تماماً ما أراد قوله ولكن في تلك اللحظة كانوا يفكرون أكثر في الغنيمة التي أمامهم من التفكير في المهدي . وهكذا استولوا على المال القليل الذي معه وأخذوا ساعته وبندقيته ومسدسه وحتى حذاءه . وسرعان ما أدرك كلوتز في أي أيد قد وقع فهؤلاء العرب بمجرد أن أخذوا كل شيء منه عندئذ وجهوه نحو معسكر الدراويش وأخذ يجر رجليه حافي القدمين خلال الأعشاب الطويلة ، وغالباً فوق الأشواك إلي أن قابل في النهاية امرأة عجوزاً أفهمته بالإشارة أنه قريب من المعسكر . وبعد لحظات قليلة ظهر عدد من الخيّالة وأحاطوا به وأخذوه في نشوة ظفر إلي أبو قرجة . فقد اعتقدوا أنهم قبضوا في النهاية على الإنجليزي المكروه . ولدهشة كلوتز وجد نفسه الآن في معسكر كبير محاط بخندق حيث يعيش الدراويش في أمان تام . أخبر الخيّالة أبو قرجة بأنهم وجدوه يجلس في شجرة وهو يكتب . لذلك قيدوه في الحال بالسلاسل وربطوه في سرير وبدأوا في استجوابه عن

قوات هكس . وفي نفس الوقت بعثوا برسول إلي المهدي يسألونه ماذا يفعلون بالإنجليزي . أمر المهدي بإرساله على الفور إلي الأبيّض لذلك فكوا عنه السلاسل ووضعوا حبلاً حول عنقه ثم سحبه الخيّالة إلي معسكر المهدي . استغرقت الرحلة يوماً ونصف اليوم . وقد أجبر على المشي حافي القدمين وفي حر لافح طيلة الطريق . لذلك عندما وصل الأبيّض كانت رجلاه متورمتين وفي حالة مريعة .

وفي سرعة البرق انتشرت الأنباء في المعسكر بأن ضابطاً إنجليزياً قد تم أسره . من هو هذا الرجل سيء الحظ ؟ من يا ترى . عندما أحضروا كلوتز أمام المهدي ، كل ما استطاع أن يقوله هو إنه ألماني . لذلك استدعي المهدي استامبولي وبونومي وشخصي لنعمل كمترجمين . وعندما دخلنا الحظيرة أدرك كل شخص الغرض من مجيئنا . كان معظمهم مشغولاً بتنظيف حرابه . صاحوا من خلفنا بقولهم " عليكم عمل تحقيقات دقيقة عنه " كان هناك جمع غفير أمام خيمة المهدي بحيث يكاد من المستحيل شق طريقنا . ولكن في النهاية كانت هناك صيحة " هنا أهل الدلنج ! " وعندئذ أفسحوا لنا الطريق . خلعنا أحذيتنا وأدخلونا على المهدي . كنت متلهفاً للغاية لرؤية من يكون هذا الإنجليزي . لم نر شيئاً لمدة طويلة غير الوجوه السوداء ، ولو أنه كان مخلوقاً من عالم آخر لما كنا أكثر تشوقاً لرؤيته . ثم إننا كنا على أحر من الجمر لمعرفة كيف تتقدم الحملة وما إذا كانت تحت قيادة إنجليزية .. إلخ . بالطبع أن اسم الجنرال هكس كان معروفاً ولكن ما كنا ندري مما تتألف قواته .

عندما دخلنا رأينا المهدي والضابط الإنجليزي المفترض وأحمد ود سليمان جالساً على حصير من القش . حيينا المهدي الذي رد على تحيتنا بأسلوب لطيف . كان يبتسم ويبدو أنه مسرور كثيراً . قدم إليّ الإنجليزي وطلب مني استفساره عن مجيئه . لقد تلقى خيالي الذي تصورت به الإنجليزي صدمة عنيفة . فأنا أرى أمامي شاباً بشعر أشقر وأعين زرقاء ووجه لوّحته الشمس وأنف انسلخ منه الجلد . وكان يلبس طربوشاً متسخاً وملابسه مصنوعة من مشمع خشن وقد أشبه كثيراً رجل مطافئ . قبل أي شيء آخر عبرت له عن إشفاقي المخلص لوقوعه في أيدي هؤلاء المتوحشين لأنني لم أكن أدري

في ذلك الوقت أنه جاء بمحض إرادته . سألته عن اسمه فرد بقوله " غوستاف كلوتز من برلين " . وقال إنه مراسل لصحيفة مهمة وفيما بعد أعطاني رواية حقيقية عن نفسه . ترجمت كل شيء للمهدي . ثم سألته عن حالة الجيش . قال إنه يتألف بالكاد من ١٠٠٠٠ رجل وأضاف أن الضباط الأوربيين يعتقدون عموماً أنه سوف يهزم . لقد أخفيت بصعوبة شديدة الصدمة العنيفة التي أحدثتها هذه الأنباء لمشاعري . وسألته لماذا هرب من الخدمة فاعتذر بقوله إنه فعل ذلك لإنقاذ حياته . الآن عرفت أنه لا يمكن أن يكون جندياً . لكن بالطبع لم أترجم للمهدي الرواية البائسة التي ذكرها عن الجيش . عند هذه اللحظة تلقيت لكزة في ضلوعي من أحمد ود سليمان وهو يصيح " أسأله كم مدفعاً في حوزة الكفار ؟ " ثم أعطوني دفتراً صغيراً اتضح أنه يوميات كلوتز وأمروني بترجمته . كانت هناك بضعة وريقات ذكر فيها تاريخ مغادرة شات وأماكن أخرى . كما ذكر عدد الجمال التي ماتت يومياً وبعض الملاحظات عن مخدومه وأشياء أخرى متنوعة .

عندئذ سأله المهدي إن كان من المتوقع أن يستسلم هكس إذا كتب إليه فأجاب كلوتز أنه متأكد لا شيء سيدفعه لفعل ذلك .

سأل المهدي كذلك إن كان كلوتز يعتقد أن الجنرال هكس هو الأكثر قوة فأجاب بأنه يعتقد أن المهدي هو الذي سينتصر ولكن ربما يفقد عدداً من أتباعه إذ أن قوة هكس مزودة جيداً بأسلحة نارية جيدة . عند ذلك أضاف أحمد ود سليمان " الموت سيكون ثوابنا " .

بدا المهدي مسروراً بالأنباء التي تلقاها وطلب إحضار طبق من اللحم المقلي وشاركنا في الأكل وكان يأكل بأصابعه . وكانت تعتبر حظوة عظيمة عندما يلمس الطبق بيده ويقدم قطعة من اللحم بيده إلي أحد الذين يجلسون معه . وهذه الحظوة قد أنعم بها علينا نحن . وانه ملفت للنظر نوعاً ما أن يفعل ذلك لأن كثيراً من المسلمين يعتبرون من الخطأ حتى الأكل في حضور المسيحيين . وعندما انتهينا من وجبة الطعام صرفنا وسلم كلوتز إلي استامبولي حتى صدور أوامر أخرى .

بمجرد أن خرجنا من الكوخ فقد استدعيت أنا وكلوتز مرة أخرى . المهدي الآن وحده . أمرنا بأن نجلس على الأرضية ثم همس في أذني " أخبر هذا الرجل أنه سيعامل أفضل معاملة إذا اعتنق الإسلام وإلا فإنه سيموت " أوضحت ذلك لكلوتز باللغة الألمانية . اجاب بأنه مستعد للغاية أن يفعل أي شيء يطلبه المهدي .. وعندئذ قدم إليه المهدي حذاءه وجبّة وسمّاه مصطفى إذ خطر بباله أن هناك مشابهة في الصوت بين مصطفى وغوستاف .

عندما تركنا الكوخ وجدنا جمهرة كبيرة من الناس والجميع يصخب لمعرفة ما قاله الإنجليزي . وبالطبع كل واحد يريد أن يراه وكان من المستحيل علينا أن نتقدم خطوة . لذلك أحضر استامبولي حصاناً ووضع كلوتز عليه وبهذه الطريقة واصلنا السير إلي بيت استامبولي .

في البداية لم نصدق أقوال كلوتز واعتقدنا أنه أعطى المهدي معلومات كاذبة عن قصد وذلك لكي يجد حظوة عنده وينقذ حياته ولكن عندما أصبحنا وحدنا استحلفته أن يخبرني بالحقيقة المطلقة ولدهشتي قال ليس لديه شيء يضيفه إلي ما قاله من قبل . إنه من المستحيل وصف تعاستنا عندما سمعنا تقرير كلوتز . لقد اعتمدنا لشهور على نجاح الحملة لتخليصنا من أيدي أعدائنا والآن تلاشت جميع آمالنا البراقة . ومرة أخرى نجد مستقبلاً مظلماً أمامنا .

غادر الجنرال هكس الرهد في السادس والعشرين من أكتوبر ووصل إلي علّوبة في التاسع والعشرين ، هنا تسلم خطاب المهدي الذي يدعوه إلي الإسلام . وبالطبع لم يعر خطاب المهدي اهتماماً . وفي الثالث من نوفمبر تقدم الجيش إلي كاشقيل التي تبعد حوالي اثني عشر ميلاً جنوبي الأبيّض .

في الوقت نفسه كان المهدي يجمع أتباعه ويعمل كل ما في وسعه لنفخ روح الحماس الديني المتهور فيهم . وكل من رأى الجحافل الضخمة من المتوحشين التي جمعها المهدي لا بد أن يرتجف لمصير هكس . وقد قيل إن المهدي قد وُعد بمساعدة ٤٠٫٠٠٠ ملك من الجنة . كل واحد قد اعتقد تماماً في حقيقة هذا الادعاء . وكل من يرى هذا الحشد

الضخم من المهووسين دينياً من كل جنس وسن لا بد أن يقتنع الآن بمهديته حتى ولو كان لا يؤمن بذلك من قبل . جماهير السودان غير المتعلمة خاضعة كلياً لنفوذ المظاهر الخارجية . فهم لم يسمعوا أو يروا أي شيء بهذا الوصف من قبل . والآن يجوب المنادون المعسكر من أقصاه إلي أقصاه يتنبأون بموت كل من يرفض إتباع المهدي .

في الأول من نوفمبر ترك المهدي الأبيّض وكل شخص سواء أكان رجلاً أو امرأة أو طفلاً تبعه وتم إخلاء كل منزل . والويل لمن حاول إخفاء نفسه . ود جبارة برايته فقط بقي وراءهم كحامية بالأبيّض . وفجأة اختفى زحام وضجيج ولغط وطنين المعسكر وحل مكانه سكون يكاد يكون مطبقاً – صمت القبور . الأيام التي تلت كانت بالنسبة لنا فترة قلق مخيف . وبالرغم من أننا شعرنا بأنه شبه المؤكد أن كارثة فظيعة كادت أن تقع . ومع ذلك ما زال لدينا قليل من الأمل أنه بمساعدة قادة أوربيين وبنادق جيدة ورشاشات ربما كانت النتيجة مختلفة . أبو عنجة الذي انفصل قبل يوم من عساكر الجهادية (قوات السود) التابعين له ، انضم الآن إلي فرقة عبد الحليم القوية . وفي الثالث من نوفمبر انضم أتباع المهدي أيضاً إلي هذه الفرقة . بينما المهدي نفسه مصحوباً بخلفائه اتجه إلي بركة .

بدأ القتال فعلياً في الثالث من نوفمبر ، لأنه حسب أوامر المهدي أحاط أنصاره تدريجياً إحاطة تامة بجيش هكس . وقد واجههم العساكر السود ببنادق الرمنجتون وكذلك ود النّجومي مع الجلابة[1] ورايات عبد الحليم والشريف محمود وآخرون غيرهم . في الهجوم الذي حدث في هذا اليوم أجبر الدراويش على التراجع مع فقد فوزي أحد كتبة المهدي وابن إلياس باشا وابن الحاج خالد . ولكن خسائر الجنرال هكس كانت أعظم . كذلك حدث لديه شح في الماء وكان يبذل قصارى جهده لحفر آبار ولم يكن يدري أنه يوجد على بعد مسيرة خمسة عشر دقيقة بركة كبيرة لمياه الأمطار . أي أيام من القلق الفظيع كانت هذه بالنسبة للضباط الرئيسيين وخاصة الجنرال هكس الذي

١ – الجلابة هم أبناء المديريات المجاورة للنيل .

تقع عليه المسئولية بأكملها .

يتوقف التدوين فجأة في يوميات الرائد هيرلث في الرابع من نوفمبر . وهو يكتب في ذلك اليوم أن الدكتور جورجس بك قد جرح في اليوم السابق ومات بعد قليل من ذلك . ثم يواصل الرائد حسبما أتذكر بقوله : « هذه أيام عصيبة ، نحن في غابة وكل واحد منا مكتئب للغاية . الجنرال يأمر الفرقة الموسيقية أن تعزف أملاً أن ترفع الموسيقى من روحنا قليلاً . ولكن سرعان ما يتوقف العزف لأن الطلقات تتطاير من جميع الجهات ويستمر سقوط الجمال والبغال والرجال . تجمعنا كلنا في مكان واحد ولذلك لا تفشل الطلقات في إصابتنا . أصبحنا في غاية الضعف والإنهاك وليس لدينا فكرة فيما نعمله . الجنرال يعطي أوامره بالتوقف وعمل زريبة . اليوم هو الأحد وهو يوم ميلاد أخي العزيز . أتمنى من الله أن أستطيع أن أجلس وأتحدث إليه لمدة ساعة ! الطلقات تنهمر علينا .. » هنا يتوقف الكاتب فجأة . ربما أن طلقة قد اخترقت قلبه المتعب .

حلقة الدراويش المحيطين بالجيش تضيق تدريجياً وتكتنف القوات المشئومة . أكبر الدمار ألحقه رجال أبو عنجة الذين يمكن أن يقال إنهم دمروا الجيش . فهم مختفون خلف الشجيرات ويطلقون النار دون توقف ومن مدى قريب في وسط المصريين المتجمعين . وقد أخبرني أحد رجال أبو عنجة أنه أطلق وحده مائة وخمسين طلقة . ففي يوم الأحد الفظيع ذاك اضطر هكس إلي ترك عدد من المدافع إذ لم تكن لديه بغال لحملها . وقد سادت الفوضى التامة في كل مكان . فالقوات تعاني بصورة مريعة من العطش وانفرط عقد الانضباط . وأصبح الجنود لا يستطيعون حتى تصويب بنادقهم بصورة صحيحة .

لقد أخبرني كلوتز الذي أخذه الخليفة عبد الله معه بأنه كان على مقربة من مكان القتال وأن الطلقات كانت تضرب فروع الأشجار فوقنا . وأنه يبدو أن الجيش قام بثلاث محاولات لاختراق صفوف الدراويش ولكنه أخفق . كما أخبرني كلوتز أن الجثث كانت مبعثرة في ثلاثة أكوام كبيرة تمتد لمسافة حوالي ميلين . وكان الكوم الأكبر في غابة شيكان بالقرب من كاشقيل . فهنا وقع الدراويش على باقي القوة والضباط الأوربيين وقتلوهم بالحراب في الخامس من نوفمبر .

وحسب شهادة الدراويش أنفسهم قاتل الضباط الأوروبيون ببسالة وكان الجنرال هكس آخر من سقط . لقد أفرغ مسدسه وأمسك بسيفه بيمناه منتظراً اندفاع العدو وسرعان ما أحاطوا به وجرح حصانه من الخلف . عندئذ نزل من حصانه وقاتل ببسالة بسيفه إلي أن سقط واخترقت جسده عدة حراب . إن بطولة هؤلاء الرجال الشجعان كانت محل إعجاب الجميع . بعد المجزرة نزعت الملابس من الجثث وجرى تشويهها . وحتى بعد المعركة بزمن طويل كان الذين حضروا المعركة يحكون المنظر الفظيع لجميع هذه الجثث الملقاة بأفواه فاغرة وملطخة بالدماء . وكان المتوحشون يغرزون حرابهم في الجثث حتى يغمسوها في أحشاء أعدائهم الدامية . ولمدة طويلة فيما بعد كانوا يتحدثون بفرح عن شحم الأتراك ذي اللون الأصفر الذي يبرز من جروحهم المفتوحة . لقد تم قطع رأس البارون سكندورف الذي كان ضخم الجثة وأخذ الرأس إلي المهدي حيث ظنوا أنه لا بد أن يكون هو الجنرال هكس ونجا قليلون بإخفاء أنفسهم تحت أكوام الجثث أو خلف المدافع أو عربات الحملة . وفي نهاية القتال تم جمع هؤلاء ووصل عددهم إلي مائة شخص . أثناء القتال الفعلي لم تكن هناك رحمة أو هوادة . جندي مصري يطارده بعض الدراويش فيجري نحو الخليفة شريف ويتوسل إليه بالإبقاء على حياته ولكن الأخير ضحك على جبنه وفي الحال تم قتله بالحراب .

جمع الدراويش موتاهم ووضعوهم في صف . ويبدو أنه مما لا يمكن تصديقه القول بأنه كان هناك ثلاثمائة وخمسون قتيلاً فقط . وقد صلى عليهم المهدي ودفنوا .

أما جثث المصريين فقد تركت فريسة للنسور والضباع . وسمح المهدي لكلوتز الذي قال إنه يفهم في الطب أن يجمع كل الأدوية الموجودة في ميدان المعركة . وعندما كان يفعل ذلك سمح له أيضا بفحص جثث الأوربيين . ذكر لي إنه استطاع بصعوبة أن يتمالك نفسه عندما رأي الجثث المشوهة لأولئك الذين كان يضحك ويتحدث إليهم قبل وقت قصير . وقد شوهدت جثة جندي معلقة بين السماء والأرض . وعلى ما يبدو أنه تسلق شجرة تبلدي بحثاً عن الماء عندما أصابته طلقة وقتلته . وعندما سقط اشتبك في الأغصان .

من ضمن الذين نجوا رجل يسمى عبد الرحمن بانَّقا بك الذي كان والده آنذاك في الأبيّض توسل إلي المهدي للإبقاء على حياته . وقبل بضعة أيام من النكبة وجدوه يكتب خطابات إلي عمر ولد إلياس باشا الذي كان مع قوة عبد الحليم . ونتيجة لذلك وضع هو ورجاله في القيود وكان علاء الدين باشا ينوي إعدامه . ولكن هكس لم يسمح بذلك قائلاً بأنه سوف يقدم لمحاكمة عادلة بعد الاستيلاء على الأبيّض . كان عبد الرحمن بانَّقا في وسط المعمعة وفقد إحدى عينيه عندما نجح عبيد والده في الوصول إليه وإنقاذ حياته .



أمير بقّاري

سر المهدي وأتباعه سروراً عظماً حيث أنهم لم يتوقعوا مثل هذا النصر الساحق . هذا وقد أرسل على الفور رسولاً إلي الأبيّض لإطلاق مائة طلقة مدفعية تحية لهذا النصر . وقد سمع في الصباح الباكر من يوم الثلاثاء السادس من نوفمبر دوي المدفعية في المعسكر . ويمكن إدراك مدى انزعاجنا لهذه الأنباء المخيفة . إن آمالنا البراقة التي

مكنتنا من العيش بهذه الصورة الشقية لأكثر من عام قد تحطمت الآن . وقد تخلينا الآن عن كل فكرة تتعلق بإرسال الحكومة لحملة أخرى . وكان من الواضح أن على الخرطوم أن تهتم بسلامتها هي . وكما أن المهدي استولى على كردفان في الفرصة الأولى بانتصاره على يوسف باشا الشلالي كذلك فإن إبادته الآن لقوة الجنرال هكس وضعت تقريباً السودان بأكمله في يديه .

الباب السادس

دخول المهدي الظافر إلي الأبيّض

سقوط دارفور – سلاطين يستسلم – تصديق مهدية محمد أحد بعد إبادة جيش هكس – الملك آدم ملك تقلي – إحسان استامبولي للأسرة الأوربية – غردون يكتب إلي المهدي – خطاب باور – يقبض على الراهبات ويوزعن على الأمراء – يتم تعذيبهن – المبشرون أصبحوا عبيداً – الرحلة الفظيعة إلي الرهد – الإغريق يهبون لمساعدة الراهبات – الإعلان المتعلق بمعاملة القسس والرهبان عند المسلمين – المهدي في الرهد – مقابلات أورفالدر مع المهدي فيما يتعلق بالدين – الدراويش يهاجمون النوبا

ظل المهدي لمدة سبعة أيام بكامل قواته في بركة حتى يجمع العوائل والمتخلفين وليستولي على الغنائم التي أخذها العرب الجشعون ورفضوا تسليمها . عدد من العرب تم جلدهم وسبعة من العبيد التابعين لعم المهدي السيد طه محمد قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف لأنهم احتفظوا لأنفسهم ببعض غنائم المهدي .

وتتألف الغنائم المشار إليها من معدات حربية مثل مدافع كرب (KRUPP) والرشاشات وبنادق الرمنجتون . بالإضافة إلي عدد من الفؤوس والمعاول والمجارف التي تساعد في عمل الزرائب وكمية من المال والساعات وكان ضمنها ملابس أيضاً . وقد حمل جميع ذلك إلي بيت المال .

بعض الجثث أشعلت فيها النيران سراً حتى يمكن جعل الناس الجهلة يعتقدون أن أولئك الكفار قد التهمتهم نار جهنم . وتم تسليم حصان الجنرال هكس الأبيض إلي كلوتز لعلاج الجرح الذي أصابه في كفله .

وأخيراً دفعت الرائحة الوبيلة لآلاف الجثث من بشر وحيوان الفاتحين إلي الأمام . وكان منظراً للحماس والهيجان المنفلت . جاءت الرايات ذات الألوان المتعددة أولاً ثم تبعها آلاف وراء آلاف من الدراويش ويزداد هدير تكبيرهم " لا إله إلا الله " بينما يخرج آخرون من الصفوف ويهزّون حرابهم الملطخة بالدماء وهم يصدرون صيحات مخيفة . وبعد هذه الجموع جاء الخيّالة مع الخلفاء الثلاثة . ومن وقت لآخر يتوقف الموكب عندما ينطلق عدد من الفرسان بخيلهم بأقصى سرعة موجهين حرابهم إلي الأمام في حالة استعداد للطعن ثم يعودون إلي صفوفهم وسط التهليل استحساناً من

الآخرين . وبعد الخيّالة جاء في الموكب بضعة سجناء وهم التعساء الباقون من جيش هكس . معظمهم كان عارياً ويسحبون إلي الأمام وتلاحقهم الإساءات المستمرة من الدراويش . ثم جاءت المدافع تسحبها البغال الجريحة . وأخيراً جاء المهدي نفسه يركب جملاً أبيض فاخراً ومحاطاً بأكثر أنصاره حماساً وتهليلهم الرتيب " لا إله إلا الله " يشبه صوت نهر مندفع بقوة . سحائب من الغبار ملأت الجو . وعندما يمر المهدي يقع المشاهدون على الأرض ويقبلون آثاره بينما تصيح النسوة بقولهن " مهدي الله " .

لم يحدث أن شوهد من قبل منظر للنصر الهمجي مثل هذا . والآن يكاد يكون تمجيد المهدي كإله . وانطلق الخوف من اسمه كالنار في الهشيم في كل مديرية ومركز في السودان . واعتبر الآن بأنه المهدي الحقيقي وكل مسلم أصبح يعتقد فيه وكل شك قد نحي جانباً .

في المعركة بالقرب من شيكان ، قال عدد من الناس أنهم شاهدوا الملائكة الذين استدعاهم المهدي للقتال ضد الأتراك . وأصبح الآن يوشك أن يعبد كمخلوق فوق طبيعة البشر . حتى الماء الذي يتوضأ به يقدم من قبل العبيد الخصيان إلي المريدين الذين يشربونه بشراهة كترياق لجميع الأدواء والأمراض .

بعد مضي بعض الوقت أطلق سراح المصريين الذين قبضوا عليهم . وكثيرون منهم ماتوا وهم في حالة تسوّل في سوق الأبيّض أما السود المقبوض عليهم فقد تم توزيعهم على عساكر بيت المال . وعرفوا باسم "هكساني " فمثلاً " مرجان هكساني " . لقد كانت إحدى أنظمة المهدي أن يحمل العبد بجانب اسمه اسم سيده أيضاً . لذلك أعطي عبيدنا من الدلنج اسمي أنا " يوسف " . بالطبع كان الأصح أن يسمونهم باسم رئيسنا لويجي بونومي ولكن العرب وجدوا أن اسمه صعب النطق .

أصبح المهدي الآن أكثر استبداداً . ونجاحه جعله أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسه . فقد أرسل رسائل إلي أنحاء مختلفة من العالم مدللاً على قدسية رسالته بنجاحه في الحروب ودعا الجميع إلي الثورة ضد الأتراك . وكتب بقوة إلي سكان مديرية الجزيرة مهدداً إياهم بالسيف والنار إذا رفضوا الثورة ضد الحكومة ورفضوا إتباعه . بعد أن

تخلص من أعدائه حوّل المهدي الآن انتباهه إلي دارفور . عيّن عمه زُقل بك الذي كان معروفاً باسم سيد محمد خالد كأمير على دارفور . وأرسله إلي تلك المديرية ورافقه عبد الصمد ابن أحمد شريف وعمر ود إلياس . مباشرة بعد الانتصار علي هكس ، حث الخليفة شريف المهدي للزحف على النيل الأبيض ومهاجمة الخرطوم . وكان يمكنه فعل ذلك بسهولة . لكن المهدي كان مهتماً قبل كل شيء بتأمين دارفور . وكان يرغب أيضاً في الاستراحة على أمجاده لفترة أطول قليلاً . كتب إلى سلاطين بك يخبره بتدمير جيش هكس كما أجبر كلوتز أيضاً أن يكتب في نفس الموضوع . بدأ زُقل في السادس عشر من ديسمبر ١٨٨٣م تحركه وتوجه أولاً إلي بارا حيث كان يوجد سلاطين في ذلك الوقت ، ثم أنه أرسل رسولاً بخطاب المهدي الذي دعاه فيه إلي الاستسلام . زُقل كان يعرف تماماً أن هذه مجرد رسميات لأن سلاطين كان غير قادر على المقاومة تماماً ، وليس لديه إلا خمس طلقات لكل جندي . كما أن رجاله رفضوا أيضاً مزيداً من المقاومة . لذلك عند تسلم الخطاب قام سلاطين بالركوب إلي زُقل والاستسلام له . وعندئذ دخل الدراويش بارا وكالعادة بدأوا في السلب والنهب . وفيما بعد تقدم زُقل إلي الفاشر التي كان على رأسها في ذلك الوقت مدير هو سيّد بك جمعه الذي وضع المدينة في حالة دفاع .

بالرغم من أن الآبار كانت وراء خطوط القتال فان سيّد بك حاول المقاومة التي لم يكن فيها أمل منذ البداية . وبعد سبعة أيام أي في اليوم الخامس عشر من يناير ١٨٨٤ استسلم . واستسلمت أيضاً كبكابيه لزُقل وقبلها أم شنقه . وهكذا فأن مديرية دارفور القيّمة والمكتظة بالسكان والتي كلفت مصر كثيراً من الدماء والأموال قد فقدت بأكملها في فترة قصيرة من ثمانية أيام . وفى نفس الوقت أرسل المهدي زوج بنته ود البشير إلي مديرية الجزيرة ليقود الثورة ضد الحكومة .

أظهر المهدي حكمته في عدم محاولة غزو منطقة لم تعلن من قبل أنها في جانبه . فعندما سمع باستسلام الفاشر وبارا ، أرسل أبو قرجة لتولى حصار الخرطوم . غادر أبو قرجة بمجموعة صغيره من القوات فقط ولكن أعداداً انضمت إليه في الطريق خاصة عندما وصل إلي النيل الأبيض . لذلك لم يكن خائفاً من التقدم نحو العاصمة .

وهكذا من خلال انتصاره في شيكان ، جعل المهدي ، نفسه فعلياً سيد السودان بأكمله من البحر الأحمر إلي حدود مملكة ودّاى ومن بحر الغزال إلي دنقلا . فكل العيون اتجهت إليه وأغلبية الناس اعتقدت أنه المهدي الحقيقي . البعض اعتقد أنه يجب أن يكون ساحراً عظيماً . حتى الآن في الوقت الحاضر حيث يرقد المهدي منذ ست سنوات خلت في قبره[1] وتم الاعتراف بالتضليل والبؤس الذي جلبته المهدية فما زال نجاحه المدهش ينسب إلي السحر . إن أهله الدناقلة بالرغم من أنهم يعترفون الآن أنه لم يكن المهدي يقولون إنه لاشك كان رجلاً تقياً وأنه بصورة خارقة للطبيعة قد منحه الله سلطة وحكمة غير عادية . ومن بين الآخرين الذين خافوا من قوة المهدي الملك آدم ملك تقلى الذي نزل مع زوجته وابنه وعبيده من معاقله الجبلية الحصينة واستسلم للمهدي .

لمدة طويلة حاول قاضي الملك إقناعه بأن محمد أحمد ليس هو المهدي الحقيقي وقد فعل كل ما في استطاعته لعله يعدل عن الانضمام إلي المهدي . ولكن بعد هزيمة هكس لم يتأخر الملك آدم في الانضمام إلي المهدي . وأكثر من ذلك أنه أخذ القاضي معه . وعندما وصلوا إلي ملبس حوالي مسيرة ثلاث ساعات من الأبيّض هرب القاضي ولكن تم القبض عليه وقيّد بالسلاسل وأحضر مع الملك إلي الأبيّض .

عند وصولهم بالقرب من الأبيّض ، خرج الخليفة عبد الله مع حاشية كبيرة لملاقاة الملك آدم الذي كانت له شهرة عظيمة في أرجاء كردفان . وقام بتحيته بود شديد وأطلقت المدافع تحية له والكل ابتهج لنصر المهدي بدون إراقة دماء . واحتفى المهدي بحرارة بالملك آدم وأعطوه مكاناً خاصاً ليعيش فيه وعومل بأعظم احترام . وليكسب مزيداً من الحظوة لدى المهدي ، أرسل آدم ستة من أجمل الشابات ليكن من محظياته . بعد وقت قصير على أية حال يبدو أن الملك الجبلي سئم من العيش في الأبيّض وبدأ يعاني من الاكتئاب . ففي جباله كان هو السيد المطلق ، أما هنا في الأبيّض فهو ليس أكثر من عبد .

في البداية اعتقد أنه سوف يسمح له بالعودة إلى جباله ولكن سرعان ما اضطر إلى

١- يشير هنا إلي وقت تأليف الكتاب بعد الهرب من السودان .

ترك كل أمل في ذلك . وقد أدرك بعد وقت قصير أن أحد مبادئ المهدية أن أولئك المحظوظين الذين يتاح لهم مشاهدة أنوار المهدية لا يسمح لهم بالرجوع إلي الظلام . والآن ندم بمرارة علي عدم قبول نصيحة قاضيه بينما الجواسيس المحيطون به سرعان ما اخبروا المهدي عن ماذا كانت آراء القاضي . وعندما علم الخليفة عبد الله بالهروب المدبّر قبض على الفور على القاضي وأعدمه . وهكذا ألقى الرعب في قلب آدم السيئ الحظ ثم إن خيوله قد أخذت منه وأخيراً ولكي ينقذ حياته اضطر لبيع زوجاته .

يكاد جميع سكان جبال النوبا قد أرسلوا رسلاً يقولون إنهم رعايا المهدي . وحتى في الخرطوم هناك أعداد بدأت تميل إلي المهدي . وللتدليل على ذلك يمكن الاستشهاد بقصة نائب مدير الخرطوم ود الجزولي . فعندما سمع بوصول غردون إلي بربر فر على الفور من الخرطوم إلي الأبيّض حيث رمى بنفسه أما قدمي المهدي وأكد له أن سكان الخرطوم عن أخرهم يقفون بجانبه .

انتهى الآن كل أمل في الخلاص وقد خفف من حالتنا التي يرثى لها الخدمات الكريمة التي كان يقدمها لنا صديقنا السوري جورج استامبولى الذي كان في نفس الوقت أثيراً لدي المهدي ومحسناً إلينا فهو يمدنا بكل ضروريات الحياة . الراهبات كن يصنعن جبب الدراويش وكان استامبولى يبيعها ويعطينا العائدات . وكنا نحصل على المواد أساساً من ملابس العساكر الذين يقتلون ومن بدل الضباط . معطف المشمع الخاص بمراسل الديلى نيوز أو دونوفان وبعض الملابس الأخرى التي تعرّف عليها كلوتز وقعت في أيدينا وسرعان ما قصصناها . ومعظم الملابس كانت ملطخة بالدم مما يضطرنا إلي غسلها ولكن أي أفكار حزينة شغلت أذهاننا ونحن نقوم بهذا العمل المحزن ؟

نحو أواخر يناير ١٨٨٤م وقعت حادثة مشئومة أدخلتنا في مشاكل . واحدة من رقيق استامبولى الإناث توصلت إلي تفاهم مع خادمه الدنقلاوى وذهبت إلى الخليفة عبد الله وأبلغته بأن سيدها مسيحي وأنه يصلي صلاة المسيحيين يومياً . ثارت شكوك استامبولى . وفى ذلك المساء أخفى كل شيء يمكن أن يقدم ضده كدليل فيما عدا صليباً صغيراً من الفضة كانت تلبسه بنته الصغيرة حول عنقها . وقبيل الصبح تقريباً

أحيط منزله بعدد من الدراويش ومعهم النُّجومي وود سليمان اللذين أُمرا بالاستيلاء على منزله . اقتحموا المنزل وبدأوا في تفتيشه تفتيشاً شاملاً .

استامبولى الذي لم يتعرض للمساءلة منذ سقوط الأبيّض كان منزله ممتلئاً بجميع أنواع الأشياء وكذلك كان لديه كمية من الصمغ وريش النعام . لقد قلبوا المنزل رأساً على عقب ولكنهم لم يجدوا شيئاً ذا طبيعة تورّطه . لكن الخادمة ذكرت صليب البنت الصغيرة فطلب المحققون رؤية الأطفال . وعندما رأوا الصليب سألوا على الفور عن ماهيته . ورد استامبولى بأنها حلية وليس لها معنى خاصاً . عندئذ نزع ود سليمان الصليب من عنق الطفلة وأخذه .

يجب عليّ أن أعلق هنا أن أعداداً من الناس كانوا حاسدين لاستامبولي وغائرين منه ولا يحبون رؤية رجل أبيض يمتلك كل هذه الثروة . ولذلك ينتهزون كل مناسبة لسلبه والسرقة منه . الآن وضع استامبولي في السلاسل بينما صودرت أمواله وحملت إلي بيت المال وتقرر قطع رأسه . ولكن مواطنيه السوريين وكذلك الإغريق تشاوروا معاً وذهبوا إلي المهدي وتوسلوا لإنقاذ حياته . قابلهم المهدي بلطف وأعطاهم بعض الأمل وبعد مضي خمسة عشر يوماً تم العفو عن استامبولي . فقد أجبر على الظهور أمام المهدي وفي عنقه الشُّعْبة (وهي عود طويل يتشعب إلي فرعين في نهايته وتوضع العنق بين الشعبتين وتدفع إلي الخلف)[٢] وقد اضطر وهو في هذه الحالة إلي التوسل إلي المهدي ليعفو عنه . أما أمواله فلم ترد إليه أبداً ولذلك لم يستطع أن يدعمنا بعد ذلك .

الأب بونومي انتهز هذه الفرصة وكتب عريضة إلى المهدي متوسلاً ليطلق سراحنا وهو أمر وعد به مراراً . وكتب المهدي عدة كلمات طيبة على ظهر ورقة العريضة ولكنها لم تعن شيئاً . قال إن الأب بونومى مدرك بأي حب ينظر المهدي إليه ولذلك فإنه لا يحتمل فكرة فقده . وفى نفس الوقت أمر ود سليمان أن يعطينا ما يلزم لحياتنا من بيت المال .

---

٢ – التشعيب إجراء كان متبعاً لمن يريد أن يعتذر عن خطأ وقد طبقه المهدي على نفسه عندما أراد أن يعتذر لشيخه الشريف نور الدائم في بداية حياته .

حدث ذلك فى الخامس من فبراير ١٨٨٤م .

في هذا الوقت بالضبط عندما بدت أن كل الآمال في إطلاق سراحنا قد انتهت أرسل لنا الإله نوراً في جوف ظلامنا . وصل بعض الناس من الخرطوم وذكروا أن غردون باشا قد وصل إلي هناك وأنه استقبل بحماس شديد . الانزعاج الذي استقبل به المهدي وأنصاره هذه الأنباء والفرح الذي عم أولئك الذين مازالوا يأملون في الخلاص يمكن تفهمه بسرعة . فالمهدي الذي اعتقد أن السودان صار بالفعل في قبضته انزعج تماماً لأنه قد ساد الاعتقاد عموماً بأن غردون قد أحضر معه الإنجليز . بعد بضعة أيام تسلم المهدي خطاباً من غردون . وكان القلق عظيماً لمعرفة محتوياته . ولا شيء كان مداراً للحديث غيره . وعندما أمر المهدي بقراءة الخطاب علناً أمام الناس كانت خيبة الأمل عظيمة .

في هذا الخطاب عرض غردون على المهدي جميع السودان الغربي ويكون المهدي عليه سلطاناً . وسمح باستمرار تجارة الرقيق وضمن العبور الحر لجميع الحجاج الذاهبين إلى مكة . وفى الختام طلب إطلاق سراح السجناء . ضحك المهدي على مقترحات غردون ورآه كافراً ماكراً للغاية يحاول خداعه بوعود باطلة فقط ليكسب الوقت . ولم يستطع أن يفهم كيف جاء غردون ليعرض عليه ما صار في حوزته قبل وقت مضى وعلق بأن ذات الأرض التي يقف عليها غردون هي فعلياً في يديه . فحقيقة أن غردون لم يحضر معه قوات ساعدت في زيادة تفاخره وقد صيغ رده في العبارات التالية : قال إنه عندما كان في الجزيرة أبا حذّر المسئولين الحكوميين بأنهم إذا رفضوا الاعتراف بأنه المهدي فلا شك أنهم سيهلكون . وأنه ردد نفس التحذير ليوسف باشا الشلالي ولهكس باشا . هذا وأخبره باستسلام دارفور وختم بقوله إنه ليست لديه رغبة في الفوائد الدنيوية . وأن هدفه إصلاح الناس . ودعا غردون إلى المجيء والانضمام إليه . وأرسل المهدي مع الخطاب طقماً كاملاً من ملابس الدراويش : جبة وطاقية وعمامة وحزام (كرّابة) وصندل .

وفي نفس الوقت أرسل المهدي الأمير أبو عنجة مع بعض القوات وكذلك الأميرين ود

النُّجومي وعبد الله ود النور إلي جبل الداير حيث الملك كومبو مازال يبدى مقاومة . وقد رؤي أن عدد القوات سوف يخيف سكان الجبال هؤلاء . ولكنهم قاوموا بنجاح الهجوم الأول ثم انسحبوا إلى معاقلهم الجبلية الحصينة حيث لا تستطيع القوات تعقبهم .

في الثالث والعشرين من مارس ١٨٨٤م وصل شخص من الخرطوم بمذكرة صغيرة من القنصل باور . كتبت بالإنجليزية على وجه وبالفرنسية على الوجه الآخر وهى تقول (حظاً سعيداً . غردون هنا كل شيء على ما يرام) .

هذا ما كتبه هذا الرجل الطيب . كذلك طلب أسماء الناجين من حملة هكس وأسماء السجناء الأوربيين في كردفان أجبنا على جميع أسئلته . هذه الكلمات القليلة من القنصل لم تمنحنا شيئاً من الراحة أو التشجيع .

إن وقت مغادرة المهدي للأبيّض أصبح الآن يقترب . فحشود الناس التي جمعها كانت كبيرة لدرجة أن مياه الآبار صارت غير كافية لهم وارتفعت أسعارها كثيراً . وأن أي شخص لديه عبيد عليه أن يدفع كثيراً مقابل هذا الترف .

أصبحت الاضطرابات تندلع مراراً حول الآبار وغالباً ما يقع الناس في الآبار وعمق الآبار يتراوح ما بين ١٥٠ و ١٦٠ قدماً .

إن إقامة المهدي لوقت أطول في الأبيّض أصبحت الآن غير ذات جدوى ولذلك قرر الزحف على الخرطوم . وقد أصدر بياناً يدعو جميع الناس للانضمام إليه . وأرسل المنادين إلي جميع الإتجاهات بأوامره . وفى نفس الوقت أعلن أنه على جميع الناس متابعته عن طريق الرهد وأن على العرب الذين يسكنون شمالي وشرقي الأبيّض أن ينقضّوا على أي مسافرين وتقييدهم بالسلاسل وسحبهم إلى الأبيّض .

أصبحت المؤن الغذائية رخيصة جداً مثل البن والقمح والتمر إلخ ولكن من ناحية أخري فإن أسعار استئجار الجمال والحمير زادت بشكل كبير . هذا وتم توزيع المال لأي شخص للرحلة .

بالنسبة لنا نحن ، علي أية حال ، طالما لم يكن مسموح لنا بالمغادرة فقد قررنا أن

نحاول الهرب ولكن ذلك كان صعباً للغاية لأن الجميع كان يتحاشانا ولا يجرؤ أحد على الاختلاط بنا ، حاولنا علي أية حال الحصول على رجل موثوق به الذي نجح في أن يحصل لنا علي جمال وأدلاّء . لكن تدبير الله كان بخلاف ذلك . ظهر الخليفة فجأة أمام أكواخنا في الثامن والعشرين من مارس وكان مصحوباً بعدد من أتباعه . وقد استدعى الأب بونومى والراهب جوزيف رقنوتو وشخصي للمثول أمامه . وجدناه جالساً على فروته [٣] وسط حلقة من الأمراء . وأشار علينا بالجلوس وبدأ عندئذ توجيه الكثير من الأسئلة إلينا ، وجميعها تقود إلى نقطة هامة واحدة. أن علينا قبول عقيدته . حججه كانت غير ذات قيمة ولم يكن لها تأثير علينا . وعلى ذلك أعادونا إلي أكواخنا .

في ذلك المساء وحوالي وقت مغيب الشمس اقتحم مسكننا المتواضع حوالي ثلاثون رجلاً على ظهور الخيل . وقالوا إن لديهم أوامر بأخذ الراهبات . وأكدوا لنا بتواضع مصطنع بأنه لن يلحق بهن أذى . أما نحن فكنا نعلم تماماً ماذا سيحدث لهن ولذلك رفضنا رفضاً باتاً فصلهن عنا وقلنا لهم إنه يمكنهم قتلنا إذا رغبوا وقطع رؤوسنا ، ولكن ستكون قسوة شائنة بالنسبة للمهدي معاملة هؤلاء النساء المسكينات معاملة سيئة بعد كل وعوده وتأكيداته الجليلة . لكن أي جدوى لاحتجاجاتنا أمام العنف الوحشي ! اقتحموا المكان وأمسكوا بالراهبات وأخذوهن ليمثلن أمام الخليفة عبد الله واستخدم هو والخليفة شريف كل الوسائل البربرية القاسية لهز عقيدة هؤلاء الراهبات المسكينات . وقد أخذ الخليفة شريف مقصاً كانت تحمله إحدى الراهبات وقطع به الحاجز القائم بين منخريها . ونساء الخليفة أيضاً زعقن فيهن بالشتائم بكل طريقة متاحة . ثم قاموا بتوزيعهن على الأمراء وأرسلن إلي الرهد .

قضينا تلك الليلة في أكواخنا ، ولكن في الصباح الباكر من اليوم التالي جاء الدراويش وأخذونا إلي الخليفة الذي وزعنا على عدد من الأمراء . وكان سيدي عبد الله ود النور ولكن لما كان هو في ذلك الوقت في جبل الداير فقد اتبعوني إلي أخيه مكين الذي كان

٣- الفروة جلد خروف أو ثور مدبوغ يستخدم للصلاة أو الجلوس عليه

يقيم آنذاك في منزل محمد سعيد باشا . أما الأب بونومي فقد وضع مع الممتلكات القليلة التي تركناها ، في بيت المال . ولكن دفتر يومياتي التي كتبتها حتى الآن ثلاث مرات وكذلك دفتر يوميات هيرلث والإنجيل وكتاب الصلوات الخاصين بالجنرال هكس وشنطة صغيرة للسندوتشات وصُرَّة صغيرة خاصة أودونوفان جميعها قد ضاعت . والآن أصبحنا معرضين لسوء المعاملة والإساءة من جميع الجهات . فأولاد المهدي الثلاثة ، وتتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعاشرة ، تعودوا أن يأتوا ويسيئوا إليَّ يومياً ، ولكن لا يمكنني أبداً ذكر التفاصيل التي ستظل إلي الأبد محفورة في ذاكرتي .

وأخيراً في السابع من أبريل ١٨٨٤م بدأ المهدي الزحف ونحن معه . فالمعسكر الضخم الذي يموج بالآلاف المؤلفة من الناس أصبح خالياً في بضعة أيام . وكل شخص عندما يغادر كوخه يشعل فيه النار حتى إنك لا ترى غير سحب الدخان واللهب يتصاعد إلي السماء .

عندما كنا على وشك المغادرة أتبعوني إلي سيد آخر هو إدريس ود الهاشمي . وعندما وصلت إلي منزله وجدت كل شيء جاهز للرحلة . وكانت هناك أعداد من الكتب ذات التجليد الجيد ملقاة مبعثرة على الأرضية أخذت واحداً منها ووجدت أنه « دفتر الجيب للجندي » لمؤلفه لورد ولزلي . وكنت أتمنى أن أبحث بين هذه الكتب عن دفتر يومياتي ولكنهم أبعدوني . كان إدريس قد أخرج هذه الكتب من بعض الشنط الجلدية الجيدة وملأها بأمتعته الخاصة . وبعد ثلاثة أيام من مغادرة المهدي ، تركنا أنا وسيدي الأبيّض . الطريق إلي الرهد كان عبارة عن سيل لا ينقطع من البشر . رجال ونساء وأطفال وجمال تحمل الأمتعة المنزلية وفوقها ربطت عناقريب[٤] تجلس عليها النساء . الثيران والحمير جميعها محمّلة أحمالاً ثقيلة . وعدد من العرب يسوقون أمامهم بهائمهم . وهنا يرى المرء جملاً منبطحاً بعد أن سقط تحت حمله الثقيل وهناك طفل أو عبد يبحث دون جدوى في الحشد عن سيده الذي فقده . بالطبع كان عليّ أن أمشي وأن أعمل

٤ - المفرد عنقريب وهو سرير من الحطب مجلد بالحبال .

كسائق للجمال كذلك ومعرضاً للإساءة والتهديد المستمر . تحركت إلي الأمام كأفضل ما أستطيع . وأثنى العرب على حسن إدراك سيدي بجعلي سائق جمله وحرضوه على أنه ينبغي أن أحمل حملاً فوق ذلك . كان علينا أن نتوقف مراراً حيث أن الجمال محمّلة بأحمال ثقيلة جداً .

الشمس المحرقة والإجهاد يصعب احتمالهما . وكان ذلك دائماً مثار دهشة لي كيف نجوت من ضربة الشمس . أما بالنسبة للطعام ، كان لي نصيب من وجبة حصان سيدي . وفي المساء كنت أجبر على تنظيف الدخن الذي يقدم للحصان . وقد جعلتني آلام الجوع أحسد الحصان حتى على هذا بينما اضطررت لأطلب من عبد سيدي ليعطيني أحياناً جرعة من الماء . والحقيقة أن هذا العبد قد رثى لحالتي التعيسة .

استغرقت الرحلة ثلاثة أيام لنبلغ الرهد . وفي الظروف العادية يمكن قطع الرحلة بسهولة في يوم ونصف . الرمال المحرقة قد ملأت قدمي بالبثور وجعلت رجليّ تتورمان . في أحد الأيام شاهدت الملك آدم التعيس ملك تقلي ماراً وهو راكب على بغل ورجلاه مكبلتان بالحديد إذ ظنوا أن رؤية جبال موطنه قد تجعله يرغب في الهرب . لكن بمجرد وصوله إلي الرهد فإن الملك المسكين قد مات كسير القلب ولا بد أن الموت كان بالنسبة له خلاصاً سعيداً . بينما بالنسبة لنا نحن الذين نشتاق للموت فإنه لا يأتي إلينا .

تقع الرهد في منخفض . ويصبح المنخفض في الشتاء مستنقعاً . فالمياه تظل راكدة لبعض الوقت . وتوجد العديد من الآبار وهي كافية لعدد كبير من الناس والحيوانات . وخلال موسم الجفاف تصبح الرهد مركزاً يتجمع فيه عدد كبير من قبائل العرب . وعلى بعد أربع ساعات نحو الجنوب يرتفع جبل دوباب العظيم (يسميه العرب الداير وذلك بسبب شكله نصف الدائري) وربما كان دوباب أفضل جبل محصن طبيعياً دون جميع مجموعة جبال النوبا . ولا يمكن الوصول إليه إلا من جانب واحد فقط ومن أسهل الدفاع عن هذا الجانب . توجد كميات من المياه تمكن السكان من مقاومة حصار طويل . محيط قاعدة الجبل حوالي ثمانية عشر ميلاً والسكان يعيشون في قمته .

أقام الدراويش ثكناتهم الخشنة تحت أشجار الرهد الظليلة وسرعان ما قام معسكر

ضخم . وبعد وصولي بقليل ، أجبرت مرة أخرى على تغيير سيدي . فالسيد الذي كنت عنده مؤخراً لم يكن سيئاً حقاً ولكن سيدي الجديد عبد الحليم ود عيد كان أميراً عظيماً ومتحمساً دينياً .

على أية حال قبل أن أواصل وصف الأحداث التي وقعت في الرهد ، يجب أن أعطي ملخصاً موجزاً لما حدث للراهبات منذ أن نزعوهن بقسوة منا . لقد سافرن من الرهد مع مختلف الأمراء الذين وزعوهن بينهم . وفي السفر عانين كثيراً . لقد أجبرن على المشي كل المسافة حافيات فوق الشوك والرمال المحرقة . وعانين من كرب الجوع والعطش وكان على بعضهن حمل أحمال . فواحدة منهن لم تحصل على نقطة ماء للشرب ليوم كامل . هؤلاء المتوحشون القساة يضربوهن ويسيئون إليهن ويشتمونهن باستمرار وعندما ينال منهن التعب والإرهاق ويجلسن للحظة يدفعن إلي الأمام تحت ضربات السياط القاسية . وعند وصولهن إلي الرهد كن بالكاد يشبهن الآدميين . فوجوههن محترقة ومتقشرة جميعها من الشمس المحرقة . وهنا تنتظرهن أعمال تعذيب جديدة . واحدة منهن علقت متدلية من شجرة وضربت على باطن قدميها إلي أن تورمتا وأسودّتا وسرعان بعد ذلك ما وقعت أظافرهما . وبالرغم من كل هذه المعاناة وبالرغم من التهديدات المستمرة من هؤلاء البرابرة بأنهم سوف يغتصبونهن ، فإن هؤلاء الراهبات تمسكن بقوة بعقيدتهن .

في إحدى الليالي نجحت راهبة في الهرب إلي كوخ المهدي وشقت طريقها بقوة حتى مثلت أمامه واستنجدته بشدة ضد المعاملة القاسية التي تعاني منها هي ورفيقاتها على أيدي أمرائه الطغاة وأن كل غلطتهن أنهن متمسكات بعقيدتهن . ما كان المهدي ليغفر مثل هذا اللوم الحاد تحت ظروف أخرى ، ولكنه عندما رأى هذه الراهبة المسكينة جريحة وتنزف ، تظاهر بأنه لم يكن يعلم شيئاً عن الأمر ، وأمر في الحال إحضار جميع الراهبات إلي حظيرته حيث أصبحن إلي حد ما آمنات من سوء المعاملة . ولكنهن كن في رعب دائم من انتهاك حرماتهن ولذلك قررن السعي للحماية من بعض الإغريق الذين لهم حظوة عند المهدي والذين بناء على طلب من الراهبات سعوا للحصول على إذن

للإشراف عليهن والعناية بهن . والمهدي الذي أشفق عليهن حقيقة من قلبه وافق على اقتراح الإغريق بأن الشفقة عليهن هي التي دفعته لاتخاذ هذا القرار .

من الحقائق المعلومة في القرآن أن محمداً [٥] أوصى باحترام القسس الذين يسميهم الرهبان . وفوق ذلك فإنه يخبر أتباعه أن من واجبهم أن يفعلوا ذلك . وتدعيماً لهذا فربما استشهد هنا بترجمة لفقرة مشهورة توجد في المخطوطات المحفوظة في الدير الإغريقي بجبل سيناء . وهي كالتالي : « بسم الله الرحمن الرحيم . محمد بن عبد الله يصدر هذا البلاغ إلي الكافة ويعلن أنه هو الموثوق به من عند الله الذي وضعه فوق خلقه . فلا أحد يمكنه لذلك أن يحمي نفسه بدعوى الجهل .

« لقد كتبت هذا البلاغ في صورة أمر لأمتي ولكافة المسيحيين في الشرق والغرب ، البعيدين والقريبين ، الصغار والكبار ، المعروفين وغير المعروفين . لكل من يخفق في إتباع التعليمات المبينة في هذا الأمر فإنه يقود نفسه ضد إرادة الرب . ويجعل نفسه عرضة للمنة أي شخص سواء أكان سلطاناً أو أي مسلم آخر .

« إذا اعتزل قسيس أو راهب في جبل أو غار أو كهف أو سهل أو صحراء أو مدينة أو قرية أو كنيسة فأنا بنفسي مستعد لمتابعتهم بجيشي ورعاياي لحمايتهم ضد أي أعداء قد يقابلونهم لأن هؤلاء القسس هم رعاياي وأنا بنفسي سوف أمنع أي أذى يصيبهم . فالضرائب لا تؤخذ منهم فيما عدا ما يدفعونه طواعية وبإرادتهم الحرة وليس بإجبارهم لفعل ذلك من أي شخص . وليس مسموحاً إبعاد أسقف من أسقفيته أو قسيس من كنيسته أو راهب من ديره . ولا تنقل أشياء من كنائسهم وتستعمل في بناء المساجد ولا لبناء منازل المسلمين . والذي لا يفعل طبقاً لهذا فإنه يعمل ضد شريعة الله ورسوله . وإن من الممنوع إرهاق الأساقفة وغيرهم من رجال الدين بالضرائب . وسوف أدعم امتيازاتهم هذه في كل مكان ، على الأرض أو البحر ، في الشرق أو الغرب ، في الشمال أو الجنوب ويجب أن يتمتعوا برعايتي وحمايتي ضد أي شيء ضار أو كريه أو

---

٥ – القرآن الكريم كلام الله .

غير مرض بالنسبة لهم .

« أولئك الذين يزرعون في الجبال أو الأماكن البعيدة يجب ألا يرهقوا بزكاة العُشر حتى ولو دفعوها طواعية وبمحض إرادتهم شريطة أن يكون ما يزرعونه لمعيشتهم ، وإذا كانت هناك ندرة في الذرة يجب إعانتهم بكوارت (ربع جالون) من الذرة لكل منزل . ويجب ألا يضطروا إلي الذهاب إلي الحرب أو يدفعوا الجزية . وأولئك الذين لديهم أمتعة ثابتة يجب ألا يدفعوا أكثر من اثني عشر درهماً من الفضة سنوياً . يجب ألا يرهق أحد وألا يثار جدال مع أولئك الذين يتبعون تعاليم الإنجيل بل ينبغي من باب أولى التعاطف معهم إلي درجة ما حتى نطرح جانباً جميع العداوات وأن نجعل أجنحة الرحمة تنتشر فوق الجميع .

« وإذا عاشت امرأة مسيحية وسط المسلمين فعليهم أن يعاملوها معاملة طيبة وأن يسمحوا لها بقراءة صلواتها ألا يسمحوا لأي شيء يحول بينها ودينها . ومن يفعل خلافاً لهذه الأوامر فإنه يفعل ذلك متمرداً على الله ورسوله .

« يجب دعم المسيحيين في المحافظة على كنائسهم وبيوتهم وينبغي أن يساعدهم دينهم لفعل ذلك . فليس من واجبهم حمل السلاح ، فالمسلمون ينبغي أن يفعلوا ذلك نيابة عنهم وعلى المسلمين أن يتقيدوا بهذا الأمر بقوة إلى نهاية الدنيا .

« الشهود الذين يؤكدون صحة هذا البلاغ الذي أصدره بهذا محمد بن عبد الله رسول الله لكافة المسيحيين . هذا البلاغ الذي يمهر إمتيازاتهم هم : على بن أبي طالب ، أبو بكر بن أبي قحافة ، عمر ابن الخطاب ، عثمان بن عفان ، أبو الدرداء ، أبو هريرة ، عبد الله بن مسعود ، عباس بن عبد المطلب ، فضيل بن عباس ، زهير بن عوان ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن معاذ ، سعد بن عباده ، ثابت بن قيس ، أبو خيطمه ، هاشم بن أميّه ، الحارث بن ثابت ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، عمر ابن ياسين ، معظم بن قريشي وعبد العظيم بن حسن .

« كتب هذا البلاغ بيد على بن أبى طالب في الثالث من محرم في السنة الثانية للهجرة الموافق للأول من أغسطس سنة ٦٢٢ ميلادية ووقعه النبي بنفسه .

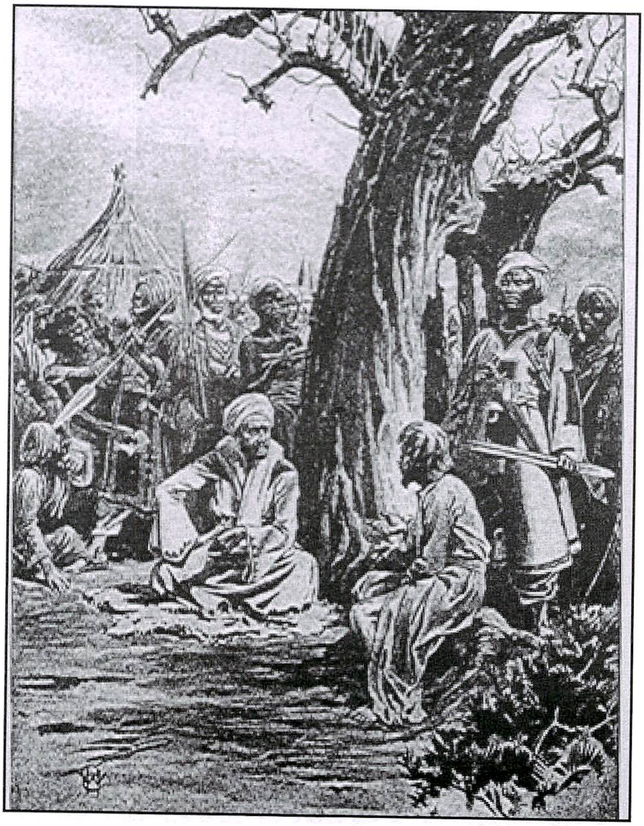
« فليبارك الله من يتبع محتويات هذا البلاغ وليلعن من يعمل ضده « .

لاشك أن القواعد المأمور بها في البلاغ أعلاه قد رجحت لدى المهدي في قراره بتسليم الراهبات إلى الإغريق . وهكذا زال الخطر في ذلك الوقت . ومؤخراً عندما سقطت الخرطوم ووقعت مئات الشابات اللواتي كن ضمن حريم أعيان المدينة في أيدي الأمراء توقف نهائياً اضطهاد الراهبات . وفي عزلتهن أخيراً حصلن على بعض الراحة والهدوء ويكسبن معيشتهن اليومية بالخياطة وغيرها من الأعمال اليدوية .

بعد هذا الاستطراد ، دعونا نعود إلى الرهد حيث أقيمت الآن أعداد من أكواخ القش . وتم افتتاح سوق والمؤن رخيصة . وتدفقت قبائل العرب المختلفة من دار حمر وبديرية وغديّات وبقّارة وحوازمة ومسيرية ودار نولى إلى هنا مع قطعان مواشيهم . وسرعان ما تمدد المعسكر بصورة كبيرة . الشريف محمود الذي تركه المهدي وراءه في الأبيّض قد أُمر لإرسال جميع الناس من هناك .

أقام المهدي سكنه بين دوحتين عظيمتين وسكن الخلفاء من حوله . وإن التحركات المشتركة لهذا الحشد الكبير تترك انطباعاً مؤثراً في النفس . ففي وقت الصلاة يصطف آلاف من الدراويش في صفوف منتظمة خلف المهدي وعندما يصيحون بصوت واحد « الله أكبر» يتردد صدى ذلك في الجو . وغالباً ما يستمر مادحو المهدي في إنشاد مدائحه إلى وقت متأخر بعد منتصف الليل . وهكذا يستمر هو في إلهام هذه الحشود الضخمة .

كنت أيضاً قد استدعيت من المهدي مرتين . في إحدى المناسبتين اندفع اثنان من حرسه



مقابلة المهدي لاورفادر في الرهد

الشخصي إليّ مبهوري الأنفاس وذلك فقط ليظهرا كيف أنهما ينفذان أوامر المهدي بسرعة . وصاحا وهما يلوحان بسيفيهما فوق رأسي " أنهض . المهدي يرغب في التحدث إليك " وكأمر محقق فإنه لم تكن لي رغبة في رؤيته ولكن كان عليّ أن أنهض . وقد فعلت ذلك بأبطأ ما يمكن أن أستطيعه . ثم دفعوني إلي الإمام في الاتجاه الذي يجب أن أسير فيه . وأخيراً وصلت إلي الدوحتين العظيمتين وجلست بجانبهما وأسندت ظهري على الجذور البارزة فوق سطح الأرض . المهدي لم يصل بعد . وبالقرب منى كان هناك كوخ مبنى بطريقة خشنة من سيقان الدخن وقد أخبرت بأنه الطابية وحولها زريبة صغيرة

من الشوك أقيمت لمنع حشود الدراويش الذين تجمعوا بالآلاف من الاقتراب . ومعظمهم يجلس في صفوف طويلة على الرمل ويرددون قول " سبحان الله " وأكواخ وخيام المهدي قريبة .

كان الوقت عندئذ موعد صلاة الظهر . أثناء اقتراب المهدي كان هناك طنين وهمهمة أعقبها صمت عميق .

عندما جاء المهدي إلي المكان حيث فرشت له فروة الصلاة على الأرض ، جاء عبد وخلع نعلي المهدي وبعد ذلك بدأ الصلاة . بعد أن انتهت الصلاة ، استدار وحيّاني . ثم تقدم بعض خلصائه وقدموا عرائض إليه فوافق عليها في الحال بكتابة بعض الكلمات على ظهر العريضة وأجل النظر في بقية العرائض .

منذ المناسبة التي قابل فيها المهدي كلوتز فإنني لم أره . فالآن أرى تغيراً ملحوظاً فيه . فقد ازداد بدانة ولكنه ما زال يلبس ملابس من الدّمور[6] الخشن يتألف من لباس وجبّة وحزام (كرّابه) وعمامة . سرعان ما اتجه حديثه إلي الدين وسألني إن كنا نحن المسيحيين نستعمل « الحمدُ » (وهي صيغة يستخدمها المسلمون حين يركعون في الصلاة) في صلواتنا . أجبته ليست لدينا واحدة فقط بل عدة صيغ واستجابة لطلبه كررت « صلاة الرب » باللغة العربية .

خلق هذا كثيراً من الدهشة بين المستمعين الجهلة الذين يعتقدون أن المسيحيين لا يعرفون كيف يصلون وقد ظنوا أنني « فصيح » جداً . وبعد حديث طويل عن مزامير داوود ، قال المهدي « أعلم أنكم أنتم المسيحيون ، أناس طيبون جداً وأنكم تطعمون الجائع » ثم أخبرني عن « أعمال الرحمة » وأضاف أن مثل كل هذه الأعمال لا فائدة منها حيث أن أي شخص لا يعتقد في المهدي ليس إلا « حطباً للنار » هذا وقد قطع حديثنا صلاة العصر . وبعدها أجرى المهدي استقبالاً مرة أخري . وبين الحاضرين الآخرين ظهر قزم صغير . وتحدث إليه المهدي عن قبيلته وسأله إن كان قد تزوج .

---

٦ – الدمور نسيج خشن من القطن المغزول و المنسوج يدوياً

فأجاب القزم أنه قد جاء ليطلب تزويجه وأوضح أن الحصول على زوجة هي رغبته القلبية . وعلى ذلك أصدر المهدي أوامره بتزويجه على الفور ثم وقف ليغادر وسمح لي بأن أذهب إلى مسكني .

في اليوم التالي استدعاني مرة أخرى . وأوضح أنه علم من خلال صلاة الظهر انه سوف ينتصر على جميع العالم . وقال إن الله قد أعطاه فترة أربعين سنة (كأمر محقق ، عاش فقط أربع سنوات . لكن زيادة صفر أو نقصانه ليست ذات أهمية) يجب عليه خلالها أن يجعل جميع الناس يعتقدون فيه ويعترفون بأنه المهدي . وأضاف أنه بعد إخضاع السودان فإنه سيأخذ مصر التي ستبدى مقاومة ضعيفة . وأنه سيهاجم مكة بعد ذلك حيث ستقع المعركة الأكثر دموية التي يشهدها العالم . ومن مكة يتقدم إلي القدس حيث ينزل عيسى المسيح من السماء . قلت « بالطبع ستكون للمسيح الخصائص التي ينسبها له الإنجيل » .. ولكن المهدي واصل حديثه « ألا يحارب المسيح المخالفين له؟ إذا لم أومن به فسوف يقتلني » .

ثم سألني المهدي إن كنت أبداً أرى أحلاماً في المنام ، فأجبته حتى وإن كنت أري أحلاماً فإنني لا اعتقد فيها . عندئذ التفت المهدي حوله إلى أولئك القريبين وقال : « بالتأكيد فإن الأتراك لا يعتقدون في الأحلام و إلا كانوا أقروا بأنني أنا المهدي » . لقد قيل إن محمود بك أحمداني مدير الخرطوم الذي رافق حملة هكس وسقط بالقرب من شيكان قد رأي ظل المهدي على الحائط محاطاً بهالة من النور ولكن لعناده ظل يرفض الاعتراف به .

عندئذ دخل شريف من سوريا وانحنى للمهدي وقال : « سيدي أنت قريبي ! » . (عني بذلك انه ينتمي إلي النبي وأن المهدي قد جاء من سلالة النبي ولذلك فإن بينهما صلة قرابة) سر المهدي سروراً عظيماً بهذا الإطراء وأمر ود سليمان لإعطائه ٥٠ ريالاً ومحظية . واتجه الحديث عندئذ إلي غردون . وعلق المهدي أنه شديد الشفقة على غردون لأنه مقتنع بأن جدل العلماء هو الذي جعل غردون يعتقد بأنه ليس المهدي الحقيقي . ثم سألني ما هو هدف الأسلاك التي أحاط بها غردون الخرطوم . أجبته

بأنه لا علم لي بفن الحرب ولكن آخرين قالوا إنها أسلاك التلغراف التي انتزعها غردون حتى إذا حدث هجوم تعثرت عليها الخيل . تبسم المهدي وعلق بأن الله أكثر قوة من حيل وخدع غردون .

أقبل الآن المساء وقام المهدي من مجلسه ليذهب وهكذا ذهبت إلى مسكني . وعندما رجعت إلي شيخ إدريس جاء عدد من الناس لتهنئتي لحظي السعيد بالحديث إلى المهدي . من ناحيتي كنت سأستغني بكل سرور عن هذا الحظ السعيد . وعندما استدعيت في اليوم التالي أرسلت رسالة إلي المهدي معتذراً بشدة المرض وبهذه الوسيلة ضمنت بعض الراحة .

أثناء وجودنا في الرهد كانت أعين المهدي متجهة باستمرار إلي جبل الداير ، وعندما رجع أبو عنجة والأمراء الذين أرسلوا لإخضاع هذه المناطق منهزمين في محولاتهم لطلوع الجبل أرسل المهدي كل رجل صالح لخوض الحرب لتعزيزهم . وبرر هذا الإجراء غير المعتاد بقوله إنه يجب تمرين جميع الناس على الحرب وإنه بالإضافة إلي ذلك فإن فيه كفارة لأولئك الذين لم ينضموا إليه إلا مؤخراً بغية تطهيرهم من إثم عدم انضمامهم إليه في وقت أسبق . ومن المحقق أن هؤلاء العرب كانوا مصدر متاعب كثيرة وإزعاج للمهدي لأنهم لا يفعلون شيئاً سوى التجول في السوق والتسول وأنه ليس من السهل المحافظة على النظام لمثل هذه الحشود الضخمة .

شنت الحرب على النوبا بأسلوب قاس للغاية . لقد اغتاظ الدراويش المتكبرون من المقاومة العنيدة لهؤلاء العبيد السود الفقراء حسبما اعتادوا أن يسموا النوبا . ففي إحدى المناسبات عندما حاول الدراويش بقيادة أبو عنجة ومن خلفه الجلاّبة صعود الجبل ، سمح لهم النوبا بالتقدم إلى بعض الطريق ثم انقضوا على الجلاّبة في الممر الجبلي الضيق . كان هؤلاء الجلابة مسلحين تسليحاً سيئاً فقتل أربعمائة رجل منهم . ولما رأى أبو عنجة ذلك تقهقر وعندما دخل في الممر الجبلي توسل إليه الجرحى التعساء من الجلابة لحملهم معه ولكن رد رجال أبو عنجة بسخرية أن عليهم أن يموتوا « في سبيل الله » وتركوهم لرحمات حراب النوبا الحنونة .

لعلى ألاحظ هنا أنه يوجد شعور عدائي بين السود والدراويش . فالعساكر السود يشتكون من أنهم يوضعون دائماً في الصفوف الأمامية في المعارك . وفي هجوم آخر تمكن الدراويش من الوصول إلي قرية النوبا فاحرقوا الأكواخ وقتلوا عدداً كبيراً منهم وأخذوا زوجاتهم وأطفالهم أسرى إلي الرهد حيث باعوهم كعبيد . وفي هذه المناسبة قطع النور عنقره رؤوس ثلاثة من النوبا الذين استسلموا بينما أمسك رجال أبو عنجة الأطفال الصغار من أرجلهم وضربوهم على الصخور حتى تطايرت أمخاخهم . وفي الرهد أقيمت زريبة خاصة لأسرى النوبا وحشروهم فيها كالماشية لبيعهم . هذه المخلوقات المسكينة تركت دون غطاء من الشمس والمطر وعانت بفظاعة من الجوع والعطش . ففي كل مساء يعطونهم حفنات من الذرة وقليلاً من الماء ولكن ذلك لم يكن كافياً على الإطلاق وخلال بضعة أيام بدأت الأمهات يشاهدن أطفالهن يموتون ببطء من الجوع بينما تجمع الأطفال الرضع حول أمهاتهم بحثاً عن الطعام دون جدوى . وفي كل صباح يأتي الحراس للتحقق من وجود جثث أموات أو أشخاص علي وشك الوفاة فيأمرون الأحياء التمساء الذين لديهم من القوة ما يجعلهم يقفون بالكاد على أقدامهم سحب موتاهم وأصدقائهم وأقربائهم الذين على وشك الوفاة .

إن الأمر سوف يستغرق وقتاً طويلاً للحديث عن جميع الجرائم الفظيعة وأعمال القسوة التي قاسى منها هؤلاء النوبا المساكين على أيدي الدراويش . لكن لماذا ؟ لأنهم حاولوا الاحتفاظ بحريتهم والدفاع عن أرض الآباء رافضين متابعة ذلك المزّيف الكاذب الذي يسمى نفسه المهدي . لقد كان بين الأسرى في الزريبة رجل وزوجته وطفلان صغيران كان منظر طفليه الجائعين يقطّع نياط قلبه . وقد أثّر عليه منظر جبال موطنه فأصبح يائساً ولعلمه انه ربما يفصلونه عن زوجته وطفليه وبيعهم في اليوم التالي اتخذ قراراً فظيعاً : في منتصف الليل احتضن زوجته وقبّل طفليه الصغيرين ثم غرز سكينه في كل واحد منهم مفضلاً أن يموتوا من أن يباعوا عبيداً ثم اندفع خارج الزريبة وهرب . أطلق الحراس عليه النار وأخطأوه وهكذا نجح الرجل التعيس في الوصول إلى جباله المحبوبة .

الباب السابع

آراء الأب أورفالدر عن مهمة غردون

أورفالدر يصف معاملته على أيدي أسياده العديدين. النوبا يستسلمون ويفرون فيما بعد. أخبار من الخرطوم. الاستيلاء على البريد الإنجليزي . وصوله إلي معسكر المهدي . المهدي يقرر الزحف على الخرطوم . استعراض موجز للأحداث في الخرطوم وبربر. آراء أورفالدر عن مهمة غردون . المهدي يبدأ التقدم نحو الخرطوم . هزيمة محمد علي باشا وموته . العقيد استيوارت . السيد باور وآخرون يغادرون الخرطوم على ظهر الباخرة « عباس » . وصف تحطم الباخرة وقتلهم خيانة .

استمرت الحرب مع جبل الداير لمدة طويلة . فقد قاتل النوبا بشجاعة مستميتة . وكنت أسمع عن شجاعتهم من الدراويش الذين كانوا يترددون على منزل سيدي . بعد حوالي شهر أرسل سيدي إلي بركة جيث أمروه بجمع العرب وإرسالهم إلى الرهد . وفي هذا المكان مارس قسوة غير مسبوقة . فقد وجد شخصاً يشرب المريسة فأمر بجلده ثمانين جلدة إلي أن سقطت أحشاء الضحية المسكين خارج بطنه . وخلال غيابه هذا أعادوني إلي سيدي القديم ، شيخ إدريس ، حيث واصلت حياة بائسة آكل من مخلاة الحصان وأطفئ عطشى من الماء المخصص للحيوانات ، فالأرض سريري والسماء غطائي .

في كل صباح عندما أنهض عليّ أن انفض العقارب من ملابسي التي تكون قد زحفت إليها أثناء الليل . ومن الغريب أن لسعة هذه الحشرات ، التي كانت دائماً في أوقات أخرى مؤلمة للغاية ، سببت لي القليل من المضايقة أو التهييج . القذارة في المسكر بسبب الانعدام التام لجميع قواعد الصحة جعلت الذباب يتكاثر بصورة مدهشة . والأكل أثناء النهار أمر مستحيل لأن المرء سيأكل من الذباب بقدر ما يأكل من الطعام .

ما زلت أعانى هنا من التهديدات والإساءات مثلما في الأماكن الأخرى . وكم من مرة وضعت حياتي عمداً في الخطر أملاً في أن يخلصني الموت من هؤلاء المتوحشين . شيخ إدريس كان منزعجاً من إساءة معاملتي . ولكن ماذا يفعل شخص واحد مع هذه الحشود من المهووسين دينياً ؟ في يوم من الأيام بعد استعراض الجيش دعاني إدريس لتناول الإفطار معه في كوخه . وبعد الإفطار بدأ يتحدث معي سراً . وقال إن النبي محمد

قد منع صراحة إساءة معاملة القسس والرهبان . ثم قال إن مصر قد فقدت السودان ، وأن غردون لن يستطيع مقاومة المهدي فمعظم الفقهاء والشيوخ قد خضعوا للمهدي وأن السودان كان في أيديهم . وعندما أشرت إلي الصعاب الجسيمة التي سوف يلاقيها في عبور الصحارى إلي وادي حلفا ، أشار إلي أنه ليس من المرجح أن يعوق مشروع المهدي موت بضعة آلاف من الرجال . وعندئذ جادلت بأنه ليس من المرجح إطلاقاً أن يقبل المسلمون البيض مهدياً أسود وأنه بالإضافة إلى ذلك ووفقاً للأحاديث النبوية فإن المهدي يظهر في مكة . أجاب « الله سيد الجميع » وقد قصد بذلك أن يقول إن الله قادر على أن يجعل مهدياً أسود .

كان لنا حديث طويل عن المهدي وقد بدا لي أن شيخ إدريس لم يكن يعتقد فيه ولكن انضم إليه فقط على أمل الكسب والمكافآت . وقد أضاف إدريس قوله « بأي حق يحكمنا الأتراك ؟ ألا نستطيع أن نحكم أنفسنا ؟ » إذا كان هناك الكثير من الرجال المعقولين والمستنيرين مثل شيخ إدريس لكن من المحتمل أن تأخذ المهدية شكلاً مختلفاً ، لكن إدريس كان استثناءً . فمعظم الأمراء الرئيسيين كانوا متوحشين غير متعلمين وجهلة . وقد كانت إرادة الله أن يسقط إدريس هذا فيما بعد في معركة أرقين في سنة ١٨٨٩م وهو يحارب ضد وود هاوس باشا .

بعد أيام قليلة من هذه المحادثة وصل سيدي الأصلي عبد الله ود النور من جبل الداير ليتلقى أوامر المهدي فيما يتعلق بسير الحرب في المستقبل . أهداه المهدي حصاناً جيداً للغاية . وقد سأله الخليفة عما يود أن يفعله بي ، ونصحه بأن يأخذني معه عندما يعود مرة أخرى إلى جبال النوبا ويضعني في المقدمة حتى يقتلني النوبا وقد أخبراني بذلك شيخ إدريس وخليل حسنين كاتب روفيرسي الذي حصل على وظيفة جيدة في بيت المال وقد أعطاني ثلاثة ريالات للرحلة . لقد سررت لفكرة التغيير لأنه لا يمكن أن تكون حالتي أسوأ مما في الرهد .

في البداية سلموني إلى « فكي[1] » الذي أزعجني بكلامه غير المفيد والفارغ . اسمه محمود وقد جاء من جزيرة توتي قرب الخرطوم . التحق بالمهدي بعد هزيمة هكس وقد احضر معه حماراً وبضعة ريالات . فأول شيء فعله هو بيع حماره وشراء محظية ولكن خلال يومين هربت المحظية وهكذا فقد كلاً من حماره وماله . وعندئذ انضم إلي الخليفة عبد الله الذي سلمه إلي إدريس كشخص طيب ليرشدني إلي الطريق الصحيح . ولكن بدلاً من أن يقنعني بمهدية المهدي فسرعان ما أقنعته بعكس ذلك ولم يكن ذلك صعباً على الإطلاق . اعتاد الفكي أن يذهب مراراً إلي بيت المال ليحاول الحصول على محظية ولكن لم يعره أي شخص أدنى انتباه . ومن ناحية أخرى فقد اعتاد باستمرار أن يرى العديد من محظيات إدريس الذي كان غنياً بينما هو مجرد رجل فقير . ومن هذا جعلته يدرك أن زعماء المهدية يبحثون فقط في الكيفية التي يحصلون بها على الثروات والمجد على حساب إخوانهم الفقراء . وسرعان ما مرض بعد ذلك في الرهد ولم يكن هناك من يرعاه أو يعتني به وقد علمت أنه قد صار لديه في قلبه أكثر مما يكفي عن المهدي ولكنه كان خجلاناً من الاعتراف بذلك أمامي . وفى ليلة من الليالي لما لم اسمع صوته في الكوخ البائس الذي أعطوه له دخلت عليه فوجدته راقداً ممدداً على الأرض وميتاً . لقد شعرت بالأسى على هذا المخلوق المسكين الذي مات بعيداً عن أهله .

سبب آخر جعلني مسروراً بالذهاب بعيداً إلى جبل الداير هو أنني مريض وأعانى كثيراً من شكواي القديمة التي أجبرتني على الاعتزال مراراً خارج المعسكر وسط استهزاء العرب ولكن فجأة انطفأ شعاع الأمل الذي لاح مع فكرة التغيير في الجبال إذ ظهر أن إدريس قد رتب مع الخليفة عبد الله دون علمي ، تركي في الرهد .

تواصلت الحرب ضد النوبا ومن الرهد كنت أستطيع رؤية أعمدة الدخان الصاعدة وهي تبين أماكن القرى التي أحرقها هؤلاء الدراويش القساة . وأخيراً تم التغلب على هؤلاء المساكين الشجعان بالأعداد الكبيرة من الجنود ووافقوا على الاستسلام شريطة

---

١ - الفكي في السودان هو الفقيه الذي يعلم القرآن .

أن يظلوا أحراراً وأن يسمح لهم بأن يعيشوا في جبالهم . وافق المهدي لأن الدراويش كانوا قد انهكوا بحربهم الطويلة الدامية .

نزل السكان الشجعان من جبالهم رجالاً ونساء وأطفالاً بأعداد مدهشة وأقاموا في سفح الجبل وبالقرب من معسكر الدراويش بينما ذهب الملك كومبو والزعماء الرئيسيون إلي المهدي لأخذ البيعة (قسم الولاء) .

حدث الآن ابتهاج عظيم . وتلقاهم المهدي بلطف وأعطاهم هدايا وأعاد إليهم أولئك الذين مازالوا في بيت المال . لكن قبل أن يغادروا من أمامه أمرهم وزوجاتهم وأطفالهم بمتابعته إلي النيل الأبيض . كان هذا مخالفاً للاتفاق الذي جرى بينهم ولكن المهدي لا يهتم كثيراً بالشرف والوفاء بالوعد . فهدفه الرئيسي هو تحقّيق ما يصبو إليه بأي احتيال أو غش يمكن أن يمارسه . وعده النوبا بتنفيذ طلبه وعادوا إلي معسكرهم . ولكن عندما تحدثوا إلى أهلهم ، قرروا الهرب أثناء الليل ، مفضلين أن يجوعوا في كهوف ومعاقل جبالهم من أن يغادروا منطقتهم . وكرجل واحد قاموا وهربوا إلي الجبال واستؤنف القتال مرة أخرى .كثيرون منهم قاتلوا باستماتة عنيدة وقتل العديدون ولكن خسائر الدراويش كانت أيضاً ثقيلة للغاية . وانسحب النوبا إلى المعاقل البعيدة داخل الجبال حيث لا يستطيع العدو ملاحقتهم . وفي إحدى المناسبات كاد الدراويش أن يقبضوا علي الملك كومبو . وقع في أيديهم حصانه وحربته ولكنه هو نفسه فقد هرب .

وأخيراً بعد أن أرهقتهم هذه الحرب المتعبة التي لا نهاية لها رجعوا إلى الرهد ولكن الأمطار الغزيرة قد هطلت وأصبح الخور الآن سيلاً مندفعاً . وهنا غرق مئات من أنصار المهدي ضحايا لتعصبهم المتهور لأنهم اعتقدوا أن سلطة المهدي تنقذهم من النهر الطائش المندفع . كثيرون منهم عبروا على العناقريب التي ربطت على كل قائم منها قربة مملوءة بالهواء .

نحو نهاية يونيه ١٨٨٤م وصل سلاطين بك إلي الرهد . أمر الخليفة عبد الله بدق طبول الحرب الكبيرة وغادر جميع الخيّالة المعسكر لملاقاته ومرافقته . استقبل المهدي سلاطين بلطف شديد وتم إلحاقه بأتباع الخليفة عبد الله .

الخليفة منشرح الصدر لتجميع الأجانب حوله . ففي يوم من الأيام استدعاني الخليفة مع الأب بونومى لمقابلة سلاطين . وقد أعطاني ذلك فرصة لمقابلة الأب بونومى الذي لم أره منذ شهور .

لقد جاءت مارييتّا كومبوتى إحدى بناتنا السوداوات في حوالي هذا الوقت من الخرطوم إلى الرهد . فبعد هزيمة هكس أرسلناها إلى الخرطوم لإخبار جماعتنا هناك عن حالتنا وعن قوة المهدي واستعجلنا كل شخص لمغادرة الخرطوم بأسرع ما يمكن وأعطيناها بعض الخطابات التي خيطت فى طرف حصير لإخفائها . القنصل هانسل ساعد كومبوتى بكل طريقة وأعطاها عدة أشياء لنا مثل الملابس والنقود والأدوية . ولقد عانت كثيراً أثناء الرحلة فقد وضعوها في سلاسل القيود وكل ما نجحت في إنقاذه هو نقودها . وقد غابت عنا مدة سبعة أشهر .

ضمن الأشياء الأخرى التي أرسلها لنا القنصل هانسل صورة فوتوغرافية لأسقفنا الجديد المبجّل المونسينيير إمبريان من تيرول وقد أحضرت مارييتّا أيضاً خطاباً إليّ من القنصل يصف فيه حالة الخرطوم وهزيمة بيكر باشا التي لم نسمع عنها شيئاً . وأضاف القنصل بقوله : " نأمل أن يتقدم الإنجليزي بهمة إلى داخل السودان وإلا فإننا سنضيع . إن حالتنا ميئوس منها " . هذا الخطاب مؤرخ في أوائل يناير ١٨٨٤م . كذلك أرسل إلينا هانسل جريدة تيرولر فولكسبلات (Tyroler Volksblatt) التي تصدر في بوسن . وفيها لدهشتي أقرأ قصة وفاتي شخصياً . قالت الصحيفة إن أنصار المهدي قد قبضوا عليّ وأنني مت من الإرهاق وسوء المعاملة . وهكذا فقد اعتقد أصدقائي بأنني ميت . وفي الحقيقة شعرت عندئذ بأن الموت لا يمكن أن يكون بعيداً جداً . أصبحت علتي أسوأ من ذي قبل . وكنت أعاني من داء الإسقربوط كذلك . لقد شعرنا بالامتنان لهانسل سيء الحظ الذي فعل كل ما يستطيعه لتخفيف ضائقتنا ولكن الله أراد غير ذلك . كم كنت أتمني أن يأخذ بنصيحتنا ويغادر إلي بلاده .

إن حالة الظلام النفسي التي عشنا فيها والإساءات المتواصلة والتحديق فينا من قبل تالد الحشود . وكوننا تحت رحمة وسخرية هؤلاء المتوحشين كأنما المرء لديهم قرداً أو

حيواناً غريباً آخر. جميع ذلك كان له تأثير جالب للكآبة على الطبيعة الروحية للمرء . وقد شعرت أنني أفقد عقلي . لكن رغم ذلك في جميع هذه الابتلاءات والمحن فإن الله لم يتركنا . مرة أخرى سطع شعاع من الأمل من خلال العتمة .

لقد سمعنا شيئاً عن قوات إنجليزية ولكن المعلومات كانت مبهمة للغاية . أخبرني أحد رسل المهدي الذي حمل رد المهدي إلي غردون في الخرطوم بأن غردون قد استقبله استقبالاً حسناً وأعطاه بعض البقشيش . فهو ليس مثل محمد سعيد باشا الذي خذله الله والذي أعدم رسل المهدي . ولكن قبل مغادرته حذّره غردون بالكلمات التالية : " اذهب وأخبر المهدي أنه لا يكلفني أكثر من أن أضرب الأرض بقدمي حتى يظهر آلاف الإنجليز في الحال " . صدقت هذه القصة لأنني لم أعتقد أن الرسول من الذكاء بحيث يخترع هذه القصة . وبجانب ذلك شعرت بالتأكيد أن غردون لا بد قد عرف تماماً أنه لا يستطيع وحده مطلقاً إخماد نار هذه الثورة الضخمة . لكن أخيراً جميع هذه التقارير قد تم تأكيدها تماماً .

كان يوم الجمعة والخلفاء في الخارج لاستعراض الجيش عندما وصل جملان يحملان البريد الإنجليزي . وفي الحال ترك الخليفة عبد الله الاستعراض وأرسل إلى كلوتز لقراءة الخطابات . جاء إليّ كلوتز في الحال وقال إن بريداً إنجليزياً كاملاً مرسل إلي غردون قد تم الاستيلاء عليه قرب أم درمان . وقد كان واضحاً من عدة خطابات أن هناك قوات إنجليزية تتقدم إلى داخل السودان من ثلاثة اتجاهات : من سواكن إلي بربر ومن كورسكو إلي أبو حمد ومن دنقلا حيث هناك ٢٠٫٠٠٠ من المشاة و ١٠٫٠٠٠ من الخيّالة . وهناك تلغراف من القاهرة إلى أسوان يعلن زحف الجنرال جراهام . كما أن هناك خطاباً صغيراً مؤثراً من فتاة صغيرة إلي أبيها في الخرطوم الذي نسيت اسمه . في هذا الخطاب تحدثت عن الخوف الذي شعرت به فيما يتعلق بسلامة والدها وكيف أنها كانت تصلى يومياً حتى لا يواجه والدها نفس مصير هكس . وفي خطاب آخر أحيط غردون علماً بأن ٦٠٫٠٠٠ جنيه قد أرسلت إليه .

جميع هذه الخطابات أرسلت من بربر إلى الجنرال غردون من قبل جوزيف كوزي

الذي كتب خطاباً في هذا الصدد بالإيطالية إلى غردون . هناك خطاب يقول إن من المعروف تماماً أن الخليفة عبد الله هو الروح المحرك للثورة وأن المهدي يقدم فقط العنصر الديني . لكن كلوتز لم يترجم هذا في حضور المهدي . ولكن عندما نهض المهدي ليغادر ترجم كلوتز هذا الجزء للخليفة عبد الله الذي ابتهج لهذا الإطراء . هذا وأخفى كلوتز خطاب كوزي المكتوب بالإيطالية وأحضره إليّ فيما بعد . وفي هذا الخطاب أخبر كوزي الجنرال غردون بإيجاز بأنه يرحّل إليه الخطابات وأنه أرسل رسولاً إلي سواكن للتوصل إلى تفاهم مع الجنرال جراهام وأن الثوار في أبو حمد قد استولوا علي عدد من بواخر الحكومة . وأضاف أن على غردون ألا يقلق فيما يختص ببربر طالما أن حسين باشا خليفة هو المدير . لكن في هذا الأمر فقد برهن على أنه خدع تماماً .

المضمون العام لجميع هذه الخطابات أقنع المهدي أن الإنجليز جادون . لذلك قرر ألا يتخذ أي إجراء لبعض الوقت وأن يحوّل المعسكر إلي سفح الجبل حيث ينوي انتظار الزحف .

لكن سرعان ما جاءت الأخبار بأن بربر قد سقطت وأن الجنرال جراهام قد رجع إلى سواكن وهذا ما جعل المهدي يصمم على الزحف على الخرطوم .

بدأ النوبا الآن يسبّبون بعض المصاعب . فسرعان ما أخلى الدراويش معسكرهم عند سفح الجبل حتى جعل النوبا الطرق قرب الرهد ولمسافة كبيرة غير أمنة . فالعبيد الذين يخرجون لجمع الحطب أو القش ينقض عليهم فجأة هؤلاء النوبا الذين يقتلونهم أو يأسرونهم . وبهذه الطريقة فقد انتقموا للفظائع التي تعرضوا لها . وكان المهدي غير قادر تماماً لإخضاع هؤلاء السود . إخفاقه في ذلك كان ضربة عنيفة لكبريائه .

أشير هنا إلى أنه في هذه الفترة من المهدية فإن مخالفة القوانين الخلقية كان يعاقب عليه بصرامة . فقد قبض على أحد حراس المهدي الشخصيين متلبساً بالجرم المشهود في ممارسة نوع من الجرائم الخلقية الشائعة في البلاد الشرقية . واقتيد المجرمان وهما في القيود وتم قطع رأسيهما في حضور جمع غفير .

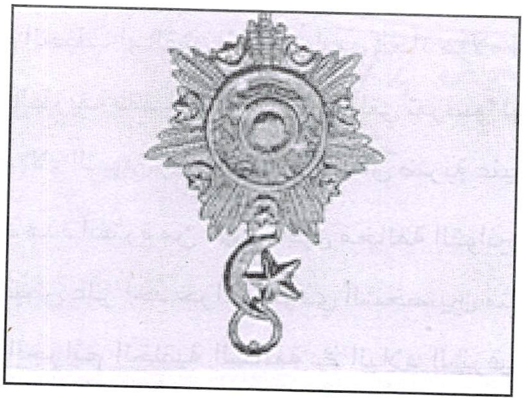
قبل متابعة المهدي في زحفه على الخرطوم فمن المستحسن هنا أن نراجع بإيجاز

الأحداث التي وقعت في الخرطوم وبربر والجزيرة .

إن الكارثة التي وقعت علي قوات الجنرال هكس قد ملأت سكان الخرطوم بفزع لا يوصف . العديد منهم رجع إلي مصر . وأما أعضاء البعثة النمساوية مع عبيدهم تركوا الخرطوم في ديسمبر ١٨٨٣م . محظوظون أولئك الذين انتهزوا فرصة الهرب هذه قبل أن تصبح الطرق مغلقة .

وصول الجنرال غردون إلي الخرطوم أعطى حياة جديدة وأملاً للسكان . كانت احتفالات الفرح عظيمة والاستقبال الذي أعد للمخلّص المنتظر فخماً . حدث هذا الاستقبال في الثامن عشر من فبراير ١٨٨٤م . ولابد أنه شجع غردون كثيراً في مهمته . ولكن لم يكن وجود غردون كفرد هو الذي بعث روح الأمل في الناس . ماذا يستطيع غردون أن يفعل وحده ضد المهدي الذي أصبح الآن مبجلاً على وجه العموم ؟ طبيعة الثورة ليست سياسية . والسودانيون ليست لديهم أهداف لإقامة إمبراطورية تحت حكم المهدي ، وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإنه من غير المحتمل أن يكون لتوسط غردون أية جدوى .

الحركة حركة دينية وهى ليست محددة بالسودان وحده . هدف المهدي هو إخضاع العالم . كان نبياً وفى تقديره هو وتقدير أتباعه أنه أعظم من النبي محمد . وينتهي العالم في زمانه . فلو أن



الميدالية الذهبية التي ضربها غردون تذكاراً لحصار الخرطوم

غردون قد علم مسبقاً بأن هوسه الديني المنفلت غير محدود وكيف أن أتباعه مخدّرين تماماً بذلك الهوس الديني لما قبل مطلقاً القيام بهذه المهمة . وكما ظهر لنا نحن في كردفان وللمهدي نفسه فإن مهمة غردون غريبة جداً . كانت فقط كمهمة شخص يحاول إطفاء حريق ضخم بقطرة ماء . اسم غردون وحده لا يمكن أن يقمع ثورة . وإنه لم يبتهج سكان الخرطوم عند وصوله بسبب اسمه . ولكن لأنهم نظروا إلى غردون كمندوب إنجليزي ، وأنه لم يكن إلا مقدمة لحملة أرسلت للاستيلاء على السودان لمصلحة إنجلترا . هذا هو ما جعل الناس مسرورين وجعلهم يتخلون عن أي فكرة للمغادرة . فلولا أنهم كانوا متأكدين من أن الحملة الإنجليزية قادمة لما بقي شخص في الخرطوم . ولا أتردد في القول إنه لو لم ترسل الحكومة غردون عندئذ لتم دون شك تنفيذ الإخلاء المقرر أصلاً دون صعوبة .

كثيراً ما حكى لي أولئك الذين نجوا من مجزرة الخرطوم بأنهم كانوا مستعدين تماماً لمغادرة الخرطوم . وأنه لم يمنعهم من ذلك إلا وصول غردون . ولكن وصول غردون دون قوات قد أصابهم نوعاً ما بالإحباط . فلو أنه كان مصحوباً بخمسمائة جندي بريطاني فربما حافظ على سمعته في السودان وربما لم يغادر المهدي كردفان .

غردون نفسه ارتكب خطأ سدد به ضربة قاتلة لنفسه ولمهمته . ففي طريقه إلي الخرطوم توقف في بربر وقابل المدير حسين باشا خليفة وأخبره بدون تبصر بأنه جاء لسحب الحاميات المصرية حيث أن مصر قد تخلت عن السودان . وفي المتمة أيضاً وهى نقطة قوية بين بربر والخرطوم ومقر رئاسة قبيلة الجعليين القوية أرتكب عدم تبصر مماثل بإعطاء نفس المعلومات إلي حاج على ود سعد أمير المتمة .

حاج على هذا كان رجلاً يحظى باحترام كبير بسبب تعاملاته العادلة . وفيما بعد عندما توفى في أم درمان كان هناك حداد عام عليه . فواقعة أن الخليفة قد عفا عنه بعد أن وجدت المريسة في بيته يدل بصورة كافية كيف أنه كان محترماً إلي درجة كبيرة . وكل من حاج على وحسين باشا خليفة قد أخبر رجاله البارزين عن قرار الحكومة . و هذا الإعلان هو الذي جعل هؤلاء الشيوخ المخلصين الذين كان يتأرجح ولاؤهم عندئذ

يضعون أسهمهم مع المهدي . لماذا يظلون موالين للحكومة التي قررت تسليم أرضهم ؟ إذا ظلوا أوفياء ، ماذا يمكنهم أن يتوقعوا عندما يسود المهدي ؟ إن إعلان غردون هذا هو السبب الرئيسي في سقوط بربر ، وهو مكان ضروري لخطة عمليات غردون .

حاج علي قبيل وفاته وهو يحتضر استعرض البؤس الذي جلبه المهدي على السودان والجزء الذي شارك به هو نفسه وقال عندئذ إنه لم تكن إلا معرفته بنية الحكومة التخلي عن السودان هي التي جعلته ينضم إلي المهدي . ويقول : " كيف كان يمكنني أن أظل موالياً للحكومة التي علمت أنها تنوي أن تهجرني فيما بعد ؟ لو فعلت ذلك لكنت فقط مهدت الطريق لانتقام المهدي " .

في الوقت الذي قال فيه حاج علي هذا ، كان في شك فيما يتعلق بالطبيعة المقدسة للمهدي . وقد تحدث بصراحة إلي الناس في هذه المسائل . وأضاف " لكن في ذلك الوقت كل شخص يفكر في نفسه فقط . غردون فكر فقط في كيفية إنقاذ نفسه والمصريين ونحن فكرنا في كيفية إنقاذ أنفسنا وتفادي انتقام المهدي بالانضمام إلي جانبه . وهكذا ذهبنا إلى بربر وانضممنا إلى العبابدة وحاصرنا المدينة واستولينا عليها ومن ثم قطعنا اتصالات غردون بمصر " . سرعان ما قدر لغردون أن يرى بعينيه الخطأ القاتل الذي ارتكبه ولكن كان ذلك متأخرّاً جداً .

لم يلق أحد بالاً لبلاغات غردون السلمية . فالثورة الآن منتشرة على نطاق واسع . والحشود من الدراويش المتعصبين تحيط بالخرطوم تدريجياً . محمد ود البصير شيخ الأبيّض ، رجل يتحلى بقدر كبير من الاحترام في الجزيرة ، وأولاده والفكي المضوي زحفوا علي الخرطوم من جهة الجنوب . وفي السادس عشر من مارس ١٨٨٤م هزموا قوات غردون هزيمة نكراء . وقد قام غردون بإعدام قادة جيشه للخيانة .

ووجهت ضربة أخري لغردون باستسلام صالح ود الملك في فداسي ومعه ١٫٤٠٠ مقاتل للأمير أبو قرجة . وما زال غردون لم ييأس من النجاح وإن شخصيته هي التي ألهمت سكان الخرطوم بالأمل .

إن استسلام صالح ود الملك قد شجع كثيراً من الدراويش . وكان الثوار يتجمعون أيضاً

شمالي الخرطوم . الجعليون من المتمة والعبابدة كما ذكرت سابقا استعدوا لمهاجمة بربر . وأما حسين باشا خليفة شيخ العبابدة الذي كان مديراً هناك منذ الثامن عشر من ديسمبر ١٨٨٣م ظل وفياً للحكومة ولكن مساعديه لم يصغوا إليه . وأنه إلى حد بعيد بسبب نفوذ هؤلاء الموظفين انضمت أعداد من الشيوخ المحليين إلي المهدي .

إن العبابدة والبرابرة والجعليين تحت القيادة العليا للشيخ محمد الخير قد حاصروا الآن بربر . وبعد ثمانية أيام تم اقتحام المدينة وقتل معظم أفراد الحامية وعدد من السكان . وقد حاول جوزيف كوزى الهرب ولكن تم القبض عليه وأرسل إلى الخرطوم لمحاولة حمل غردون على الاستسلام . وفيما بعد أرسل إلى المهدي في الرهد .

لقد قطعت الآن اتصالات غردون بالشمال . وبعد استسلام صالح باشا زاد إلى حد كبير عدد الدراويش المحاصرين وازداد أبو قرجة جرأة فاستولي على قرية برّى حيث بنى طابية وبدأ في قصف الخرطوم . لذلك أرسل غردون في الثاني من مايو قوة كبيرة هاجمت أبو قرجة وطردته من موقعه وكادت أن تقبض عليه . هكذا فعل غردون وبالرغم من أنه محاصر من جميع الجهات إلا أنه حافظ على جبهة صامدة واستخدم كل فن من فنون الحرب لإيقاف الدراويش من محاصرة المدينة من مسافة أكثر قرباً .

ولنعود الآن إلى المهدي في الرهد . لقد كان في هذا الوقت في استعدادات تامة للمغادرة لحصار الخرطوم . وكالعادة فقد أرسل أبو عنجة وود النُّجومي وود النور وود جبارة مع جميع أفضل قواته مقدماً . وكما ذكرت من قبل فإن كوزى الذي وصل إلي الرهد في نهاية شهر يونيه كان قد أرسل من قبل من الدراويش إلي الخرطوم لمحاولة حمل غردون على الاستسلام . لكن غردون أصدر أوامر مشددة ألا يسمح له بدخول الخرطوم . لذلك عندما وصل إلي الرهد ، استقبله المهدي استقبالاً حسناً وأغدق عليه من الهدايا ثم أرسله مرة أخرى مع جورج كلمنتينو إلى الخرطوم كحامل خطابات إلى غردون . وصل إلى معسكر الدراويش في نفس الوقت الذي وصل فيه النجومى . لقد سمح لكلمنتينو بالتحدث إلي القنصل الإغريقي ليونتيدس ولكن كوزى رجع إلى بربر .

أمضى المهدي شهر رمضان في الرهد وبقى هناك حتى الثامن من أغسطس حيث

تحرك إلى الخرطوم . وصحبه هذا الحشد الضخم الذي يموج كخلية النحل على نفس الطريق التي سلكها هكس من قبل . واضطلع الناس بسرور بالسير في هذه الرحلة الطويلة عبر مناطق غير مطروقة وفي وقت كانت الأمطار فيه على أشدها . والجمال أيضاً كانت غالية ومن الصعب الحصول عليها . ولكن بالرغم من كل هذه العوائق فإن الهوس الديني قد تأكد أكثر من أي وقت مضى . وكانت الحشود في جملتها أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ شخص . وفي شركيلا بلغت الخيّالة ٤٠ر٠٠٠ ولدحر مثل هذه القوة الكبيرة فمن الضروري وجود حملة أوربية وليس القوة الضعيفة التي تحت تصرف غردون .

وخلال الطريق بأكمله انضمت خيّالة جديدة بينما وفرت قطعان الماشية التي ساقها العرب معهم الطعام . وقد كان اللحم رخيصاً للغاية . ماتت أعداد من الحيوانات أثناء الطريق . فعلى الطريق علامات واضحة بخط لا ينقطع من الجمال والحمير والجياد والثيران الميتة . ويمتد الطريق من شركيلا إلي شات ومن ثم إلي الدويم . وهنا توقف الحشد لبضعة أيام لجمع المتأخرين وقد تم التخلي عن كل فكرة تتعلق بالعمل في الحقول واستغني نهائياً عن الحرف الزراعية . وهكذا حدث عند وصول المهدي إلى أم درمان أن أصاب الدراويش نقص شديد في الحبوب .

وصل المهدي إلي أم درمان في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٨٨٤م ولكن جميع المتأخرين لم يصلوا حتى أوائل نوفمبر . فكل شيء تم إعداده . وقد أحيط غردون بأعداء كثيرين ولكنه مازال لم ييأس .

في أغسطس ارتفع منسوب المياه في كلا النيلين إلى درجة كبيرة . فالنيل الأزرق وصل تقريباً إلي أقصى ارتفاع له بينما فاض النيل الأبيض فوق شواطئه المنخفضة . والآن تجاوزت مياهه طابية المُقرن ووصلت المنازل في الخرطوم . كان الفيضان عالياً لدرجة اقتضت عمل سد لحجز الماء في حدود النهر . في وقت الفيضان يصبح النيل الأبيض عريضاً جداً . فعندما عبرت في وقت لاحق من أم درمان إلى الطابية التي دمرت منذ فترة طويلة شعرت بدوار البحر . لكن عندما ينحسر الفيضان فإنه يترك الخندق مليئاً بالطين وقد برهن ذلك على أنه مصدر خطر عظيم . عندما كان النيل مرتفعاً ، قام

غردون بعدة هجمات مضادة ناجحة . لقد سار محمد علي باشا صاعداً في النيل الأزرق إلى مكان بالقرب من الجريف وفي الثلاثين من أغسطس انقض على العرب ملحقاً بهم هزيمة ساحقة . وهاجم هذا القائد الشجاع أيضاً شيخ العبيد في الحلفاية واستولي على كمية من الذرة والماشية . وتنفست الخرطوم مرة أخرى وبدا الأمر كأن كل شيء على ما يرام . وكانت الفرق الموسيقية تعزف في الأمسيات والمدينة في غاية السعادة ولكن سرعان ما انقلب الأمر إلى حزن .

تشجع محمد على باشا بنجاحاته الأخيرة فزحف مرة أخرى على الشيخ العبيد الذي هزمه بالقرب من العيلفون ولكن بتقدمه داخل الصحراء لإعادة الهجوم في الرابع من سبتمبر وقع هو وما يقارب ٨٠٠ من قواته في كمين فأبيدوا جميعاً . وأثبتت هذه الواقعة أنها ضربة قاسية على غردون . وبما أن الخرطوم أصبحت الآن محاصرة حصاراً قريباً ، قرر غردون أن يرسل باخرة شمالاً للاتصال مع الحكومة المصرية وإعطائها معلومات وافية عن الوضع .

لما كان النيل الآن عالياً فقد رؤى أن الباخرة الصغيرة " عباس " سوف تستطيع شق طريقها بسلام إلى دنقلا . غادرت " عباس " الخرطوم في العاشر من سبتمبر ورافقتها باخرتان لسحب القوارب وفي إحداهما عدد من الإغريق وفي الأخرى تجار سوريون . واحتملت هذه البواخر الطلقات والقذائف إلى أن تعدت بربر . وبعد مسافة قصيرة بعد بربر رجعت الباخرتان " المنصورة " و " صافيه " ووصلتا الخرطوم بصعوبة كبيرة بعد إطلاق النار عليهما طيلة معظم المسافة . وواصلت الباخرة " عباس " رحلتها شمالاً . ووقفت لقضاء الليل في جزيرة صغيرة . القاربان اللذان أنزلا في النيل من الباخرة " عباس " بعد رجوع الباخرتين " المنصورة " و " الصافية " إلي الخرطوم ، الآن تجاوزا الباخرة " عباس " ولكن دفعتهما الرياح إلى بعض الصخور واضطرتا إلى التوقف لليلة للإصلاح . وفي صباح اليوم التالي تجاوزتهما الباخرة " عباس " . وقد حثهما العقيد ستيوارت على التقدم إلى الأمام . استأنف القارب الذي يحمل الإغريق رحلته ولكن تأخر القارب الذي يقل السوريين في الإقلاع ومرة أخرى

دفعت الرياح القاربين نحو الصخور حيث ظلا مثبتين بقوة هناك .

في نفس الوقت فإن الدراويش في بربر الذين استولوا علي الباخرة " الفاشر " عندما سقطت بربر في أيديهم أرسلوها على الفور مع قاربين شراعيين كبيرين لتعقب البواخر والقوارب الهاربة شمالاً . وسرعان ما لحقت الباخرة " الفاشر " بقارب السوريين المحطم الذي لوّح الآن بعلامة الهدنة . وصعد الدراويش على القارب واستولوا عليه . وبعد أن حصلوا على جميع المعلومات تركوا أحد قواربهم في عهدة أسراهم ثم تعقبوا القارب الذي يحمل الإغريق حيث لحقوا به وبعد حجزه واصلت الباخرة " الفاشر " تعقبها للباخرة " عباس " . وتقدمت إلى ما يقارب بلدة أبو حمد . لكن هنا رفض القبطان مواصلة الرحلة لأبعد من ذلك خوفاً من اصطدامها بالصخور . وهكذا رجعت " الفاشر " إلى مدينة بربر مع القوارب التي استولت عليها وكان فيها اثنا عشر من الإغريق وخمسة عشر من السوريين . ويتألف السوريون من ثمانية رجال وخمس إناث وطفلان .

أما الباخرة " عباس " فبعد أن تجاوزت أبو حمد دخلت منطقة شلالات وادي قمر وهي صخرية وخطرة . وهنا اصطدمت بصخرة قرب قرية هبه التي يسكنها أناس من قبيلة المناصير . أنزل العقيد ستيوارت الأمتعة في جزيرة ونزل المسافرون أيضاً إلي حين الوصول المتوقع لقوارب الإغريق والسوريين . ولكن بعد الانتظار ليومين أرسل ستيوارت مترجمه حسن حسنى مع محمد حلمي غراب والقبطان إلى الشاطئ مع تعليمات لمقابلة الشيوخ وتقديم الهدايا لهم ووعدهم بمكافآت جيدة من الحكومة لإقناعهم بتقديم جمال لتمكين ركاب الباخرة المحطمة من مواصلة الرحلة إلي دنقلا . استقبل الشيخ سليمان ود نعمان هؤلاء الرسل استقبالاً جيداً ولم يكن هو أو أتباعه يلبسون جبب الدراويش وأكدوا أنهم موالون تماماً للحكومة . وأضافوا أن وصول الشيخ الهِدَي فقط هو الذي جعلهم يتظاهرون بأنهم ضد الحكومة . قال الشيخ سليمان إنه سوف يساعد المسافرين الذين تحطمت باخرتهم بكل سرور . وهكذا أخفي تماماً خيانته الشريرة . ورجع الرسل إلى استيوارت فرحين بنجاحهم . لكن في نفس الوقت أعد سليمان مصيدة غادرة سقط

فيها المسافرون ذوو الثقة الزائدة بطريقة عمياء . فقد أرسل أوامر سرية إلى جميع الناس في المنطقة للاستعداد للقتال ثم ساق بعض الجمال على شاطئ النهر ليظهر لاستيوارت وجماعته أنه يجهز للرحلة . أمر العقيد ستيوارت بإلقاء جميع الذخيرة الاحتياطية في النهر ثم نزل مع المسافرين الآخرين .

دعا سليمان استيوارت والقنصلين باور وهيربن للدخول في منزله وذلك لعمل الترتيبات النهائية مع أصحاب الجمال . وفي نفس الوقت رجاهم نزع أسلحتهم لأن العرب قد يخافون ويخلقون صعوبات بخصوص تأجير جمالهم . كان هناك نقيب مدفعية مع استيوارت وقد توسل إلى استيوارت ألا يترك سلاحه إذ ربما تكون هناك خيانة . ولكن استيوارت ضحك على مخاوفه . ودخل استيوارت والقنصلان ومعهم مترجم إلى المنزل بينما بقي الآخرون في الخارج واحتفظوا بمسدساتهم . رجاهم سليمان أن يجلسوا وشرع يقدم إليهم عدداً من العرب الذين أكد أنهم أصحاب الجمال.

وقدم إليهم المتآمر تمراً . وتناولوا بعضاً منه حتى لا يستاء مضيفهم . ثم وقف سليمان ورفع قربة ماء كان يحملها . وكانت تلك الإشارة المتفق عليها مع العرب ليخرجوا من مخابئهم ويقضوا على الضيوف . وفي لحظة كان المنزل يعج بالرجال المسلحين الذين صاحوا فيهم لإلقاء مسدساتهم والاستسلام . ولكن حتى قبل أن يجدوا الوقت لفعل ذلك انقض عليهم العرب بسيوفهم . فالقنصل هيربن الذي كان يقف قرب الباب كان أول من سقط وقد قطع رأسه بفأس . وسرعان بعد ذلك ما قطّعوا القنصل باور والعقيد استيوارث إرباً إرباً . أما المترجم حسن فقد توسل إليهم للإبقاء على حياته وهو يصيح " أنا مسلم ! أنا مسلم ! واسمي حسن ! " لذلك لم يقتل ولكن تلقى جرحاً في الكتف . ثم اندفع القتلة إلى شاطئ النهر لمهاجمة الآخرين الذين سرعان ما تم قتلهم إلا اثنين من رجال المدفعية اللذين قفزا في النهر وكذلك عدد قليل من الخدم . وقد قيل إن المترجم حسن هو الذي رتب أمر الخيانة . وقد أخبروني فيما بعد أنه عندما وقع في مشاكل في وقت لاحق ، أنه أرسل عريضة إلي الأمير محمد الخير قال فيها إنه يستحق مكافأة لأنه

كفل مقتل العقيد استيوارت وأنه ما زال يسكن في أم درمان[٢] .

أرسل سليمان جميع المراسلات التي استولى عليها إلي المهدي الذي أصبح بهذا ملماً بحالة غردون الميئوس منها . وفي الثاني والعشرين من أكتوبر كتب المهدي إلى غردون يخطره بالواقعة ويدعوه إلى الاستسلام حيث أنه لا أمل له في تلقى أية نجدة .

هذه الكارثة كانت ضربة قاسية أخري على غردون . فقد اعتمد على استطاعة استيوارت إبلاغ الحكومة بالضوائق التي وصلت إليها الخرطوم وضرورة إرسال نجدة على الفور . لقد أصبحت حالة الخرطوم الآن خطيرة جداً . وأصبحت قوات النُّجومي والقوات الأخرى تتجمع حول الكلاكلة . وكان هناك قتال يومي ويسقط الرصاص في شوارع الخرطوم . كان هناك أكثر من ۱۰٫۰۰۰ درويش ينتشرون من الكلاكلة إلي برّي . ود جبارة وود الشيخ العبيد يعسكران في خوجلى على الضفة اليمني من النيل إلي الشمال . وهكذا أصبحت الخرطوم محاطة بحشود من العرب المتحمسين دينياً الذين هاجموا المدينة الجائعة والمتخلى عنها من الصباح وحتى الليل .

٢ - الإشارة هنا إلى وقت كتابة الكتاب حوالي ١٨٩٢م

الباب الثامن

حصار وسقوط الخرطوم

استسلام طابية أم درمان . ترتيبات غردون للدفاع . تأثيره الشخصي الكبير . الليلة السابقة على الهجوم . الهجوم ودخول الدراويش. مقتل غردون. مغامرات دومينيكو بوليناري . المجزرة في الخرطوم . كيف مات معظم الأوربيين . قسوة لا رحمة فيها وسفك دماء . مصير الزوجات والبنات في الخرطوم . وجهات نظر أورفالدر عن الوضع في الخرطوم وفرص الإنقاذ من قبل حملة بريطانية. وصفه للمدينة بعد ثلاثة أشهر من سقوطها.

عسكر المهدي على الطرف الجنوبي من طابية أم درمان . وعلى الفور بدأ في توجيه الحصار . وقد قلد قيادة قواته لأبي عنجة لكنه لم يجرؤ علي إرسال قواته المؤلفة من السود الذين حاربوا في السابق في خدمة القوات المصرية تحت غردون ضد الخرطوم خوفاً من احتمال هروبهم وانضمامهم إلي غردون نظراً للتأثير الذي مارسه غردون عليهم من قبل .

طابية أم درمان التي كانت تحت قيادة فرج الله باشا سرعان ما عانت من شدائد عظيمة . فقد حفر الثوار حولها خنادق جعلتهم محصنين نسبياً من إطلاق النار المستمر . ونجحوا في النهاية من التخندق بين الطابية والنهر وبذلك قطعوا الاتصالات بين غردون والطابية ولم يستطع بعد ذلك استعادتها . ونتيجة لذلك سرعان ما بدأت الحامية تعاني من المجاعة ولكنها مازالت تقاتل بشجاعة ألحقت بالدراويش خسائر كبيرة . ومن ضمن تلك الخسائر أمير يسمى محمد ود العريك الذي أصيب برصاصة خلف عنقه أثناء ما كان يوجّه مدفعاً في أم درمان . وقد زاره الخليفة عبد الله وتمنى له الشفاء ولكنه مات في اليوم التالي .

ولما لم يتبق لفرج الله طعام في الطابية فقد اضطر إلى الاستسلام وهكذا تمكن المهدي من تضييق الحصار على الخرطوم من مواقع أقرب . كانت مدينة الخرطوم نفسها مليئة بالخونة . ويكاد جميع وجهاء المدينة قد كتبوا إلى المهدي من وقت إلى آخر بما يعنى أنهم يرغبون الاستسلام له وأنهم يعتقدون فيه . وكان غردون وحيداً تقريباً في وسط الأعداء ولكن الوصول المتوقع للإنجليز هو الذي حال دون استسلام السكان .

وفي كل يوم كان غردون يختلق بعض الوسائل التي تجعل السكان يعتقدون في قرب وصول مخلصيهم . وكان يعلق مراراً إعلانات على الجدران تشير إلى أنهم قريبون جداً من الخرطوم ولكن جميع وعوده كانت دون جدوى .

كاد غردون أن يكون بشراً خارقاً لنواميس الطبيعة في جهوده للإبقاء علي شعلة الأمل . ففي كل يوم وكثيراً وكثيراً من المرات في أثناء اليوم يحدق بمنظاره نحو الشمال من سقف القصر توقعاً للنجدة التي لم تصل قط . وقد تغلب على الحاجة إلي النقود بإصداره سندات ورقية ولكن الناس سرعان ما رفضوا قبولها . ولتنفيذ أوامره أرسل أربعة عشر تاجراً إلي الضفة الشرقية للنيل ووضعهم أمام مدافع العدو . فعل ذلك لإرهابهم . وعندما أذعنوا لقبول السندات أعادهم إلي المدينة . ولزيادة تقوية اعتقاد أهل المدينة في وصول الإنجليز السريع استأجر أفخم المنازل على شاطئ النيل وأعدها للسكن . وكان واثقاً من أنهم سيأتون . لكن متى ؟ كان الوقت يضغط . كان يبحث في لهفة بمنظاره في الأفق البعيد عن العلم الإنجليزي الذي يتمنى أن يراه ولكن في كل يوم كان مصيره الإحباط .

أصبحت قوات غردون تعاني من المجاعة وتنهار عزيمتها بينما الأعداء خارج الأسوار يزدادون جسارة وذلك توقعاً للغنائم التي يتمنون أن تكون قريباً من نصيبهم . فمن بُرِّي إلى الكلاكلة امتدت حشود الدراويش دون انقطاع بينما أصوات طبول الحرب « النّقّارات » لا تنقطع عن أذني غردون ليلاً ونهاراً .

فالمدينة محاطة عن قرب من ثلاث جهات . كان ود جبارة من ناحية الشمال قريباً بحيث تصل قذائفه إلى القصر . وقد كتب غردون تحت الفتحة التي أحدثتها أول قذيفة تضرب الجدار تاريخ ذلك اليوم للذكرى . لا أحد منا يستطيع إدراك كيف كانت مسئوليات غردون الجسيمة تثقل كاهله . اليأس قد تملّك المدينة وطبيعة السودانيين التي لا يمكن الاعتماد عليها كانت مصدر قلق دائم بالنسبة له كما أنها ضاعفت من الوضع الحرج . وأولئك المسئولون عن مخازن البسكويت والذرة سرقوا كميات من هذه المواد في كل مناسبة ممكنة . كما حاولوا خداع غردون بالتأكيد له بأن هناك ملايين

الأقق[1] من تلك المواد في المخازن ، بينما في الحقيقة لا يوجد أي شيء تقريباً . وفي محاولاتهم لإغناء أنفسهم نسوا بأنهم كانوا يمهدون الطريق فقط لهلاكهم النهائي .

تم اعتقال الضابط المسئول عن مخزن الذرة وتقديمه إلى محكمة تحقيق . لكن غردون أشار على أولئك القائمين بالتحقيق ألا يتشددوا في الأمر . فقد كان يعلم بكل ما حدث ولكن كان غير قادر على إيقافه . لقد كسب قلوب الناس بأريحيته . وجميع من عرفوه لم يتوقفوا حتى اليوم عن الحديث عن كرمه وحلمه . ومحاولاته لمكافأة الإغريق على إخلاصهم مؤثرة للغاية . فقد وضع عدة خطط لهربهم . كان هدفه الأول وضع باخرة تحت تصرفهم لنقلهم إلى أمين باشا [2] في الاستوائية . ولتفادى خلق شعور سيء أو حسد فقد أعلن خططه لهم في اجتماع عام مشيراً إلى أنه طالما أن معظمهم من أهالي الجزر اليونانية فإن لهم بالضرورة خبرة واسعة بالسفن والملاحة ولذلك أصبح من واجبهم الطواف مع البواخر في النيلين الأزرق والأبيض ومراقبة تحركات العدو . لكنه نبههم سراً إلى أن يكونوا جاهزين للانطلاق والانضمام إلى أمين باشا بمجرد أن يروا أن الخرطوم قد سقطت .

هذه الخطة على أية حال لم تعجب الإغريق . لذلك اقترح غردون خطة أخرى وهى أنه في حالة حدوث خطر عظيم أن يتوجهوا شمالاً . ولهذا الغرض احتفظ بباخرة راسية قريباً من القصر وهى محملة بالبسكويت وغيره من الضروريات . ولتمكينهم من أخذ عوائلهم معهم في الباخرة أثناء الليل دون علم أهل المدينة الآخرين بذلك فقد أصدر أوامر بإيقاف جميع الحركة على الطرق المؤدية إلى النيل الأزرق بعد الساعة التاسعة مساء . كما لا يسمح لأي أشخاص بالخروج من منازلهم بعد ذلك الموعد . وبهذه الطريقة يستطيع الإغريق الهرب بسهولة إلى الباخرة والسير شمالاً لملاقاة الإنجليز إذا دخل الدراويش المدينة ليلاً . وقد قرر بعض الإغريق أنه في حالة تمكن الدراويش من دخول المدينة فإنهم سيحملون غردون قسراً ووضعه في الباخرة لأنهم شعروا أنه

---

١ - مفردها الأقة وهي تساوي ٢٫٧٥ رطلاً أو ٤٠٠ درهم وكانت مستعملة في السودان

٢ - أمين باشا حاكم الاستوائية هو طبيب ألماني اسمه إدوارد شنتزر له شهرة بعلم الطيور

بالتأكيد لن يغادر الخرطوم بمحض إرادته . كل شيء تم ترتيبه مسبقاً بعناية وكل شيء كان سيمضى حسب الخطة لولا خلاف برز بين الإغريق أنفسهم وقد نجم أساساً من سلوك قنصلهم عديم المبالاة قصير النظر نيكولا ليونتيدس .

في مساء ذلك الأحد المشئوم جاء أحد أعيان الإغريق إلى القنصل وتوسل إليه لقضاء الليلة في الباخرة . رفض القنصل ذلك بحجة انه لا يوجد خطر محدق وأنه متأكد من أن قوات الحكومة تستطيع الصمود لبضعة أيام أخرى . وجادله الإغريق دون جدوى وفى النهاية تركوه وكانت تلك آخر مرة يرون فيها بعضهم بعضاً .

برهنت الليلة على أنها آخر ليلة في الحياة بالنسبة لغردون وآلاف آخرين . فبينما كانوا يغطون في النوم وربما يحلمون بوصول القوات الإنجليزية ، زحف الدراويش كالثعابين نحو أسوار المدينة . لكن من الصعب احتمال أن يكون غردون قد نام تلك الليلة . فلمدة يومين لاحظ غردون حركة كبيرة في معسكر المهدي . كما لاحظ عدداً من القوارب تسير جيئة وذهاباً على النيلين الأبيض والأزرق . فلا يمكنه أن يشك في أن المهدي يعد العدة لتوجيه الضربة النهائية . وقد تحقق ذلك . فقد كان يخطط للهجوم على الخرطوم . لقد تلقى أنباء عن تدمير قواته في أبو طليح وأبو كرو وعن تقدم القوات الإنجليزية .

اقتنع المهدي أنه إذا وصل إنجليزي واحد إلى الخرطوم فإن فرصته في النجاح سوف تتلاشى وأنه لابد له من التراجع إلى كردفان . كان ذلك سبب إقدامه على الهجوم . وأما غردون من الناحية الأخرى فقد توقع وصول القوات الإنجليزية في أية لحظة . وبينما كان يعد الساعات التي سوف تنقضي قبل تمكنهم من الوصول كان أعداؤه يهزون حرابهم التي سوف تخترقه .

مال القمر إلى المغيب في تلك الليلة وساد ظلام عميق والآن تقدم الدراويش خلسة في هدوء تام نحو ذلك الجزء من الدفاعات التي انهارت أثناء فيضان النيل وتركت فتحة عند انخفاض النيل حيث اختفى الخندق والسور في تلك المنطقة . فهنا يوجد القليل لإعاقة دخول الدراويش . فاندفع الدراويش في غير نظام من خلال الفتحة وهم يصيحون صيحات الحرب الهمجية .

كان فرج باشا قائداً لجميع هذا الجزء من الدفاعات . وكثير من الناس في السودان وخصوصاً أولئك الذين كانوا في خدمة الحكومة يقولون إن فرج باشا خان المدينة ولكن حقيقة أنه قتل مباشرة تقريباً بعد سقوط المدينة يشير إلى أنه لم يفعل ذلك .

إن من الحقائق المعروفة جيداً أن كثيراً من كبار الضباط كانوا متأرجحين في ولائهم . كما كان عدد من تجار الخرطوم يكاتبون المهدي . ومن المحتمل أن فعلهم هذا قد ساعد الدراويش . ومن الطبيعي أن يؤكد الدراويش أنهم استولوا على الخرطوم كلياً بقوة السلاح لأن أي اعتراف من ناحيتهم بالخيانة من داخل المدينة سوف يقلل من نجاح المهدي . فالأمر كان هكذا : السور الذي تهدم بالفيضان لم يتم إصلاحه وذلك لم يكن خطأ غردون . ففي وضعه اليائس لم يستطع أن يكون في كل مكان . ويا للحسرة أنه لم يكن معه بضعة ضباط أوربيين موثوق بهم . وباستثناء هذا الجزء المنهار من السور قرب النيل الأبيض فإن جميع خط الدفاع تقريباً كان حصيناً . فقد كان الخندق عميقاً جداً والسور مرتفع جداً بحيث أنه من المستحيل اجتياز خط الدفاع .

عند دخول الدراويش من فتحة السور انقسموا إلى فريقين . فريق اندفع مع محاذاة السور يدمر جميع المقاومة ويقتل الجنود في جميع الاتجاهات . واندفع الفريق الآخر نحو المدينة .



أمير من الدراويش

وصحا سكان المدينة من نومهم على صيحات العرب وأصوات الرصاص فهرعوا إلى الخارج متوقعين ما قد حدث . وكنهر محتجز المياه ثم فتح لها المجرى فجأة تدفق أكثر من ٥٠٠٠٠ من الدراويش مع صيحات مخيفة على ٤٠٠٠٠ من سكان الخرطوم بجانب ٥٠٠٠ من العساكر وهو العدد المتبقي من ٩٠٠٠ عسكري عند بدء الحصار . وكانت الصيحة الوحيدة لهذه الحشود المتحمسة : " إلى الكنيسة إلى السراية " ويقصدون بذلك كنيسة البعثة النمساوية وقصر غردون حيث توقعوا أن يجدوا كنوزاً مخزونة في الأقبية وقسساً وراهبات .

تدفقت الحشود المائجة على القصر وفاضت على حدائقه الجميلة واقتحمت أبواب

القصر في بحث محموم عن فريستها . لكن غردون ذهب وحده لملاقاتهم . وعندما اندفعوا صاعدين على سلم القصر كان هو نازلاً وحاول التحدث إليهم ولكنهم لم يستطيعوا أو لم يريدوا أن يستمعوا إليه . وأول عربي غرز حربته الضخمة في جسده فوقع إلى الأمام على وجهه . فسحبوه إلى أسفل السلم وطعنه كثيرون بحرابهم وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى المهدي .

هكذا كانت نهاية المدافع الشجاع عن الخرطوم . عندما جئت من الأبيّض إلى أم درمان زرت الخرطوم وذهبت إلى القصر وهناك أطلعوني على بعض البقع السوداء على السلم التي قالوا إنها آثار من دم غردون .

عند إحضار رأس غردون إلى المهدي ، بدا أنه كان مستاء كثيراً لموته ؛ لا لأنه شعر بالشفقة عليه ولكنه اعتقد أن غردون قد ينضم إلى جيشه . وإذا لم يفعل ذلك فإنه كان سوف يسجنه ويحوله إلى رقيق . لقد كان من الأفضل كثيراً لغردون أن يموت عندما فعل ذلك من أن يبقى أسيراً في أيدي هؤلاء العرب القساة المتعصبين . تم تعليق رأس غردون على شجرة في أم درمان وابتهجت الحشود المتوحشة في صب اللعنات عليه والإساءة إليه .

بعد القصر كان مبنى البعثة الكنسية هو الهدف الرئيسي التالي الذي صب عليه العرب المتوحشون الباحثون عن الغنائم جام غضبهم . كان الجنرال غردون قد استأجر في وقت سابق هذا المبنى الذي كان مبنياً بالحجر وهو محصن ضد القنابل وحوله إلى مخزن للبارود والذخيرة . قتل الدراويش الحراس الموجودين خارج الحديقة ثم كسروا الأبواب ودخلوا بينما تسلق آخرون الجدار العالي . كان هناك رجل أسود مستخدم في حديقة البعثة راقداً على مرتبته في الحديقة وهو يصارع الموت فأنهى الدراويش حياته بشق بطنه .

عند أول إنذار بالخطر فإن جنائني البعثة دومنيكو بوليناري الذي تركوه ليكون مسئولاً عن ممتلكات البعثة ، اندفع إلى البوابة الرئيسية للحديقة ليتحقق من الأمر . فتح البوابة قليلاً وعندما رأي صفاً من الحراب اقفل البوابة بكل قوته وهرب إلى كوخ صغير

في الحديقة كان مليئاً بالعشب المجفف وأخفي نفسه في ركن منه تحت العشب . هناك عدة عبيد من الذين كانوا يعملون في الحديقة تبعوه في إخفاء أنفسهم تحت العشب ولكنهم لم يبقوا طويلاً لأنهم رأوا أنه ليس مكاناً جيداً بما فيه الكفاية للاختفاء ولذلك ركضوا إلى كوخ آخر فانقض عليهم الدراويش وقتلوهم . كان دومنيكو يسمع صرخاتهم وقعقعة السيف الذي قطعت به رؤوسهم ولكنه لم يجرؤ على التحرك من مكانه بالرغم من أنه كاد يختنق من العشب الجاف الذي يختبئ فيه . هذا وقد دخل عدة دراويش إلى الكوخ وكانوا يغرزون حرابهم في العشب بحثاً عن أي شخص مختبئ .

يستطيع المرء أن يدرك رعب دومنيكو المسكين أثناء غرز الحراب في العشب والتي كادت أن تصل إليه . رقد في مكانه لبعض الساعات دون اكتشافه . وأخيراً خفت الضوضاء وصوت الرصاص . وبالرغم من معاناته من العطش لم يجرؤ على التحرك إلى ما يقارب منتصف الليل عندئذ غادر مخبأه وكان كل شيء ساكناً سكون الموت . يستطيع أن يرى نيران الدراويش الحراس . وأثناء ما كان يزحف تعثر على جثة الأسود الذي كان يعمل في الحديقة . تحرك مرة أخرى إلى الأمام وهو مذعور . وفي كل خطوة رأى جثة وكلها للعمال والحراس الذين حاولوا الهرب عندما دخل الدراويش إلى حديقة البعثة . ظل يزحف تحت ظلال أشجار الليمون الكبيرة إلي أن وصل إلى البوابة الرئيسية التي كان فوقها كوخ صغير تسكنه احدي عائلات السود التابعين للبعثة . كانت نوافذ الكوخ تطل على الحديقة فتسلق دومنيكو من خلال إحدى هذه النوافذ إلى الكوخ . وهنا وجد إحدى النساء وتدعى حليمة وتوسل إليها أن تعطيه خبزاً وماء . وسألها عن دخول الدراويش ومصير السكان . فأجابت ببضعة كلمات وهي أن المدينة قد تم اجتياحها وأن عدداً من السكان وكذلك الجنرال غردون والقنصل هانسل ومعظم الأوربيين قد تم قتلهم .

كان ذلك صدمة جديدة لدومنيكو الذي سيطر عليه الفزع من قبل . ألقى بنفسه على السرير وتوسل إلى حليمة بألا تخونه . ولكنها خوفاً أن يكتشف أمرها تسللت من الكوخ وذهبت إلى الدراويش الذين كانوا مجتمعين حول نار معسكر وأخبرتهم بأن هناك تركياً في كوخها . فقفز بعضهم واقفاً وتبع حليمة إلى الكوخ . ودفعوا دومنيكو التعيس

بأعقاب حرابهم وأحضروه أمام نار المعسكر وفتشوه بعناية بحثاً عن النقود . لكنه أخرج في الحال أربعين ريالاً من جيبه ووزعها عليهم وبذلك كسب رضاهم ولم يعاملوه معاملة سيئة .

في اليوم التالي أخذوه إلى أحمد ود سليمان أمين بيت المال الذي أجرى معه تحقيقاً كاملاً فيما يتعلق بأموال البعثة . فذكر دومنيكو أن رجال البعثة أخذوا معهم جميع الأموال عندما غادروا الخرطوم وأنهم لم يتركوا شيئاً . عندئذ أعيد دومنيكو إلى الحديقة ليعمل مع سيده الجديد . ولكن سرعان ما أصبح ضحية خيانة للمرة الثانية فيما بعد ووقع في متاعب وخطر عظيم .

قبل بضعة أيام من سقوط الخرطوم دفن ١٥٠ ريالاً في الحديقة بنية الاستفادة منها في ساعة الحاجة . لكن أحد السود الذي كان يعمل في مضخة البخار في الحديقة والذي أطلعه دومنيكو على سره والذي كان أحد عمال الحديقة الذين نجوا من المجزرة ذهب وأخبر أحمد شريف (أحد أقرباء المهدي القريبين) بأن دومنيكو قد أخفى نقوداً . فعل هذا الواشي ذلك لضمان سلامته الشخصية لأن الدراويش أصابتهم خيبة أمل كبيرة من كمية الغنائم التي توقعوا أن يجدوها . وفى القصر لم يكتشفوا إلا نقوداً من الورق وفي البعثة بعض الأثاث بدلاً من الكنوز التي استدرجوا لتوقعها . ولذلك سرَّ أحمد شريف كثيراً من المعلومات التي زوده بها الرجل الأسود . وجاء بنفسه إلى دومنيكو وطلب منه أن يريه المكان الذي دفن فيه النقود . وحاول دومنيكو الاعتراض دون جدوى بأنه أعطي جميع النقود إلى غردون . وفي الحال ضربوه وألقوه أرضاً وجلدوه بالسوط (الكرباج) . ولكن أول ضربة أسالت الدم منه جعلته يصرخ طالباً الرحمة وكشف عن مكان دفن النقود . وعندما حصل أحمد شريف على النقود أطلق سراح دومنيكو .

إن إراقة الدماء دون رحمة والقسوة التي مارسها الدراويش في الخرطوم هي فوق الوصف . سوف أصف باختصار وفيات أبرز الشخصيات . نيكولا ليونتيدس ، القنصل الإغريقي ، كان محترماً للغاية في الخرطوم بسبب شخصيته المحبوبة . فقد قطعوا يديه أولاً ثم أعدموه بالسيف . مارتن هانسل ، القنصل النمساوي ، الذي كان أكبر

أعضاء الجالية الأوربية سناً ، كان حيّاً حتى الساعة الثانية بعد الظهر عندما جاء بعض العرب من بُرّى يقودهم رئيس حراسه الذي كان على علاقة سيئة معه ودخلوا فناء المنزل واستدعوا هانسل لينزل إليهم وفى الحال قطعوا رأسه . وفى نفس الوقت قتل معه بنفس الطريقة مولات اسكندر وهو نجار كان يسكن مع هانسل . وأخذوا جثته مع كلبه وببغائه إلى خارج المنزل وصبوا عليه الكحول وأشعلوا فيهم النار . وبعد وقت عندما أصبحت الجثة مثل الجمر رموها في النيل .

يبدو أن الدم البشرى والقسوة الخالية من الرحمة وحدهما هما اللتان ترضيان الدراويش . وعندما أشار الخياط النمساوي كلاين بعلامة الصليب قطعوا حلقومه من الأذن إلى الأذن بسكين تذبح بها الحيوانات وتدفق دمه أمام أعين زوجته وأولاده الذين تملكهم الفزع . ولم يقنعوا بموت الأب فأمسكوا بابنه البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً و أغمدوا حرابهم في جسده وطرحوه جثة هامدة عند قدمي والدته . ثم تشاوروا عن الكيفية التي يقتلون بها الابن الثاني وهو صبي في الخامسة . ولكن عند هذا الوقت أصبحت الأم ، وهي ابنة كتارينا نوبيلى من البندقية ، في حالة يأس مجنون وأمسكت بابنها ذي الخمس سنوات بيدها اليمني بينما احتضنت رضيعها إلى صدرها بيدها اليسرى وقاومت هؤلاء القتلة كنمرة أخذ منا صغيرها فلم يستطيعوا انتزاع أطفالها منها . لكنهم أخذوا ابنتها البالغة ثمانية عشر عاماً التي أصبحت زوجة أحد العرب .

أيقظت الضجة التي أحدثها العرب عند اقتحامهم منزل زوج ابنة الدكتور جورجس بك الذي قتل في حملة هكس . نهض من سريره وعمل علامة الصليب واندفع إلى النافذة صائحاً بكلمة " أمان " ولكن رصاصة أصابته في الجبهة فسقط ميتاً عند أقدام زوجته الشابة . ودخل الدراويش المنزل عنوة وكسروا باب الغرفة حيث يرقد الزوج ميتاً ومسجى على السرير . وقتلوا إغريقياً آخر وشقوا رأس ابنه الصغير البالغ اثنتي عشرة سنة بالفأس مما جعل مخه يتطاير على أمه سيئة الحظ التي كانت تجلس بجانبه . ولكن الأم أنقذت ابنها الأصغر البالغ من العمر ستة أشهر بقولها إنه بنت . أما الأم نفسها فلم تقتل لأن معها طفل وقد احتفظوا بها لتصبح زوجة عبد الرحمن النُجومي .

سقط القنصل الأمريكي إيسر ميتاً عندما رأى أخاه يقتل أمام عينيه . لقد تم قتل الذكور من معظم العوائل القبطية ولكنهم أبقوا على النساء . وإنني أعرف عدداً من هؤلاء النساء المسكينات قد أصبن بالعمى من البكاء المستمر جراء أعمال القسوة في يوم السادس والعشرين من يناير المرعب .

أولئك الرجال الذين ظلوا أحياء عليهم أن يشكروا العناية الإلهية وهم إما من الذين وقعوا في أيدي رجال أقل قسوة من رفاقهم أو أنهم لم يغادروا منازلهم لمدة يومين بعد غزوة الخرطوم بنهاية تلك الفترة هدأت العواطف المتوحشة لأولئك القتلة .

كان مصير سبعة من الإغريق محزناً . هؤلاء جميعاً كانوا في منزل واحد فبفضل العناية الإلهية وقعوا في أيدي أناس أقل قسوة . كان الوقت بعد الظهر وكانوا في حالة فرح وابتهاج لنجاتهم من المجزرة العامة في الخرطوم . عندئذ دخل عليهم جورج كلمنتينو . وكلمنتينو هذا جاء أساساً من الأبيّض . وكان المهدي قد أرسله مراراً برسائل إلى غردون وعندما رجع من الخرطوم إلى المهدي فإن المهدي قد عامله بكثير من الحظوة .

عندما علم الناس في أم درمان بالاستيلاء على الخرطوم ، أسرع كلمنتينو إلي الخرطوم بهدف إنقاذ أي أفراد من مواطنيه يمكن أن يجدهم . وسرعان ما سمع بالإغريق السبعة الأحياء . فرح كثيراً بسلامتهم وهنأهم على ذلك وأشار عليهم بالذهاب إلى منزل منولي الإغريقي الذي نجا مع زوجته وابن أخيه بإخفاء أنفسهم في برج الحمام .

كان هدف كلمنتينو أن يجمع كل الإغريق هنا ثم يأخذهم إلى أم درمان . وثق الإغريق السبعة في اسم ونفوذ مواطنهم لحمايتهم ولكن الدراويش كانوا في حالة رقابة لإيقافهم . وعندما كانوا يتبعون كلمنتيتو إلى منزل منولي الذي كان على مسافة قصيرة وبعد أن ساروا بضعة خطوات قابلتهم فرقة من دناقلة أحمد شريف الذين كانوا يفتشون الطريق المليئة بالقتلى والجرحى بهدف توجيه الضربة القاضية لأي شخص يكون ما زال حياً .

عندما لمح هؤلاء القتلة من مسافة قصيرة جماعة من الرجال البيض صاحوا " أنظروا ! بعض هؤلاء الكلاب الكفار ما زالوا أحياء " وضغطوا عليهم في [illegible]

شديد على الإغريق التعساء . توسل إليهم كلمنتينو وترجاهم أن يبقوا على حياتهم ولكن القتلة قطعوا رؤوسهم أمام عينيه . وهو نفسه نجا بحياته بعد جهد جهيد . وهرب إلي أم درمان وهو على شفا الموت لأن صدمة رؤية مواطنيه يذبحون كانت عنيفة .

عدد حتى من النساء والأطفال الصغار لم ينج من القتل . والتعذيب الذي على الناجين أن يقاسوه لإجبارهم على تسليم نقودهم من الصعب تصديقه . إبراهيم باشا فوزي (وهو أثير لدي غردون) ربط لعدة أيام على جذع نخلة وضرب بالسياط حتى سلم جميع أمواله . الأرملة العجوز لمصطفى تيرانيس ضربت بالسياط إلى أن كادت تموت . كانت سيدة شركسية غنية . وقد أمدت غردون بأموال حملت على ظهور الحمير وقلدها غردون ميدالية الخرطوم أيام الحصار .

العبيد هم أكثر من واجه التعذيب الوحشي كما أجبروا على الكشف عن مخابئ أموال وكنوز أسيادهم . وقبيلة الشايقية على الأخص كانت أكثر القبائل التي عوملت بقسوة شديدة . فهي القبيلة الوحيدة التي ظلت موالية للحكومة . وحتى بعد ثمانية أيام من سقوط الخرطوم ، إذا شوهد شايقي فإنه يقتل فوراً . ومن هنا جاءت مقولة الدراويش : " الشايقي وود الريف والكلب ما يلقوا راحة في المهدية " والمقصود بود الريف المصري وأي شخص أبيض . وأما الكلاب فتعتبر في المهدية نجسة ويتم إعدامها .

لم يعش فرج باشا طويلاً بعد سقوط الخرطوم . والبعض ما زال يقول إنه خان المدينة . وكان الدراويش مغتاظين منه لأنه قبل عشرة أيام من الهجوم على الخرطوم وأثناء الهجمات التمهيدية أصاب عبد الله ود النور برصاصة وهو أمير ذو شهرة عظيمة ومحبوب كثيراً من الأنصار . تم استدعاء فرج أمام أحمد ود سليمان الذي أمر بقطع رأسه في الحال ككافر ورجل عنيد . إذا كان خائناً بالفعل فقد استحق مصيره . وإذا لم يكن كذلك فإن موته كان موت رجل شجاع .

عندما انتهت المذبحة في الخرطوم ، أصدر المهدي بنفسه أوامر بعدم قتل الناجين . ولكن الغضب الأعمى لهؤلاء العرب المتعصبين لم يهدأ إلا بعد قتل ١٠٠٠٠ نفس . فالشوارع مكتظة بجثث بدون رؤوس وتركت دون دفن إلى أن تم توزيع الغنائم .

جميع الخرطوم الآن أصبحت مقسمة بين مئات الأمراء والمقدمين التابعين لهم . فكل أمير غرز رايته في وسط المحلة التي استولى عليها رجاله . ثم بدأ جمع الأحياء الناجين . وقد أمر أحمد ود سليمان إحضار جميع النساء والجواري ممن ليس لهن عائل إلى بيت المال . هنا وضعت النساء الصغيرات الجميلات في زريبة منفصلة . والشابات السودانيات الجميلات غير المتزوجات في زريبة أخرى وفي زريبة ثالثة وضعت الجواري السوداوات اللائي يصلحن كمحظيات .

ومما يؤسف له أن يوجد في ذلك الوقت بعض أشهر أعيان الخرطوم ممن ساعدوا الدراويش على وضع أيديهم على جميع أجمل بنات الخرطوم . فبواسطتهم كثير من النساء اللائي قصصن شعورهن أو أخفين بسبل أخرى جمالهن وجنسهن بالتنكر كرجال وقعن في أيدي الأنصار .

لعنة الله على أولئك الخونة الأشرار الذين سلموا هؤلاء التّعيسات لكي ينالوا الحظوة لدي المهدي ! أي معاناة كابدتها هذه المخلوقات البائسة عندما يرقدن متجمعات مع بعضهن كالماشية في الحظيرة منتظرات مصيرهن القاسي ! كثيرات منهن ما زلن في حللهن الحريرية وهي ملطخة بدماء أزواجهن وأطفالهن وهن يرقدن هناك منتظرات دورهن ليصبحن زوجات أولئك الذين قتلوا أزواجهن وأطفالهن !

الانتقاء الأول بالطبع أجري للمهدي الذي أخذ لنفسه جميع الفتيات من عمر خمس سنوات فأكثر وسيضمهن بعد بضعة سنوات إلى حريمه . ثم جاء دور الخلفاء الثلاثة وأجرى الانتقاء لهم خاصة بموجب توجيهات أحمد ود سليمان . ثم تبع ذلك الانتقاء للأمراء كل حسب ترتيب رتبته . وواحد بعد واحد اختاروا من أولئك النساء التعيسات . أما أولئك النساء الباقيات فتم توزيعهن على الأنصار . ثم كانت هناك مشاهد علنية تذيب قلوب الحجارة . بكاء ونحيب النساء البيضاوات وهن يتضرعن ويتوسلن لاستدرار الشفقة من أسيادهن والسخرية الفظة والإجابات البذيئة من هؤلاء الوحوش ، كل ذلك أفظع من أن يروى .

أما النساء العجائز غير المتزوجات فقد أعطين بضعة خرق يسترن بها أجسامهن

جزئياً وأرسلن إلى معسكر النُّجومي حيث بقين في الأسر لبضعة أيام وجميعهن عانين من آلام الجوع والعطش والحر والبرد . وأطفال صغار لم يفطموا بعد تركوا ليموتوا جوعاً . ولأسابيع بعد سقوط الخرطوم يمكن رؤية أمهات أرامل يتجولن عاريات في سوق أم درمان وهن يتسولن . وبعض النساء الفقيرات وضعن حملهن في الشوارع ويرقدن مع أطفالهن عاريات وبدون طعام إلى أن يأتيهن الموت فيخلصهن من بؤسهن .

هذا وقد أشار المهدي بجمع كل الذهب والفضة والمجوهرات والأحجار الكريمة والحلي ووضعها في بيت المال . لكن بالطبع معظم هذه الأشياء قد وجدت طريقها إلى جيوب الأمراء . وبالرغم من أوامر المهدي الصارمة وتهديداته بأن من يخفون الغنائم سوف يعاقبون بنار جهنم إلا أن الأنصار ما زالوا يحتفظون بالغنائم غير مبالين بالعقاب الأخروي .

لقد جمعت على أية حالة كميات كبيرة من الكنوز في بيت المال . فالخرطوم كانت غنية والنساء على الأخص لديهن كميات من الحلي الذهبية والفضية . ولكن الغنائم الكثيرة سرعان ما خفضت قيمة العملة . فقد انخفضت الآن قيمة الجنيه الإنجليزي الذهبي إلى ريالين ونصف . وهم ينتزعون كل ريال من السجناء بالضرب بالسياط . فالكل أحوجوه إلى التسول التام ثم أرسلوهم إلى معسكر النُّجومي . وفي طريقهم إلى هناك يتم ضربهم وتفتيشهم مرة أخرى . لقد حبسوهم مدة أطول لبضعة أيام كسجناء في المعسكر . ثم إن أولئك الذين يسعدهم الحظ لمقابلة أقارب أو أصدقاء أفرج عنهم يبكون مع بعضهم بعضاً على حالتهم المزرية . كان الاضطراب فظيعاً . نساء يتجولن في المعسكرات بحثاً عن أطفالهن ، أطفال يبحثون عن آبائهم ولكن كم منهم وجد ضالته !

بعد بعض الوقت سمح لجميع السجناء بالعيش في أم درمان حيث عاشوا حياة تعيسة بالتسول . ولكن الجوع والمرض وجميع أنواع المعاناة التي كابدوها قتلت المئات منهم . لأيام ظلوا عراة يتلظون تحت الشمس الحارقة نهاراً ويموتون من البرد ليلاً . كيف يستطيع أناس تعودوا على حياة الرخاء والراحة تحمّل مثل هذه الشدائد ؟

وأخيراً عندما أخليت جميع المنازل في الخرطوم ونقل الأثاث وغيره وسلب السكان من

جميع ممتلكاتهم ، تم بيع الممتلكات من بيت المال بأسعار متدنية . وتم تقطيع الأقمشة الملونة المتنوعة إلي قطع واستخدمت في صنع الرقع على جبب الدراويش . كما تم شراء ثياب الحرير المطرز بخيوط الذهب بأتفه الأسعار من قبل أولئك الذين يعرفون قيمتها الحقيقة ، وتم صهر الذهب وصنعه حلياً . أما المرايا فقد حطمت قطعاً بالفؤوس وكذلك آنية الفخار والصيني القيمة التي كان يمكن أن تباع بأسعار عالية . وتوزع الأمراء فيما بينهم حدائق الخرطوم الجميلة . فأصبح الخليفة عبد الله حائزاً على حديقة غردون والخليفة شريف على حديقة كنيسة الروم الكاثوليك والخليفة علي ود حلو علي حديقة ألبرت ماركيت . وكل أمير اختار أفضل منزل وجده وهناك أقام هو وزوجاته وعبيده . بينما أخذ الأنصار منازل الأقباط والمصريين الفقراء . ولكن أم درمان وليس الخرطوم تعتبر الآن هي عاصمة الدراويش . وهم في نشوة نجاحهم وشهيتهم التي لا تشبع من النساء والغنائم نسي الدراويش تماماً أمر القوة الإنجليزية التي انتظرها غردون طويلاً . ما أقسى القدر ! في الثامن والعشرين من يناير ١٨٨٥ أي بعد يومين من سقوط الخرطوم شوهدت باخرتان في طريقهما على الشاطئ الغربي من جزيرة توتي .

تكهربت الأجواء في الخرطوم وأم درمان . وجرت مشاورات سريعة وتقرر في الحال منعهم من الرسو . وشوهد الإنجليز وهم يبحثون في كل الاتجاهات لبعض العلامات التي تبين لهم أن غردون ما زال حياً . ولكن الإجابة الوحيدة التي تلقوها هي مطر من آلاف القذائف التي أطلقت من آلاف مؤلفة من البنادق والمدافع من أم درمان وطابية المقرن . الجميع اندفع إلى شاطئ النيل . فالنساء يحملن عصياً ويلوحن بها فوق رؤوسهن ويصرخن مثل الضباع " الموت للإنجليز ! " وكن مستعدات للانقضاض عليهم بعصيّهن إذا حاولوا النزول إلى البر . وعندما رأى الإنجليز ذلك لم يبق لديهم شك لما قد حدث فاستداروا على أعقابهم واختفوا . كان غضب الدراويش على إفلاتهم غير محدود وأمطروهم بالرصاص والقذائف ولكن سرعان ما اختفوا من الأنظار .

دعونا الآن نتأمل للحظة فرص نجاح حملة الإنقاذ الإنجليزية إن هزيمة الأنصار في أبو طليح قد أرعبت الأنصار المتجمعين حول الخرطوم ، كما أن وصول بعض الجرحى

إلى أم درمان قد زاد من الرعب العام . فلو أن عشرين من فرقة ذوي السترات الحمراء (REDCOATS) الإنجليزية قد وصلوا إلى الخرطوم لتم إنقاذها . فوجودهم كان سيعطى السكان الشجاعة من جديد . وثقة في خلاصهم القريب لناضلوا بأقصى جهدهم للصمود لفترة أطول . وبمساعدة نصائح وجهود قليل من الضباط الإنجليز لاستطاع غردون استعادة نفوذه تماماً . نعم حقيقة أن الجنود تعبوا من الحصار الطويل والقتال المستمر وأنهم فقدوا كل الثقة في وعود غردون المتكررة بأن الإنجليز قادمون . فقد أصبحوا كسيري الخاطر وفي يأس . لكن الخرطوم لم تكن في حالة كرب وشدة لفترة طويلة كما حدث في الأبيّض قبل سقوطها . ففي الخرطوم أكل الناس الصمغ فقط لبضعة أيام قبل سقوطها بينما في الأبيّض عاش الناس على الصمغ لشهور ولم يكن هناك عملياً أي شيء آخر يعيشون عليه .

فلو أن أهل الخرطوم رأوا إنجليزياً واحداً بأعينهم لعادت إليهم الشجاعة من جديد ولصمدوا في جميع الاحتمالات لشهر آخر إلي أن تصبح النجدة التي انتظروها طويلاً أمراً واقعاً . ما كان المهدي ليتجرأ لمهاجمة الخرطوم وحتى لو فعل ذلك فمن المرجح جداً أن يردوه مهزوماً . وكثيراً ما ذكر لي الناجون من أهل الخرطوم بقولهم : " لو شاهدنا إنجليزياً واحداً لتم إنقاذنا ولكن شكنا بأن الإنجليز قادمون حقيقة والشعور بأن غردون لابد أنه يقوم بخداعنا جعلنا محبطين وشعرنا بأن الموت سيكون أفضل من حياة الحرب المستمرة والمعاناة اليومية التي كنا نعيشها أثناء الحصار . "

إن تأخر الإنجليز الذي لا يمكن تعليله هو سبب سقوط الخرطوم وموت غردون ومصير السودان . ولم يقرر المهدي الهجوم على الخرطوم إلا عندما سمع بتأخر الحملة عند قرية القبة . ولم تبدأ قواته في عبور النيل حتى الرابع والعشرين من يناير ولم يكتمل العبور حتى ليلة الأحد . ولم يكن يستطيع الهجوم أسبق مما فعل . فعندما وصلته أول أنباء هزيمة قواته في أبو طليح رغب في رفع الحصار والتقهقر إلى كردفان . فلو أن الإنجليز قد ظهروا في أي وقت قبل بدء الهجوم لرفع الحصار وتراجع . والحقيقة كانت رغبته دائماً العودة إلي الأبيّض قبل الهجوم على الخرطوم .

وحتى اليوم الحالي لا يستطيع الناس في السودان فهم سبب تأخر القوات الإنجليزية . البعض يقول إن الجنرال الإنجليزي قد جرح في أبو طليح وأنه راقد غائب الوعي وأن أولئك الذين يعملون بالإنابة عنه لم يجرؤوا على القيام بالعمليات إلى أن يتعافى تماماً ويستطيع إصدار أوامره .

والسودانيون يتعجبون لماذا لم يتخذ الأوربيون احتياطات لكل الطوارئ في هذه الحالة وهم عموماً يتخذون ذلك . ورأى آخرون أنه لابد أن خشم الموس باشا قد حث الإنجليز على مهاجمة العرب حول المتمة و شندى انتقاماً من إصرارهم الذي هاجموا به البواخر وأزعجوها . ما سبق ذكره هو فقط بعض الأسباب الكثيرة التي سعى السودانيون أن يفسروا بها تأخر الإنجليز بعد معركة أبو طليح .

عندما اقتنع الإنجليز بأن الخرطوم قد سقطت تراجعوا شمالاً . فبمجرد ما سقطت المدينة فإن القوة الإنجليزية المقاتلة الصغيرة أصبحت في خطر عظيم . فلدى المهدي الآن قوة بأكملها تحت تصرفه لمقاتلتهم . وفى الحال أرسل النُّجومي عدداً كبيراً من أفضل أمرائه مع قوة كبيرة . لولا أن الإنجليز قد تقهقروا قبل أن تصل قوات المهدي إلي المتمة فلم يكن ممكناً أن يهربوا .

كان المهدي غاضباً عندما سمع أن الإنجليز الذين قتلوا عدداً كبيراً من أفضل قواته قد تقهقروا . ورغم أن الإنجليز قد فشلوا في تحقيق هدفهم فما زالت محاولتهم الجريئة لخطف الفدية من فم الأسد ستظل إلى الأبد عملاً عظيماً . وإن شجاعة الإنجليز في التقدم إلى الخرطوم بمثل ذلك العدد الصغير من الرجال هو دائماً مصدر دهشة بالنسبة للسودانيين . لكن واحسرتاه ، يا لها من تضحية بالدم والمال دون جدوى ! لقد جاءت النجدة متأخرة جداً .

إن ذكرى غردون المدافع البطولي عن الخرطوم ما زالت تجد التذكر اللائق . فشجاعته ومروءته وتضحيته الطوعية بنفسه قد أكسبته إعجاب أعدائه الألداء . ومن المقولات الشائعة بين المسلمين " لو كان غردون واحداً منا ، لكان رجلاً كاملاً " . سوف أعطى الآن وصفاً مختصراً للأحداث السابقة على سقوط الخرطوم ومصير المدينة .

بعد تراجع القوات الإنجليزية ، استقر سادة الخرطوم الجدد ووفروا لأنفسهم سبل الراحة . فالأشراف وهم أقرباء المهدي طرحوا على الأخص الكلفة جانباً وهم في أجمل المنازل والحدائق وتقوم الراقصات بالترفيه عنهم ليلاً ويعيشون حياة اليسار والرفاهية . وبعد وفاة المهدي التي حدثت في الثاني والعشرين من يونيو ١٨٨٥م فإن الخليفة عبد الله نظر إلى ازدهار الخرطوم بعين الحسد .

عندما وصلت إلى الخرطوم من الأبيّض في أبريل ١٨٨٦م زرت كل جزء من المدينة وتفحصته بكل عناية ووجدت أن قليلاً من المنازل تم تدميره وأن المدينة كانت مكتظة بالسكان . كذلك زرت خطوط الدفاع بين النيلين الأزرق والأبيض التي امتدت لحوالي ستة كيلومترات . فالانطباع الذي أخذته من مظهر الخندق الذي كان في ذلك الوقت قد تخرب بالأمطار الغزيرة أنه ما كان يمكن عبوره إلا قرب النيل الأبيض حيث ترسب كثير من الطين والرمل وملأ الخندق . وفي نقاط عديدة على طول خط الدفاع كانت هناك طوابي قوية عليها مدافع وعلى مسافة قريبة وراء الأسوار هناك إنشاءات عالية تطل على الخندق وخلف كل فتحة لإطلاق النار حاجز صغير من الطين والواضح أن القوات قد أقامته لحمايتها من البرد والرياح القوية .

وقد بنيت بوابة المسلَّمية من الطوب الأحمر والأسمنت وكانت عندئذ في حالة جيدة ولكن ظلت البوابة الحديدية مغلقة في مواجهة الخندق . وقد قمت بعدّ حوالي ١٥٠ جثة على طول السور وهناك رقدت متقلصة مثل المومياءات بينما اتخذت الجرذان والفئران مسكناً لها فيها . وفى أحد الأماكن رأيت جثتين مربوطتين معاً من القدمين . ومن الواضح أنهما قتلا على هذا الوضع . وكان من المستحيل التمييز بين المصريين والسود لأن الشمس قد أحرقت وقلصت الجلد إلى لون واحد أسود . وهنا حيث كانت بالأمس حركة ونشاط لا يوجد الآن سوى صمت القبور . وأثناء سير المرء على طول السور يرى السّحالى (LIZARDS) وغيرها من الزواحف تزحف من تحت الهياكل العظمية وتنطلق للاختفاء تحت هياكل عظمية أخرى .

لقد تمشيت من بوابة المسلَّمية إلي المقبرة الأوربية . وهنا يا له من خراب وتدنيس

أمام عينيَّ . الصلبان قد دمرت وهى ترقد مبعثرة في قطع صغيرة والقبور قد كشفت وألقيت الجثث خارجها وقد تعرفت من الملابس على ثلاثة ماتوا في يناير ١٨٨١م وقبر الأسقف كمبوني الذي مات في الحادي عشر من أكتوبر ١٨٨١م ودفن في حديقة البعثة هو أيضاً تم فتحه ولكن " الشاهد " الذي نصبه أهل الخرطوم على قبره لذكراه لم يتم تحطيمه . وأجراس الكنيسة قد أنزلت ولكنها ترقد هناك في الحديقة دون إتلافها .

بعد قليل من زيارتي تلك تحولت الخرطوم إلى أطلال . فالخليفة عبد الله غائر من الأشراف الذين وطدوا أنفسهم تماماً في المدينة وهو لا يستطيع لذلك مراقبة أفعالهم بصورة كافية لذلك قرر إصدار أمر بإخلاء الخرطوم . وفي أغسطس أصدر أمره للجميع بإخلاء المدينة في ظرف ثلاثة أيام . وتم تنفيذ الأمر على الفور وفي اليوم الرابع بدأ تدمير الخرطوم . فقد هدمت المنازل ونقل خشب النوافذ والأبواب والبلكونات إلى أم درمان وخلال فترة قصيرة من الوقت أصبح المكان كله أطلالاً ومعظم الطوب الأحمر قد نقل إلى أم درمان . المباني الوحيدة التي لم يتم تدميرها هي ترسانة السلاح التي ما زال العمل يجرى فيها وقصر غردون ومنزل البعثة الكنسية . والواقع أن الخرطوم الآن ليست إلا أكواماً من الأطلال الترابية . وهنا وهناك جدار ما يزال واقفاً وفي كل مكان قامت أشجار شوكية وهى تغطى مثل النقاب البقايا الحزينة لعاصمة السودان التي كانت يوماً ما مزدهرة ومزدحمة بالسكان .

الباب التاسع

أيام المهدي الأخيرة

إنتقادات أورفالدر لبعض الأحداث المتعلقة بالدفاع عن الخرطوم . الجدري يدمر السودان . المهدي يطلق العنان لحياة الملذات . وصف حياته الحريمية . المهدي يمرض ويموت . التأثير على أتباعه . الخليفة عبد الله يخلفه . الصراع والخلاف الحزبي . الخليفة عبد الله ينتصر . الأحداث في سنار وكسلا .

إذا نظرت إلى الوراء إلى الأحداث التي وقعت أثناء حصار الخرطوم ، فلا أستطيع أن امتنع عن القول بأنني أعتبر غردون قد تمسك بآرائه الإنسانية أكثر من اللازم وأن هذا التحمل المفرط من جانبه قد أضر بقضيته وزاد كثيراً من متاعبه . كان واجب غردون الأول والأعظم هو إنقاذ الأوربيين والمسيحيين والمصريين من ثورة المهدي المتعصبة الموجهة ضدهم بصورة خاصة . كان هذا واجب غردون الواضح ولكن للأسف فإنه سمح لرقة قلبه أن تستغل لمصلحة أعدائه .

فالخرطوم أثناء الحصار كانت مليئة بزوجات وأقارب وأطفال رجال انضموا إلى الدراويش . وكانوا الأوائل في جهودهم لإزعاج المدينة ومهاجمتها . وبذا ضمن هؤلاء المكّارون لأنفسهم أنه إذا انتصر المهدي فإن ولاءهم له سوف يضمن سلامة عائلاتهم وممتلكاتهم في الخرطوم . بينما من ناحية أخرى إذا أصبح غردون منتصراً فإن زوجاتهم وعوائلهم سوف تستطيع التوسط لهم لدي المنتصر . وهكذا بسبب رقة قلبه أطعم غردون وأعال أسر أعدائه . كان يكفى لعدد من النساء أن يلجأن إلى غردون والدموع في أعينهن ويقلن بأنهن جائعات فيأمر بصرف حصة من الذرة على الفور لهن . وهكذا تناقصت المؤن بشكل كبير في يد الحكومة .

فلو أن غردون أراح الخرطوم من وجود هؤلاء الناس في المراحل الأولي للحصار ، وهو مما اضطر فيما بعد إلي فعله ، لكان لديه ما يكفي من المؤن لمد فترة مقاومة قواته إلى أبعد من الحدود التي وصلوا إليها عندما حدث الهجوم . وفضلاً عن ذلك ، أليس من الواجب أن تكون عناية غردون الأولى بقواته ؟ لقد ضج رجاله من الطريقة السخية التي

وزع بها على عوائل المحاصرين ما كان ينبغي أن يكون لهم من حصص الطعام ولكن دون جدوى .

كان ينبغي لغردون أن يدرك أن القوانين الإنسانية تختلف في وقت الحرب عن وقت السلم وخاصة عندما تكون الحرب التي يخوضها موجهة على الأخص ضد متوحشين متعصبين وأعداء لكل سلام . لقد خدع تماماً إذا اعتقد بأنه بممارسة الشفقة والإنسانية بأنه يحتمل أن يكسب هؤلاء الناس إلى جانبه . على العكس فقد سخروا من أريحيته ورأوا فقط أنها علامة على الضعف . فالسودانيون لا يحترمون ولا يهتمون إلا بأولئك الذين يخافونهم . ومن المؤكد أنه كان يجب تلقى هؤلاء القساة المنافقين معاملة مختلفة تماماً عن الأوربيين المتحضرين .

وأرى أيضاً أن غردون قد جلب الأذى على نفسه وقضيته بفعل آخر ، أنا مقتنع بأنه قاد إلى حد كبير إلى الإطاحة النهائية به . رجال مثل سلاطين ولوبتن وصالح ود الملك وآخرين طلبوا أن يأتوا إليه مجازفين بأرواحهم ليكونوا في خدمته . ويكاد أن يكون من المؤكد إمكان إيجاد بعض الوسائل لإنقاذ هؤلاء الرجال الشجعان من العبودية ... هؤلاء الرجال الذين دافعوا عن مديرياتهم بتصميم عظيم ضد الخيانة من الداخل وأعداد القوات الهائلة من الخارج . كانوا يستطيعون أن يقدموا إليه خدمات قيمة ومفيدة . لا أحد أفضل معرفة من هؤلاء الرجال بنقاط ضعف وقوة حكم المهدي وطريقته في الحرب . وكان من الممكن جداً أن يستطيعوا تغيير مصير الخرطوم . كان ينظر إليهم في معسكر المهدي على أنهم شجعان وقادة مهرة . وحقيقة أنهم كانوا يخافونهم . وهذا هو السبب في تقييدهم بالسلاسل حيث رأوا أنهم قد يحاولون الهرب . فلو أنه قد سمح لهم بدخول الخرطوم لما استطاعوا فقط المساعدة في الإطاحة بالمهدي بل لاستطاعوا تشجيع الحامية .

غردون على أية حال ، لم يسمح حتى بالرد على خطابات التوسل التي كتبها له هؤلاء الرجال . فلا يمكنه أن يعتقد أنهم خونة . فمثل هذه الفكرة لا تجول بخاطر أوربي . فالمهدي لم يشك للحظة في ميولهم وعاملهم بأقصى ما يمكن من عدم الثقة . ولكن

حتى بالنسبة لهؤلاء المتوحشين فإن فكرة قتل رجال كانوا موالين للحكومة وحاربوا بشجاعة دفاعاً عن مديرياتهم لم تكن مقبولة ما لم يقدموا حقيقة سبباً قوياً لفعل ذلك . كيف يمكن لغردون أن يشك للحظة في ميول ونوايا هؤلاء الرجال ؟ إنني أعتقد اعتقاداً قوياً فيما ورد عن هذه النقاط ولذلك لا يسعني إلا ذكرها .

بعد سقوط الخرطوم بقيت مدينتان قويتان فقط في أيدي الحكومة وهما كسلا وسنار . وكل منهما كانت محاصرة عن قرب . الإنجليز تراجعوا إلى الشمال ويستطيع المهدي أن يستريح أخيراً مطمئناً أنه أصبح الآن مالك السودان .

كانت الحشود الضخمة حول الخرطوم مشتبكة خلال فصل الشتاء بأكمله في الحرب . ونتيجة لذلك فقد أهملت الزراعة . ولولا الأعداد الكبيرة الموجودة من الماشية لحدثت كارثة مجاعة . وكما هو الحال فقد حدث الكثير من أحوال الشدة وماتت أعداد من المجاعة . فالمجاعة والحرب جاءت بالأمراض في أعقابها . فبالإضافة إلى الحمى والدوسنتاريا ، ازدادت إصابات مرض الجدري المستوطن في السودان بسرعة مخيفة . في أم درمان مات المئات وأصبح العمل الرئيسي لبيت المال هو توزيع الأكفان .

من الطريف أن السودانيين الذين يخشون هذا المرض خشية شديدة أن ينسبوه إلى الإنجليز ، ولكن هذا ما فعلوه حقيقة . ونروي هنا كيف جاءت هذه القصة . عندما تراجع الإنجليز من قرية القبة تركوا وراءهم كمية من المؤن المحفوظة واللحم المعلّب . وبالرغم من اعتقاد الدراويش أن تلك المؤن تحتوى على لحم الخنزير وهو رجس بالنسبة لهم فقد استهلكوا كل شيء وجدوه من شدة الجوع . ويقال إنهم أصيبوا بالجدري مباشرة تقريباً بعد ذلك . وهذا ما أثار فكرة أن الإنجليز خلطوا طعامهم بجراثيم المرض ، وقد تم تصديق ذلك بلا أدنى ريب .

ونظراً لانتشار المرض في أم درمان ، هرب أناس كثيرون إلى كردفان ودارفور وأماكن أخرى مما نشر المرض في جميع البلاد . عدة أطباء زائفون هدفهم الوحيد جمع المال تعهدوا بإيقاف انتشار المرض بالتطعيم . ولكن بما أن مصل التطعيم نفسه كان ملوثاً بالمرض فقد ازداد انتشار الوباء .

وبالرغم من هذه الكارثة القومية ، فإن المهدي قد استسلم لحياة الدعة والرفاهية التي لعبت فيها دوراً بارزاً النساء التعيسات اللائي قبض عليهن في الخرطوم . وقد بيّن المهدي أن جميع أولئك الذين ماتوا بالجدري إنما يتلقون عقاب الله لأنهم أشرار أو لأنهم استولوا على الغنائم لأنفسهم . والناس صدقوا ما قاله . وسوف يصدقونه إذا كان حيّاً وقال لهم حتى أشياء أصعب تصديقاً . إن الاستيلاء على الخرطوم قد رفع بالطبع من مكانته بدرجة كبيرة . والآن فإن الاعتقاد في رسالته الإلهية لا تحتاج إلى مزيد من التأكيد . وأن عمه السيد عبد القادر كان يشك في أنه المهدي الحقيقي حتى وقت سقوط الخرطوم ولكن بمجرد الاستيلاء على المدينة لم يعد يشك في أنه المهدي .

كل هذا النجاح زاد من تملق الناس للمهدي وتبجيله إلى درجة غير عادية . وأما فيما يتعلق بشخص المهدي ، فبالرغم من تحذيره المستمر لأتباعه لاحتقار الحياة الدنيا وترك الانغماس في ملاذها فإنه أحاط نفسه بكل نوع من وسائل الراحة والرفاهية مستحسناً للغاية نفس الملذات التي خطب ضدها بحماس .



امرأة مصرية من الحريم

وقد حث على الاعتدال في الأكل والشرب ومع ذلك فقد حاز لنفسه كل طعام لذيذ يمكن أن تقدمه الخرطوم . الآن أصبح يلبس القمصان والبنطلونات المصنوعة من أفخر الأقمشة . وقبل أن يلبسها علي نسائه تعطيرها بالبخور وكل الروائح الغالية . ونساؤه يقمن على خدمته بالتناوب ولكن دون محافظة على هذا التناوب . وكن يدهن جسده بكل أنواع الدهان الغالي ولكن دهانه المفضل كان " الصندلية " وهو عطر من الصندل والزيوت . وكان مشبّعاً للغاية بهذه العطور حتى أنه عندما يمر يصبح الهواء معطراً حوله .

إن حوش حريمه كان يعج بالنساء من البنات التركيات الصغار في سن الثامنة إلى الزنجيات الدينكاويات الفاحمات السواد إلى الحبشيات ذوات اللون النحاسي . وتكاد كل قبيلة في السودان قد ورّدت من يمثلها . ولذلك يمكن للمرء أن يقول إن جميع عالم المرأة السودانية يمكن رؤيته هنا .

بين هذا الحشد الضخم فإن أربعة فقط هن الزوجات الشرعيات . أما الباقيات فيعتبرن غنيمة وينظر إليهن كجوار أو محظيات . زوجته الرئيسية تسمى عائشة وهي تعرف في أم درمان بلقب " أم المؤمنين " وهي امرأة ذات نفوذ كبير وزوجات جميع الأمراء الكبار يزرنها وهن يساعدنها في إحكام شبكة واسعة للتجسس . واحسرتاه فكم فتيات تعيسات تركن يبكين ليلاً ونهاراً على حالتهن المزرية وقد سلبن من سعادتهن وحريتهن من قبل عائشة هذه !

بنيت معظم أجزاء سكن المهدي من غنائم تم الاستيلاء عليها . فمن ألواح اصطبل الجنرال هكس تم بناء كوخين له وقربهما بني كوخ أخر من الملاط (المونة) ومخزن صغير . هذا الرجل الذي كان حتى هذه اللحظة لا يملك إلا حصيراً صغيراً من القش يرقد الآن على أسرة جلبت أصلاً من جدة وتم الاستيلاء عليها في الخرطوم بينما الأرضيات مغطاة بالسجاد الفارسي . هنا كان هذا المهدي الإلهي يعيش داخل البيت حياة كلف بالنساء غير معتدلة بينما في الخارج يدعوه أتباعه المتعصبون كمبعوث مباشر من الله أرسل لتطهير العالم من الممارسات الشريرة للأتراك المكروهين .

شخصان من الذين كنت أعرفهم جيداً والذين زاروا المهدي قبل موته بأقل من ثلاث أسابيع ، أطلعاني على نوع الحياة التي كان يحياها . كان ذلك شهر رمضان شهر الصيام . وكل شخص يخفق في الالتزام به بصراحة يعاقب بالإعدام . وقد تعوّد الناس التهجد في المسجد من الظهر إلى منتصف الليل . والمسجد مجرد حظيرة كبيرة محاطة بزريبة . آلاف الدراويش يحتشدون في هذه الساحة المستطيلة الكبيرة حيث تصدم أعواد الحراب التي تشبه الغابة مع بعضها محدثة ضجيجاً بين تعجّلهم لرؤية المهدي عندما يأتي للصلاة . لقد رأوه مئات بل آلاف المرات من قبل ، ولكن يبدو أنهم لا يسأمون التحديق فيه . وكثيراً ما يتدافعون للحصول على موضع قرب المحراب حيث يصلى هو .

بينما يبين اللغط المحموم لآلاف الأصوات أن وقت قدومه قد أوشك ، دعنا للحظة نتوجه إلى جناح حريم المهدي . وهنا صورة حقيقية لما رآه صديقاي هناك : المهدي مضطجع على سجادة فاخرة ورأسه مستند عل مخدة مغطاة بحرير موشّى بالذهب ، وهو يلبس قميصاً من كتّان ذي نسيج ناعم وسروال وجلابية . ورأسه الحليق عليه طاقية مطرّزة بالحرير . وأكثر من ثلاثين امرأة يقفن حوله . بعضهن يهب الهواء عليه بمراوح كبيرة من ريش النعام ، وأخريات يدلكن قدميه برفق (وهي ممارسة يسر لها السودانيون) دون إزعاجه بأية كيفية من غفوته ، وأخريات يمسحن برفق على يديه ، وعائشة ترقد بجانبه وهي نغطى رأسه وعنقه بمعانقات حانية . في الوقت نفسه يصيح مئات الأنصار خارج زريبة المهدي ينتظرون في لهفة مباركته لهم ويتوقعون سماع صوته . والخصيان يحاولون طرد هذه الحشود الملحاحة بالسياط . ولكنهم لن يغادروا حتى يحصلوا على البركة التي يسعون إليها بحماس . وأخيراً يدخل أحد الخصيان ويتلقى البركة من عائشة التي تعطيها دون إزعاج المهدي . وعندئذ يعود المخصي ويخبر الحشد المتلهف أن المهدي في تأمل عميق في ذلك الوقت ولكنه تفضل تكرماً بإعطائهم البركة والتي يتم تكرارها عندئذ . وهذه إشارة لصيحة فرح متوحشة ثم يعودون إلى المسجد ليقفوا صفوفاً للصلاة . والآن فإن أولئك الذين لم يكونوا حاضرين لتلقى البركة فإنهم

يضغطون في طريقهم إلى الأمام ليلمسوا الآخرين الذين تلقوا البركة وهكذا يحصلون على بعض من فضلها .

المهدي مستمر في غفوته ولكنه يستغرق تدريجياً في نوم عميق عندما توقظه عائشة برفق وتخبره بأنه قد تجاوز وقت الوضوء والصلاة . والآن تساعده النساء للنهوض إذ يحضرن حذاءه الأحمر ومن ثم يتقدم إلى مكان الوضوء وتتبعه أربع نساء يحملن إبريق الماء . وعند عودته يرمين بأنفسهن بصورة مجنونة على مواقع خطواته ويتصارعن في محاولتهن لاحتضان التربة التي وطأها .

ويعتقد أن التربة التي تطأها أقدام المهدي لها خصائص علاجية ولها كذلك تأثير في ضمان ولادة سريعة وبدون ألم ، ولذلك يجرى توزيعها على النساء المتدينات . وحتى هذا اليوم تحفظ بعناية للأغراض المذكورة . وكذلك لا يسمحون بأن تضيع نقطة من الماء الذي توضأ به المهدي ولكنه يدخر بعناية عظيمة ويشرب كعلاج صائب لكل نوع من الأمراض والأدواء .

لكن لنعود إلي وصف صديقاي . بعد انتهاء المهدي من الوضوء يجرى إليه ابنه بشرى ويطلعه على خاتم ذهبي أهدته إليه أمه ويطلب منه الإذن ليلبسه . ولكن المهدي لاحظ عند هذا الوقت وجود شخصين غريبين ، يقول " أوه يا ابني الأتراك فقط هم الذين يلبسون مثل هذه الحلي لأنهم يحبون أشياء هذه الدنيا . ولكنه لا يصح لنا أن نلبس مثل هذه الحلي التي تفنى . إننا نجاهد للحصول على أشياء لا تفني . أعد الخاتم إلى أمك " . يتفهم المنافق الصغير جيداً ما يعنيه والده ويطيع .

عندئذ تقوم عائشة بإلباس المهدي جبة الدراويش والحزام (الكرّابة) والعمامة . ويخرج في حلة التقوى هذه إلى المسجد . وبمجرد أن يخرج من القصر يحيط به حراسه ويبعدون الحشود عنه . وعندما يصل إلى المحراب تستقبله الحشود المتجمعة بالهتاف . وبعد الصلاة يلقى موعظة قصيرة ثم يعود إلى زوجاته .

وهكذا استمتع المهدي بحلاوة انتصاره داخل بيته بينما مارس خارجه أشد أنواع النفاق فظاعة . ومعظم كبار أمرائه (باستثناء عمه سيد عبد الكريم الذي أرسل

لإخضاع سنار) تبعوا خطوات سيدهم الورع وعاشوا حياة ملذات وفسق . وقد اعتاد المهدي أن يعبر إلى الخرطوم ويسلّى نفسه في قصر غردون حيث أمر أن ينقل إليه جزء من حريمه .

لكن كل هذه الحياة الطيبة وهذا الانهماك في الشهوات غير المقيد كان سبب هلاكه السريع . لقد تضخم وأصبح بديناً . والزائران اللذان زاراه واللذان ذكرتهما من قبل رأياه قبل ثمانية أيام فقط من موته وذكرا لي أنهما يعتقدان أنه لن يعيش طويلاً . ففي أوائل رمضان أصبح مريضاً وسرعان ما اشتد عليه المرض بصورة خطيرة . إن يد العدالة الإلهية قد انقضت عليه بقوة وشاء القدر ألا يستمتع لمدة أطول بإمبراطوريته التي أقامها على جثث آلاف القتلى من ضحايا نفاقه وخداعه .

إنه فظيع حقاً أن تفكر في البؤس والشقاء الرهيب الذي جلبه هذا الرجل الواحد على بلاده . لقد اشتد عليه المرض بسرعة وكان يشكو من ألم في القلب . ومات في الثاني والعشرين من يونيه ١٨٨٥م بسبب انحلال دهني في القلب . والبعض يقول إنه كان ضحية انتقام امرأة فقدت زوجها وأطفالها في سقوط الخرطوم وأنها ردت على انتهاك المهدي لحرمتها شخصياً بإعطائه السم في طعامه . قد يكون ذلك صحيحاً . وحقيقة أن السم يستعمل عموماً في السودان لإبعاد الأشخاص عن الطريق . ولكنني أميل نوعاً إلي أنها الطبيعة المنتهكة تلك التي انتقمت من ضحيتها وأنها طريقة حياة المهدي الفاسقة المنغمسة في الملذات هي التي تسببت في موته المبكر . وقد مات في الكوخ المبني بالملاط (المونة) الذي وصفته من قبل . وقد أشاع أتباعه أنه على وشك أن يسافر خلال السماوات لفترة ثلاث سنوات . وما كان يسمح للناس أن يقولوا " مات المهدي " ولكن " انتقل المهدي " .

كانت صدمة موته فظيعة . وقد أخرست من هولها أولئك المتعصبين المتوحشين وعيونهم قد جحظت فجأة . واضطرابهم قد أوضح أنهم أدركوا أن المهدي كان كاذباً . وأم درمان تمتلئ باللغط المكبوت والناس يتجمعون في مجموعات ويتحدثون عن هذه الكارثة المروّعة .

أولئك الذين عانوا من الاضطهاد اعتقدوا أن الانهيار المفاجئ للمهدية لا بد أن تنتج عنه ثورة . فلا أحد كان يعتقد أن جماعة المهدي تستطيع الاستمرار في الحكم باسمه . ليت رجلاً جيداً كان قد ظهر ليغتنم هذه الفرصة بسرعة ويضع نفسه في قيادة القوى المعادية للمهدية . كان لا بد له أن ينجح !

أما الاضطراب في داخل بيت المهدي فقد كان فوق الوصف . فنساؤه بكين وأعولن بحزن مرير . وأعد أحمد ود سليمان وأقارب المهدي القريبين قبراً يقع مباشرة تحت السرير الذي مات فيه وتم غسل الجثمان وتكفينه حسب السنة الإسلامية وبحضور الخلفاء وجميع أعضاء أسرة المهدي تم إنزال الجثمان في القبر وسط نحيب وعويل الحشد الضخم الذي تجمع خارج المبنى . وقبل إهالة التراب على القبر تم رش الجثمان بالعطور ثم أخذ كل شخص حاضر قبضة من التراب وألقاها في القبر وسط همهمة " يا رحمن يا رحيم " . هذا وقد أقيم نصب صغير فوق القبر .

هكذا انتهى المهدي ، الرجل الذي ترك وراءه مئات الآلاف من القتلى من رجال ونساء وأطفال ، ومئات من المدن والقرى المدمرة والفقر والمجاعة . وتقع على رأسه الملعون لعنة شعبه الذي زجه في حرب دينية متعصبة متوحشة ألحقت بالبلاد دماراً لا يوصف وعرّض مواطنيه لحكم طاغية قاس من المستحيل أن يحرروا أنفسهم منه .

عيّن المهدي قبل وفاته الخليفة عبد الله ليخلفه . وقد رأى أن ذلك هو الرجل الوحيد الذي يستطيع السيطرة على القبائل السودانية التي تميل إلي السلب والنهب ولحكم الإمبراطورية العربية التي أنشأها . ولكن اختيار هذا " الأجنبي " كان خيبة أمل عظيمة بالنسبة للدناقلة والجعليين الذين حتى الآن هم الحكام فأصبحوا الآن هم المحكومين . وتم نقل سلطتهم من أيديهم إلي البقّارة القساة الطغاة الذي أصبحوا من الآن فصاعداً قاهري السودان يحكمون سكانه بيد من حديد .

بتعيين الخليفة عبد الله ، فقد ألقى المهدي بجذوة الخلاف بين صفوف رجال المهدية التي كانت حتى ذلك الوقت متحدة وبذلك أضعف قضيته إلي حد بعيد . كان من الصعب على المهدي أن يموت بمجرد أن أسس إمبراطورية تمتد من بحر الغزال إلي مصر ومن

دارفور إلي البحر الأحمر . فلم يكن لديه الوقت ولا الرغبة ليحاول حكمها . فمهمته كانت تدمير كل أشكال الحكومة وقد نفذ ذلك بالحرف .

مباشرة بعد وفاة المهدي ، دعا الخليفة عبد الله إلي اجتماع وعندئذ وفي ذلك الاجتماع أصر على الخليفتين وعلى الأشراف الاعتراف به كخليفة للمهدي . وعقد مباحثات طويلة تمت الموافقة أخيراً على ذلك وأدى القسم على أن يتّبع تماماً خطى المهدي . لكن في هذا الوقت كانت الإثارة على مشاعره أقوى من أن تجعله يفكر في طرح الخطط الأنانية والطموح التي وضعها مسبقاً . وبالإضافة إلي ذلك فإن كسلا وسنار ما زالتا تقاومان سلطة المهدية . ولذلك فإن الخطوة الضرورية الأولى هي أن يكون متصالحاً مع جميع الجوانب والمجموعات .

اسم المهدي ما زال هو الأعظم في بعث روح التعصب الديني ولذلك أصبح شعار الخليفة عبارة " الدين منصور " . وهكذا سعى لإقامة وحدة واتفاق بوسائل الدين الجديد الذي أسسه المهدي والذي سعى هو الآن بعد موت منشئه أن يجعل من الصعب الاعتداء عليه .

ومع ذلك فإن الخلاف سرعان ما برز . فالخليفة شريف والأشراف غاضبون لإبعادهم عن السلطة ولم يستطيعوا إخفاء عدم رضاهم أكثر من ذلك . كل خليفة الآن فعل أقصى ما يستطيعه ليظهر استقلاله عن الآخر . وكل منهم ركب في أعظم أبهة حول أم درمان كأنه كان ملكاً وأمر بقرع طبل الحرب الكبير التابع له . وانتشر الحسد والكراهية وعدم الرضاء بين الناس بسرعة . وسرعان ما انقسمت أم درمان إلي معسكرين واضحين . الخليفة شريف وعلى ود حلو في معسكر والخليفة عبد الله في المعسكر الآخر . كل من الفريقين استعد الآن للقتال . لدى الخليفة عبد الله البقّارة والسود تحت قيادة فضل المولى (شقيق أبو قرجة) . وقعت نزاعات متكررة في منطقة السوق . وفي كل يوم كان لا بد أن يقع عراك . وأخيراً وصلت الأمور إلي مرحلة تحدى فيها الخليفة عبد الله الخليفتين الآخرين للقتال في السهل المكشوف الذي تجري فيه عادة استعراضات الجيش الكبرى خارج أم درمان .

جمع الفريقان كل قواتهما ولكن كان من الواضح أن البقّارة أقوى بكثير من الآخرين . وعند ما ساروا إلي خارج المدينة كانوا يهتفون " الموت للجلابة " ويقصدون بذلك الدناقلة في مقابل البقّارة . عندئذ مثل الخليفة علي ود حلو دور الوسيط وذهب إلي الجانب الآخر للاجتماع مع الخليفة عبد الله . وكانت قوات الخليفة قد صُفّت في ترتيب قتالي . وكانت جاهزة تماماً للمعركة . وخشي الخليفة شريف أن يدخل ميدان المعركة وحده ولذلك استسلم . وقد أجبر على تسليم جنوده وأسلحته وذخيرته وراياته وطبول الحرب واستولى عليها الخليفة عبد الله . وقد سمح له فقط بالاحتفاظ بخمسين رجلاً مع أسلحتهم كحرس خاص .

وهكذا نصّب الخليفة عبد لله نفسه الحاكم الأوحد وأظهر أنه مصمم تماماً على ألا يدع أحداً آخر يشاركه السلطة . وتدريجياً خفض من سلطة الخليفتين الآخرين وفي وقت قصير أصبحا ذوي نفوذ قليل . وأما أعمام المهدي الاثنان عبد الكريم وعبد القادر اللذان أظهرا أكثر العداوات المكشوفة والعنيفة ألقيا على الفور في القيود ودمرت منازلهما وأعلن بأنهما عدوا المهدي . وكما سنروي فإنه أمر أبو عنجة باحتجاز خالد زقل ووضعه في السجن .

بينما استمرت جميع هذه الاضطرابات في أم درمان . فإن المدينتين سنار وكسلا اللتين ما زالت قوات الحكومة تقاوم فيهما ، أصبحتا الآن في ضوائق شديدة . وسوف أعطى هنا وصفاً موجزاً للأحداث التي وقعت .

سنار عانت لوقت طويل من أنصار المهدي . حاصرها أحمد ود المكاشفي في سنة ١٨٨٣م . وقد تقدم حاكم عام السودان ، عبد القادر باشا ، بقوة كبيرة لإنقاذها فهزم المكاشفي ورفع الحصار عنها . وقد جرح عبد القادر باشا نفسه في القتال وقد تكسرت ساعته قطعاً لإصابتها بطلقة . وأصبحت سنار والخرطوم مرة أخرى على اتصال . ولكن لسوء الحظ فإن عبد القادر باشا الذي يخشاه السودانيون كثيراً قد استدعي إلي مصر .

في سنة ١٨٨٤م هاجم الثوار سنار مرة أخرى ولكنهم ردوا على أعقابهم . ثم

إنها حوصرت من قبل المرضي أبو روف الذي نجح في هزيمة القوات المصرية تحت قيادة النور بك . وسوف أروي حالياً كيف أن هذا المرضي قد عومل فيما بعد من قبل السودانيين.

البعض يقول إن سقوط الخرطوم كان له أثر مثبط على حامية سنار الشجاعة . لكن ذلك لم يكن كذلك . فقد صمموا على الصمود . فالمدير حسن صادق الذي قيّده النور بك وحبسه تطوع بأنه إذا أطلق سراحه فسوف يهاجم الثوار . وفي الحقيقة نجح في طردهم ولكن أثناء عودته إلي المدينة وقع في كمين وقتل . وطارد النور بك الشجاع العدو مرة أخرى ونجح في إلحاق هزيمة أخرى بهم .

وصل الآن عبد الكريم بقوة كبيرة وطلب من الحامية أن تستسلم ولكن النور بك رفض الاستسلام . وفي السادس عشر من يونيه تمت مهاجمة المدينة ولكن تم رد عبد الكريم على أعقابه كما جرح في فخذه وعندئذ قرر محاصرتها حتى تستسلم بالمجاعة . وتم إحكام الحصار . وفي الثامن عشر من يوليه خرج النور بك من داخل المدينة وهاجم قوات عبد الكريم المحاصرة للمدينة وألحق بها خسائر كبيرة . ولكنه تلقى هو أيضاً جرحاً في ساقه مما جعله أعرج بصفة دائمة .

إن الدفاع المستميت عن المدينة قد دفع الخليفة الآن لإرسال ود النُّجومي بتعزيزات كبيرة . وفي الوقت نفسه كانت الحامية تعاني كثيراً من المجاعة . وقرر النور بك أن يقوم بآخر هجوم من داخل المدينة المحاصرة على أن يكون بقيادة حسن بك عثمان ولكن ذلك قد برهن على عدم نجاح الهجوم وقتل القائد في التاسع عشر من أغسطس ١٨٨٥م واضطر النور بك أن يستسلم . وقد بقي من ٣٠٠٠ رجل كانت تتكون منهم الحامية في الأصل ٧٠٠ رجل فقط وذلك دليل ملموس على المقاومة القوية المستميتة التي بذلوها .

ويعتقد في جميع أنحاء السودان أن الدفاع عن سنار كان أهلاً للثناء . وما زال النور

بك يعيش في أم درمان[1] وفي السنة الماضية فقط فتح جرحه القديم لإزالة العظام المتفتتة من داخله . وقد تحسنت حالته مرة أخرى عند ما هربت ولكنه ما زال أعرج . هذا وقد وصل ود النُّجومي بعد يومين من سقوط المدينة ووجدها أصبحت خرائب . وكل ما بقي منها بضعة أكوام من الطين والرمل كما أن اسمها نفسه قد زال رغم أنه في أوائل هذا القرن أصبحت مشهورة أكثر من دنقلا وكردفان .

بقيت كسلا وحدها . وتقع هذه المدينة على خور القاش وليس بعيداً من نهر عطبرة وحوالي نصف المسافة بين الخرطوم ومصوَّع . يبلغ عدد سكانها ١٣٠٠٠ نسمة وهي محاطة بسور . وهنا يقع قبر السيد الحسن المشهور وعلى قبره قبة مقامة . وهذا الرجل يجد كثيراً من التوقير في شرقي السودان . وإذا أقسم أي شخص باسمه فيعتقد أنه لا بد يقول الحقيقة . وأحد تلاميذه الذي قابلته في أم درمان حدثني عن كراماته وسأذكر منها واحدة أو اثنتين كأمثلة . كان في يوم من الأيام يلقي موعظة وعندما انتهى جاءه عدد من المستمعين وسألوه الصدقة . ضرب السيد الحسن ركبته وفي الحال سقط عدد من الريالات وهو العدد الذي طلبه السائلون بالضبط . وكان بين الواقفين مسكين خجول طلب فوراً ريالاً واحداً . ومرة أخرى ضرب السيد الحسن ركبته فسقط ريال واحد وفي الحال سلمه إلي الرجل قائلاً « هذا للمسكين الخجول » وبرك الرجل على التو وقبل يده شاكراً . وقد دهش جميع الحاضرين لهذه الكرامة ، والبعض كان أكثر جرأة من الآخرين إذ تقدم إلي السيد الحسن ولمسه . وعند ذلك وجدوا لدهشتهم أن ملمسه كجوال ملئ بالريالات .

وفي مناسبة أخرى وصل مسافران بغرض عمل خريطة للبلاد . وعندما فشلوا في تحقيق غرضهما ، تقدما إلي السيد الحسن طالبين النصح . وبعد أن قدم إليهم الطعام والشراب سلمهم الخريطة التي يريدونها . لقد قام بكثير من الكرامات المختلفة وكان فوق ذلك رجلاً حليماً وقدم إلي الحكومة كثيراً من الخدمات القيمة خاصة عندما

---

١ - في وقت كتابة هذا الكتاب

نجح في إيقاف تمرد من العساكر . وخلال جميع الأحداث القريبة ظلت علاقاته موالية للحكومة بصورة جيدة .

لكن لأعود إلي قصتي . عندما جاء عثمان دقنة إلي منطقة سواكن أرسل الأمير مصطفى هدل ليبدأ حصار كسلا . ولكن لما كانت قبيلة الشكرية قد أمدت كسلا بكميات من الذرة فقد استطاعت مقاومة حصار طويل جداً . وفي يناير ١٨٨٤م تمت مهاجمتها وعانى المدير من خسائر جسيمة . والعرب الذين ظلوا حتى الآن موالين ، عندما رأوا أنه لا أمل في نجدة الحكومة لهم ، فروا هم أيضاً .

صار الحصار الآن أكثر ضغطاً على المدينة كما أوشك الاستيلاء على ضاحية الختمية . ولكن تم أخيراً دفع العدو إلي التقهقر . وقد أبرمت اتفاقية مع الحبشة لإنقاذ الحاميات المصرية ونقلها عبر ذلك البلد إلي مصوَّع . وبالرغم من أنه تم أكل جميع الحمير الموجودة في المدينة في ذلك الوقت إلا أن الأهالي كانوا ما زالوا يأملون في إنقاذهم .

في يونيو ١٨٨٥م تمت الإحاطة بالمدينة من كل جانب وكانت في حالة يائسة . وبالرغم من ذلك فقد تم بنجاح رد محاولة الهجوم في الخامس عشر من الشهر وطارد المدير العدو وقتل منه ٣٠٠ رجل . ونجح كذلك في الاستيلاء على ١٠٠٠ رأس من الماشية . وقد مكَّن هذا المدينة من الصمود لفترة قصيرة . وقد عملت أنباء موت المهدي على زيادة تشجيع الحامية .

لكن أخضعت المدينة أخيراً لمجاعة شاملة فاستسلم المدير بشرط الحفاظ على حياة السكان . وعلى أية حال ما أن تم تسليم الأسلحة حتى بدأ المنتصرون في نهب المدينة وإيقاع كل أنواع الأذى بالناس . وعثمان دقنة الذي كان غاضباً آنذاك بسبب هزيمته أمام الراس ألوله في الثاني والعشرين من سبتمبر في معركة كوفيت ، صب جام غضبه على التعساء المدير أحمد بك عفَّت وحسن أغا وإبراهيم أفندي شوقي وكذلك على اثنين من الإغريق هما استيلو أبوستوليدي وتادرس مانيوسه وأمر بقطع رؤوسهم في الثلاثين من سبتمبر ١٨٨٥م .

ومنذ ذلك الوقت ظلت كسلا تحت سيطرة عثمان دقنه . ولكن في سنة ١٨٨٦م عندما

كان مشغولاً كلياً بعملياته ضد سواكن ، أرسل الخليفة أبو قرجة إلي هناك كأمير . وعندما أرسل أبو قرجة فيما بعد إلي طوكر أصبح سيد حامد أميراً على كسلا التي شكلت منذ ذلك الوقت جزءاً من مديرية قلابات التي أصبح أميرها شيخ نصري من قبيلة البديرية .

أرسل أبو قرجة أخيراً إلي بربر ليحل محل عثمان ود الدِّكيم الذي وقع في فضيحة . كان عثمان متلهفاً للزواج من امرأة جميلة رآها في بربر . وكثيراً ما زارها على أمل أن توافق . ولكن المرأة التي لم ترد الزواج منه صممت على خطة ووافقت على مقابلته في يوم معين . لكنها أخبرت إخوانها وأقاربها بأن يكمنوا له . وعندما حضر عثمان في الموعد المحدد وكاد أن يكون متأكداً من نجاحه ، اقتحم إخوانها فجأة الكوخ وضربوه ضرباً مبرحاً مما جعله يهرب ولا يلح في طلب يدها مرة أخرى .

لم يستمر أبو قرجة على علاقة طيبة مع هذا العربي الوضيع وسرعان ما تم استدعاؤهما إلي أم درمان . وأرسل أبو قرجة إلي كسلا حيث اتهم نصري باضطهاد السكان والاستيلاء على كمية من المال . وهرب نصري إلي أم درمان حيث عفا عنه الخليفة .

كذلك تشاجر سيد حامد مع أبو قرجة . وقد قيل لي قبيل مغادرتي السودان بقليل بأن الخليفة قد استدعاه بشبهة أنه كان على ارتباط مع الطليان . ويعتقد عموماً في السودان بأن إيطاليا سوف تستولي قريباً على كسلا الضعيفة الدفاعات . ولكن المعلومات الصحيحة عن الأحداث في شرق السودان من المرجح أن يتم تلقيها في القاهرة أكثر من أم درمان .

الباب العاشر

هرب الأب بونومي

يستمر أورفالدر في وصف تجاربه الشخصية - محمود أمير الأبيَض - محاولاته غير الناجحة لإيقاع النوبا في كمين - وصول أوليفر بين إلي الأبيَض - دوافعه للانضمام إلي المهدي - رحلته نحو أم درمان - مصيره المحزن - لوبتن بك يصل الأبيَض من بحر الغزال - يرسل إلي أم درمان ويقيّد بالسلاسل - الحياة في الأبيَض - هرب الأب بونومي - عزلة أورفالدر - موت الكجور كاكوم

يجب أن أعود الآن لقصة تجاربي الخاصة التي قطعت سردها لتتبع أحداث سيرة المهدي التي لم أشترك فيها .

قبل أن يغادر المهدي الرهد ، تم تسليمي مرة أخرى لسيد جديد وهو الشريف محمود عم المهدي وحاكم كردفان . وقد وضعت في عهدته عندما جاء إلي الرهد لتوديع المهدي . بقيت بضعة أيام مع الشريف محمود في الرهد . وكنت عندئذ في حالة صحية سيئة . ومما أثار فزعي اكتشاف بقع سوداء على جسدي واصطكاك أسناني وعندئذ عرفت أنني مصاب بمرض الإسقربوط . لقد تاقت نفسي إلي الهرب إلي جبل دوباب في منطقة النوبا ولكن حراسي كانوا دائماً معي ولم أنجح .

أخيراً بدأ الشريف محمود رحلة الرجوع إلي الأبيّض وأعطاني واحداً من بغال حملة هكس القليلة الباقية وكان مجروحاً برصاصة في عنقه لم يبرأ منها قط . لقد غيَّرت الأمطار الغزيرة منظر الأرض التي أصبحت الآن بساطاً أخضر . ولو كانت الرحلة تحت أية ظروف أخرى لكانت سارة للغاية . وقد فاجأتنا مرتين عواصف رعدية عنيفة اضطرتنا إلي التوقف حيث جعلت الأمطار الغزيرة السفر مستحيلاً . وفي الليل اضطررنا للنوم على الأرض المبتلة .

عندما اقتربنا من الأبيّض سمعنا قرع طبول الحرب لإعلان وصول الحاكم . لقد تحول السهل الرملي الواسع حول الأبيّض إلي حقول خضراء مزروعة بالدخن . لقد توقفنا لبعض الوقت تحت شجرة التبلدي الوارفة الظلال التي كانت خيمة المهدي منصوبة تحتها . وقد لاحظت أن جميع لحائها قد نزع منها . وقد علمت فيما بعد أن

الناس يعتقدون أن وجود المهدي في ظلها قد باركها . وأنه نتيجة لذلك أخذوا ينزعون لحاءها ويغلونه في الماء ويستعملونه كعلاج أو لأغراض السحر .

لم تبق إلا بضعة أكواخ سليمة في الأبيّض . أما الأمير محمود فقد ذهب وسكن في المديرية . وأقيم احتفال كبير لاستقباله . وقد أمطروه بفيض من الإطراء والمديح . وكان الشيء المعتاد قوله إنه « أثناء غيابه كانت المدينة صامتة صمت القبور وأنها كانت مظلمة كالليل ولكن حمداً لله عاد بعودته الضوء مرة أخرى .. إلخ » لقد سر الشريف محمود سروراً عظيماً لهذا التملق .

بعد أيام قليلة من وصولنا أحضروا الأب بونومي من الرهد إلي الأبيّض وهو مقيد بالسلاسل . وقد أعطونا أنا وهو كوخاً صغيراً في وسط منطقة سكن عبيد الأمير حيث اعتقدوا أننا سنكون في حراسة مأمونة .

الشريف محمود رجل صغير الحجم ونحيف وفي حوالي الخمسين من عمره . لديه قوة وصلابة ونظرات شريرة خبيثة . كان سابقاً تاجر رقيق في دار فرتيت والتحق حينئذ بجيش الزبير باشا . وحتى في جزيرة أبا كان واحداً من أكثر أتباع المهدي تعصباً . تظاهر بكراهيته لمباهج هذه الدنيا وكان يلبس دائماً ملابس رثة . ودائماً يأكل أمام الآخرين أسوأ الطعام وأكثره تواضعاً . ولكنه كان متكبراً بصورة متطرفة كما كان يحب سلطة القيادة . واعتاد أثناء صلواته أن يحرّك ذراعيه ورجليه حوله ويصيح « هوَهوَ » ويقصد بذلك « الله » . وقد اعتاد أتباعه أن يقولوا إنه عندما يفعل ذلك فإنه ينظر إلي الله في رؤيته . ولكن الآخرين الذين عرفوه من قديم يضحكون من هذه الحيل . ولو أنهم في نفس الوقت يخافونه ويرضونه بالتملق . كان قاسياً وصارماً بصورة مفرطة ولكنه كان غير منحاز في تطبيق العدالة .

تعامل بقسوة مع اللصوص الذين أزعجوا الأبيَّض الآن . وقطع عدداً من الأيدي والأرجل . وكان يعتقد تماماً في رسالة المهدي الإلهية واشتهر بأنه أشجع أفراد عائلة المهدي . فقد تلقى جرحاً من رصاصة في قدير . وفي شيكان كان دائماً في المقدمة حاملاً الراية إلي أن اختفي الدخان . لقد سقط واخترقته رصاصتان وظنوا أنه قتل

. بعد المعركة وجدوه ملقي على الأرض وكلتا رجليه مكسورتان ولكنه شفي فيما بعد . كان يحمل عدداً كبيراً من الأسلحة حتى صار الناس يضحكون عليه . فبالإضافة إلي الحربتين العريضتين (الكِبس) كان يحمل حربتين صغيرتين وكذلك عدداً من السهام داخل كنانة . ويتدلى من كتفه سيف وبندقية رمنجتون صغيرة . بينما حزامه مرصوص من جميع الجهات بالمسدسات والسكاكين . النساء يهربن دائماً من طريقه لأنه يضربهن بالسياط دون رحمة . وأحياناً يقتحم بحصانه جمع النساء ويرميهن حوله يمنة ويسرة . كانت لديه مجموعة من الحريم المختارات وبين نسائه مصرية صغيرة . ولأنصار المهدي أعظم رغبة في الحصول على امرأة بيضاء . وغالباً ما يلجأون إلي أكثر الممارسات عنفاً وقسوة لكي يحصلوا على ما يريدون .

وغالباً ما كان محمود يصلي بنسائه ومحظياته وفي إحدى المرات بدأن في الضحك فما كان منه إلا أن طرد المصرية وضرب الأخريات بالسياط . ومنذ ذلك التاريخ أصبح يكره جميع الأشخاص البيض كراهية شديدة وأبعد من الأبيّض الأسر المصرية القليلة التي كانت ما تزال تعيش في الأبيّض .

وتباهى بأنه لا أبو عنجة ولا النُّجومي عرف كيف يشن الحرب على النوبا ولذلك فإنه مصمم مرة أخرى لمهاجمتهم . ولكنه شرع في ذلك بأسلوب مختلف جداً من أساليب سابقيه . فقد سلح ٤٠٠ تكروري وأمرهم بأن يعسكروا في سفح الجبل . وأن يقولوا للنوبا إنهم على عداوة مع الدراويش وأنهم يطلبون صداقة ومساعدة النوبا .

وفي نفس الوقت أقام محمود معسكره في الرهد وكان في استعداد دائم للهجوم . في البداية مال النوبا للوقوع في الفخ وعقدوا اتفاقية صداقة مع التكارير ولكنهم لجأوا أيضاً إلي خطة أكثر نجاحاً . وعندما بدا التكارير متأكدين تماماً من ضحيتهم ، فجأة هاجم النوبا التكارير خلال ليلة عاصفة وقتلوهم جميعاً تقريباً . وهرب القليلون منهم . واضطر محمود للرجوع إلي الأبيّض مطأطئ الرأس .

في الخامس عشر من أغسطس ١٨٨٤م حدثت مفاجأة عظيمة في الأبيّض . دون توقع . في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر دخل أوربي وثلاثة من العرب على ظهور الجمال

الساحة المكشوفة بمبنى المديرية حيث تجمع على بخيت والزعماء وعدد من الدراويش . نزل الأوروبي وتقدم نحو الجمع بجرأة . كان طويل القامة ويعطي الانطباع بأنه رجل قوي ونشيط . له لحية شقراء ووجهه ملوَّح بالشمس . وقد أحدث مظهره هرجاً ومرجاً وسط الدراويش .

وفي الحال تطايرات كل أنواع الإشاعات الطائشة . فالبعض قال إنه ملك فرنسا . وقال آخرون إنه أحد كبار وزراء فرنسا . كان يلبس جبّة وطاقية وعمامة بيضاء . وفي الحال وجّهوه إلي علي بخيت . وبما أنه لا يستطيع التحدث بالعربية ، فقد استدعوا على الفور الأب بونومي ليعمل كمترجم . لكن كان يجد صعوبة في أن يجعل نفسه مفهوماً .

أبلغ الغريب بونومي بأنه سار من دنقلا إلي الأبيّض في ثلاثة عشر يوماً . وأنه هرب من دنقلا حيث أن الإنجليز حاولوا إحباط مشاريعه وأن اسمه أوليفر بين وأنه يحمل خطابات من الزبير باشا إلي المهدي ولكن لخوفه من الإنجليز فقد اضطر إلي إعدامها . وقال إنه جاء باسم فرنسا ليقدم استسلام أمته بين يدي المهدي ، وأنه مستعد لمساعدة المهدي بكل من المشورة وإذا تطلب الأمر بالأفعال .

بعد هذا البيان تم تفتيش أوليفر بين وعلى الفور أخذت منه نقوده . وعين له كوخ صغير ليعيش فيه تحت عهدة حارس . وتم وضع الإدلاء العرب الثلاثة في مكان آخر . لم يصدق الدراويش بيان أوليفر بين . فلم يصدقوا أنه من الممكن أن يأتي أوربي باختياره إلي السودان ليلتحق بالمهدي . وهم لا يثقون مطلقاً بالأوربيين الذين عرفوا تماماً تفوقهم العقلي . لذلك استنتجوا أن أوليفر جاسوس أرسله الإنجليز لمراقبة الوضع .

وفي اليوم التالي تم استدعاء الأب بونومي مرة أخرى . ووضعت أمامه الأشياء المختلفة التي أتى بها أوليفر معه مثل كتب عن السفر في السودان وقاموس عربي ونسخة من القرآن باللغة الفرنسية وبضعة خرائط وخطابات وجواز سفر . وكان على بونومي أن يوضح هذه الأشياء المختلفة للدراويش الذين لم تكن دهشتهم قليلة عن خرائط السودان وخاصة تلك المتعلقة بكردفان . حقيقة أنهم لم يجدوا في أمتعة أوليفر شيئاً ذا طبيعة مشبوهة . ومع ذلك لم يثق فيه الدراويش وأبقوه تحت حراسة مشددة ولم يسمح لنا بزيارته .

وفي اليوم التالي اشتكى أوليفر من الطعام السيئ الذي قدم له . ولكن الدراويش أعطوه تعليمات صحية . وأخبروه أن أتباع المهدي الحقيقيين كانوا لا يقبلون على أشياء هذه الدنيا . ولا بد أن هذا الاستقبال قد حرر بصورة محزنة عقل أوليفر من الخطأ الذي وقع فيه .

كان لدى الدراويش حب استطلاع قوي لمعرفة أفعال وأهداف هذا الفرنسي الغريب . وظلوا يزعجوننا لمعرفة لماذا جاء ولكن ذلك كان بالنسبة لنا سراً محيّراً . وعندما سألوه أعطى دائماً نفس الجواب « جميع الأمم الأوروبية وخاصة فرنسا وباستثناء إنجلترا يتعاطفون كلياً مع المهدي » وسألوه إن كان السنوسي قد نهض ضد الكفار في مصر . لكنه أجاب بأن السنوسي يخشى الإنجليز . وعندما سألوه ماذا يفعل الإنجليز أجاب بأنهم يبنون حصوناً في أسوان . وعند ذلك علق علي بخيت قائلاً « اللهم دمر حصونهم » . يسألون كما يحلو لهم ولكن وصول أوليفر وأسباب مجيئه ظلت لغزاً بالنسبة لهم . لذلك أرسلوه إلي الأمير محمود في الرهد تحت حراسة مشددة . استقبله الأمير محمود استقبالاً حسناً وأعطاه حصاناً وجارية وأرسله إلي المهدي الذي كان عندئذ في طريقه إلي أم درمان .

في الثامن والعشرين من أغسطس وصل أوليفر إلي عقيلة حيث كان يقيم أحد إخواننا من بعثة الأبيّض الكنسية . وقد استفسر من أوليفر عما سيفعله . في هذه المناسبة يبدو أنه تحدث بصراحة أكثر . فسأل إن كان الأخ يفهم الفرنسية فأجاب أنه لا يستطيع التحدث بالفرنسية ولكنه يفهمها . وعندئذ شرع أوليفر في القول بأنه مراسل لصحيفة وجاء ليرى المهدي وإمبراطوريته التي أزمع أن يكتب عنها تقارير كاملة لصحيفته .

حاول هذا الأخ أن يوضح له المصاعب التي من المؤكد أن يقابلها وأي أرض خطره سوف يمشي عليها ، مضيفاً أنه من غير المحتمل أن يعود إلي بلاده . لكن أوليفر أجاب أنه إذا نجح في مشروعه فإنه سوف يتلقى مكافأة ضخمة . وأنه حتى الآن لم يعامله الدراويش معاملة سيئة . وبالإضافة إلي ذلك أنه ممتلئ طاقة ولن يتخلى عن الأمل في الهرب في المستقبل . كذلك شرح أوليفر للأخ الصعوبات التي من المؤكد أن تواجه

الحملة الإنجليزية وكيف أن الإنجليز سيفقدون الخرطوم حتماً .

أدرك أوليفر بين المهدي في قرية البُساطة . كانت تخمينات الموجودين بالمعسكر مختلفة حول نواياه . فسلاطين وكلوتز والأوروبيون الآخرون على الأخص كانوا محتارين . لقد تخيل أوليفر بين أن الخدمات الجليلة التي سوف يستطيع تقديمها إلي المهدي سوف تجعل المهدي يستقبله بالأحضان . ولكن الرجل المسكين قد خدع بصورة محزنة . فقد قدموه إلي المهدي الذي حيّاه ببرود وسأله عن أسباب مجيئه . فرد أوليفر بقوله « لأعترف بك كمهدي ولأضع بين يديك استسلام الأمة الفرنسية » . فابتسم المهدي ابتسامة ساخرة كأنه يقول إنه لا يصدق كلمة واحدة مما قاله أوليفر . ثم إنه أمر أبو عنجة أن يكون أوليفر تحت مسئوليته وأن يحرسه بعناية وألا يسمح لشخص أن يقابله .

وأثناء الطريق إلي شات ، حاول كلوتز الاقتراب من أوليفر وبدأ التحدث إليه . ولكن بسبب هذا العصيان قبض عليه في الحال وتم تقييده بالسلاسل . ولكن بناء على بيان من سلاطين للخليفة تم على أية حال إخلاء سبيله .

وفي شات بدأ أوليفر يعاني من الدوسنتاريا والحمى وذلك بسبب الإجهاد الشديد والمياه الملوثة . سمح المهدي لسلاطين بزيارته . وقد أزعجت سلاطين حالة أوليفر التعيسة حتى أنه سأل المهدي أن يعطيه بعض المال ليستطيع أن يشتري به بعض الطعام الأفضل الذي كان ضرورياً للغاية له .

لكن مرضه تفاقم . وبصعوبة كبيرة استطاع مواصلة المشي إلي أم صادق . وهنا أصبحت حالته ميئوساً منها . وأوضح أنه لا يستطيع الاستمرار في المشي وطلب بعض الأدوية . والعادة في السودان أن يشرب المريض السمن . وبعد أن أخذ أوليفر قليلاً منه ثم وضع على جمل . ولكن ما أن مشى الجمل بضعة خطوات حتى أصابت أوليفر نوبة إغماء وسقط من الجمل . وأثناء رقاده على الأرض وهو مغمي عليه وعليه شحوب كشحوب الموت اعتقد حراسه أنه لا بد أن يكون قد مات . فحفروا له قبراً على عجل ووضعوه فيه وغطوه بالرمل وأسرعوا في طريقهم . فمن المحتمل جداً أن أوليفر سيء الحظ لم يمت . وقد وضعوا علامة على قبره بغرز عصاه في الرمل وربط حذائه على

العصا . حدثت هذه الواقعة في الخامس عشر من نوفمبر ١٨٨٤م .

في وقت مبكر من سبتمبر وصل لوبتن بك مدير بحر الغزال إلي الأبيّض وقد سمح له بالاحتفاظ بممتلكاته . وكان رؤوفاً للغاية بنا . وحقيقة ليس لديَّ كلمات أعبر بها عن شكرنا له لكرمه الذي لا يتبدل نحونا . لقد حدثنا كثيراً عن حروبه التي خاضها شخصياً وحكى كيف أرسل المهدي بعد تدمير جيش الجنرال هكس تاجري الرقيق الأخوين كرم الله وكركساوي من دنقلا إلي بحر الغزال . وقام كرم الله بدعوة لوبتن بك للاستسلام . ولكن لوبتن ، كما توضح خطاباته إلي أمين باشا ، صمم على القتال . ولكن على أية حال هجره جميع ضباطه المساعدين تقريباً وانضموا إلي المهدي . وأما القلة التي ظلت موالية له فرفضت القتال في النهاية .

حقيقة أنني رأيت الوثيقة الفعلية التي حرراها ووقعاها لذلك الغرض . لوبتن الذي كان في ذلك الوقت مجهداً للغاية بسبب حروبه المستمرة ضد الدينكا . ولذلك لم يكن له بديل من أن يستسلم وهذا ما فعله في الثامن والعشرين من أبريل ١٨٨٤م .

بعد أيام قليلة تم إرسال لوبتن مع حارسه وكاتبه كسجناء إلي الأبيّض عن طريق شاكا . وكان وصوله إضافة وجدت ترحيباً من دائرتنا الصغيرة . وإنه لعزاء عظيم لنا أن نحصل على معشر صديق مخلص وكريم مثل لوبتن في هذه الأوقات العصيبة . ظل معنا لحوالي شهر . وفي ذلك الوقت كانت لدينا معلومات يومية عن تحركات الحملة الإنجليزية . وقد رجونا الآن أن يكون وقت خلاصنا قد اقترب . ومعظم أتباع المهدي أنفسهم قد تعبوا من النظام الجديد الذي لم يعط راحة ولا أمن ممتلكات لأي واحد . ومن خلال هؤلاء الساخطين كنا نحصل على الأخبار التي أعطتنا مادة للجدل والتأمل خلال أيام أسرنا الطويلة المضنية .

كانت حياة العبيد هذه كريهة للغاية بالنسبة إلي لوبتن المسكين الذي أطلق العنان مراراً لانفجارات غضبه . وفي إحدى هذه الانفجارات اعتقله الأمير محمود . وفي الأسبوع الأول من أكتوبر أرسله تحت الحراسة إلي المهدي وعند وصوله إلي أم درمان قيدوه بالسلاسل حيث ظل لمدة عشرة أشهر لمحاولته الهرب إلي الخرطوم . خلال هذه

الفترة من الأسر عاني لويتن من آلام فظيعة لا أستطيع وصفها .

بعد قليل من مغادرة لوبتن لنا ، تسلمنا خطاباً من سلاطين يقول فيه إن غردون يريد أن يقاوم إلي أن يصل الإنجليز وفي نفس الوقت حضنا على محاولة الحصول على إذن للحضور إلي أم درمان ولكن ذلك كان مستحيلاً . صديق آخر أخبرنا بأنه يأمل أن يستطيع قريباً انفاذ إخلاء سبيلنا ، ولكنه كتب في خطابه بطريقة لا يستطيع أحد غيرنا فهم المعنى لأنه خشي أن يقع ما كتبه في أيدي الدراويش .

يمكن فهم أسباب قلقنا بسهولة . فقد شعرنا أنه من المؤكد إذا انتصر الإنجليز فسوف يقومون بقتلنا انتقاماً . لقد تسلم الشريف محمود أوامر مسبقاً من المهدي ليعسكر خارج المدينة وأن يكون مستعداً لأية طوارئ . وهكذا مضت أيامنا في دوامة من الآمال والمخاوف وأن الموت كان أرحم لنا .

لكن الآن وقعت كارثة جديدة . فالرواية المفصّلة لمقتل العقيد استوارت وجماعته وحقيقة أن الحالة في الخرطوم أصبحت يائسة بسرعة جعلتنا في شك كبير بالنسبة لمصير غردون . وزاد سقوط أم درمان من تأييد مخاوفنا . وقد ارتجفنا من التفكير في أن الخرطوم ستسقط قبل وصول الإنجليز . إن مقاومة الخرطوم الطويلة ومعرفة أنه يكاد أن يكون الإنجليز قد وصلوا إلي هناك قد سبب ذعراً شديداً في أوساط أهل الأبيّض . لذلك عندما أمر الشريف محمود بإطلاق مائة طلقة مدفع كتحية لإعلان انتصار عظيم كان رد الفعل هائلاً .

أخبار سقوط الخرطوم وانتصار الإنجليز في أبو طليح وصلت إلي الأبيّض في نفس اليوم . لقد أقام الأمير محمود استعراضاً عظيماً للجيش وهاج الأنصار وماجوا من الفرح . وهكذا اختفى آخر حصن للسلطة المصرية في السودان ورجع الإنجليز وتركوا السودان لمصيره . أما المهدي فقد اتكأ لبعض الوقت على أمجاده وشغل نفسه بإخضاع القلة التي ما زالت تقاوم .

صمم الشريف محمود الآن ليجعل نفسه مشهوراً بالشجاعة وقرر غزو جميع جبال النوبا وإدخال السكان في الإسلام . وكخطوة أولى تقدم مباشرة إلي الدلنج بقوة مؤلفة

من ألفي رجل . لقد تم ترك هؤلاء الناس الطيبين دون مضايقة منذ مغادرة الملك عمر . ورجعوا إلي طرقهم المسالمة وطريقة حياتهم السابقة التي تتألف إلي حد كبير من تربية الخنازير وزراعة التبغ وشرب المريسة .

فالبقّارة الذين سكنوا جبال النوبا وكثيرون منهم أجبروا على إتباع المهدي دون رغبتهم بدأ يصيبهم الملل إلي حد ما من هذه العقيدة الجديدة . والكجور كاكوم كان في نفس وضعه السابق واكتسب شهرة كبيرة حيث أنه تنبأ بصورة صحيحة كيف سيسلك المهدي . وصل الأمير محمود في الوقت المناسب إلي الدلنج وعسكر في سفح الجبال .

عند مغادرة الأمير محمود رأينا أن الوقت قد حان بعد طول انتظار لمحاولة الهرب . وقد وضعنا خطة منذ مدة طويلة للحصول على مساعدة قبيلة الكبابيش لنا . قامت هذه القبيلة من قبل بنقل الكثير من عروض التجارة بين دنقلا والأبيّض . وبرهنوا على أنهم موالون للحكومة . وقد قيل إنه عندما جاء الإنجليز إلي دنقلا ، أحضرت هذه القبيلة آلافاً من الجمال محملة بالذرة من دار حمر . ولكن لما سمع الأمير محمود بذلك أرسل على أثرهم واستولى على ألفين وخمسمائة من إجمالي الجمال . ومنذ ذلك الوقت لم يحضر كباشي إلي الأبيّض . ولذلك اصطدم هذا كثيراً مع خطتنا . وبجانب ذلك ، لم يكن لدينا مال لشراء الجمال أو دفع أجور الأدلاء . لذلك رجعت لفكرتي القديمة التي وضعتها في الرهد ، وهي أن أهرب إلي جبل دوباب وأعيش مع النوبا الشجعان .

كنت أقلب هذه الفكرة في ذهني وأحسب فرص نجاحها ، عندما وصل في الرابع من يونيه ١٨٨٥م صديق قبطي يدعى سيدهم وسلم الأب بونومي مذكرة صغيرة قائلاً في نفس الوقت إن رجلاً قد جاء لأخذه إلي دنقلا وأنه سيقابله في السوق في اليوم التالي . عندئذ انتحينا أنا والأب بونومي إلي مكان حيث لا أحد يمكنه أن يرانا . وهنا في خوف وارتعاش فضضنا الخطاب ثم قرأ بونومي بكثير من الإثارة كما يلي :

« صديقي العزيز إنني مرسل إليك هذا الرجل لكي تهرب معه . ثق فيه . إنه مخلص . المونسينيير سوقارو ينتظرك في القاهرة بالأحضان . مواطنك ألويس سانتوني . »

كنا لبعض اللحظات في غاية الإثارة حتى أننا لم نستطع الكلام . لكن كان أول خاطر

يمر بذهني هو « لماذا أرسلوا إلي بونومي وحده ؟ » وشعوري بأنه قد حيل بيني والفرار قد ملأني بكآبة مطلقة .

لقد كان من حظي المحزن أن أرى رفيقي في المصائب يرحل دوني . ثم إن شعاعاً من الأمل لمع في ذهني : ربما كان الرجل حامل رسالة شفوية مني . إنها اللحظة المناسبة للقرار . كان هنا عدد قليل من الدراويش في الأبيّض . آه من طول ذلك النهار وتلك الليلة ! ولماذا تمر هذه الساعات ببطء !

في الصباح التالي ذهب بونومي وحده إلي مكان اللقاء . رأيت أنني إذا ذهبت معه فربما أثارت شبهة . لكن في نفس الوقت توسلت إليه أن يحث الرجل على أخذي معه أيضاً . قابل بونومي الرجل واحتاج الأمر بضعة لحظات فقط للتوصل إلي ترتيبات . كم تمنيت أن يعود لأعرف النتيجة . وأخيراً جاء وكان مظهره يدل على أنه مسرور جداً . لكنه قال إن الرجل رفض نهائياً أخذي معه . وعلى أية حال وعد أنه إذا نجح في توصيل بونومي بأمان ، فإنه سيعود إليّ في ظرف خمسة عشر يوماً .

لقد حزنت حزناً شديداً بأن فراري يجب أن يتأجل . لكن من ناحية أخرى فقد ابتهجت بأن أحدنا كان محظوظاً ليهرب من هذه العبودية المرعبة . أخبر الرجل الأب بونومي ألا يشغل نفسه بأي شيء . فقط أن يقابله عند جبل كورباتش حيث سوف يجده مع الجمال .

بعد ظهر الخامس من يونيه استعد بونومي للهرب حاملاً معه سكيناً كبيرة . غادرنا أكواخنا وتقدمنا إلي مكان اللقاء . كانت قلوبنا مفعمة لدرجة أننا لم نستطع الحديث . وأخيراً تركته بعد أن ضممته إلي صدري وودعته قائلاً « لا تنسى رفيقك في المصائب الذي تركته خلفك .»

كم من مرة استدرت لأنظر خلفي إلي أن اختفى بونومي عن الرؤية داخل الغابة . كان ذلك عند غروب الشمس وكان المساء لطيفاً جعل حتى ذلك السهل الكئيب يبدو جميلاً . واستمرت أفكار مشوشة تجول في ذهني أثناء رجوعي إلي سكني البائس الموحش .. هل سينجح بونومي وماذا سيحدث لي ؟ لأنني أعلم أن الدراويش لا بد أن يستنتجوا أنني

علمت عن فرار بونومي . كنت منغمساً للغاية في هذه الأفكار حتى أنني ظللت أتوه عن طريقي ولم أصل إلي السكن إلا في وقت متأخر .

كان تأخري قد أثار بعض الشبهات ولكنني وجدت تبريراً جاهزاً . قلت إنني كنت أبحث عن ذرة . لأنه كانت هناك مجاعة في ذلك الوقت ولا شيء يمكن أن يوجد في السوق . لقد تم قبول تبريري ولحسن الحظ لم يفكروا في سؤالي عن بونومي . الآن ألقيت نفسي على فراشي القاسي . ولكن عينيَّ المتعبتين لم تعرفا للنوم سبيلاً . وظللت أدير في عقلي كل ما حدث . ولكن أخيراً صممت على أن أستجمع شجاعتي وأضع ثقتي في الله . ثم استدارت أفكاري إلي اعتبارات عملية . كيف ينبغي أن أوضح غياب بونومي للأمير دون أن أقول أي شيء يمكن أن يورطني ؟

كانت ليلة حارة رطبة محتبسة الهواء ولكن نزلت مطرة خفيفة منعشة وفي أثناء سماع تساقط قطرات المطر ظننت أنني أسمع صوت بونومي في الكوخ . ماذا يكون ذلك ؟ هل رجع ؟ آلاف الأفكار المضطربة ازدحمت في ذهني ولكن لم أجرؤ على إحداث ضوضاء بالرغم من أن ذلك كان كل ما يمكنني أن أفعله للسيطرة على حب استطلاعي .

نهضت مبكراً جداً في الصباح التالي وفتشت حول الكوخ ولكنني لم أجد أحداً . على أية حال من المؤكد أن بونومي قد ذهب ولكن مع ذلك شعرت بالتأكيد أنه لا بد أن عاد أثناء الليل . ولم استطع حل اللغز إلا بعد ست سنوات عندما عدت إلي القاهرة . وعندئذ أخبرني هو بنفسه كيف أنه ضل طريقه بعد أن افترقنا ولم يجد الدليل ولا الجمال . وبعد أن جال دون جدوى عاد إلي الكوخ حيث وجده القبطي الذي أعطاه المذكرة من قبل وقاده إلي العربي الذي هرب معه .

ينبغي أن أوضح هنا لماذا تم تكليف الرسول بإنقاذ الأب بونومي وحده . وهذا ما لم أعرفه إلا بعد هروبي . فالإخبار وصلت القاهرة بأنني في أم درمان وأن بونومي قد ترك وحده في الأبيّض . ولذلك أجريت الترتيبات لإنقاذه هو فقط [1] .

---

١ – وصل الأب بونومي بأمان إلي دنقلا . وقد كافأ البابا ليو الثالث عشر السيد سانتوني الذي كان

في الوقت نفسه فقد أخفيت هرب بونومى . ولم أبلغ أمين بيت المال إلا بعد اليوم الرابع من مغادرته وبعد أن تأكدت من سلامته . وقلت إنه ذهب إلى الخرطوم ليحضر بعض الدواء . واعتقد أن هذا الرجل قد علم تماماً أن بونومى قد هرب ولكنه لم يظهر أدنى ريبة وأمرنا بأن نذهب إلى الخرطوم أيضاً . وقد وضعنا تحت مراقبة صارمة . كذلك كتب إلى الشريف محمود في الدلنج وإلى الخرطوم . وبعد أيام قليلة جاءت الأوامر من الشريف محمود بحبسنا في زريبة بيت المال . وفي ذلك المساء جاء العساكر وسحبونا وممتلكاتنا البسيطة إلى الزريبة . وأثناء الانتظار إلى أن يتم بناء كوخ لنا أسكنونا مع عبيد يعانون من الجدري .



أورفالدر وهو يستدير خلفه لينظر

يعمل مديراً لبريد أسيوط في ذلك الوقت بوسام قريقوري العظيم اعترافاً بالخدمات الإنسانية التي قدمها .

وكان هذا المرض عندئذ منتشراً في الأبيّض . وقد وقعت أعيننا باستمرار على مناظر مروّعة . هؤلاء المرضى التعساء لا أحد يساعدهم ويتركون ليموتوا إما من المرض أو من الجوع . فهم يرقدون في السوق تحت الأشجار والجميع يتجنبهم . وكثيراً عندما يكونون ما زالوا أحياء يربطهم رجال بالحبال حول أجسامهم ويسحبونهم على الأرض إلى ما بعد أطراف المدينة ثم يتركونهم لتأكلهم الضباع .

لقد عمت مجاعة مخيفة وأهلك الجوع عدداً عظيماً من السكان . وكانت تباع العشرة إلى الاثني عشر رطلاً من الذرة بريال . ويكون المرء محظوظاً إذا استطاع أن يشتريها بهذا السعر . وفى السوق كانت المشاجرات متكررة . ومع ذلك فاللحم لم يكن غالياً لهذه الدرجة . وقد عشنا لأيام على اللحم وحده دون أي خبز . واعتاد الفقراء أن يحفروا في الشوارع والبيوت بحثاً عن الصمغ الذي يعلمون أنه قد تم إخفاؤه أثناء الحصار . وهذا الطعام غير الصحي كثيراً ما سبب موتهم .

لقد تسمم الهواء في الزريبة بسبب عدد المصابين بالجدري ولكن من الغريب يبدو أن المرض لم يمس الناس البيض . اتضح أن مسكني الجديد لم يكن من السوء بحيث توقعته . وقد تصادقت مع بعض العساكر الذين كانوا في خدمة الحكومة وتعاطفت معهم فيما يتعلق بحالتهم البائسة . هؤلاء الرجال المساكين حاولوا كثيراً أن يقدموا إليّ أية خدمة بسيطة يستطيعونها .

وفي حوالي هذا الوقت كان السلطان دود بانقا هارباً من زقل ووصل في طريقه ليسلم نفسه إلى المهدي في أم درمان . وكان هناك أيضاً شريف ما وضع نفسه خليفة رابعاً للمهدي " خليفة عثمان " . وعلى أية حال عند وصوله إلى أم درمان أودع السجن مقيداً بالسلاسل وتمت مصادرة زوجاته وخيله وعبيده . لقد زرعت حول كوخي قليلاً من البطيخ فنما بصورة طيبة . وقد اعتدت أن أسلى نفسي بمراقبة حركات الحرباء التي تلعب تحت أوراق النبات . ولكن في أحد الأيام شب حريق دمّر كوخي والبطيخ وحشرات الحرباء وهكذا حرمت من هذه المتعة البسيطة . وعلى أية حال بنيت كوخاً جديداً في بضعة أيام .

مضى الآن شهر تقريباً منذ مغادرة بونومى وقد بدأت الترقب حولي بقلق لعودة العربي الذي سيساعدني على الهرب . فأثناء الليل كنت أحل بحذر سياج الزريبة حتى أستطيع الخروج بسهولة عندما يحين الوقت . لكن مرت الأيام يوماً بعد الآخر وبدأت أفقد الأمل . سمعت مرة إشاعة أن رجلاً قد جاء لمساعدتنا على الهرب ولكنه عندما سمع أنهم حبسونا في الزريبة رحل . من المحتمل أن يكون ذلك حقيقة لأن العرب هيّابون بصورة مفرطة . فجميع الناس يتحاشوننا كأنما نحن مصابون بالطاعون . فإذا تجرأ أي شخص وتحدث معنا فمن المؤكد اعتقاله وحبسه .

وهكذا عشنا حياة بائسة خالية من الأمل منبوذين من الجميع ونعاني كثيراً من المرض المستمر . على أية حال حدثت حادثة واحدة لم تكن متوقعة فظننا أنها ستغيّر الوضع تماماً وتحدث ثورة رأينا فيها فرصة للهرب .

في أوائل يوليو ١٨٨٥م وصلت أنباء وفاة المهدي . في البداية لم يصدقها أحد . ورأى القياديون أن من الأفضل الاحتفاظ بالنبأ سريّاً للغاية ولكن ملامح وجوههم الحزينة كانت تكذبهم . لقد كانت ضربة فظيعة بالنسبة للدراويش . وهم أنفسهم اعتقدوا أن اضطرابات لا محالة ستقع لأن عدد الساخطين لم يكن قليلاً . وعلى أية حال سرعان ما ظهرت الحقيقة . وكان الأثر المباشر على الجماهير الجاهلة إدراك أنها كانت مخدوعة وأن المهدي لم يكن مهدياً على الإطلاق . حتى الآن كانت المهدية معترفاً بها تماماً . وأن اعتقاد الأنصار في مهمة المهدي الإلهية هي التي نتج عنها التعصب الديني وجعل الأنصار في غاية الجرأة والشجاعة . فالاعتقاد بأن الموت في المعركة كشهداء ضمن لهم الجنة لآلاف حورياتها الجميلات وحدائقها الغنّاء وفيها اللبن والعسل والفواكه والأزهار .

وهم يعتقدون في جميع هذا دون أدنى ريب . فما هو العجب إذن أن يلقوا بأنفسهم في قلب المعركة على أمل محقق بأن الموت في سبيل المهدي يضمن لهم المسرات والملذات الأبدية ! الآن جميع هذه الرؤى الرائعة قد انهارت مثل بيت من الرمل . وفي المستقبل لكي تعيش المهدية فلا بد من إلزام الناس بها بالقوة . ومن هذا الوقت فصاعداً فلا

طلب للطاعة الاختيارية . ومن الواضح أن " الدين الجديد "[٢] آخذ في الزوال .

كانت أسرة المهدي وأتباعه على خلاف مع أتباع الخليفة عبد الله . فالأخير بطاقته غير المحدودة قد جعل نفسه سيداً للموقف . ولكن وهج وحرارة الحماس الديني قد ذهبت .

إن ضربة وفاة المهدي قد قتلت الشريف محمود تقريباً . فكثير من زعمائه وأمرائه همسوا بقولهم « أنظر كيف خدعنا المهدي . فلو أنه كان المهدي الحقيقي لما مات في أم درمان واحسرتاه ! كم من آلاف الأرواح تمت التضحية بها لنزوة هذا المهدي الكاذب » كان الشريف محمود في حيرة لمعرفة ما يقوله واكتفي بأن يهمس قائلاً : « حتى لو أن المهدي قد مات فإن دينه لم يمت معه دعونا لذلك نقاتل من أجل الدين » ومع ذلك فإن الطاعة والانضباط لم تختف كلياً لأن هؤلاء الرجال مازالت لديهم مصالحهم الخاصة التي يرعونها . ولكن لسوء الحظ لم يكن هناك أحد يضع نفسه في قيادة الساخطين ويعلن علانية أن المهدي لم يكن مهدياً .

عاد الآن محمود دون تأخير إلي الأبيّض . وأمر بعد وصوله مباشرة أن يعلن المنادون أنه يطلب بعض الإيضاح لهرب الأب بونومى وكان غاضباً لفراره . وأرسل إليّ وسأل أين ذهب . فأجبت ببساطة أنه اختفي في ليلة من الليالي وفي الصباح التالي لم أجد له أثراً في الكوخ . إذا لم يكن محمود منزعجاً للغاية لوفاة المهدي اعتقد أنني كنت سأدفع ثمناً غالياً لهروبه . اعتقد محمود أن الدراويش في دنقلا سوف يقبضون على بونومى ، وفى نفس الوقت بث الجواسيس لمحاولة اكتشاف من ساعده على الهرب . حامت الشبهة حول محمد سليمان الذي كان نقيبنا القديم في الدلنج والذي أصبح الآن كاتب القاضي . وقد هددوه بالجلد بالسياط . وكان من المؤكد أن يتلقى بذلك العقاب لولا أن سيده قد توسل له وأنقذه .

أحضر محمود معه من الدلنج الكجور كاكوم السيئ الحظ . لقد ألقوا بهذا الرجل

---

٢ - يقصد المهدية

المسكين في السجن وهو مقيد بالسلاسل وذلك بمجرد وصوله . وتم إحراق كوخه وكرسيه الذي كان يستخدمه في مراسمه الدينية . وأقسم النوبا أن يقلعوا عن معتقداتهم المتعلقة بالخرافات وقد عمل لهم محمود مسجداً صغيراً من القش حيث أجبروا فيه علي الصلاة . ولكن النوبا أشعلوا فيه النار . وبعد مغادرة محمود أطلقوا أسماء على خنازيرهم كأسماء أمراء المهدي البارزين .

عندما كان كاكوم في طريقه إلى الأبيّض سقط من ظهر الثور أصيب بأذى داخلي جعل حركته تكاد تكون مستحيلة . هذا وقد وضعوه معنا في الزريبة . وبعد قليل من مجيئه ذهبت لرؤيته فوجدته في حالة من الإكتئاب الشديد . وقد سر للغاية لرؤيتي وانحدرت الدموع فوق خديه الأسودين وصعب عليه الكلام من شدة التأثر وفقد السيطرة على نفسه . كانت زوجتاه الاثنتان تجلسان بالقرب منه . إحداهما هي مي كانت امرأة طيبة جداً وكم من ساعات سعيدة قضيتها وأنا ألاعب طفلها البالغ سبع سنوات من العمر . قدم إليّ كاكوم القهوة وتحدثنا عن أيامنا القديمة في البعثة التبشيرية ثم تركته ليستريح . وفي نفس تلك الليلة استدعتني مي فجأة وقالت إن كاكوم مريض بصورة خطيرة أسرعت إلى كوخه ووجدته يكاد أن يكون فاقد الوعي وبعد بضع ساعات توفى . كان رجلاً طيباً للغاية وكان رجلاً معقولاً وكان صديقاً مخلصاً للبعثة الكنسية وللحكومة . توفي في يوليه ١٨٨٥م واعتقد أنه كان آنذاك في حوالي الخامسة والخمسين من العمر . زوجته الثانية تزوجت كجور سوبى الذي تم أيضاً اقتياده إلى الأبيّض من قبل الأمير محمود . لكن مي لم تتزوج مرة أخري بل كرّست حياتها لطفلها الصغير .

كان الولد يفرح لوجوده معي . وقال إنه يريد دائماً أن يبقى مع المسيحيين . لكن بعد شهر سمح لمي وابنها بالعودة إلى الدلنج . أعطيت الولد قميصاً صغيراً ووعدت مي بالمقابل إرسال بعض التبغ إليّ . ووفاء لوعدها وصل رسول بعد ذلك بقليل بتلك السلعة الترفيّة وبالمقابل أرسلت لها بعض الخرز الزجاجي .

أثناء إقامته في الدلنج ، قبض الأمير محمود على شخص يسمي شرّا ، أحد زعماء البقّارة المرتدين عن المهدية وابنيه الاثنين . هذا الرجل كان من قبل عدونا اللدود وقد

أعلن ، أنه سوف يقتل كل أحد منا نحن المسيحيين . لكن عندما جاء هذا الزعيم العظيم وابناه داخل الزريبة حيّوني مثل الحملان . وعندما ذكرته مداعباً بوعيده السابق ، أقر بأنهم كانوا مخدوعين تماماً وأنه ليس لديهم الآن كلمات كافية للثناء على المسيحيين أو اللعنة على المهدي . كان رضاي عظيماً أن أجد مثل هذا التحول التام في العقلية والغرض في واحد كان من ألد الأعداء . وهكذا وزّعت علينا العدالة ببطء .

في نفس الوقت أرسل الخليفة عبد الله أمراً من أم درمان إلى الأمير محمود يبلغه فيه بالقدوم إلى أم درمان فوراً لتأدية البيعة إلى خليفة المهدي . لذلك غادر الأمير محمود الأبيّض في أغسطس ١٨٨٥م مع عدد كبير من أتباعه .

الباب الحادي عشر

ثورة ضد الدراويش

العساكر السود من جيش السودان القديم يثورون ضد الدراويش في الأبيَض . يسيرون إلى جبال النوبا – الأمير محمود يتعقبهم ويقتل . أورفالدر يترك الأبيّض إلي أم درمان . زقل وأبو عنجة في بارا .

العساكر السودانيون القدامى في الجيش المصري ربما كانوا من بين جميع الآخرين الأكثر عدم رضا عن المهدية . هؤلاء السود الشجعان الذين ، كما يقولون في السودان ، « أكلوا من خبز الخديوي » أصبحوا الآن في حالة بائسة مقارنة مع الجلابة الذين كانوا بؤساء بالأمس وهم الآن يمرحون على ظهور الخيل في خيلاء شديد بينما كان الواحد منهم في الماضي من النادر أن يمتلك حماراً باسمه . العديد من هؤلاء العساكر ذهب إلى القاهرة وبعضهم كانوا خدماً لأوربيين ومعظمهم اشترك في الحروب العديدة التي وقعت من قبل في السودان . صحيح أن الشريف محمود عاملهم بطريقة مختلفة وكان يعطيهم الذرة في الوقت الذي كان يرفض إعطاء الجلابة الذين كانوا يتضورون جوعاً . لكن بالرغم من هذا فإن حالتهم السابقة مفضلة بغير حدود عن حياتهم تحت الحكام الدراويش . كان هناك حوالي مائتين من هؤلاء العساكر في الأبيّض . وبعد وقت قصير فيما بعد وصل عدد من الرقيق . وفي وقت قريب جداً تزايدت أعدادهم بإضافة سرية أرسلها زقل .

كثير من هؤلاء الرجال حارب مع مونسنقر باشا ومع سلاطين بك وقد اشتهروا بشجاعتهم . وكان مجمل عددهم الآن ٣٠٠ رجل تحت قيادة مصري مولّد[١] يسمي عبد الله . درج هؤلاء الرجال على الشكوى من أنهم يوضعون دائماً في المعارك في المقدمة . كما ازدادت إثارتهم من الطريقة المتعجرفة التي يعاملهم بها الدناقلة وأميرهم الذي لا يحتمل ود الهاشمي الذي اعتاد أن يناديهم بكلمة عبد . لذلك قرروا الثورة

١ - المولَّد هجين من أب مصري أو تركي وأم سودانية

على هذا الحكم الطغياني . وفي هذا أيدهم قائدهم . واتفقوا على أن ينتظروا عيد الأضحى عندما يكونون جميعاً خارج المدينة في استعراض الجيش والدراويش في الصلاة فينفصلوا فجأة عن بقية الجيش واعتماداً على بنادقهم الجيدة يستطيعون إبادة أعدائهم المكروهين . لكن فكرة أن عدداً من الأبرياء ستتم التضحية بهم جعلتهم ينتظرون فرصة أخرى أكثر مناسبة . لطالما كان هذا الأمر مثار دهشة بالنسبة لي إذ كيف استطاع هؤلاء السود أن يحتفظوا بسرهم الذي علمت به حتى نساؤهم .

سكن بالقرب من كوخي مقدم شاب ذكي . وقد غمرني بكثير من إحسانه فكثيراً ما اعتاد على أن يحضر إليّ بعض اللحم للأكل حيث أن العساكر المسئولين عن الضأن والأغنام التي تؤخذ عادة من العرب يذبحون بعضها لطعامهم ثم يبلغون بأنها قد نفقت . في هذا الوقت عانيت كثيراً من الحمى ولم استطع أن أبقي في كوخي الضيق الصغير . وقد درجت على الاستلقاء صاحياً خارج الكوخ أتقلب في سريري القاسي وكثيراً ما رأيت المقدم في حديث سري مع بعض رجاله ثم ينظرون إلي أسلحتهم ليتأكدوا من أنها بحالة جيدة . وقد جعلني هذا متيقناً بأن هناك خطة تحاك .

كان لي بين العساكر صديق طيب آخر ، حاج سليم الذي كان مستعداً في جميع الأوقات أن يقدم إليّ خدمة صغيرة ومقابل ذلك تعودت على إعطائه بعض القهوة أو بعض التبغ . للحاج سليم قصة غريبة . لقد ولد في برنو وعندما كان صغيراً انضم إلي والده الذي كان ذاهباً مع قافلة إلي مكة . عندما كانوا مسافرين في الصحراء وصلوا إلي منطقة فيها قبيلتان في حالة حرب مع بعضهما فانضم إلي إحداهما ومن هناك أحضروه إلي القسطنطينية حيث أصبح رفيق لعب لابن سيده وبهذه الطريقة تعلم اللغة التركية . وسرعان بعد ذلك ما أرسل سيده إلي مصر كباشا وجاء هو معه إلي مصر . ومن هناك ذهب معه للحج إلي مكة ومن هنا لحق باسمه لقب « الحاج » . وأثناء عودتهم إلي القاهرة توفي سيده وتمت مصادرة ممتلكاته واستوعب سليم في الجيش وأرسل إلي سواكن ثم خدم تحت مونسنقر باشا في مصوَّع . وكان معه في وقت قتله . ومن هناك أرسل إلي دارفور ثم كردفان وأخيراً إلي الدلنج حيث أخذ أسيراً مع محمد سليمان

وهكذا أصبح ملحقاً بقوات المهدي .

هذا الرجل السيئ الحظ بالرغم من أنه صغير نسبياً إلا أنه أصبح مسناً من جراء السفر المستمر . فلا وطن له ولا زوجة ولا طفل . كان يلبس جاكتة قديمة أعطاها له أحد عساكر هكس باشا . وكانت مليئة بثقوب الرصاص ومغطاة ببقع الدم ومتسخة للغاية . وعلى أية حال فإن ذلك لم يكن يهمه كثيراً حيث لم يكن لديه صابون لغسلها . وكان يلبس دائماً قلنسوة جاكتته فوق رأسه مما أضاف المزيد إلي مظهره الغريب . لقد جعل من جاكتته نوعاً من زي الدراويش وذلك بترقيع ثقوبها بقطع من طربوش قديم . ولكنه كان أيضاً رجلاً أميناً للغاية وقد أحببته . كذلك علمت أنني أستطيع الاعتماد عليه لينفذ مهمة سرية . ولذلك عهدت إليه بعد فرار بونومي ببعض المال وبمجلدين باسم المعلم المحبوب (Popular Educator) أهداهما إليَّ لوبتن بك وأنا أراهما ككنز لا يقدر بثمن . فعلت ذلك لأنني أخشى أن يصادر الشريف محمود جميع القليل الذي كان لديَّ . ولكن عندما زال جميع الخوف ، أرجع الرجل الأمين كل شيء كما أودعته لديه . في ذلك الوقت لم يكن لديَّ مكان مناسب في كوخي لإخفاء هذه الأشياء ، لذلك طلبت منه أن يحتفظ بها لبضعة أيام أكثر . لكن واحسرتاه ! أصبحت كتبي وقوداً للنار التي التهمت المعسكر فيما بعد وقد كانت تلك خسارة لا تعوض . حاولت أن أعرف من حاج سليم ما هي الخطة التي يجري تدبيرها . لكن كل أسئلتي كانت بدون طائل إذ لم ينطق بكلمة . ومنذ ذلك الوقت لم أره مرة أخرى إذ خشي أن يجعله إلحاحي يبوح بالسر . لقد عرفت تماماً أنه لا بد أن يكون أحد المتآمرين ولما لم أره مرة أخرى فقد افترضت أنه لا بد قد قتل .

لقد ذكرت الواقعة الصغيرة أعلاه فقط لأبيّن كيف أن العساكر قد احتفظوا بسرهم بغيرة . ومع كلٍّ فإن الناس في الأبيّض كانت لديهم فكرة أن شيئاً سوف يحدث . وفي يوم من الأيام صدر أمر فجأة أن يعد مائة عسكري أنفسهم للتوجه إلي دار حمر . وبهذه الطريقة رأوا أن يقسموا المجموعة ثم تجريدهم من الأسلحة ولكن العساكر خمنوا أن ذلك هو الهدف ولذلك قرروا تنفيذ خطتهم في اليوم التالي .

في تلك الليلة كنت راقداً في الخارج كالعادة . وكانت السماء متلألئة بصورة خاصة وكنت أراقب الآلاف من النيازك التي تترك ذيلاً ساطعاً وراءها . فهي تنفجر فجأة كالصواريخ وتضيء الليل حتى أصبحت الدنيا للحظة مضيئة كالنهار تقريباً . وكل إنسان تعجب من هذه الظاهرة الغريبة وتنبأ بأن ذلك يعني أن ضرراً من نوع ما سوف يقع . ومن الطريف أنه كان هناك ضرر كاف في الجو تلك الليلة .

في اليوم التالي وفي حوالي الظهر فزعت من صوت إطلاق النار وكان الرصاص يطير فجأة فوق رأسي . وفي فزعي اندفعت خارج الكوخ ورأيت إطلاق النار من اتجاه مخزن البارود . ولدهشتي الشديدة ، لم أر عسكرياً واحداً في الزريبة ، وحتى زوجاتهم ذهبن وأخذن معهن أمتعة منازلهن . صحت وصرخت ولكن لم يجبني أحد . مرت بي عدة نساء ولكنهن كن مشغولات للغاية عن إجابتي . وسرعان ما اختفين كذلك . وجميع المكان الذي كان قبل لحظات يعج بالجلبة والضوضاء أصبح صامتاً كالقبور . وعلى البعد أستطيع سماع إطلاق نار مستمر . وأحياناً أرى نساءً وأطفالاً يركضون في اتجاه شمالي .

الآن فكرت أنه حان الوقت لأترك الزريبة . أمسكت بسونكي وحاولت دفع أشواك الزريبة إلي جانب ولكن كانت الأشواك مثبتة بقوة في الأرض ولم استطع تحريكها . ثم ذهبت إلي البوابة وهنا لم يقع نظري على أي شخص . وحتى العبيد الذين كانوا مقيدين بالسلاسل اختفوا . الرصاص يطير الآن في كل الاتجاهات . ذهبت نحو بيت الأمير عبد الله فوجدته واقفاً عند بابه في حالة إثارة شديدة ومعه اثنان من العساكر فقط . وفي إجابة على سؤالي عن جليّة الأمر أجاب بنبرة واثقة " هؤلاء عبيد بيت المال حطموا كل شيء " . وما إن خرجت هذه الكلمات من فمه حتى هجم فجأة خمسون درويشاً شاهرين سيوفهم وبصرخات مخيفة سحبوا الأمير عبد الله ورجاله إلي فناء المديرية . تبعتهم إلي هناك . وجدت حشداً كبيراً من الدراويش متجمعاً . وكادوا في حالة هياجهم الغاضب أن يقطعوا الأمير عبد الله إرباً إرباً لولا أن ود الهاشمي أوقفهم .

الآن اتهم الدراويش عبد الله بأنه حرّض العساكر ، لكنه اعترض على أنه لا يعلم شيئاً

عن الأمر . وكدليل على ما ذكره دافع بأنه لم يغادر منزله . ولكن ذلك كان بلا جدوى . وترددت الصيحات في الهواء : " اقطعوا رأسه ! " وقد أجبر على أن يبرك على الأرض . وبضربة واحدة تدحرج رأسه على الرمال . وكذلك قُطع رأسا العسكريين وألقيت جثثهم قرب المسجد حتى يستطيع كل إنسان أن يراها .

علمت الآن أن العساكر قد استولوا على مخزن البارود الذي يتألف من فناء مربع على أركانه أبراج مراقبة صغيرة . وكان يستخدم كمخزن في أيام الحكومة التركية . فكل الأسلحة والذخيرة كانت تخزن هنا واستخدم عدد من المصريين لعمل قوالب الطلقات وحشو الظروف . وكانت هناك أيضاً كميات من الكبسولات وجميع الآلات اللازمة . اقتحم العساكر هذا المكان وقتلوا الحراس وعملوا فتحات لإطلاق النار واستعدوا للدفاع . وأحرقوا معظم المنازل في المدينة وأجبروا كل من قابلهم للانضمام إليهم . وقد رفض مصريان الانضمام إليهم فقتلا في الحال . واندفع الدراويش في جماعة لمحاولة استعادة المخزن ولكن قتلت أعداد كبيرة منهم . وسقط عدد من الأمراء كذلك في هذا الهجوم ولم يجرؤ أحد على الرجوع لاستعادة الجثث . وأخيراً وبعد أن استجمعوا قواهم من فشلهم الأول ، تجمعوا مرة أخرى وتقدموا للهجوم بنظام أكثر هذه المرة . ولكن العساكر الذين علموا بمقتل أميرهم عبد الله قاتلوا بشجاعة مستميتة ومرة أخرى صدوا الدراويش بخسائر كبيرة .

تجمع الدراويش الآن بجانب بوابة المديرية الكبيرة وتشاوروا حول أفضل ما يمكن عمله . لقد انزعجوا انزعاجاً شديداً فلا غرو لأن أي إنسان كان في مدى أسلحة الطابية صار من المؤكد إصابته . وكان بين هؤلاء الفكي عيسى من قبيلة الشنابلة الذي أصابته طلقة في العنق فوقع ميتاً في الحال . وطبيعياً هربت بأسرع ما استطعت من هذا القرب الخطر وذهبت إلي منزل كاتب أعلم أن جدرانه سوف تحميني .

أصبح إطلاق النار الآن أسرع . ونفخ العساكر في البوق للهجوم على المديرية قاصدين الاستيلاء على المدافع الموجودة خارج البوابة ولكن الدراويش سحبوها وأغلقوا البوابة مما أجبر القوات على التراجع وازداد عدد المتمردين بصورة كبيرة بأعداد من العبيد

الذكور والإناث الذين ما أن سمعوا بالتمرد حتى تركوا أسيادهم .

استمر القتال حتى الليل . وأخيراً وتحت جنح الظلام رجعت إلي الزريبة لأرى ما حصل برفاقي في الشدائد . وجدتها خالية ومهجورة وحتى الماشية هربت بطريقة ما . هناك عبدان بائسان فقط يعانيان من مرض الفرنديد (الدودة الغينية) لا يستطيعان الحركة بقيا في الزريبة . كنت محموماً وقلقاً لذلك رجعت مرة أخرى للمديرية لأرى ما يجري هناك . وجدت حشداً من الدراويش حانقين على فكرة هزيمتهم من قبل " العساكر العبيد " كما يسمونهم وأن كثيراً من أمرائهم قد قتل وأن الزعيم ود الهاشمي قد جرح جرحاً مميتاً وقد مات في اليوم التالي . وعندما شاهدني الدراويش (حتى الآن كنت أمر دون أن يلاحظوني) أمروني بالرجوع إلي الزريبة وهددوا بقتلي إذا تركتها مرة أخرى . وأظنهم فعلوا ذلك لأنهم اعتقدوا أنني ربما انضم إلي المتمردين . لقد ساد الاعتقاد بأن العساكر سوف يهاجمون ويستولون على المدينة في اليوم التالي . كم تمنيت أن يكون لديهم قائد جيد !

الآن أنا ورفاقي وجدنا أنفسنا في بيت المال مرة أخرى تحت حراسة أربعة عساكر . وأنا مرهق من الإثارة رميت بنفسي على عنقريبي[٢] . نجاح المتمردين أحيا في نفسي مرة أخرى آمال الخلاص . وبهذه الفكرة السارة استسلمت لنوم عميق .

أيقظني فجأة أحد الحراس حين لكزني بعقب بندقيته قائلاً « بينما كل واحد خائف على حياته ، فكيف تستطيع أن تنام ؟ » لذلك قمت على مضض وبدأت أتسامر مع الحارس حيث خشيت أن أي إظهار للرضا لما حدث ربما استنزل عليَّ الانتقام من ناحيتهم . تحدثنا عن أحداث اليوم وسرعان ما أدركت أن الدراويش قد انزعجوا بدرجة كبيرة .

لم يكن مخزن البارود بعيداً من بيت المال ولذلك كنا نستطيع سماع الكثير مما كان يجري هناك . وإن المرء ليتخيّل أنهم كانوا مشغولين في احتفالات زواج وليس في حرب

---

٢ - عنقريب = سرير محلي

دموية . فطوال الليل ظلوا يغنون والنساء يرقصن والرجال يشربون المريسة . وبين الحين والآخر تنفخ الأبواق العسكرية . وقد بدا أن ذلك يزيد من بهجة النساء وكان الجميع يضحكون من أفعال المهدي ويكيلون له السباب ولدينه . ويزيدون من غضب الدراويش بالصياح لهم للمجيء والاشتراك معهم في الشراب .

لكن بينما كان هؤلاء السود الطيبون يمتعون أنفسهم في المخزن قام الدراويش بتحصين بيت المال ووضعوا مجموعات من القوات براياتهم في أجزاء مختلفة . ويطلق السود صليات من النيران عليهم من وقت إلي آخر مما جعلهم يتفرقون ويتركون راياتهم خلفهم . وكل إنسان كان في حالة ترقب قلق للغاية مما سيأتي به الغد . وقد رأوا أنه سيحدث قتال في الغد على التأكيد بين الدراويش والعساكر . وهو ما سيحدد الأمور نهائياً . وفي تلك الليلة كان النوم قليلاً بالنسبة للجميع .

وفي وقت مبكر من صبيحة اليوم التالي عزف العساكر « سلام الخديوي » فدب فينا النشاط . وبحلول وقت شروق الشمس كان إطلاق النار قد استؤنف واستمر حتى الساعة التاسعة . وقام العساكر ببضعة غارات على الجمال والحمير ولكنهم لم يحاولوا الهجوم على الدراويش . ولم يكن من الواضح ما ينوون فعله . ولما تيقن أمير الدراويش أن الروح المعنوية للعساكر قد انهارت أرسل إليهم إمامهم ليخبرهم أنهم إذا رغبوا في الاستسلام فسوف يتم العفو عنهم . وقد أثار ذلك غضب العساكر بدرجة كبيرة وزجروا الإمام بألا يتكلم كلاماً فارغاً . ثم سحبوه عنوة إلي حوالي خمسين خطوة من الطابية وطعنوه عدة مرات بحرابه ثم ألقوا بجثته في اتجاه المديرية بينما كانوا يصيحون « هذا الرأس مقابل رأس أميرنا عبد الله » واستمروا أثناء اليوم في القيام بهجمات متقطعة من داخل الطابية واستولوا على كميات من البهائم .

بعد الظهر غادر العساكر مخزن البارود وكانت الفرقة تعزف الموسيقى والنساء والأطفال يمشون في المقدمة وتليهم الذخيرة محاطة برجال مسلحين وأخيراً العساكر وهم يمشون في نظام جيد وفي وضع الاستعداد لمقاومة أي هجوم مفاجئ .

صمم الدراويش على أية حال على الهجوم . وبعد أن رتبوا راياتهم زحفوا على مخزن

البارود فوجدوه خالياً تماماً . أما العساكر فقد ألقوا كل البارود الذي لم يستطيعوا حمله في الآبار . كانت هناك خمسة قبور جديدة فقط في مخزن البارود مما يبين أن العساكر فقدوا خمسة رجال فقط بينما فقد الدراويش حوالي خمسمائة من رجالهم .

في الوقت نفسه كان السود يمشون بانشراح نحو ملبيس ولكن الدراويش أصبحوا أكثر غضباً بعد اكتشافاتهم في مخزن البارود وبدأوا في تعقب سريع للعساكر وعندما أصبحوا على بعد مسافة قصيرة من عدوهم تلقتهم صليّات من الرصاص موجهة توجيهاً جيداً فقتلت خمسين من الدراويش . وأما البقية ففروا في غير نظام إلى الأبيّض . كان مجموع عدد السود بما فيهم العبيد الذين انضموا إليهم لم يزد على ألف رجل ، بينما الدراويش أكثر من ثلاثة أضعاف ذلك العدد . فلو كان لدى العساكر قائد كفؤ فقط لكانوا بدون شك قد استولوا بسهولة على الأبيّض .استمروا في سيرهم دون أن يعترضهم شيء ، حتى جبال النوبا . ووصلوا قبل كل شيء إلى الدلنج حيث استقروا هناك واختاروا بشير وهو عسكري قديم من عساكر سلاطين بك ليكون مديرهم . هذا وقد رفضوا المهدية كلياً وأعلنوا حكومة الخديوى . وكل من يقسم باسم المهدي يتلقى ثمانين جلدة كعقاب وصيغة القسم النظامية هي « وحق راس أفندينا » . وقد فرض انضباط صارم . فكل من يجدونه يبيع أسلحة أو ذخيرة للنوبا يعاقب بالإعدام وينفذ الحكم بالرصاص .

بعد فترة قصيرة تركوا الدلنج وساروا إلى جبل نعيمه الذي يعرف سكانه بأنهم أشجع النوبا . ولكن هنا يبدو أنهم ما زالوا يرون أنفسهم قريبين جداً من عدوهم المكروه ولذلك تحركوا إلى غلفان حيث اتخذوا لهم موقعاً في جبل حصين . واعترف بهم جيرانهم كحكام للمنطقة وزودوهم بكميات من الماشية و السمسم .

وفي الوقت نفسه تم إبلاغ الأمير محمود في أم درمان بكل ما حدث . انفعل محمود انفعالاً عنيفاً واتهم جميع أمرائه بالجبن وأسرع إلى الأبيّض . ولم يدخل حتى بيته في الأبيّض بل عسكر خارج المدينة . هذا وقد أمره الخليفة عبد الله أن يترك المتمردين وحدهم وأن يتوجه إلى دنقلا عن طريق آبار الصافية . ولكن محمود تجاهل تماماً أوامره . كان متعطشاً للانتقام من هؤلاء المتمردين وصمم على إخضاعهم . وبالإضافة

إلى ذلك فقد تولدت لديه فكرة أيضاً وهي اغتصاب سلطة الخليفة عبد الله لذلك كان هدفه زيادة سلطته باستعادة تعاون العساكر . وكان متباهياً وواثقاً من نفسه حتى أنه اعتقد أنهم لن يحاولوا القتال ضده .

هنا تحت شجرة التبلدي الضخمة حيث كان يقيم المهدي لمدة طويلة نصب معسكره وعمل استعداداته للزحف على النوبا ودعا المتطوعين قائلاً إنه لا يريد أن يجبر أحداً للذهاب إلي الحرب . وفي نفس الوقت حاول تشجيع الناس بإخبارهم أن المهدي قد ظهر له في المنام وأخبره بالزحف لمهاجمة المتمردين واعداً له بالنصر المؤكد . وبالرغم من نداءاته تطوع قليلون . ولما صار متضجراً كدراً ، هدد الآن بقتل كل من يرفض الانضمام إليه . وهكذا أدرك محمود أن روح المهدية تكاد أن تكون قد ماتت وأن القوة ستلزم في المستقبل لتنفيذ أوامرها .

زحف على عجل بقوة قوامها ٢٥٠٠ رجل معظمهم مسلح ببنادق الرمنجتون وفي طريقه انضم إليه عدد من العرب مما رفع قوته إلي حوالي ٨٠٠٠ رجل . وعند وصوله إلي نعيمه ، وجد أن المتمردين قد تحركوا ولذلك زحف على غلفان وأرسل إليهم خطاباً مفاده أنه إذا استسلموا فإنه سوف يعطيهم عفواً غير مقيد بشروط . ولكن للعساكر تجربة سابقة مع وعود المهدية ولذلك استقبلوا الرسل بصليّات من الرصاص مما جعلهم يرجعون بسرعة . ومحمود مصمم كذلك على محاصرة أتباعه السابقين فوضع نفسه على رأس قواته وزحف نحو الجبل . ولكن العساكر وهم مختفون خلف الصخور أرسلوا صليّة بعد صليّة في صفوف الدراويش . وتلقّي محمود طلقة في جنبه ولكنها لم تثبط من عزمه واستمر في التقدم حاملاً رايته إلى أن أصابته طلقة أخرى في جبهته فصرعته .

سقط أكثر من مائة درويش والبقية عندما سمعت بأن محمود قد قتل ولوا الأدبار بدون نظام إلى الأبيّض . لكن العساكر لم يتعقبوا الدراويش وأخذوا جثمان محمود وأقاموا له جنازة مشرّفة تناسب رجلاً شجاعاً مثله . وبموته فقدت المهدية أجرأ أتباعها وبالتأكيد أشجع عائلة المهدي . وبالرغم من أنه أطلق العنان لنفسه مؤخراً لحياة الملذات والفسق

مثلما فعل جميع الآخرين ومع ذلك لم يتخوف من تعريض نفسه لكل أنواع الخطر .

وقتل محمود في شهر نوفمبر ١٨٨٥م والخليفة عبد الله قطعاً لم يكن غير راض عن التخلص من منافس يخشى ويحسد كثيراً شجاعته وشعبيته .

وفي مكان الشريف محمود أرسل الخليفة عبد الله أخاه بخيت إلى كردفان ولكنه كان صنفاً مختلفاً جداً من الرجال . وكانوا يلقبونه باسم « الثور» سرعان بعد ذلك أن تلقى بخيت أوامر لترك جميع رجاله في الأبيّض والرجوع إلى أم درمان . وقد خلفه الأمير ود الهاشمي ثم عثمان ود آدم أو عثمان جانو إذ كان « جانو » هو لقبه وهو ابن أخت المهدي .

أجريت الآن الترتيبات لنقل كل جماعة الأمير محمود إلى أم درمان ولأجل نقل آلاف الناس تم الاستيلاء على الجمال بالقوة . وأطلق سراحنا نحن أيضاً وسمح لنا بالذهاب إلي أم درمان . لقد قضيت سنوات بؤس كثيرة للغاية في كردفان مما يجعلني أفرح بهذا التغيير . كان لديّ لبعض الوقت أمل ضعيف في أن الأب بونومى قد يرسل شخصاً ما لمساعدتي على الهرب ولكن الآن يبدو أنه من غير المجدي الأمل في ذلك بينما بمجرد أن أكون في أم درمان فربما أحاول بنفسي الهرب . لقد تأخرت مغادرتنا لمدة شهر .

أصبحت الأبيّض تدريجياً قرية قذرة يسكنها العرب . وباستثناء اللحم والدخن فلا يوجد شيء بالمرة يمكن شراؤه في السوق . لقد عانيت كثيراً من الدوسنتاريا ولا توجد أدوية يمكن شراؤها لذلك كان عليّ الاعتماد علي القوى الشفائية للطبيعة ومساعدة ذلك بقليل من الأرز الذي يزرع في المستنقعات حول بركة . لم يكن هناك إنسان متمدين واحد أستطيع أن أعاشره .

أما النوبا الذين يسكنون جبل الداير فقد قاموا بأقصى ما يستطيعون لإزعاج الأبيّض . فقد كانوا يحومون باستمرار في أطراف المدينة مستعدين للانقضاض على أية ماشية أو عبيد يرونهم . ومن الجنون أن يذهب المرء مسافة ساعة خارج المدينة دون حراسة . وقد حاول الدراويش مراراً تنظيف أطراف المدينة من قطاع الطرق هؤلاء ولكني لاحظت أن الدراويش يعودون دائماً وقد نقص عددهم كثيراً . وكنت أفرح في سري من

عدم استطاعتهم مواجهة هؤلاء النوبا الشجعان . وبوضع كل شيء في الاعتبار ، لم أكن آسفاً على وداع هذه المدينة الكئيبة الموحشة .

أعطونا أربعة جمال وأصحابها يعملون معنا كسائقين وتم الاتفاق علي أن ندفع لهم عند وصولنا أم درمان بمعدل ٧ ريالات عن الجمل الواحد . وفي ٢٥ مارس ١٨٨٦م غادرنا الأبيّض . ويا له من فيض من الذكريات ماج في ذهني ونحن نمشي لآخر مرة خلال أطلال المدينة الموحشة ! ما أغرب صروف الدهر بهذا المكان الذي كان مزدهراً خلال السنوات القليلة الماضية ! فمن مدينة كانت مزدهرة وآمنة تحولت إلى مسرح للحرب المستمرة وإراقة الدماء . كانت آنذاك مشهداً لأعمال فسق المهدي عندما ارتاح بعد انتصاراته والآن انحطت إلى قرية بائسة يسكنها العرب.

مررنا في طريقنا بموقع منزل بعثة الأبيّض الكنسية الذي لم يبق منه أثر . في مكانه كان هناك السوق وكومة من عظام بيض تبين موضع دكان طباخ . توقفنا في ذلك المساء عند قرية كورباتش . وفي اليوم التالي بدأنا السير في وقت مبكر جداً . وبعد مسيرة يومين وصلنا إلي بارا . تقع هذه المدينة الجميلة الصغيرة في منخفض مكسو بالغابات في سهل كردفان الكبير . ومن بعيد استطعنا أن نري من خلال أشجار السنط العالية أطلالاً بيضاء . كان المكان من قبل مزروعاً بأشجار النخيل ولكن أثناء الحصار قطع الأهالي النخيل وعاشوا على لبه المطحون .

كانت بارا في أيام الحكومة كمصحة للأبيض حيث اعتاد السكان الأغنياء قضاء الصيف فيها . فقد كانت لهم حدائق مليئة بأشجار النخيل والليمون والموز والعنب بينما كانت خضراواتها تباع في الأبيّض . فالتربة خصبة جداً كما توجد كميات كبيرة من المياه وعلى عمق ٦ أقدام فقط . ولكن الآن فإن المكان قد تم تدميره تماماً واهماله . ونمت في وسط الأطلال الشجيرات البرية والشائكة .

وعندما اقتربنا من بارا سمعنا قصف المدفعية وأبلغونا أنها تحية تعلن وصول زقل حاكم دارفور مع قواته . كان ذلك في الثاني من أبريل . توقفنا تحت شجرة سنط كبيرة وأنزلنا عناقريبنا (أسرّتنا) وفرشنا عليها الحصائر . إن وصول جماعتين كبيرتين

إحداهما من الأبيّض والأخرى من دارفور سرعان ما غيّر هذه المقبرة الموحشة إلي معسكر صاخب .

أحضر زقل معه ٢٥٠٠ من المشاة و٤٠٠٠ من العساكر السود والمغنين و١٥٠٠ من الخيل ومعه أكثر من ١٠٠٠٠ ريال في بيت ماله ، بجانب ما يمتلكه كل واحد من رجاله وهي كميات لا يستهان بها لأن كل واحد قد أغني نفسه في دارفور . وكل هذه الثروة مصيرها أن تصبح في يد الخليفة عبد الله . لقد نظم زقل فرقاً موسيقية في جيشه ونفس النغمات التي كانت تعزف في أيام الحكومة يتردد صداها الآن في سهول بارا المهجورة . كان معسكر زقل مكاناً للبهجة والطرب . فالمريسة تباع وتشرب علناً . وكل فكرة عن الوجود في نطاق سلطة المهدي يبدو أنها قد نسيت . كان زقل رجلاً متساهلاً ومبدؤه « عش واترك غيرك يعيش » وكان يستمتع تماماً بكل الأشياء الطيبة في هذه الحياة التي وضعتها ثورة المهدي في متناول يده . كان رجلاً بديناً قوي البنية في حوالي الستين من العمر بلحية بيضاء أعطته مظهراً أبوياً وقوراً . وقد عرف بأنه أب لكثير من الأطفال . وكان سليم الطويّة وذا مزاج كريم متسامح .

أقيم معسكر زقل علي أطلال بارا وفرش السجاد الغالي فوق الرمال وهناك جلس هو مستعداً لمقابلة أي شخص وكل شخص وفي أي وقت من اليوم . وهناك كميات وافرة من الطعام جاهزة دائماً لجميع ضيوفه الشيء الوحيد الذي يلام عليه زقل هو إعدامه بالرصاص لخمسة وعشرين من السناجك (الشايقية) والأتراك الذين استسلموا مع سلاطين عند سقوط دارفور . هؤلاء السناجك أقسموا أن يثوروا ضد المهدية ولكن حدثت خيانة ضدهم . بهذا الاستثناء فقد أقام حكمه بكثير من الاعتدال . وقد فعل كل ما يستطيعه لترقية التجارة . وعندما كنت في بارا رأيت بعض قماش البفتة الفرنسي الذي جاء من تونس عبر مملكة وداي إلى دارفور . جنود البازنقر التابعون لزقل تركوا انطباعاً عظيماً في نفسي . كانوا مجموعة متوحشة تثير الشغب والاضطراب ولديهم قوة عظيمة علي السير واحتمال المشقات والصبر على قلة الزاد لفترات طويلة مستمرة.

كثيراً ما اعتاد لويتن بك أن يحدثني عن ميل هؤلاء المحاربين السود لأكل لحوم

البشر . وفي أحيان كثيرة كان لبسهم الوحيد يتألف من الحزام الجلدي الذي يوضع فيه الرصاص وجراب جلدي كبير كثيراً ما تبرز منه رجل آدمية وغالباً ما يوجد في كل جراب لحم أو عظام آدمية . وعندما كنت أذهب إلى السوق تتجمع حشود من هؤلاء المحاربين ذوي البشرة الداكنة ليحدقوا في بشرتي البيضاء التي غيّرتها الشمس في الحقيقة إلى لون بني منذ زمن طويل .

سرعان ما انتهت مدة الأيام التسعة التي توقفها زقل في بارا . فقد وصلت الأنباء بأن هناك اضطرابات قد حدثت في أم درمان بين الخليفة عبد الله والخليفة شريف . وقد كتب الأخير مراراً إلى زقل ليحضر إلى الخرطوم على الفور حيث أنه مهتم للغاية بحضوره إلى هنا . وقد وردت الأنباء في نفس الوقت بوصول أبو عنجة إلى الأبيّض عن طريق بركة . وطارت الإشاعات بأن الخليفة عبد الله قد أرسل أبو عنجة لاعتقال زقل لأنه قد قيل بأن زقل والخليفة شريف قد اتفقا علي الاتحاد ونزع السلطة من الخليفة عبد الله . وكان زقل قوياً جداً بدرجة تمكنه من الإطاحة بالخليفة عبد الله ولكن لسوء الحظ لم يكن زقل رجلاً عسكرياً . وقد كسب الخليفة عبد الله سراً عدداً من أمرائه إلي جانبه .

زحف أبو عنجة بسرعة من الأبيّض وعندما وصل بارا دعا زقل إلي الاستسلام . والأخير قد استعد على أية حال للقتال ولكن معظم جنوده من البازنقر والأمراء تحولوا إلى جانب أبو عنجة . وهكذا سرعان ما تركوه مع قلة من أتباعه وبسهولة سقط في يدي أبو عنجة . وعلي الفور تم تقييده بالسلاسل وسلموه إلى سيد بك جمعه الذي كان قائداً للمدفعية في ذلك الوقت . هذا وتمت مصادرة جميع ممتلكاته . فعل ذلك أبو عنجة انتقاماً لأن زقل قد فعل تماماً نفس الشيء لسيد بك جمعه عندما استولى على دارفور . الآن تم سحب زقل بالسلاسل إلى الأبيّض حيث ترك هناك لمدة سنة ليتأمل في وضعه الذي تغيّر . وأمين بيت ماله ، إبراهيم رمضان ، تم القبض عليه أيضاً وهو في طريقه إلي أم درمان وأعادوه إلي الأبيّض وهو مقيد بالسلاسل وجلدوه دون رحمة لإجباره على الكشف عن مخابئ المال ولكن لا شيء يحمله علي ذلك . وفيما بعد أخذوه إلي أم

درمان حيث استقبله الخليفة عبد الله استقبالاً حسناً ومنحه وضعاً في بيت المال . كان اعتقال زقل إشارة للمعاملة السيئة لجميع أتباع الخليفة شريف فقد جردوهم من جميع وظائفهم واستبدلوا بهم مرشحي الخليفة عبد الله . لقد اعتمدت كثيراً على رؤية تغيير للأفضل إذا كانت محاولة الخليفة شريف وزقل قد نجحت في قلب الخليفة عبد الله . لكنها فشلت . وتحركنا مرة أخري نحو أم درمان . وزاد اكتئابي من الشعور بأن الخليفة عبد الله يزداد قوة أكثر فأكثر . وفي الوقت الذي وصلت فيه قرب أم درمان نفق جملي . وبكى العربي صاحبه بكاء مراً لفقده . ولم استطع أن أفعل شيئاً من ناحية تعويضه . وفي مساء الرابع والعشرين من أبريل ١٨٨٦م عسكرنا بالقرب من المدينة . وكانت هناك عاصفة رملية مخيفة تهب وقد غطتنا سحائب من الغبار وهو قدوم مناسب إلى عاصمة إمبراطورية المهدي !

الباب الثاني عشر

انطباعات أورفالدر عن أم درمان

وصول أورفالدر إلي أم درمان – انطباعاته الأولى عن عاصمة الدراويش – نوايا الخليفة عبد الله لغزو مصر – ود سليمان أمين بيت المال – ود عدلان يخلفه – ملابس وميداليات غردون وخلافها – ود عدلان يعيد تنظيم بيت المال – سوق العبيد ، المتحف ، دار سك العملة ونظام النقود – العملة المزيفة – المطبعة الحجرية – نظام العدالة في عهد الخليفة .

في الصباح التالي وهو السادس والعشرون من أبريل ١٨٨٦م نهضنا وأجسامنا مغطاة بالغبار من الرأس إلي القدم وبحلول الوقت الذي استأنفنا فيه سيرنا مرة أخرى ، كانت الشمس قد ارتفعت إلي كبد السماء وكانت ساخنة بصورة غير عادية . فهذا أسوأ موسم من السنة . وأول مكان وصلناه كان المعسكر القديم للمهدي وهو محدد بخط من الجدران الطينية . فمن هذا الموضع تم حصار طابية أم درمان . ووجود عدد لا يحصى من عظام البشر والحيوان كان علامة على موقع هذا الصراع الذي دام طويلاً . على يميننا يقع النيل الأبيض وهو ينساب بين شطآنه الخضراء . وفيما وراءه يمكن رؤية النيل الأزرق بصعوبة كما يمكن رؤية أطلال الخرطوم خلف حزام كثيف من أشجار النخيل .

بخروجنا من صحاري كردفان القاحلة ، فإن النيل بشطآنه الخضراء كان منظراً مريحاً للنظر . ومن ناحية أخرى ، فإن منظر الخرطوم وهي أطلال قد أيقظ أكثر الذكريات حزناً . فمن الحشود الضخمة التي حاصرت غردون من كل جانب ، بعضهم تفرق في كل اتجاه بينما استقر الآخرون حول سيدهم الجديد في أم درمان . التل الصغير على الضفة الغربية في مواجهة مقرن النيلين تماماً كان يسمى أم درمان ومن هنا جاء اسم عاصمة المهدية . كانت قبل الثورة مجرد بضعة أكواخ . ولكنها اعتبرت دائماً مكاناً مهماً حيث أن التلال الموجودة في المكان وفرت الجير والحجر بكميات لأعمال البناء في الخرطوم . في تلك الأيام كانت حفر الجير في أم درمان وكان المكان الذي تقع فيه الآن عاصمة المهدية غابة شوكية كثيفة وهي مقر لصوص البطاحين .

يا له من تغيير حدث الآن ! فمن الطابية القديمة في الطرف الجنوبي حتى خور شمبات وحتى أبعد من ذلك ، امتدت العاصمة الجديدة . تجمعات لا تحصى من أكواخ القش محاطة بزرائب صغيرة . وهنا وهناك أكواخ من الطين وبعضها أكبر من الأخرى دلالة على أنها مساكن للخلفاء وكبار الأمراء وينظر إليها كقصور .

كان المسجد من قبل يتألف من مجرد حظيرة مربعة محاطة بسياج . لكن هذا قد استبدل الآن بجدار من الطوب المجفف بالشمس . وعلى البعد تستطيع رؤية المسجد المبني بألواح الزنك حيث اعتاد المهدي أن يصلي . كان معسكر المهدي الأصلي يقع على بعد بعض الكيلومترات إلي الشمال من الطابية حيث ينفرج السهل .

عند وصولنا سألنا في الحال عن السوق وبحثنا عن أخبار الأوروبيين الآخرين . السوق نوع من المتاهة وقد رتب بدون فكرة عن النظام . والتجار لا يتركون بضائعهم هناك في الليل بل يأخذونها معهم إلي منازلهم . هنا إغريقي عمل مخبزاً ومارس تجارة جيدة طالما كان لدى الناس نقود ليشتروا . وكانت هناك حشود غفيرة من الناس بحيث أصبح يكاد من المستحيل شق الطريق بينهم وكانت هناك إمدادات للبيع وبدت التجارة في غاية الحيوية . والتجار المصريون يجلبون بضائعهم حتى بلدة الدامر ومن هناك يحضرها التجار العرب إلي أم درمان . والضريبة الوحيدة التي يفرضها نظام الخليفة هي اثنان ونصف في المائة وتسمى الزكاة . والناس يبدون عموماً قانعين وسعداء . وكانت هناك كميات من المال في بيت المال . وفي ذلك الوقت لم تكن هناك مناسبة لظلم واضطهاد السكان .

كانت هناك أعداد من الإغريق واليهود والسوريون وجميعهم ناجحون في أعمالهم . وقد رأيت أيضاً كلوتز . وسلاطين حدث أن كان غائباً في ذلك الوقت . وكان يقود بعض القوات تحت الأمير يونس في ود العباس .

كانت لدى الخليفة عبد الله أفكار كثيرة عن الغزو وقد تملكه الغرور . وكثيراً ما اعتاد أن يعلن على الملأ أن نهاية حكم الأتراك لمصر قد اقتربت . وكان مهتماً للغاية بالاستيلاء على تلك البلاد واعتقد أن الوقت الآن قد حان . وقد كتب إليه عدد من

الشيوخ والعلماء في القاهرة وفي أجزاء أخرى من مصر يدعونه للاستيلاء على البلاد، حيث أكدوا له أنه سوف يستقبل بترحاب عظيم .

لقد أرسلت دعوات المهدي وإعلاناته إلي جميع الجهات . وجاء الحجاج من سمرقند وبخاري والهند ومكة ليتحققوا من المهدية بأعينهم . وجميع هذا عزز من رغبة الخليفة في غزو مصر . وقد أرسل ود النُّجومي ورجاله إلي دنقلا بينما أمر يونس لجمع كل الرجال الذين يستطيع جمعهم من الجزيرة . كذلك أرسل أتباع الشريف محمود إلي دنقلا . وهكذا تخلص الخليفة من أتباع هؤلاء الأمراء الذين علم أنهم معادون له . وبمجرد اعتقال زقل لم يبق له الآن الكثير ليخشاه . وحتى هذا الوقت عامل الخليفتين الآخرين والأشراف والدناقلة بغاية الاحترام . ولكن الآن بدأ يسلك سلوكاً مغايراً . وأصبح لا يحتمل أن يشاركه أي واحد ممن هم في مرتبة مساوية له . ولذلك فعل كل ما في وسعه لإضعاف المجموعة المعارضة وزيادة نفوذ جماعته . فالضربة الأولى التي وجهها وقعت على أحمد ود سليمان أمين بيت المال . ففي اليوم الذي وصلنا فيه إلي أم درمان كان قد وضعوه في القيود ووضع منزله وبيت المال تحت الحراسة . كان أحمد ود سليمان واحداً من أشد أتباع المهدي تعصباً . وقد اعتاد كلما مر بقبة المهدي أن يبسط يديه ويبكي كالأطفال وحقيقة كان له كل سبب ليفعل ذلك . فالمهدي رفعه من وضع متدن إلي وظيفة ذات صيت كبير وأن التفكير في فقد هذه الوظيفة قد شق عليه كثيراً .

إن عجلة حظ أحمد ود سليمان قد استدارت في وقت طيب حين كانت كمية المال في بيت المال وفيرة . فجميع الكميات الضخمة من الغنائم التي أخذت في الأبيّض وشيكان والخرطوم وسنار وبربر قد مرت من خلال يديه . وأي درويش كان في حاجة لأي شيء كان يأتي إليه . وبهذه الطريقة اكتسب نفوذاً عظيماً . ومنذ وفاة المهدي أصبحت هناك عداوة شديدة بين ود سليمان والخليفة عبد الله . وتحت ذريعة فحص الحسابات اعتقله الخليفة وقصد من ذلك إبعاده بينما عيّن في مكانه محمد عثمان (ابن زقل) .

وجدوا في منزل ود سليمان حوالي ٥٠٠٠ جرام من الذهب غير المختوم وفي أكثر من احتمال أن هذا لم يكن إلا جزءاً بسيطاً مما يكون قد استولى عليه لمصلحته . ولذلك

قيدوه بالسلاسل وظل في السجن لسنة أو أكثر . وبعد شهر من اعتقاله تم تعيين إبراهيم ود عدلان من ود مدني على النيل الأزرق أميناً لبيت المال . وكان إبراهيم في وقت ما تاجراً في الأبيّض وقد ذهب مراراً إلي القاهرة وكان رجلاً صبيحاً وله آراء مستنيرة . وفي وقت من الأوقات عندما نشأ نزاع بين بيت أربيب التجاري في القاهرة وشريكاه في الأبيِّض عيّن البيت التجاري القاهري عدلان محكّماً في النزاع . وقد ظل لزمن طويل موالياً للحكومة . كما ظل مقيماً في الأبيِّض إلي أن سقطت في يد المهدي الذي سمح له – كمعروف خاص – أن يحتفظ بمبلغ ٢٠٠٠ من ٣٠٠٠٠ ريال كانت لديه .

لم يكن لإبراهيم ود عدلان لفترة طويلة شيئ يفعله ولكنه كان دائماً رجلاً ذا نفوذ وكان يحاول باستمرار مساعدة من هم في شدة . بعد سقوط الأبيِّض . وعندما تم نفي جميع الكتبة إلي أجزاء مختلفة من البلاد لم يهدأ له بال إلي أن حصل على إذن لعودتهم . وقبل وقت قصير من مغادرة المهدي للأبيِّض، تم تعيينه في بيت المال . وفي الرهد عينه أحمد ود سليمان مساعداً له . وأرسله المهدي عندئذ إلي بربر للاستيلاء على مبلغ الستين ألف (٦٠٠٠٠) جنيه التي أرسلت من القاهرة إلي غردون والتي تركت في خزينة بربر نظراً لقطع الاتصالات مع الخرطوم . أحضر إبراهيم ود عدلان إلي المهدي المال والملابس والميداليات والأوسمة وغيرها من الأشياء الثمينة الخاصة بالجنرال غردون . هذا وتم بيع الملابس وتم تقطيعها إلي قطع لترقيع جبب الدراويش . أما معدن الميداليات وخلافه فقد تم صهره وبيعت الأحجار الكريمة وفي النهاية وجدت طريقها إلي القاهرة .

سرعان ما اكتسب إبراهيم ود عدلان نفوذاً عظيماً على الخليفة . وكان لديه من اللباقة ما يكفي للتخفيف من الطغيان الفطري لدى سيده . إن رغبته للمساعدة باستمرار عند ما يستطيع جعلته محبوباً . وسرعان ما بدأ في العمل على إعادة تنظيم بيت المال . وبدأ بتحويله من مقره الأصلي إلي شاطئ النهر وبذلك يتفادى النقل غير الضروري للبضائع التي تأتي بالمراكب إلي المخازن .

هنا بنى ساحة واسعة بالطوب المجفف بالشمس وقسمها إلي أقسام الإدارة المختلفة . عمل مخزناً كبيراً للغلال جمع فيه جبلاً من الذرة . والحقيقة أنه كان عالياً للغاية لدرجة أنه يمكن رؤيته من مسافة بعيدة . وقد وضع هذا المخزن تحت مسئولية مساعده . وبنيت ساحة أخرى تشتمل على عدد من الغرف لحفظ العبيد تحت حراسة العساكر . وهنا يتم تقييد العبيد عشرين أو ثلاثين مع بعضهم بسلسلة ووضع حلقات حديدية حول رقابهم . وأي عبيد يسببون إزعاجاً بالصياح يقيدون عموماً بمكيّة أو اثنتين وهي حلقات من الحديد توضع حول الكاحلين وتشبكان مع بعضهما بسلسلة قصيرة أو قضيب حديدي مما يجعل المشي صعباً للغاية .

يتلقى العبيد قليلاً من الذرة الجافة كطعام من بيت المال إلي أن يتم بيعهم . وعموماً تقوم النساء من الرقيق بطحن الذرة وعمل عصيدة منها أو غلي حبوب الذرة في الماء وأكلها في صورة ما يسمى « بليلة « . وحصة الذرة التي يتلقاها العبد هي عموماً قليلة جداً وسيئة جداً حتى أن أعداداً منهم يموتون جوعاً قبل أن يسعدهم الحظ ببيعهم .



امرأة من الرقيق من الاستوائية

يباع الرقيق بالمزاد في بيت المال ويتسلم المشتري شهادة خطية تبين بالتفصيل وصف الرقيق إن كان رجلاً أو امرأة وأن الشراء قد تم في بيت المال . وقبل المزاد يمسح الرقيق عموماً بالزيت بصورة جيدة لتحسين مظهرهم . ومعظم الرقيق الذي يباع هو من النساء حيث أن الرقيق الرجال يلحقون عموماً بالجيش . وتستخدم امرأة خاصة مع المسئولين الآخرين لتعتني بالرقيق من النساء . هذا وقد أقام إبراهيم ود عدلان حاجزاً في بيت المال لتلقي البقر والجمال والضأن والماعز والحمير إلخ .. وهذه تباع أيضاً بالمزاد . وتشكل دار سك العملة قسماً فرعياً متميزاً . وعندما كان المهدي على قيد الحياة ، ضرب الذهب والفضة عملة بأمره ولكنها لم تكن وفيرة لتقابل الطلب ، ولكن بالأصح لتدل على استقلاله عن مصر وإقامة دولته الجديدة . وقد أمر بأن تضرب الجنيهات مثل الجنيهات المصرية تماماً . وقد ضربت من الحلي الذهبية التي تم الاستيلاء عليها عند سقوط الخرطوم . كذلك ضربت الريالات مشابهة للريال المجيدي التركي . وقد تم تعيين الحاج عبد الله قرانتيلي من بخاري صائغ مجوهرات سابقاً بالخرطوم وإلياس الكردي مصلح ساعات سابقاً كرئيسين لدار سك العملة . وفي سنة ١٨٨٩م فقد الأخير يده ورجله لإصداره عملة مزيفة . وجميع العملات التي تحمل ختم " ضرب بأمر المهدي " قد اختفت تقريباً .

عندما وصلت أم درمان كانت هناك ندرة شديدة في العملات الصغيرة ونتيجة لذلك استعملت قطع من الدَّمور [١] كعملة من فئة العشرة والخمسة والقرشين . لكن سرعان ما أصبحت هذه الخرق قذرة من جراء تداولها من يد إلي يد . وكانت مغطاة بالزيت والدهن حتى أن الناس رفضوا قبولها . ولما سمع الخليفة عبد الله بهذا ، هدد أولئك الذين يرفضون قبولها بمصادرة ممتلكاتهم وسجنهم . وعيَّن جواسيس في أجزاء السوق المختلفة للإبلاغ عن أسماء المعترضين . لكن الجواسيس كانوا يتلقون الرشوة للسكوت وعدم التبليغ . وقد اضطر الخليفة للتراجع عن قراره . فالتجار يلجأون إلي كل أنواع الخداع لتفادي أوامره لذلك سحبت تلك الخرق القذرة من التداول .

---

١ – الدَّمور : نسيج قطني خشن يصنع محلياً .

نظم إبراهيم ود عدلان دار سك العملة بهدف تحقيق ربح أكثر من أنه سد حاجة . كانت الفضة رخيصة . وقد استطاع أن يحقق ٥٠٪ ربحاً بسك الريالات منها . في ذلك الوقت لم تعد العملة الذهبية متداولة . على وجه من الريالات كتب التاريخ الهجري وعبارة « ضرب في أم درمان » وعلى الوجه الآخر طبعت طغراء السلطان مع كلمة « مقبول » ولذلك أصبح معروفاً بالريال « المقبول » . كذلك ضربت قطع من فئة الخمسة والعشرة قروش وكذلك قليلاً من فئة القرش الواحد . وقد طبعت على أحد الوجهين الطغراء وعلى الوجه الآخر كلمة « أم درمان » . وفي عملات المهدي كتب داخل الطغراء عبارة « بأمر المهدي » ولكن الخليفة عبد الله لم يتبع ذلك .

وبجانب هذه العملات ، كانت الجنيهات الإنجليزية متداولة أيضاً في أم درمان . وكانت تعرف بجنيهات الخيّالة بسبب وجود صورة سنت جورج والتّنين محفورة عليها . وكانت الجنيهات المصرية متداولة أيضاً . ولكن الآن أصبحت جميع العملات الذهبية نادرة .

العملة الرئيسية هي الريال المجيدي . وقد كان هذا في استعمال مستمر بحيث أصبح كثير من هذه الريالات قد مسحت معظم الكتابة عنه . وكان ريال ماريا تريزا المعروف باسم « أبو نقطة » متداولاً كذلك ولكن بصورة رئيسية مع تجار سواكن ومصوّع والتجار الإثيوبيين وخاصة مع الإثيوبيين . وقطعة العملة فئة الخمس فرنكات الفرنسية والريال الأسباني المعروف باسم « أبو مدفع » كانت متداولة في نطاق ضيق . وأحياناً يمكن رؤية القرش ونصف القرش المصري الذي جاء مع حملة هكس باشا . وتعتبر قطعة الفيوريني النمساوية مساوية لقرشين . وبالإضافة إلي جميع هذه القطع الفضية فإن النقود النحاسية من جميع الأنواع كانت متداولة .

وقد وجد الخليفة صعوبات في تداول الريال « المقبول » . فالتجار رفضوا تقييمه بعشرين قرشاً . وبالرغم من أكثر الأوامر صرامة والتهديدات المستمرة بمصادرة الممتلكات والسجن إلخ .. فإن تلك الأوامر يتم تفاديها بطريقة ما باستمرار .

فالتجار يضعون أسعاراً عالية على سلعهم ولا يقبلون بيعها إلي أن يريهم المشتري

كل أنواع الريالات المختلفة التي لديه . وهكذا يجبر على فعل ذلك أو يشتري بالأسعار الباهظة . وانتشرت الشكاوى من التجار ووصلت أخيراً أذن الخليفة . استشاط الخليفة غضباً . وفي أحد الأيام من أكتوبر ١٨٨٧م أرسل قوات إلي السوق وأمرها بأن تحضر جميع البضائع إلي بيت المال . وكانت المقاومة غير ذات جدوى . وقد أضطر أصحاب البضاعة أن يهتموا بأمر بضاعتهم التي وضعت في كوم كبير بالقرب من البوابة الكبيرة لبيت المال وهي في العراء وتحت أشعة الشمس الحارقة . صار الخليفة الآن يغلي من الغضب وأعلن على الملأ هذا البيان الغريب :

« حمل الكافر غردون التجار على قبول قطع أوراق بائسة كبديل للنقود وأنا الآن أعرض عليكم الفضة فلا تقبلونها » .

لمدة أربعة عشر يوماً جلس هؤلاء التجار التعساء بالقرب من البوابة يرتجفون من أجل مصير ممتلكاتهم . وكانت كل أنواع الشائعات تتردد ، البعض يقول إن الخليفة ينوي إلقاء جميع البضائع في النيل . وآخرون يقولون إنه سوف يحرقها . وربما كانت الفكرة الأكثر ترجيحاً أنه ينوي مصادرتها وضمها إلي بيت المال . وحينئذ أصبح التجار في خوف تام وتوسلوا إلي بعض أصدقائهم ذوي النفوذ ليتوسطوا لدى الخليفة . وأخيراً استدعى الخليفة كبار التجار وسألهم إن كانوا سيقبلون الريال « المقبول » بسعر الريال القديم . عند ذلك لم يقبلوا بسرور فحسب بل أعلنوا استعدادهم لقبول أي نوع من النقود يختار إصدارها حتى ولو كانت من الجلود .

وهكذا نفذت التسوية . وعامل الخليفة التجار معاملة طيبة وقدم إليهم كثيراً من الطعام وتنازل وأكل معهم في هذه المناسبة السارة . بعد هذه الحادثة لم تظهر هناك صعوبات في قبول تداول الريال « المقبول » بأم درمان بالرغم من أنه حتى هذا اليوم فإن العرب يرفضون قبوله .

لكن تدريجياً أصبحت الفضة عزيزة وبدأت دار سك العملة في ضرب ريالات سيئة مصنوعة من جزئين من الفضة وثلاثة أجزاء من النحاس . وتبعاً لذلك ارتفعت قيمة الريال القديم إلي ٢٥ قرشاً . وقد أعطى هذا مزيداً من الفرص لمزوري النقود . وبدأ

عمال الفضة في دار سك العملة في صنع ريالات على حسابهم الخاص وبما أن هذه مختلفة عن الريالات الأخرى فقد تسبب ذلك في كثير من الفوضى . كانت هذه الريالات المزورة مسكوكة بصورة جيدة ويقتضي اكتشاف التزوير عيناً خبيرة . وحقيقة أنه لم يكتشف التزوير إلا بعد أن دخلت في التداول كمية كبيرة من هذه الريالات المزورة .

تم إرسال مفتش الآن لفحص جميع الريالات . وجرى تحطيم جميع النقود المزورة إلي قطع ولم يتلق أصحابها أي تعويض . واشترى اللصوص والمهربون الريالات المزورة بعشرة قروش للريال . ثم بالطبع تمت ممارسة كل أنواع الرشوة والفساد . فمثلاً يوافق العربي على بيع جمله بمبلغ ١٥٠ ريالاً بشرط عرض النقود على لجنة الفحص . فيقوم رئيس اللجنة الذي بالطبع تمت رشوته بإصدار قراره بأن جميع الريالات جيدة ويتلقى من المشتري مبلغاً نظير ذلك . وهكذا يتم الاحتيال على العربي فيفقد ٤٠ أو ٥٠ ريالاً . وبالرغم من أن عدداً من مزوري العملة قد عوقبوا بقطع يد ورجل فما زالت هذه الممارسة الشريرة مستمرة . وفقط خلال السنوات القليلة الماضية ومنذ أن زاد سعر الفضة كثيراً توقف التزوير إلي حد كبير .

أقيمت في بيت المال مطبعة حجرية . وكانت مقامة في الأصل في الخرطوم وتستخدم الآن لطباعة مجموعة من منشورات المهدي كذلك طبعت عدة نسخ من « الراتب » وهو كتاب أدعية المهدي وتم توزيعها .

تم كذلك إنشاء متحف كجزء من بيت المال ويعرف باسم بيت الانتيكات ويحتوي على عدد من الأشياء الهامة مثل تذكارات الصيد من دارفور والحبشة ومصر . والقسم الحبشي من المتحف هو الأكبر ويضم تاج الملك يوحنا . وضمن تحف دارفور الحلة الرسمية للسلطان يوسف ولسلطان المساليت . والحلة الرسمية لأحد شيوخ العبابدة الذي منحته الحكومة لقب بك ثم جاء إلي أم درمان واستسلم للمهدي ويمثل مصر .

ويشتمل بيت المال أيضاً على مستوصف تحت أشراف طبيب مصري . فهنا عدد من الرفوف عليها أدوية انتهت صلاحيتها منذ زمن ولكن الطبيب اتجه كلياً إلى العلاجات البلدية ومنها الكي والحرق أصبحت معتادة جداً .

ضمن الأحياء الباقين بعد فتح الخرطوم إغريقي يقوم بصنع الصابون في مصنع أقامه في بيت المال وسلم إلي بيت المال كمية كبيرة من الصودا الكاوية التي تستخدم في صنع الصابون . ولكن تدريجياً بدأ أفراد آخرون في إقامة مصانع صابون وسرعان ما بدأوا في بيع الصابون بأسعار أرخص وتحول جميع زبائن مصنع بيت المال إليهم . وأصدر الخليفة في الحال أمراً بأن صناعة الصابون حكر لبيت المال وكل من يخالف ذلك تقطع يده وتصادر ممتلكاته .

تم تحسين نظام حسابات دقيق في بيت المال ليبين جميع الإيرادات والمصروفات . فإذا صدرت أوامر بإرسال حملة عسكرية لأي جزء من البلاد فيجب الإمداد بالمال والملابس وغيرها من الضروريات من بيت المال . ويتألف جهاز الموظفين الذين يديرون هذه الإدارة الضخمة من أمين بيت المال ومساعده ورئيس الكتبة وعدد كبير من صغار الموظفين والكتبة . فعندما رفض التجار قبول الريال « المقبول » زيد عدد الموظفين حيث كانت جميع السفن والمراكب قد صودرت أيضاً في ذلك الوقت . ومن هذه كانت هناك أكثر من ١٠٠٠ سفينة ومركب . وأخيراً قام بيت المال بتأجيرها . وقد حاول إبراهيم ود عدلان أن يحصل دائماً على خدمات أولئك الكتبة الذين خدموا سابقاً لدي الحكومة . ولكن هذه الخطة لم تعجب الخليفة . من الطبيعي أن يفضل ود عدلان قدامي الكتبة الذين يفهمون عملهم تماماً . وبجانب ذلك فإنهم مرعوبون من الدراويش وبذلك فأنهم لا يجرءون على الغش . وعلى العموم فإن إدارة ود عدلان كانت جيدة للغاية وقد تلقى شكر الخليفة .

وجّه الخليفة الآن اهتمامه لإعادة تنظيم جهاز العدالة . حتى الآن وأثناء حياة المهدي استمر منصب القاضي ولكن الإشراف (أقارب المهدي) عملوا أيضاً كقضاة وكانت النتيجة اكبر فوضي ممكنة . فمثلاً لنفترض أن رجلاً قد حكم عليه القاضي فإن سيد عبد القادر (شيخ الإسلام) يمنحه العفو فوراً . من الطبيعي أن الخليفة أراد تغيير هذا الوضع الشاذ . وليس ذلك لمصلحة العدالة بقدر ما هو كسر لقوة الأشراف وتقليص لسلطاتهم . لذلك عيّن القاضي أحمد قاضي الإسلام كما عيّن عدداً من القضاة

المساعدين الذين أسماهم « النوّاب » .

وقد تقرر أن على أي شخص ، كبير أو صغير ، أن يقدم جميع أسباب النزاع إلي كبير القضاة الذي من واجبه أن ينظر في النزاع ويصدر قراره . والقاضي أحمد رجل جيد بصورة خاصة وهو يعطي حماية لذوي البشرة البيضاء خاصة عندما يتعرضون للإساءات من قبل الأهالي . وهو علي أية حال ذو طبيعة مترددة جبانة ولذلك كان أداة مطيعة في يد الخليفة . ونتيجة لذلك وقع كثير من الإخلال بالعدالة .

وهكذا ضمن الخليفة لنفسه الحق في العفو أو الإدانة وهكذا أصبح هو السيد المطلق في أمر الحياة والموت . وفيما يتعلق بالقانون فإنه لا يلجأ إليه إلا عندما يناسبه ذلك أما في أية مناسبة أخري فإنه يتجاهله تماماً .

الباب الثالث عشر

الخليفة يقرر غزو الحبشة

الأحداث التالية لسقوط الخرطوم. الاستيلاء على القضارف والقلاّبات. هزيمة الدراويش علي يد الأحباش في القلاّبات. حملة أبو عنجة الظافرة على تقلي. عودته المظفّرة إلي أم درمان. الاستعراض العظيم للجيش من قبل الخليفة. تدمير قبيلة جهينة. الخليفة يقرر إرسال جيش أبو عنجة لغزو الحبشة. معركة دبراسين. أبو عنجة ينهب غندر. الدراويش المنتصرون يعودون إلى القلابات. أفراح في أم درمان.

أعطت الصفحات السابقة لمحة عن أم درمان العاصمة الجديدة للسودان في عهد الدراويش . دعونا الآن نلتفت قليلاً للأحداث العسكرية التي وقعت منذ سقوط الخرطوم.

بينما كانت الخرطوم محاصرة من جميع الجهات ، كذلك كانت الحاميات المختلفة الأخرى ما تزال صامدة ومحاصرة . ومدينة القضارف المعروفة أيضاً باسم « سوق أبوسن » على اسم شيخ قبيلة الشكرية الجليل أبو سن ، تقع في وسط السهل الخصب الذي ينتج كميات وفيرة من الذرة حتى قيل إن حمل ثلاثة جمال من الذرة يمكن أن يباع بنصف ريال . كانت الأرض منتجة للغاية بحيث أن أي شيء يمكن أن يزرع . ولم يكن هناك شح في المياه . الإغريق وعدد من المصريين زرعوا الحدائق التي يوجد فيها كل أنواع أشجار الفاكهة . فالعنب ينمو بوفرة وكان من نوعية جيدة على الأخص ويتوفر على مدار العام بسبب انه لا أهمية في أي شهر يتم تقليم العنب . وكانت تزرع أيضاً كميات من السمسم وكذلك نوع خاص من الذرة حلوة السيقان تستخرج منها مادة مثل العسل . فالبطيخ والقطن والتبغ وجميع أنواع الخضراوات تزرع بوفرة كبيرة وكل شيء من نوعية جيدة بصورة استثنائية .

تتألف حامية القضارف من مائتي رجل فقط وعندما دعاها الجعليون للاستسلام استسلمت في أبريل ١٨٨٤م. ومن الصعب أن يثير ذلك الاندهاش لأن سكان القضارف في أغلبيتهم من الجعليين والمقاومة تحت تلك الظروف تكاد أن تكون مستحيلة . فقد سمح لكبار التجار الاحتفاظ ببضائعهم وتغيّر الحكام في ذلك الوقت لم يغيّر كثيراً من الوضع . لكننا سنري فيما بعد ما صار إليه حال هذه المديرية الغنية القيمة بعد تطاول

احتلال الدراويش .

أما فيما يتعلق بالقلاّبات فإن المصاعب كانت كبيرة جداً . تقع هذه المدينة علي مسيرة ستة أيام من القضارف وكانت مقر التكروري المشهور صالح بك شنقه الذي كان مأموراً لتلك المنطقة . هذا الموظف الشجاع ظل موالياً للحكومة طيلة الوقت وكان معارضاً قوياً للمهدية . ولقد نجح في كسب صداقة القبائل الحبشية المجاورة ومن خلال مساعدتهم ألحق بالدراويش خسائر جسيمة . ففي نوفمبر ١٨٨٤م هزم الجعليين الذين كانوا يحاصرونه هزيمة نكراء . ولكن بعد بضعة أيام استطاع الدراويش الذين تم تعزيزهم بصورة كبيرة من محاصرته حصاراً شديداً .

ومن خلال توسط الإنجليز أرسل الملك يوحنا قوة نجدة من الحبش وصلت بالقرب من القلاّبات في السابع والعشرين من يناير ١٨٨٥م وأشعرت صالح باقترابها من القلاّبات فقام بالخروج من المدينة المحاصرة ومهاجمة الدراويش بينما قام الحبش في نفس الوقت بهجوم قوي على الدراويش وطردوهم مما مكّن الحامية بأكملها رجالاً ونساء وأطفالاً من الهرب . ساروا عن طريق غندر إلى مصوّع تحت حماية قوة حبشية . وفيما بعد احتل الدراويش القلاّبات وتجمعوا هنا في قوة كبيرة تحت قيادة الأمير ود أرباب .

وفي الوقت نفسه فإن صالح بك الذي يقيم مع الراس عدل زعيم الأمهرا ظل باستمرار يحث الراس عدل للاستيلاء على القلاّبات . وبعد وقت قصير انضم إليه الفكي المضوي الذي كان من قبل من أتباع المهدي المتعصبين والذي كان مع أبو قرجة من أوائل الذين حاصروا غردون في الخرطوم . هذا الرجل بدأ بعد وفاة المهدي يكتشف أنه كان يتّبع دجالاً وهرب من أم درمان وأقام في الحبشة لفترة وأخيراً وصل إلى القاهرة . وكان الخليفة عبد الله في غاية الغضب لفراره ووضع عدداً من أصدقائه في القيود معتقداً أن الفكي المضوي كان مساعداً في دفع الراس عدل لمهاجمة القلاّبات .

بعد وقت قصير من احتفال « الملوك القديسين الثلاثة » تخليداً لذكري تعميد مخلّصنا في الأردن المعروف « بعيد الغطاس » (في هذه المناسبة وتقع في الخامس من

يناير يجرى تغطيس صليب في النهر) جمع الراس عدل جيشاً كبيراً يبلغ ١٠٠٠٠٠ رجل منهم ٢٠٠٠٠ من الخيالة تقدم عبر الجبال ونزل علي القلاّبات .

الشيخ عقيل من قبيلة الحمران الذي كان دائماً موالياً للحكومة المصرية والذي حارب المهدية باستمرار . انضم أيضاً إلي الراس عدل ودخل منطقة الدراويش . ود أرباب الذي تلقى معلومات كافية عن تحركات الحبش كان منتظراً هجومهم وهو متحصن بقوة في الخنادق بالقلاّبات . كان لديه ١٦٠٠٠ من القوات المتمرسة ومعظمهم من الجعليين وكمية من البنادق والذخيرة . وفي ظرف دقائق قليلة اندفع الخيالة الأحباش نازلين من الجبال بقوة وأحاطوا بود أرباب إحاطة تامة . ولم يستمر القتال طويلاً فقد اندحر الدراويش وطاردهم الأحباش في كل اتجاه . وسرعان ما اشتعلت النيران في القلاّبات . لم يستطع العرب مواجهة الاندفاع الهمجي للأحباش فسقطوا بأعداد كبيرة . وقد تسببت الرياح القوية في انتشار النيران بسرعة مخيفة . وسرعان ما انفجر مخزن البارود بصوت مروع فدفن المئات في أطلال المخزن ، وضمن هؤلاء إغريقي جاء من سواكن إلي أم درمان قبل سنة حيث سجن هناك لبعض الوقت ثم أخلي سبيله فجاء إلي القلاّبات آملاً في أن يهرب إلي الحبشة و ذلك قبل أيام قليلة من هذا القتال الذي وقع في يناير ١٨٨٧م . هذا وقد استولي الحبش علي عدد كبير من النساء والأطفال الذين سحبوهم كعبيد .

وقبل بضعة أشهر من هذا القتال مات غوستاف كلوتز في القلاّبات . فقد ترك أم درمان في سبتمبر ١٨٨٦م قاصداً القلاّبات بنية الهرب إلي الحبشة . لكن بما أنه لا يملك مالاً فقد اضطر إلي المشي راجلاً كل هذه المسافة . وبسبب الإجهاد الشديد أصبح مريضاً للغاية وعاش لبعض الوقت ولكنه توفي في النهاية . وربما كان من حسن حظه أن مات لأنه وصل بعد أيام قليلة أمر من الخليفة إلي القضارف بالقبض عليه وتقييده بالسلاسل وإعادته إلي أم درمان حيث ينتظره موت بائس .

بينما كان الحبش يهاجمون القلاّبات ، انقض الشيخ عقيل على قرية دوكة وهي تقع بين القلاّبات والقضارف . وقد نجح في الاستيلاء عليها وأعدم سكانها بالسيف . أما

الحبش فقد عادوا إلي بلادهم بعد نهب القلاّبات التي تركوها خالية تماماً .

إن كارثة القلاّبات كانت ضربة موجعة للدراويش . عيّن الخليفة ابن أخيه يونس أميراً علي منطقة القلاّبات وأمره بإعادة احتلال القلاّبات . وعند عودته من ود العباس خيّم يونس جنوبي طابية أم درمان في مكان ما زال يعرف باسم ديم يونس . وتألفت قوته من ١٠٠٠ رجل مسلح ببنادق الرمنجأتون و ٢٠٠٠ من حملة الرماح والسيوف وأغلبيتهم من أتباع المهدي الأوائل في أبا . عبر الخليفة الآن بنفسه النهر إلي خوجلي وقاد قوات يونس إلي مسافة معينة .

إن تكاليف معدات ونقل القوة لم تكن باهظة . فكل مقاتل يتلقى حوالي نصف ريال وربما كان ذلك كافياً لأن القوات دائماً تنهب القرى لطعامها وهي في طريقها . سار يونس مباشرة إلي أبو حراز علي النيل الأزرق . ومن هناك تابع خور الرهد إلي القلاّبات التي وجدها خالية تماماً ومهجورة . الآن استقر في القلاّبات وقام من وقت لأخر بغارات داخل الحبشة يدمر بضعة قرى وكنائس ويرسل ما ينهبه من حلى إلي أم درمان . وقد أبهج هذا العمل الخليفة كثيراً حتى أنه أطلق علي الأمير يونس لقب " مسمار الدين " وهناك قصائد خاصة عن أعماله تنشد في حضرته .

لكن سرعان ما أوقف الأمير يونس الأعمال العدائية وضمن العبور الحر للتجار الذين يسافرون إلي داخل البلاد . صدّق الحبش في تأكيدات السلام هذه ونزلوا إلي سهل القلاّبات في أوقات مختلفة من السنة جالبين معهم للبيع آلافاً من البغال والحمير والخيل وأيضاً كميات من البن والثوم والعدس والحبوب والشمع والعسل . وسارت الأمور بسلام لبعض الوقت . ولكن في أحد الأيام انقض يونس علي جميع التجار المتجمعين في زريبتهم فقتل عدداً منهم واستولى علي بضائعهم وأرسل ألفاً منهم إلي أم درمان كأسرى . ومات عدد منهم في الطريق من الجوع . وعند وصولهم إلي أم درمان أطلق سراح الباقين منهم . ولكنهم اضطروا إلي التجول في الأسواق لاستجداء طعامهم . وقد حدث مراراً أن يلجأوا إلي أكشاك التجار الخالية لقضاء الليل فيها . وعند حضور التجار في الصباح ببضائعهم فإنهم يجدون دكاكينهم مليئة بجثث الحبش

الميتين أو الذين يحتضرون . وفيما بعد وضع التجار عبيداً لحراسة دكاكينهم ومنع هذه المخلوقات البائسة من استعمالها . وقد أعتاد هؤلاء التعساء الهزيلون أنصاف الجياع أحياناً المجيء إلينا للتوسل للطعام . وهم لا يعرفون اللغة العربية ولكن بما أنهم يعرفون أننا مسيحيين فأنهم يرددون تلك الكلمة أو أحيانا كلمة " ود مريم " أي ابن مريم وذلك لاستدرار شفقتنا . وأخيراً وصلت إلي آذان الخليفة حالتهم البائسة فأمر بيت المال أن يتكفل بأمرهم . لذلك أرسل أمين بيت المال منادياً ينادي في السوق وينبّه جميع الحبش بأنهم إذا جاءوا إلي بيت المال فإنهم سوف يتلقون المساعدة . سحبت تلك المخلوقات المسكينة الجائعة إلي هناك .

ولكن انتظروا يومين أو ثلاثة دون طعام فمات عدد منهم ورميت جثثهم في النهر بينما أعطيت البقية أخيراً كفافاً بائساً من الذرة للحفاظ علي الروح في الجسد . لكن هؤلاء أيضاً استسلموا أخيراً للمجاعة وبعد ذلك لم أر مرة أخرى حبشيا أسيراً .

في يوليه ١٨٨٧م كتب الخليفة عبد الله خطاباً إلي الملك يوحنا عارضاً إبرام سلام بشرط أن يصبح مسلماً وأن يعيد جميع النساء والأطفال الذين استولى عليهم وبالإضافة إلي ذلك أن يسلم خاصة صالح بك والفكي المضوي والشيخ عقيل . وإذا رفض قبول هذه الشروط فعليه أن يتوقع الحرب . ولم يتفضل الملك يوحنا بالرد .

خلال عيد الأضحى في الحادي والثلاثين من يوليه ١٨٨٧م استدعي الخليفة عبد الله أبو عنجة إلي أم درمان . وهنا ينبغي أن أعطي وصفاً مختصراً عن هذا المحارب المشهور .

كان حمدان أبو عنجة عبداً وقد نشأ في بيت الخليفة عبد الله . وكان يعامل معاملة طيبة من سيده . وأخيراً كان ينظر إليه كأحد أفراد الأسرة . وهي عادة كانت شائعة بين قبائل البقّارة والرزيقات والتعايشة . وفي الحقيقة اعتاد هؤلاء العرب في أحيان كثيرة تزويج بناتهم لعبيدهم . لقد تعلم أبو عنجة بين البقّارة ركوب الخيل أول مرة والخروج للصيد واكتسب مهارة الرمي بالرماح وأتيحت له فرص متكررة في الغارات المستمرة علي القبائل المجاورة .

وقد اشترك أبو عنجة في الحملات ضد الزبير باشا الذي أسره وجميع أفراد عائلته ولكن أطلق سراحه فيما بعد . وعندما أعلن المهدي دعوته انضم إليه هو وسيده عبد الله . أثناء حصار الأبيّض لم يسمع أو يعرف عنه الكثير ولكن بعد سقوطها عهد إليه الخليفة عبد الله بالإشراف علي جميع العساكر الأسرى في الأبيّض وكذلك في الأماكن الأخرى . إن الخليفة الداهية قد تنبّه منذ مدة لهؤلاء السود وقد عرف جيداً قدراتهم القتالية وكان شديد الرغبة في وضعهم تحت سيطرته واستخدامهم .

قبل حملة هكس ، حصل أبو عنجة علي عدد منهم . وقد ساعدوا إلي حد كبير في تحقيق هزيمة ذلك الجيش المشئوم . ومرة أخرى فقد أظهر أولئك السود أعظم شجاعة في حملاتهم علي جبل الداير عندما كسبوا اسماً عظيماً لأنفسهم . وأخيراً فإنه من خلال أسلوبهم اضطرت طابية أم درمان التابعة لغردون إلي الاستسلام . بعد سقوط الخرطوم أصبحت هذه القوات الشجاعة غير المنضبطة عاطلة إذ لم يكن هناك مزيد من القتال ليشغلها ، فبدأت في قطع الطرق . أعداد منهم بدأت تحوم في الصحراء علي مسيرة بضعة ساعات من أم درمان وتسلي نفسها بالانقضاض علي القوافل الآتية من كردفان أو بربر وتنهب وتقتل ما شاء لها . ولما صارت غاراتهم مستمرة قرر المهدي أنه يجب استخدامهم في مكان ما ولذلك أمر أبو عنجة ليتوجه بهم إلي جبال النوبا التي ما زالت مستقلة والتي عليه أن يغزوها والحصول من هناك علي مجندين للجهادية أو الجيش الأسود التابع له .

لكن كان هناك أيضاً سبب آخر دفع المهدي للقيام بهذه الحملة . فخلال حصار أم درمان كان هناك شيخ بقاري من بركة يسمي نُعيّه قد هرب وجمع عدداً من الساخطين في جبال النوبا وتحدى سلطة المهدي . وعندما كنت في الأبيّض كانت تروج جميع أنواع القصص الغريبة عن أعمال نُعيّه هذا الذي جمع عدداً من الخيّالة من قبائل الحوازمة والمسيرية وجعل من نفسه شخصاً مهيباً . فجميع أولئك الذين خاب أملهم من صائدي وتجار الرقيق الذين انزعجوا لقمع الحكومة المصرية لتجارتهم انضموا بإعداد كبيرة إلي راية المهدي ، والآن اكتشفوا أن وضعهم صار أسوأ من ذي قبل وأنهم في الواقع

أفضل بقليل من عبيد المهدي . هؤلاء سعوا في كل مناسبة للهرب إلي نُعيّه . لذلك تسلم أبو عنجة أوامر لاصطياده وقتله فجمع رجاله وترك أم درمان التي أصبحت الآن مكان فسق ولهو وتقدم إلي جبل تقلي وخيّم في سفحه .

بعد وفاة الملك آدم نزع أتباعه مرة أخرى نير الدراويش وهم الآن في ثورة معلنة . وضد هؤلاء قام أبو عنجة بعدة حملات ناجحة واستولي علي أعداد من الرقيق ولكنه عاني بعض الخسائر كذلك . وطالما ظل أبو عنجة في المنطقة فإن تقلي تظل تقريباً في حالة استسلام . ولكن في اللحظة التي يغادر فيها المنطقة فإنهم يخرجون مرة أخرى في معارضة نشطة .

زحف أبو عنجة الآن علي نُعيّه فأوجف أتباعه خيفة من وجود العساكر فتفرقوا . هؤلاء السود يخشاهم الناس كثيراً في السودان ، ليس فقط لشجاعتهم الفائقة في القتال ولكن أيضاً لأنه من المعروف جيداً أنهم لا يرحمون أعداءهم المهزومين .

وأخيراً تم القبض علي الشيخ نُعيّه وتقييده بالسلاسل وبعد بضعة أيام مات بالجدري . لقد هاجم أبو عنجة جميع جبال النوبا تقريباً . في بعض الأحيان كان ناجحاً وفي أحيان أخرى عانى من الفشل . تلودي وقدير وأخيراً نعيمه كانت مسارح لمعارك دموية وفي نعيمه هزم أبو عنجة هزيمة نكراء وارتد علي عقبيه بالرغم من مدفعيته التي كان يقودها سيد بك جمعه .

أحد أكثر مساعدي أبو عنجة اقتداراً كان هو عبد الله ود إبراهيم والذي بسبب قسوته التي ليس لها نظير جعل من اسم أبو عنجة رعباً في جميع أنحاء البلاد . لقد استدعي الخليفة الآن أبو عنجة من حملته ليستولى علي زقل وجيشه الذي كان في ذلك الوقت في طريقه من دارفور إلي بارا . لقد رأينا كيف نفذ هذا الأمر بسرعة ومهارة .

الآن الشيء الوحيد الذي بقي لأبو عنجة ليفعله هو معاقبة قوات الأبيّض المتمردة التي قتلت الشريف محمود . تم إرسال عبد الله ود إبراهيم في هذه المهمة وبعد قتال مرير قتلت فيه أعداد من الجانبين ، نجح في القبض علي عدد من المتمردين وألحقهم بقواته ولكن بعضهم هرب إلي جبال النوبا . ونتيجة لذلك زحف ود إبراهيم علي جبال غلفان

ونعيمه وحاصرها وأخذها واخضع سكانها للعبودية . وأرسل رأس بشير ورؤوس ثلاثة زعماء آخرين إلي أم درمان حيث علقت في المشنقة لمدة شهر وذلك كتحذير لجميع الأشخاص ذوي العقول المتمردة .

بجميع هذه المعارك المختلفة نجح أبو عنجة في إضافة أعداد كبيرة إلي قواته وبالإضافة إلي ذلك فقد درّبهم باستمرار وبث فيهم روح الانضباط التي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت . وهكذا أنشأ قوة يكاد يكون من المستحيل هزيمتها . وقد أرسل الخليفة الآن تعليمات إلي أبو عنجة للعودة إلي أم درمان في الوقت المعين لاحتفالات عيد الأضحى . وفي نفس الوقت أرسل أوامر إلي جميع سكان الجزيرة ووادي النيل للتجمع في أم درمان لاستعراض عظيم للجيش . أبو عنجة كالعادة امتثل للأمر بنشاط وقام بسير سريع عن طريق الطياره وشات وأم صادق ووصل إلي أم درمان في وقت قصير للغاية . وأرسل الخليفة عدداً من الأمراء لملاقاته والترحيب به .

في أم درمان كان موضوع الحديث الوحيد عن أبو عنجة وجيشه العظيم . والخليفة بنفسه أعد أيضاً استقبالاً عظيماً لجنراله المخلص واجتهد فيه أن يعطيه كل شرف ممكن . وفي الليلة السابقة للاحتفال العظيم تم إرسال المنادين في أرجاء أم درمان يعلنون أن أي شخص لا يقدم نفسه في الاستعراض العظيم في الصباح التالي سوف يعامل بصرامة . وقد تم الامتثال لهذا الأمر عن طيب خاطر . وعند سفح التلال قرب جبال كرري تجمعت حشود ضخمة وهم ينتظرون . كما قال الساخطون . حسب مشيئة ذلك " العبد " أبو عنجة . في المساء السابق وضعت جميع المدافع في صف وافتتح الاحتفال بتحية طويلة من المدفعية .

في الوقت نفسه وصل أبو عنجة إلي أم صادق حيث جرى تفتيش دقيق للتأكد من أنه لا يوجد شخص يحتفظ بغنائم بصورة غير مشروعة . وقد وجد عدد من الجواري فأرسلن فيما بعد إلي بيت المال . ثم تحرك إلي معسكره بالقرب من أم درمان واستعد لدخوله رسمياً في الصباح التالي .

وبطلوع شمس ذلك اليوم ، تجمع الدراويش في صفوف لا تنتهي تحت راياتهم المختلفة

. وغادر الخليفة منزله مصحوباً بحرسه الشخصي وكان يركب علي جمل رائع وتقدم على صوت بوق الأمبايه الكبير . وكان أبو عنجة علي صهوة حصان ويلبس خوذة ودرعاً وقد تقدم الآن لملاقاته وقد ترك شكله الرائع انطباعاً عظيماً في الحشود المتجمعة وقد صحبه حرسه الخاص الذي يتألف من أفضل جنوده كما صحبه عدد من المقدمين (المقاديم) . وعند الاقتراب من الخليفة ، نزل ببراعة وقبل يديه . وقد حياه الخليفة بحرارة وأمره بالركوب مرة أخري .

ثم بدأ الطابور في السير أمام الخليفة . فقد سار أمامه أكثر من ٣١٠٠٠ من العساكر السود حملة بنادق الرمنجتون في صفوف طويلة وتعزف أمامهم الطبول والأبواق . وقد حاول عازفو الأبواق عزف بعض الأناشيد الخاصة بالدراويش فخرجت الأصوات متنافرة مما ألقى على جميع الاحتفال مظهراً هزلياً وركب كل أمير برايته أمام فرقته . وكان كبار الأمراء هم إبراهيم ود عبد الله ، النور عنقرة ، الزاكي طمل وإبراهيم ود أبو تقلي . وعندما مر الجهادية تبعهم حملة السيوف والرماح وعددهم حوالي ٢٠٠٠٠ ثم جاء بعدهم سكان أم درمان في أعداد غفيرة لا تقل عن ٦٠٠٠٠ .

وبعد انتهاء مرور طابور السير تجمع الناس مرة أخرى ووقفوا في صفوف ونزل الخليفة من الجمل و وقف علي فروة الصلاة وأمّ المصلين في صلاة العيد . و دوّت " الله أكبر " من أكثر من ١٠٠٠٠٠ حنجرة فكانت شيئاً مؤثراً للغاية . وتردد صداها من الجبال لأكثر من دقيقة في كل مرة يتردد فيها التكبير .

بعد انتهاء الصلاة دوت المدافع بتحية عسكرية وساد الحماس والهوس الديني الفالت حتى أن عدداً من الرجال اندفعوا وصاروا أمام فوهات المدافع فنسفتهم قطعاً قطعاً . بالطبع أعلن الخليفة أن أرواح هؤلاء المغفلين قد ذهبت مباشرة إلي الجنة . وبعد انتهاء تحية المدفعية تم تفتيش الصفوف مرة أخرى ثم جمعت جميع الرايات في مكان واحد ووقف الخليفة في وسط ذلك المكان . هذه هي الإشارة لكل القوات لتتجمع حول الخليفة وتتبارى في هتافات الولاء بأنهم سوف يموتون مائة مرة من أجله ومن أجل دعوته . تأثر الخليفة عبد الله تأثراً شديداً بحماس هذه الحشود المتوحشة مما جعله يتمالك نفسه

بصعوبة وذلك بنفس الصعوبة التي استطاع بها حرسه الخاص من صد الجماهير المندفعة من سحقه حتى الموت وأصيبت أعداد بكدمات أو ركلا من الخيل ولكنهم تركوا ولم ينتبه إليهم أحد وكل ما يقدمه هؤلاء القساة من تعاطف هو عبارة " عُمْرُو خلاص " أي أن عمره انقضى .

ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن ، لا اعتقد أن الخليفة قد وجد مطلقاً مثل ذلك الترحيب والهتاف الحماسي . في ذلك الوقت كانت أم درمان مزدحمة بصورة غير عادية وكانت التجارة نشطة . وجرى الاعتقاد بأن الخليفة سوف يقوم في ذلك الوقت بغزو مصر . لكن كما ظهر بُعيد ذلك أنه ما زال لديه الكثير من العمل في السودان نفسه . أحد أعدائه لاشك هو المرضى أبو روف سليل ملوك سنار القدامى وشيخ قبيلة جهينة ، وهى ضمن مجموعة العرب المتحالفين مع المهدي التي تباعدت بإصرار عن المهدية . ولدى هذه القبيلة عدد كبير من الجمال من سلالة ذات لون غامق غريب وكذلك كميات من الأبقار ذات اللون الرمادي .

حرّض المرضي على حركة محلية خالصة من عنده ضد الحكومة . وفي مرة حاصر سنار وأشعل فيها النار . وقبل مدة من وصول أبو عنجة أظهر عداوة للخليفة وأباد عدداً من حاميات الدراويش الصغيرة . وامتدت سلطته حتى بلغت كركوج وفرض الضرائب على جميع المراكب المتجهة شمالاً . ولمدة طويل تركه الخليفة ولكنه الآن وقد وجد نفسه يمتلك مثل هذه القوة الضخمة ، قرر مهاجمة المرضي وخاصة أن جرأته قد بلغت في هذا الوقت حداً هدد الملاحة بصورة كبيرة في النيل الأزرق الذي تجلب منه أم درمان إمداداتها الرئيسية من الذرة . لذلك أرسل إسماعيل ود الأندوك صعوداً علي النيل الأزرق بينما أرسل عبد الله ود إبراهيم صعودا علي النيل الأبيّض .

وبمهاجمة المرضي هكذا من كلا الجانبين أصبح عاجزاً . فلم يستطع مقاومة تقدم القوات السوداء المنتصرة وقد تم قتله وقتل جميع العرب التابعين له . وتم حز رأسه وإرساله إلي أم درمان وعرضه علي المشنقة لمدة طويلة . وفي النهاية ألقى الرأس في حفرة بها رؤوس بشير والذين قتلوا معه .

وهكذا تم إخضاع أعداء الخليفة واحداً بعد الآخر . وإن الانتقام الذي صبه الدراويش علي قبيلة جهينة السيئة الحظ لا يمكن وصفه . وتم الاستيلاء علي ممتلكات الأحياء من جهينة . وسيق الرجال والنساء والأطفال إلي أم درمان . وهناك تركوا وهم عراة ولا حيلة لهم يتضورون جوعاً على شاطئ النيل . فالمرء يرى أمهات تعيسات لهن ثلاثة أو أربعة أطفال مظهرهم كهياكل عظمية تركوا بصورة بائسة في مكان مجهول تماماً وهم عرضة لإساءات وإهانات الدراويش القساة المتعجرفين . أعداد منهم وخاصة الأطفال ماتوا من الجوع بينما من كان ما زالت لديهم بقية من قوة يتجولون يستجدون الطعام . وإذا كان لدى أي منهم ما يكفي من المال فإنه يشتري قربة ويسير نصف ميل إلي النهر ويملأها ويحملها عائداً لبيع الماء في السوق بربع قرش . فرجال كانوا منذ عهد قريب يركبون أجود الخيل ويملكون مئات الجمال قد أخضعوا إلي هذه الطريقة لكسب عيشهم ، بينما يمكن رؤية نساء مسكينات يحملن أطفالهن علي صدورهن وهن يتوجهن نحو السوق بحملهن الثقيل من قرب الماء ثم إنه ليس لديهن وقت لراحة فما أن يجيء المساء حتى يقمن بطحن الذرة وعمل عصيدة يصعب على أطفالهن مضغها ، كما أنه ليس لديهن إلا وجبة طعام واحدة في الأربع والعشرين ساعة .

من المستحيل ألا يلفت نظر المرء حب الأمهات لدى هؤلاء الناس المساكين لأطفالهن وفي نفس الوقت ألا يشعر بغيظ مرير ضد الخليفة وأتباعه القساة الذين يستطيعون أن يوقعوا بهذه الصورة المتعمدة علي أبناء جلدتهم أعمال قسوة لا توصف . آلاف من جمال جهينة قد جلبت إلى أم درمان وبيعت بثمن بخس وهكذا تم تدمير ثروة منطقتهم تماماً . والآن فإن المجاعة الرهيبة التي أوشكت أن تخيّم على البلاد قد اقتربت .

في الوقت نفسه أخذ الخليفة ينظر مع مستشاريه في السماح ببدء الحرب مع الحبشة . وقد جعلته القوة الضخمة التي أصبح يمتلكها الآن ميّالاً إلى الحرب . وبالطبع فإن معظم أمرائه الذين لا هم لهم إلا الخضوع لإرادته وافقوا معه على الحرب . وعندئذ وصلت أخبار إلي يونس أن الراس عدل يقوم باستعدادات ضخمة مما جعل الخليفة في النهاية يقرر الحرب . وبهذا الهدف نصب عينيه فقد أرسل جنراله المخلص أبو عنجة لإدارة العمليات .

ركب الخلفاء الثلاثة الباخرة وعبروا النيل إلي الشاطئ الشرقي ومعهم عبد المولى أخ أبو عنجة الذي كان يقود الجهادية في أم درمان وعدد آخر من الشخصيات البارزة . وهناك قاد الخليفة عبد الله بنفسه القوات . ولعدة أيام قبل بدء الحملة ، تم الاستيلاء علي كل مركب للنقل وهذه المراكب قد تم الآن تحميلها بالمؤن للجيش . لكن ماذا عن زيادة التحميل وقوة التيار . عدة مراكب قد غرقت كما غرق فيها عدد من الناس . لكن ليس لهذا أهمية كبيرة لأن حياة البشر ذات قيمة ضئيلة بين الدراويش .

تقدمت القوات في فرق علي طول شاطئ النيل . وقبل أن ينصرف عنهم أخيراً خاطب الخليفة قائده أبو عنجة وأمراءه حاثاً لهم علي أن يكونوا متحدين دائماً وأن يضعوا نصب أعينهم المكافآت التي ستكون من نصيبهم عند رجوعهم وواعداً لهم بإعانة المهدي لهم وبحتمية النصر .

أُلقيت هذه الخطبة بأسلوب مؤثر للغاية بحيث استمرت الدموع من معظم هؤلاء المحاربين الأقوياء . والخليفة نفسه قطعاً لم يكن جاهلاً بخطورة الخطوة التي اتخذها لأن الحبشة كان ينظر إليها بأنها قطر أقوى حتى من مصر . تبع أبو عنجة قواته في باخرة حتى أبو حراز التي يلتقي بالقرب منها خور الرهد بالنيل الأزرق والذي يكون خلال الشتاء ممتلئاً وصالحاً للملاحة حتى القلابات تقريباً .

قبل بعض الوقت تم إرسال عبد الله ود إبراهيم وإسماعيل ود الأندوك لجمع المحاربين من الجزيرة . والآن انضموا إلي أبو عنجة الذي بلغت كافة قواته ٨١٠٠٠ مقاتل . بعد وقفة قصيرة في القلابات تقدم أبو عنجة داخل الأراضي الحبشية تاركاً ود علي في القلابات . وبالسير السريع اتخذت القوات طرقها فوق الجبال وعبر الوديان خلال أكثر الأراضي وعورة . مات عدد من الإجهاد ولكنهم ما زالوا مستمرين في التحرك إلي الأمام . لم تواجههم أية مقاومة . فالقرى التي مروا بها كانت مهجورة . وحيثما توجهوا وجدوا المؤن بكميات وفيرة . هذه البلاد الرائعة كانت مصدر دهشة قوية بالنسبة للدراويش .

في الوقت نفسه جمع الراس عدل قواته في سهل دبراسين الكبير وهو يقع على مسيرة

ست أيام من القلاّبات . وهنا انتظر زحف أبو عنجة بصبر . وعندما اقترب الدراويش ، قتل الأحباش أو شوهوا عدداً من قوات الجزيرة التي لم تستطع مواكبة زحف الجيش وتخلفت عنه .

عند وصوله إلى السهل رتّب أبو عنجة جيشه في تشكيل الاصطفاف للحرب ووضع نفسه في وسط مربع يتألف من أفضل قواته . تقدم نحو المعسكر الحبشي الذي كان ممتداً كثيراً وقواته على مد البصر .

هاجم الأحباش الآن بتهور وعدم نظام . لقد حاربوا بشجاعة الأسود دفاعاً عن دينهم وأرض آبائهم ضد المسلمين المكروهين الذين تجرأوا على غزو بلادهم . قاتل الخيّالة خاصة بشجاعة متهورة للغاية ولكن العساكر السود التابعين لأبو عنجة أظهروا هنا كما في غيره من الأماكن مناقبهم القتالية المتينة . لقد حصدوا حشوداً من الأحباش بالآلاف بنيران أسلحتهم المسددة بدقة بينما كان الأحباش يحاولون دون جدوى اختراق صفوفهم الصلبة . وسرعان ما تأكد نصر أبو عنجة . لقد انتصر من خلال الانضباط الجيد لقواته وتنظيم قواته ونيران الرمنجتون . والآن أصبحت بقية القتال مجرد مجزرة استمرت إلى أن تعبت القوات للغاية . لقد سقط معظم الزعماء البارزون في جيش الراس عدل وكان ضمن الأسرى أحد أبنائه الذي تمت العناية به عناية فائقة وأرسل إلي القلاّبات .

وقع المعسكر بأكمله بما فيه من خيام لا يحصى عددها وحمير وبغال في أيدي الدراويش . كانت الحيوانات التي استولوا عليها بأعداد هائلة حتى أن الدراويش لم يستطيعوا أخذها معهم . ونتيجة لذلك إما قطعوا عراقيبها أو ذبحوها وتركوها . وضمن الأشياء الأخرى التي تم الاستيلاء عليها مدفعان .

الطريق إلي غندار العاصمة السابقة للحبشة أصبح الآن خالياً فتقدم أبو عنجة نحوها آملاً في الحصول علي كميات كبيرة من الكنوز . كانت المسافة إلي غندار مجرد ٣٠ ميلاً من ميدان المعركة وسرعان ما وصلها وبدأ في نهبها وسلبها وحوّلها إلي رماد . وتم نهب الكنائس ثم أحرقت وألقي بالقسس من سقوف الكنائس فقتلوا كما تم قتل السكان وأما النساء والأطفال فقد سحبوا بالمئات كعبيد .

أقام أبو عنجة فترة قصيرة في غندار فتغيير المناخ تسبب في كثير من الوفيات بين قواته فعاد إلي القلاّبات محملاً بالغنائم ووصلها في نهاية ديسمبر .

في الوقت نفسه كان هناك قلق عظيم في أم درمان . فالخليفة عبد الله لم يخف تخوفه لأنه من المعلوم أن الجيش الحبشي قوي جداً . وأبو عنجة عبر الحدود قبل ثلاثين يوماً وما زالت لم تصل أخبار إلي الخليفة . فالذين لا يريدون الخير للدراويش ، ابتهجوا بفكرة أنه لابد أن قسماً كبيراً من الجيش قد تم تدميره . وقد ظهرت آثار القلق على الخليفة إذ بدا عليه الكبر في هذه الفترة العصيبة . وبالإضافة إلي ذلك فهناك دعوة النبي محمد الذي منع أتباعه من شن الحرب علي الحبشة إلا إذا بدأوا هم بها . فحملة أبو عنجة كانت عصياناً مباشراً لهذا الأمر . وقد رؤى أنه لابد أن يكابد الهزيمة كعقاب له . وقيل إنه إذا رجع أبو عنجة سالماً فعندئذ لابد أن يكون النبي كاذباً وكذلك المهدي .

وأخيراً فإن وصول اثنى عشرة رأساً التي أرسلها أبو عنجة إلي القلاّبات دلّت بما لا يدع مجالاً للشك أن نصراً عظيماً قد تم . والآن فإن أخبار تدمير غندار ورجوع قوات أبو عنجة المنتصرة فرّجا من القلق الرهيب .

سرعان ما أعقبت هذه الأخبار وصول أعداد من النساء والأطفال وكميات من الغنائم . عدد من هؤلاء الأسرى التعساء مات في الطريق وأولئك الذين لم يتم بيعهم قطعت آذانهم وأرسلوا إلى بيت المال .

ذهب الخليفة عبد الله بنفسه دون أدنى خجل إلي بيت المال واختار جميع البنات الجميلات لضمهن إلي حريمه . وتلقى كل واحد من أعيان عائلته بنتاً حبشية كهدية . تلقى أبو عنجة ثناء عظيماً من الخليفة وأنشدت أشعار كثيرة في تمجيده . وقبيل وصوله إلي أم درمان خرج المنادون يصيحون في المدينة أنه لا يجوز بعد ذلك مخاطبته باسم أبو عنجة بل " سيدي حمدان " وخرج الخليفة بنفسه لمقابلته خارج المدينة وبدت عليه دموع الفرح عند رؤيته . واشتملت الغنائم علي ثلاثين ألف ريال ماريا تريزا استولي عليها الخليفة في الحال .

الباب الرابع عشر

يوحنا ملك الحبشة يقتل في المعركة

تدمير قبيلة الكبابيش وقتل صالح بك . الأحداث في دارفور . ثورة أبو جميزة . قتله وتدمير جيشه . رابح الزبير . ابن الملك ثيودور يزور أم درمان . مؤامرة « سيدنا عيسى » . موت أبو عنجة . يوحنا ملك الحبشة يهاجم القلابات . نجاح الحبش ولكن ملكهم يقتل . الانتصار يتحول إلى هزيمة . رأس الملك يرسل إلي أم درمان .

دعونا نترك الحبشة للحظة ونلتفت إلي سير الأحداث في أجزاء أخرى من البلاد . فالمعارض الأقوى ذو العزيمة القوية ضد المهدية كان صالح بك فضل الله ود سالم أخ الشيخ التوم شيخ الكبابيش الذي تم إعدامه في الأبيّض . لدى هذه القبيلة أعداد هائلة من الجمال والضأن وموقعها في الصحراء بين دنقلا وكردفان . وكانت تدفع سابقاً ضرائب للحكومة تصل إلى ١٠٠٠٠٠ ريال في السنة . وهم يقومون بجميع أعمال النقل بين دنقلا وكردفان . وينبغي أن نتذكر أن صالح بك قد جاء إلي معسكر المهدي أثناء حصار الأبيّض ولكنه ترك المعسكر فجأة وأصبح منذ ذلك الوقت ألد أعداء المهدي .

في سنة ١٨٨٤م قدم مساعدة كبيرة في صورة جمال للحملة الإنجليزية وكان هو في صراع مستمر مع الدراويش .

وعندما دعّم الخليفة عبد الله سلطته صمم علي التخلص من هذا المتمرد . كان صالح بك في ذلك الوقت ضعيفاً لأن الكثيرين من قبيلته التحقوا بصفوف المهدية وحاربوا ضده . وقد علم صالح أن الخليفة ينوي توجيه ضربة قوية لسلطته ، لذلك استغاث بالحكومة المصرية لمساعدته وأرسل خمسين من عبيده إلى وادي حلفا . منحتهم الحكومة المصرية مائتين من بنادق الرمنجتون و أربعين صندوقاً من الذخيرة ومائتي جنيه نقداً . -

نيوفلد تاجر ألماني انضم إلي رجال صالح عند عودتهم إلي كردفان قاصداً إن أمكن استئناف التجارة مع شيوخ العرب في الصمغ وريش النعام . علم النُّجومي الذي كان آنذاك في دنقلا من خلال جواسيسه بمغادرتهم فاحتل آبار واحة سليمة علي درب

الأربعين الذي من المحتمل أن يمر به الكبابيش . وبعد خمسة عشر يوما من مغادرة وادي حلفا وصلت القافلة الصغيرة إلي الواحة ليستقبلها الدراويش بالرصاص . قتلت معظم القافلة . وقليلون بما فيهم نيوفلد أخذوا أسرى إلى دنقلا . وهناك أعدموا باستثناء نيوفلد الذي أرسل إلي أم درمان حيث وصلها في الأول من مارس ١٨٨٧م .

الاستيلاء علي القافلة والأسلحة كان ضربة قوية علي صالح . والآن لم يتأخر الخليفة في تنفيذ نواياه . فقد أرسل الأميرين قريقر حامد وود نوباوي من بنى جرّار ضده . في القتال الأول كان صالح متفوقاً ولكنه فقد أخاه وعدداً من الرجال . وبعد هذا فإن عدداً من عرب دار حمر الذين كانوا متحالفين معه قد تركوه وانضموا إلي الجانب الآخر . وباحتلال الدراويش لآبار محبس وهى مصدر المياه الوحيد في المنطقة لم يبق الآن لصالح إلا أن يقاتل . وقام صالح ورجاله بالأعاجيب من أعمال الشجاعة وقتلوا أعداداً كبيرة من الدراويش . لكن مما أعاق حركته العدد الكبير من تابعيه من النساء والأطفال الذين يصعب الدفاع عنهم . وأخيراً وعندما رأى أخاه الثالث يسقط أمام عينيه نزل من فرسه وجلس على فروة الصلاة وانتظر للقاء الموت فقضى عليه أحد أقرباء الأمير قريقر الذي كان بينه وصالح ثأر إذ أن صالح قتل كلاً من والد وعم قريقر.

تقول رواية أخرى أن قريقر جرح صالح جرحاً بالغاً في الرأس بفأسه ولكن صالح قام بطعن قريقر بسيفه وأن الاثنين قد وقعا من فرسيهما وماتا . وقع هذا القتال في السابع عشر من مايو ١٨٨٧م . وبموت صالح فإن الخليفة قد نجح في تخليص نفسه من أكثر عدو كان يخشاه . وقد أرسل ود آدم برأس صالح إلى أم درمان حيث تم تعليقه في المشنقة لمدة شهر وقد رأيته بنفسي .

بعد موت صالح تم التعامل مع قبيلة الكبابيش بمنتهى القسوة . تم إحضار عدد منهم إلي الأبيّض كأسرى وتم إعدامهم . وفي مناسبة واحدة قام ود آدم بإعدام مائة منهم شنقاً ثم القي بجثثهم في بئر . وفي نفس المساء سمعت أنّات صادرة من البئر وقد وجد أن أحد الضحايا ما زال حياً وقد تم إخراجه وسمح له بأن يعيش . وتمت مصادرة الإبل والضأن التابعة لهذه القبيلة الغنية وأحضرت كلها إلي بيت المال في أم درمان . وتم

قتل معظم النياق وبيعت بحوالي ريالين للناقة . وبهذه الطريقة دمر الدراويش إمكانية تناسل الإبل ودمّروا بذلك رخاء البلاد وخيرها .

فالكبابيش التي كانت من قبل قبيلة قوية قد اختفت الآن بل أصبحت نادراً ما تذكر . وحيث أن الخليفة قد هزم بهذا آخر أعدائه ، بدأ الآن العمل بجد لإنضاج خططه لغزو مصر .

لكن قبل الدخول في هذا الجزء من قصتي فربما كان من الأفضل إعطاء وصف تاريخي مختصر لدارفور والأحداث الأخيرة التي وقعت هناك .

كانت دارفور ، على مدي القرون الأربعة الماضية ، محكومة من قبل سلاطينها المحليين الذين مدوا سلطانهم تدريجياً إلي كردفان . وهنا أصبحوا لأول مرة في تماس مع الحكومة المصرية . أرسل محمد علي باشا ابنه إسماعيل باشا للاستيلاء علي السودان . وبينما كان إسماعيل مشغولاً بإخضاع الملوك الصغار في شندي والحلفاية كان الجنرال أحمد بك الدفتردار زاحفاً من دنقلا إلى داخل كردفان . كانت هذه المديرية تدار حينئذ من قبل مقدوم معين من قبل السلطان مسلّم سلطان دارفور . وعندما سمع بتقدم الأتراك جمع قوة كبيرة وانتظر الغزاة في بارا . وقد أبلغه الجواسيس أنه من المستحيل مقاتلة الأتراك حيث أنهم يستخدمون الأسلحة النارية . لكن المقدوم سخر من الفكرة وقال إنه لا يخشى النار . وأضاف إلى ذلك وليدلل على قوله أمر بجمع كمية من حطب الأشجار الشوكية والأغصان المقطوعة وتم إشعال النار فيها وأمر خيّالته بالاندفاع خلالها وقام هؤلاء الفرسان الشجعان بما أمرهم به . ولم يصابوا بأذى كبير . وهكذا بهر أتباعه بأنه لا يجدر بهم الخوف من الأتراك . ولكن ذلك الرجل الطيب لم تكن لديه فكرة عن الأسلحة النارية . وهكذا واجه هجوم الأتراك بصورة غاية في البطولة . لكنه سقط كما سقط معظم أتباعه وأصبحت المديرية من الأملاك المصرية بالرغم من أنه لم تتخذ خطوات لتأسيس حكومة هناك .

أما دارفور فلم تخضع للحكم المصري التركي حتى أغسطس ١٨٧٤م حين هاجم صائد الرقيق الشجاع الزبير باشا واستولى علي مملكة شكا القديمة وهكذا استطاع

إسماعيل باشا مد السلطة المصرية على دارفور .

منذ ذلك التاريخ لم يعرف الإقليم طعماً للسلام . إذ كانت هناك سلسلة مستمرة من الحروب الصغيرة . فسلاطين باشا خاض سبعاً وعشرين معركة علي الأقل . ثم بعد هزيمة هكس باشا جاء الدراويش وأصبح زقل أمير دارفور مقيماً في الفاشر ولكن عهده لم ينعم بالسلام . فالسلطان دود بنجه قد تمت محاربته والتغلب عليه وأرسل إلي أم درمان أسيراً في ١٨٨٤م . ومن هناك أرسل إلي القلاّبات حيث مات هناك . وبعد هذا فقد ترك زقل لا ينازعه أحد ونجح في جمع ثروة كبيرة . ولكن عندما مات المهدي استدعى زقل كما رأينا إلي أم درمان وترك دارفور في يد السلطان يوسف بن السلطان دود بنجه . وهذا السلطان كان خاضعاً تماماً للخليفة عبد الله . فعندما ثار الشيخ مادبّو زعيم قبيلة الرزيقات ضد كرم الله أمير الدراويش علي مديرية بحر الغزال وهرب إلي جبل مرة ، قبض عليه الأمير يوسف وأرسله إلي كرم الله الذي أرسله إلي أبو عنجة الذي قطع رأسه في الأبيّض .

لكن الخليفة لم يرغب في أن تستمر دارفور في هذا الوضع شبه المستقل . لذلك أمر كرم الله بمهاجمة المنطقة من دارا . وطلب السلطان يوسف الالتزام باحترام الحدود المشتركة بينه والدولة المهدية . ولكن كرم الله زاد في التوغل في دارفور . ودفاعاً عن النفس أرسل السلطان يوسف جيشه . وهكذا بدأت الحرب وهذا ما كان يريده الخليفة عبد الله . تحالف يوسف مع السلطان سعيد بجبل مرة وهزمت قواتهما المشتركة القوة التي كان يقودها كتنبور التي أرسلها كرم الله .

ونتيجة لهذه الكارثة أرسل الخليفة عبد الله عمه عثمان ود آدم الملقب باسم (جانو) على رأس قوة إلي شكا حيث انضم هناك إلي كرم الله . وخوفاً من أن تكون هناك خيانة قد حيكت ضده أرسل السلطان يوسف قوة كبيرة جداً . وفي شهر ديسمبر وقعت معركة كبيرة أبيد فيها الفور تقريباً . وقد قيل إن كركساوي شقيق كرم الله قتل كثيراً من الرجال بسيفه حتى أن يده اليمنى أصبحت مقوسة .

وما أن وقعت دارفور ضحية للدراويش المتعطشين للدماء ، حتى واصل عثمان ود آدم

مسيرته المنتصرة إلي الفاشر . وعندئذ فر كل من السلطانين يوسف وسعيد إلي جبل مرة وطلبا مساعدة السلطان جبر الله . فأرسل عثمان قوات تتعقبهما . وافترق يوسف عن جبر الله وفر مرة أخرى ، بينما خان جبر الله سعيد الشجاع وقتله وأرسل رأسه إلي عثمان . وبعد زمن وجيز فيما بعد تم القبض علي يوسف و أحضروه إلي الفاشر وهناك تم قطع رأسه . وأخيراً وصل رأسا هذين السلطانين إلي أم درمان وعلقا بجانب رؤوس الأحباش حيث رأيتهم في يناير ١٨٨٨م .

بعد هذا رجع آسر السلطان سعيد إلى الفاشر بينما جبر الله الذي كان يتوقع مكافأة كبيرة علي مسلكه الخائن تم إرساله مع أولاده الخمسة لمقابلة الخليفة في أم درمان . وقد سمح له بحرية لبعض الوقت ولكن عند محاولته الهرب تم وضعه وأبناؤه في القيود . ومات أربعة من الأبناء الخمسة في السجن . وقبيل هروبي رأيت جبر الله التعيس وابنه الوحيد الباقي في حالة يرثى لها في شوارع أمدرمان.

للمرة الثانية أصبحت دارفور مديرية تابعة للدراويش تحت إدارة عثمان ود آدم . واعتقد الخليفة أن جميع المعارضة قد انتهت وأنه لم يبق شيء يخشاه من هذه الناحية . وفي الواقع أن معظم السكان قد قتلوا وأن قلة من الشيوخ الذين نجوا قد لجأوا إلي منطقتي دار تامه ودار مساليت ولكنهم لم يوقفوا نشاطهم فقد كانت هناك اجتماعات مستمرة بحثوا فيها كيفية الخلاص من « أعداء الإسلام » كما كانوا يسمون الدراويش .

المساليت قوم متوحشون وقساة إلى أبعد حد . فقد كان من عادتهم صُنع قِرب حمل المياه من جلود القتلى من أعدائهم . وقد أخبرني سلاطين بك أنه عندما كان في دارفور كانت لديه اثنتان من هذه القِرب إحداهما من جلد رجل والأخرى من جلد أنثى . وكان يحتفظ بهما كتحف غريبة . وقد ذهب بعض شيوخ دارفور إلي حد طلب المساعدة من سلطان برقو . ولكن الأخير رفض التدخل بأي صورة مع الدولة المهدية . وعندئذ ظهر فجأة بين المساليت رجل لم يعرف إلا القليل عن أصله وأبرز نفسه كعدو رئيسي للدراويش المكروهين الذين نهبوا وسلبوا واغتصبوا وقتلوا كل من وقع في قبضتهم وذلك باسم الإسلام .

إن هذا التأثير الذي أوجده هذا « الفكي » أو المرشد الديني قد جذب إليه جماهير الغرب التي تؤمن بالخرافات حتى أن البعض منهم قال لابد أن يكون هذا الرجل هو المهدي الحقيقي . والبعض قال إنه الخليفة الرابع (عثمان) وكثيرون قالوا إنه الشيخ السنوسي المشهور الزعيم الديني العظيم لجميع قبائل شمال أفريقيا والذي امتد نفوذه حتى أفريقيا الوسطي . والبعض الآخر زعم أنه مجرد مبعوث من الزعيم السنوسي .

هذا المصلح الديني أو المغامر لقب نفسه باسم « أبو جميزة » تبعاً للشجرة المعروفة بالجميزة . وقد قيل إن ظلها يلازمه حيثما حل .

وفي أم درمان شاعت جميع أنواع القصص الغريبة عن مواهبه الخارقة . فالبعض قال إن له قوة عجيبة لزيادة الطعام . فهو يجعل الطبق العادي المليء بالطعام كافياً لمئات الناس . والبعض قالوا إنهم رأوه يخرج اللبن من أطراف أنامله . وقيل كذلك إنه يستطيع أن ينتج في لحظة جميع أنواع الأشياء اللذيذة المذاق . وأنه يستطيع إخراج نخلة من أرض جرداء وفي ظرف ساعة تمتلئ بالثمار . وفي مواعظه وخطاباته وبّخ الخليفة لظلمه وقتله للمسلمين وأخذه نساءهم لنفسه . وهي جريمة لا يرتكبها إلا الكفار . وأعلن عزمه أنه بعون الله سوف يحضر إلى أم درمان لإبادة « أعداء الله » حسب تسميته للدراويش .

ولقد أثارت أقوال وأفعال هذا الشخص غير العادي انتباهاً هائلاً في جميع أنحاء السودان . ظهر المهدي أولاً في الغرب والآن ظهر مناوئ للمهدي من الغرب أيضاً . واتبعت رايته أعداد غفيرة من الأتباع . ولم يكن الفور المتعطشون للانتقام وحدهم هم الذين اتبعوه بل إن أناساً من البرنو والبرقو ووداي قد تجمعوا حوله .

أرسل عثمان ود آدم قوة ضد أبو جميزة ولكن الأخير أبادها . فطلب من الخليفة أن يرسل إليه تعزيزات واستجابة لهذا الطلب أرسل إليه الخليفة عدداً من عرب بنى جرّار ولكن تمت إبادة هؤلاء عن أخرهم . وقد زاد هذان الانتصاران المهمان من نفوذ أبو جميزة بدرجة عظيمة . ولما رأى الخليفة أن السودانيين المضطهدين تحت حكمه يبتهجون سراً لهزائمه بدأ هو نفسه يرتجف من نذر زوال سلطته .

أرسل عثمان حملة ثالثة ضد أبو جميزة فلاقت نفس مصير الحملتين السابقتين . والآن صب الخليفة جام غضبه على عامله الفاشل . وفي أكتوبر ١٨٨٨م كتب إليه لينسحب فوراً إلي الفاشر وأن يحصر نفسه كلياً علي العمليات الدفاعية وألا يهاجم العدو بأي حال من الأحوال . وقد أثارت هذه الأنباء الناس في أم درمان إثارة عظيمة . وبالغ الناس في أهمية انتصارات أبو جميزة مبالغة عظيمة حتى لقد قيل إن عثمان نفسه قد قتل وأن الفاشر قد سقطت وأن أبو جميزة على وشك غزو كردفان . ثم جاءت الأخبار بأن الأبيّض قد سقطت . والآن أصبحت الأفراح بهزيمة الخليفة سراً مكشوفاً . لكن هذه الشائعات المفعمة بالتحيز ما هي إلا نتيجة رغبة وشوق عارمين من جانب سكان السودان التعساء الذين يئنون تحت نير الدراويش ليروا أنفسهم أحراراً مرة أخرى من الظلم الطغياني الذي جلبه عليهم سلوكهم الناجم عن قصر نظرهم .

حقيقة أن أبو جميزة كان ناجحاً للغاية . فقد هزم عثمان ثلاث مرات فأصبح الآن محاصراً في الفاشر وفي حاجة كبيرة للطعام . فجميع دارفور وقفت مع أبو جميزة وكاد الدراويش أن يصبحوا في حالة عجز تام . وفي أوج نجاح أبو جميزة سقط فجأة بداء الجدري ومات في كبكابيه في فبراير ١٨٨٩م . وتسبب موته في ترك الكثير من أتباعه للحركة . ولولا أن خليفته قد هاجم الفاشر لكان من الممكن أن ينجح في التخطيط لهزيمة عثمان الذي كان مقطوعاً تماماً عن الإمداد وفي ضائقة وعسر شديدين . فقد شعر خليفة أبو جميزة أن عليه أن يفعل شيئاً للحفاظ على وحدة جيشه . ولكن مما أعاق جيشه العدد الكبير من النساء والأطفال والأتباع . وكان يفتقر إلي الأسلحة النارية بينما كانت لدى عثمان إمدادات كافية من البنادق والذخيرة ، كما قاتل جنوده من الشايقية بصورة رائعة .

جرت المعركة النهائية تحت أسوار الفاشر في الثاني والعشرين من فبراير ١٨٨٩م وانتهت وقتل خليفة أبو جميزة والآلاف من أتباعه . وكانت تلك هي الضربة القاضية للحركة كما أنها مثال علي كيفية انخداع المسلمين بسهولة للمغامرين الدينيين .

عدد ممن التحقوا ثم انسلخوا عن المهدية مقتنعون تماماً باحتيالها وخداعها قد

تحالفوا دون تردد مع هذه الحركة الدينية الجديدة التي اندفعوا فيها بحماس أكبر من حماسهم للمهدية . لذلك كان وقع انهيار هذا الوهم الجديد أعظم نسبياً . وقد أرسلت رؤوس أبو جميزة وعدد من قادته البارزين إلى أم درمان حيث علقت على أعواد المشانق ثم رميت فيما بعد في الحفرة التي احتوت علي جماجم المرضى والأحباش والسود المتمردين .

انتصار عثمان أثلج صدر الخليفة ربما أكثر من نجاح أبو عنجة في إثيوبيا وذلك لأنه اعتبر دارفور دائماً مكاناً يلجأ إليه حيث لديه خط تقهقر آمن في حالة الهجوم عليه من الشمال .

أما عثمان المنتصر فقد صب جام غضبه على القبائل التي ساندت حركة أبو جميزة . وبصورة خاصة وقعت قبيلة بنى هلبه تحت قبضته التي لا ترحم حيث تكاد أن تكون قد أبيدت . لكن البلاد أخذت بعض الوقت لاستعادة وضعها العادي . ونتيجة لذلك كان على الخليفة أن يضيع فرصة الاحتفالات بدعوة عثمان إلي أم درمان وإغداق الهدايا وأنواع التكريم عليه كما فعل مع أبو عنجة ومع ذلك فقد بنى له الخليفة بيتاً بالقرب من المسجد واستعد لإسباغ كل أنواع التكريم عليه عندما يصبح حضوره من دارفور ممكناً .

لكن ذلك لم يحدث . فقد سقط عثمان المنتصر مريضاً ومات بعد ذلك بقليل في الفاشر . وخلفه محمود ود أحمد أخ الخليفة ورافقه إلي الفاشر القاضي سليمان الحجازي . وهذا الأخير تم إبعاده إلى دارفور بسبب خلاف بينه وبين الجاسوس الرئيسي للخليفة الحاج الزبير .

عند وصول محمود ود أحمد إلي الفاشر أمره الخليفة إرسال جميع الأموال الموجودة بخزانة المرحوم عثمان وأن يستولى على جميع خيله ونسائه وهلم جرا ويحتفظ بذلك لنفسه . غادر محمود أم درمان مع عدد كبير من أتباعه وسافر عن طريق الأبيّض وفي النهاية وصل إلي مديريته . وهنا وجد البلاد خراباً . فخلال الحروب الحديثة أهملت جميع أنواع الزراعة وبدأت مجاعة فظيعة . ولم يجد محمود ود أحمد طعاماً لجنوده . وعند إبلاغ الخليفة بذلك أمره بالتراجع إلى ناهوت في كردفان فنفذ الأمر ولكن

عساكره السود لم يعجبهم هذا التغيير فتآمروا لقتله والفرار إلي دارفور . فقد حاولوا تنفيذ المؤامرة في إحدى الليالي ولكن لفشلهم في تأمين الذخيرة التي كانت ضرورية لنجاح المحاولة فروا من المعسكر وكان عددهم ألف رجل قاصدين الانضمام إلى رابح الزبير باشا .

والمدعو رابح هذا قد تربى أصلاً في عائلة الزبير باشا وأظهر مقدرة عسكرية وفي الوقت الذي قمع فيه جسي باشا الثورة في بحر الغزال ، تلك الثورة التي قادها سليمان بن الزبير باشا وقبض علي سليمان وأعدمه ، فر رابح ببقايا قوات سليمان نحو بلاد برنو . وبعد الكثير من المغامرات الغريبة والإشتباكات العسكرية المستمرة مع ممالك برنو ووداي وغيرها ، نجح في توطيد وضع مستقل لنفسه علي ضفاف نهر شارى الذي يصب في بحيرة تشاد . وهنا جمع حوله قوة عسكرية كبيرة . كما يبدو أنه أقام أخيراً علاقات طيبة مع جيرانه . هذا وقد أرسل الخليفة إليه كثيراً من الرسائل التي يدعوه فيها إلي العودة إلى أم درمان حيث سيتم استقباله بحفاوة كبيرة ولكن رابح رفض هذا العرض بإصرار .

وعندما كان عثمان جانو في الفاشر اتصل به أيضاً في هذا الموضوع ولكن رابح الذي عرف بدهائه مقاصد الخليفة ، استدعى فقيهاً (فكي) كان في أم درمان لمساعدته في اتخاذ القرار الصحيح . وكان الفكي يعرف تماماً شخصية الخليفة . وعندما أخبر رابح الفكي بتلقيه رسالة من عثمان جانو ، طلب الفكي إحضار ديك وشرع في نتف جناحيه عن عمد ثم ربط رجليه معاً ثم نزعهما تماماً وأخيراً قطع رأسه . لم ينطق الفكي بكلمة ولكن رابح فهم بجلاء مغزى الإجراء الذي قام به الفكي وتوصل إلى القرار الحكيم بالبقاء حيث هو . وكانت آخر أخباره أن جزءً من جيشه رجع ودخل دار فرتيت وهي البلاد الواقعة شمال غربي بحر الغزال .

وأما بالنسبة إلى محمود ود أحمد فبعد الاضطرابات في ناهوت فإنه أرتد إلى الأبيّض في ١٨٩٠م وترك دارفور لمصيرها . وأصبحت جميع أجزاء دارفور التي تتاخم كردفان خالية من السكان تماماً . وأصبحت قطعان من الفيلة تجوب السهول حتى مدينة

الفاشر . كما أن هناك حروباً مهلكة مستمرة مما زاد من نزوح السكان وخلق أراض مقفرة كانت تعج بالسكان من قبل .

دعونا نعرّج الآن على العمليات الحربية ضد إثيوبيا . نتيجة لانتصار أبو عنجة على الراس عدار . فالقبائل الموجودة على الحدود الشمالية الغربية لإثيوبيا والمعروفة باسم المكاده اعتنقت المهدية . وفي هذا الوقت كان تادرس كاسا بن الملك ثيودور الذي هزمه الإنجليز في معركة مجدلا قد ظهر فجأة في القلاّبات وعرض خدماته علي الدراويش ليقاتل ضد أبناء وطنه . وعلى الفور تم إرساله إلى أم درمان حيث استقبله الخليفة بأبهة عظيمة ووعد بتتويجه ملكاً علي إثيوبيا . ورداً علي ذلك الوعد وافق تادرس على اعتناق جميع الإثيوبيين للإسلام و دفع إتاوة سنوية للخليفة .

وقبل أن نذهب بعيداً قد يكون من المناسب أن نوضح بإيجاز من هو هذا « التادرس » . هو الابن الثاني للملك ثيودور الذي كان قد هزمه الجيش الإنجليزي وأن ابنه الأكبر قد أخذه الإنجليز إلى بلادهم حيث مات هناك . في ذلك الوقت كان تادرس مجرد طفل وقد أخفاه أقاربه من الملك يوحنا الذي كان يريد قتله . وعندما كبر تجول في إثيوبيا . وأثناء تجواله تصادف أن كان بالقرب من القلاّبات وفي نفس الوقت كان أبو عنجة قد قام بهجومه الناجح علي إثيوبيا . وفي الحال خطر ببال تادرس أن حلفاً مع الدراويش قد يضمن له عرش والده . ولقد رأينا كيف خدع الخليفة الذي صدق تماماً في حسن نواياه .

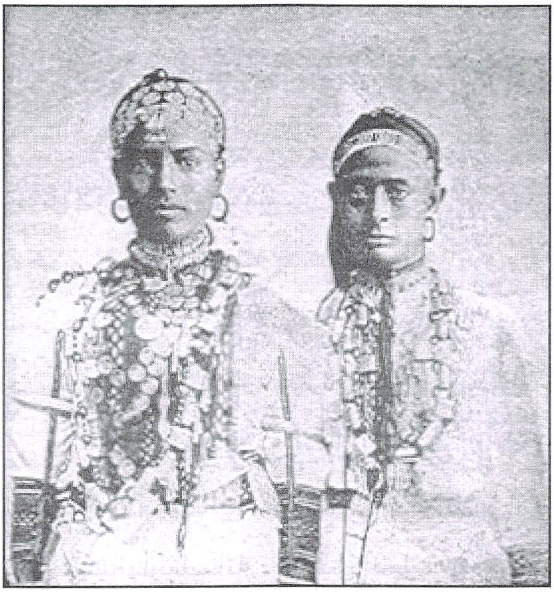
كان لدي تادرس ولدان في عمر اثنتي عشرة سنة وأربع عشرة سنة . وكانا يصحبانه دائماً أثناء تجواله في أم درمان . وكان يحمل دائماً شمسية حمراء جعلته أضحوكة بين الناس . وكان لا يعرف اللغة العربية وتتم المخاطبة معه بواسطة مترجم .

بين النساء اللواتي أخذهن أبو عنجة كجواري في حربه ضد إثيوبيا ، كانت هناك بنتان وقعتا بالصدفة في ملكية أحد أصدقائي . هاتان البنتان كانتا من أقرباء تادرس . وعندما سمع تادرس بهما قام على الفور بدفع مبلغ مقابل تحريرهما وفي النهاية أخذهما معه إلى القلاّبات . لقد تعودنا أن نتحدث إليه كثيراً إذ لم يكن خائفاً على الإطلاق . وقد حدثنا عن مشاريعه ونواياه الحقيقية . هذا وفجأة ودون إنذار مسبق

تحرك أبو عنجة إلي القلاّبات ولم يدر أحد لماذا . وكان الافتراض عموماً أن بعض المعلومات الهامة للغاية قد وصلت إلى الخليفة . أخذ أبو عنجة تادرس معه .

قبل أن يغادر سأل أبو عنجة الخليفة إلي من تكون مرجعيته في حالة وفاة الخليفة . رد عليه الخليفة بأن يرجع إلي أخيه يعقوب . ومن هذه الواقعة فهم عموماً أنه نوى الإبقاء على الخلافة في عائلته .

بعد مغادرة أبو عنجة بقليل ، تسلم الخليفة من الملك يوحنا مذكرة باللغة الأمهرية مكتوبة علي جلد . وقام بترجمتها للخليفة إثيوبيان يوجدان في أم درمان فحواها أن الملك يوحنا مستعد لعقد معاهدة سلام معقولة مع الخليفة . وبنى حجته على أن الجميع من سودانيين وإثيوبيين لهم أصل مشترك من



راقصتان إثيوبيتان

خلال جدهم المشترك حام . وبما أنهما جاران فينبغي عليهما توحيد الجهود للقتال ضد عدوهم المشترك وهم الأوربيون الذين تتوسع قوتهم على الدوام . رد الخليفة على

ذلك أنه إذا تحول يوحنا إلى الإسلام فإنهما سوف يصبحان صديقين حميمين ولكنه إذا رفض ذلك فإن الخليفة مضطر لنعته بعدو الله ورسوله وأنه لا سبيل آخر لديه سوى إبادته .

عند وصول أبو عنجة إلى القلاّبات بدأ أعنف حسد بينه ويونس الدكيم وقد فصل الأخير معسكره عن معسكر أبو عنجة ولم يفوّت فرصة لإظهار كراهيته وحسده لهذا " العبد " ـ كما يسميه ـ الذي هزم الإثيوبيين بنجاح . وحتى في الاستعراض المعتاد للجيش في أيام الجمعة وبالرغم من أن أبو عنجة كان معيناً كقائد أعلى للجيش كان يونس يقوم دائماً بتدريب رجاله مستقلاً عن بقية الجيش . وقد أبلغ أبو عنجة هذا المسلك إلى الخليفة الذي أمر يونس على الفور أن يضع نفسه تحت إمرة أبو عنجة في جميع الوجوه .

في الوقت نفسه كانت هناك مؤامرة تحاك بين الأمراء في معسكر يونس . فقد لجأ أحد أقبح أنواع التكارير الذي لم يشاهد مثله من قبل إلى الادعاء بأنه سيدنا عيسى أو نبي الله عيسى . وصدقه يونس وأمراؤه ولو أنه خذله فيما بعد . إنه من المستحيل فهم كيفية إمكان تصديق مثل هؤلاء القوم المتعصبين في الهراء الذي يخبرهم به عيسى . بل إنه إذا سمع أن أي شخص لا يؤمن به فإنه يستدعيه على الفور وفي حضور أربعة شهود يحوله إلى عقيدته الجديدة . هذا وقد ادعى أنه هو المسيح الذي أخبر عنه المهدي بأنه الشخص الذي ينزع السلطة من الخليفة . وفي الواقع أن اليوم قد تحدد لقتل أبو عنجة وإعلان مزاعم عيسى على الملأ . لكن يونس خذل المتآمرين وأبلغ أبو عنجة بالمؤامرة . وقام أبو عنجة بعد صلاة الجمعة التالية باستدعاء الستة عشر أميراً المتآمرين وكبلهم بالقيود وكتب إلى الخليفة طالباً تعليماته . فأرسل الخليفة بعض القضاة إلى القلاّبات وطلب منهم إرشاد هؤلاء المضللين إلى الطريق القويم . وتمت محاكمتهم الواحد بعد الآخر ولم ينكر أحد منهم اعتقاده في عيسى . ثم هددهم القضاة بالقتل ولكن عيسى ضحك وقال إنه خالد ولن يموت . وأخيراً لما رأى القضاة أنه لا فائدة في مزيد من النقاش حكموا على عيسى بالإعدام . وفي دقائق تدلت جثته من المشنقة . وحتى هذا لم يشكل دليلاً كافياً للأمراء المضللين الذين ظلوا يعتقدون أنه لم يمت و هكذا تم شنقهم

الواحد بعد الآخر وأرسلت رؤوسهم إلى أم درمان حيث ظلت معلقة في المشانق لمدة شهر ثم دفنت في حفرة . وتم استدعاء يونس إلى أم درمان وظل لبعض الوقت مغضوباً عليه .

وهكذا حقق الخليفة نجاحاً بعد نجاح ضد أعدائه . ولاشك أنه إذا اخفق أبو عنجة في التصرف بسرعة وبحزم مثلما فعل لشكل نفوذ عيسى المتعاظم تهديداً خطيراً لسلطة الخليفة . ولا شك أن هؤلاء الأمراء الستة عشر قد حرّضهم يونس للثورة ضد الخليفة . ووضعهم له على رأس الحركة ، إنهم كانوا يعلمون تماماً أن عيسى ما هو إلا مجرد محتال وخدّاع . وإنني لا أعتقد أنه من الممكن بالمرة بدء حركة على نطاق واسع في بلد مسلم ما لم تؤسس على بعض الأسباب الدينية . فالمهدي لم ينجح إلا بإثارة مشاعر التعصب الموجودة بين أهالي بلده . فنوازع الحرية والاستقلال وحب الوطن هي عوامل غير معروفة في تركيبة المشاعر التي تشكل خلق حركة قومية بين المسلمين .

أبو عنجة الذي طعن في السن الآن وترهل جسمه ، لم يعش طويلاً بعد الأحداث التي ذكرناها آنفاً . فقد أصابته حمى التيفوس التي كانت منتشرة في القلاّبات . وخلال بضعة أيام مات هذا المحارب العظيم الذي أراق كميات كبيرة من الدماء . وحزن عليه جنوده حزناً عميقاً وما زالوا يذكرون اسمه بمحبة وإعزاز . لقد أحبوه لأنه هو نفسه كان من الأرقاء . كما عرف كيف يفرّق بين الصرامة والشفقة . وكان من أفضل أمراء المهدية وذا طبيعة سمحة أكثر من ود النُّجومي وغيره على الإطلاق . جاءت إليه امرأة مسكينة ذات مرة وشكت بأن أحد الجنود أخذ قسراً لبناً منها وهو كل ما لديها لتعيش عليه . أرسل أبو عنجة في طلب الجندي وسأله إن كانت شكوى المرأة صحيحة . أنكر الجندي اللص الحادثة بقوة وأساء إلى المرأة دون رحمة . وكاد أبو عنجة أن يقتنع بأن الجندي يتكلم الحقيقة . ولكن المرأة استمرت في الإصرار بصورة عنيفة بأن الجندي المتهم قد شرب لبنها . وبعد لحظة تفكير أصدر أبو عنجة الحكم التالي : " يتم شق بطن الجندي فإذا لم يوجد لبن تعدم المرأة " وقبلت المرأة هذا الحكم بفرح بينما خضع الجندي لهذه العملية الرهيبة . ووجد اللبن في بطنه وعوّض أبو عنجة المرأة عن خسارتها . وهكذا حافظ أبو عنجة على الانضباط بين جنوده . وطيلة الوقت الذي كان

فيه قائداً في القلاّبات أمن الناس من الخوف . أما في المعارك فإن قسوته لا تعرف حدوداً . وقد ارتكب جنوده أبشع أعمال القسوة خاصة في إثيوبيا . وقد شعر الخليفة بحزن عميق لوفاته وذلك بسبب أنه لم يكن قائداً شجاعاً ومقتدراً فحسب بل مخلصاً للغاية . فأي رجل آخر في مكانه لاستغل سلطته قبل وقت طويل . هذا وتم دفنه في القلاّبات في ١٨٨٨م واعتبره رجاله من أهل الصلاح والبركة .

عند احتضاره عيّن أبو عنجة ود علي ليخلفه إلى أن تصل أوامر الخليفة . ولكن بمجرد وفاته عم السخط بين جنوده وعدم الانسجام بين أمرائه ولم يكن ود علي بأية حال محبوباً لديهم . وما إن وصلت هذه الخلافات إلى أسماع الخليفة حتى أرسل على جناح السرعة القاضي أحمد الذي كان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً إلى القلاّبات مع تعليمات على أن يفعل ما في وسعه لإزالة الخلافات وأن يعين واحداً من الأمراء كقائد ممن يكون محبوباً من جميع الرتب . وبعد عدة اجتماعات نجح القاضي في النهاية في تهدئة الناس وتمت الموافقة بقبول عام لتعيين الزاكي طمل خليفة لحمدان أبو عنجة . وقد أيد الخليفة هذا التعيين فيما بعد .

تم تقسيم جيش القلاّبات الآن إلى أربع فرق وأصبح الزاكي طمل قائداً للفرقة الأولى وقائداً أعلى لعموم جيش القلاّبات أيضاً . وقاد الفرق الثلاث الأخرى عبد الله إبراهيم والنور عنقرة ومحمود ود على . وبالإضافة إلى هؤلاء الأمراء العظام الأربعة كان هناك أيضاً رجال مشهورون في جيش القلاّبات مثل الشيخ أبو تقلا وفرج الله قائد طابية أم درمان أيام غردون باشا وعمر ود إلياس باشا والشيخ نوري من قبيلة البديرية وإسماعيل ود الأندوك وغيرهم . وقد تم زيادة تحصين وتقوية الزريبة الكبيرة في القلاّبات .

كانت هناك شائعات بأن الملك يوحنا يستعد للاستيلاء على القلاّبات . وقيل إنه سوف يتقدم بعد ذلك للاستيلاء على أم درمان ويدمر دولة المهدية تماماً . صحب الملك يوحنا جميع الزعماء المهمين مثل الراس عدار والراس أريا سيلاسي والراس مايكل والراس مريام والراس علولا وصالح شنقه وآخرون .وفي المجموع كان تعداد الجيش ١٥٠٠٠٠ منهم ٢٠٠٠٠ من الخيالة .

أحدثت هذه الأخبار ذعراً عظيماً في القلاّبات وأم درمان ولكن كان لها أيضاً أثر علينا نحن إذ جعلتنا نطلق العنان لأحلام الخلاص اللذيذة . استشار الزاكي طمل أمراءه إن كان من الأفضل انتظار العدو داخل الزريبة أم من المستحسن التقدم وقتاله في العراء . حض القاضي أحمد على البقاء داخل الزريبة وتم تبني نصيحته . وهناك شيء من الشك في أن ذلك الرأي كان الأكثر حكمة إذ لاشك أن الخيالة الإثيوبيين سوف يثيرون الفوضى في صفوف جيش الزاكي . كان تعداد الجيش ٨٥٠٠٠ رجل وكان منظماً تنظيماً جيداً داخل الزريبة لمقاومة الهجوم . جال المنادون في الأسواق بدعوة جميع الناس لترك أعمالهم وحمل السلاح للدفاع عن المدينة . وأرسلت الرسل أيضاً إلى الخليفة لطلب بركاته . وفي الواقع ساد خوف عظيم . ورفع الجواسيس تقارير بأن العدو في كثرته مثل حبات الرمال وأن أعداده ممتدة إلى ما وراء الأفق وأنه عندما يتحرك تثور سحب من الغبار تغطي عين الشمس .

خلفت هذه الأنباء فزعاً في أم درمان . وبجانب ذلك هناك نبوءة قديمة بأن الإثيوبيين سوف يحضرون إلى الخرطوم وأن خيولهم سوف تخوض في الدماء إلى الركب وأن ملكهم سوف يربط حصانه في شجرة منعزلة على النيل الأبيّض بالقرب من الخرطوم .

في نهاية فبراير ترك الملك غندار وسار لخوض حرب مقدسة مع أشد الأعداء تعصباً ضد المسيحية . وعندما أصبح بالقرب من القلاّبات أرسل رسالة إلى الزاكي طمل بأنه آت حتى لا يقال إنه جاء سراً كاللص . وقد انضم أيضاً إلى الجيش الإثيوبي عدد من النساء ومعظمهن زوجات ورفيقات للجنود وكثيرات أخريات هربن من عوائلهن للحاق بعشاقهن في المعركة .

وفي يوم السبت التاسع من مارس ١٨٨٩م بدأ الملك هجومه على القلاّبات . وارتفعت سحب الغبار حتى كاد أن يكون من المستحيل رؤية أي شيء . وتم اجتياح الزريبة . البعض حاول أن يسحب الأغصان الشوكية ليفتح ثغرة والبعض حاول إشعال النار في الزريبة بينما فتح الدراويش نيراناً عنيفة على الأمواج البشرية . وذكر بعض التكارير الذين هربوا من معسكر الزاكي أن الجزء الذي كان يحرسه ود على من الزريبة هو

الأضعف . ونتيجة لذلك قام الإثيوبيون بمجهود جبار لاختراق الزريبة في تلك النقطة .

كان ضجيج المعركة يصم الآذان . وفي النهاية وبعد معارك طاحنة نجح الإثيوبيون في اختراق التحصينات بالقوة ثم تدفقت جموعهم كنهر جارف مكتسحين كل شيء أمامهم . وعندما اقترب العدو صاحت الآلاف من نساء الدراويش صيحات عظيمة وهو يقتل ويدمر كل شيء في طريقه ويحرق الأكواخ المبنية من القصب .. واختلطت أصوات الرصاص مع صيحات وصراخ الرجال والنساء و هدير ألسنة اللهب التي تفوق الوصف . واستولى الإثيوبيون على بيت المال واحتلوا البيت الذي كانت تعيش فيه نساء أبو عنجة . وبدأوا يبحثون عن جثمانه لإخراجه من القبر وقذفه في ألسنة اللهب انتقاماً لحريق غندار .

كادت قوة الدراويش أن تستنزف وتناقصت ذخيرتهم . وكان يعتقد أن المعركة على وشك الانتهاء ، عندما انتشرت فجأة أنباء بين الإثيوبيين بأن طلقة قد أصابت ملكهم . وكانت هذه هي الإشارة لتقهقر عام . فكل واحد أخذ جميع الغنائم التي استطاع الاستيلاء عليها وفر وبسرعة تم الجلاء عن الزريبة . والعديد من النساء قد أخذن في الأسر بما في ذلك حريم أبو عنجة . واتجه الإثيوبيون إلى نهر عطبرة .

والآن حان الوقت ليعكس الدراويش هزيمتهم . فقد كانت خسائرهم ثقيلة . ففرقة ود على تكاد أن تكون قد أبيدت عن أخرها . لكنهم لم يضيعوا الوقت وقطعوا رؤوس بعض الإثيوبيين وأرسلوها على الفور إلى أم درمان مع أخبار بأنهم حققوا نصراً عظيماً لأن القاضي أحمد كان يعلم تماماً مدى قلق الخليفة وخوفه من أن تلحق الهزيمة بقواته .

اعتقد الدراويش أن الإثيوبيين سوف يعيدون الكرة بالهجوم في اليوم التالي ولكن لدهشتهم لم يظهر أي منهم . ثم أُرسِل الجواسيس لمعرفة مواقعهم وجاءت الأنباء أن الإثيوبيين الآن في تراجع تام نحو نهر عطبرة . وحفزت هذه المعلومات الزاكي لمطاردة الجيش الإثيوبي وفي الحادي عشر من مارس لحقت قوات الدراويش بجزء كبير من الجيش الإثيوبي معسكرة على ضفة النهر . وبدأت معركة خسر فيها الإثيوبيون خسائر ثقيلة وفروا على عجل تاركين جثمان ملكهم يوحنا في أيدي الدراويش . واكتشف

الدراويش أنه موضوع في صندوق طويل مغلق بالشمع . وفي البداية اعتقدوا أن الصندوق يحتوى على كنز ولكن عند فتحه فإن رائحة التعفن لم تدع شكاً في أن الجثمان الذي حاولوا تحنيطه ما هو إلا جثمان يوحنا وقد أكد ذلك السجناء الإثيوبيون . هذا وقد قطع رأس الملك وأرسل إلي أم درمان .

سادت في أم درمان إثارة جامحة وأمر الخليفة بضرب طبول الحرب الكبيرة وعزف أمبايه كما جرى استعراض ضخم للجيش وعرضت رؤوس الإثيوبيين وقيل إنها للراس علولا والراس مريام وصالح شنقه ولكن ذلك لم يكن صحيحاً . وعلى أية حال لم يكن لسرور الخليفة حدود كما أن حزننا كان عظيماً بصورة متناسبة مع ذلك السرور . ومرة أخرى فإن آمالنا العزيزة قد تحطمت . وبدا لنا أن جميع فرص الهروب قد انتهت.

وضعت الرؤوس على المشانق مما لم يترك شكاً في أن انتصاراً قد تم إحرازه . وبعد ثلاثة أيام جاءت الأنباء بأن الملك قد قتل . هذا وقد وضع رأس الملك يوحنا على ظهر جمل واستعرض ذهاباً وإياباً في منطقة السوق يسبقه إعلان بالصياح بأن " النقس " العظيم قد قتل وأنه قد حان الوقت الآن للاحتفالات والأفراح وقد أسكر هذا النجاح الخليفة وعرض على الملأ الأغراض الشخصية التي وجدت مع جثمان الملك ومن بينها التاج الذي أزيل منه الصليب . هذا وفيما بعد أعيد إلى أم درمان ووضع في بيت المال .

وكان من الإغراض الشخصية نسخة رائعة للإنجيل مكتوبة بالأمهرية على جلد وبها صور وزخارف ومجلدة بغلاف ثلاثي من الجلد . وكانت هناك ساعة ذهبية مكتوب عليها (كروسدى ، باريس) وهي تبين اليوم والأسبوع والشهر من السنة . وهناك منظار مقرِّب وكذلك نسخة أصلية من خطاب من جلالة الملكة فكتوريا إلى الملك يوحنا بتاريخ نوفمبر ١٨٨٧م . وقد قرأت بنفسي هذا الخطاب حيث سألت الملكة عن صحة الملك يوحنا وعن حاله وحال عائلته . وذكرت أنه بما أن إنجلترا قد احتلت مصر وبذلك أصبحت جاراً قريباً من إثيوبيا وأن رغبة جلالتها الأكيدة أن تستمر بلادها في العيش على أساس علاقات سلام وصداقة مع النقس . واختتمت خطابها بأمنيات طيبة لصحة الملك وسعادته وطول العمر . وقد وقع الخطاب اللورد سالسبرى . وقد رأيت أيضاً بين

أشياء أخرى خيمة الملك وعدداً من الصلبان المرصعة بالجواهر .

وفي نفس يوم وصول رأس الملك ، أمر الخليفة أن يخاط الرأس في كيس من الجلد وأن يرسل إلى دنقلا ومن هناك إلى وادي حلفا كتحذير للخديوي والإنجليز بأن مصيراً مشابهاً ينتظرهم إذا لم يستسلموا على الفور .

وقد بدا أن الخليفة الآن في قمة قوته . وهناك في حفرة ترابية بالقرب من مكان السوق ألقيت الرؤوس التي أصابها الفساد لجميع أعدائه الرئيسيين ... السلطان يوسف وأبو جميزة والإثيوبيين وسيدنا عيسى . كلها جمعت في كومة بتلك الحفرة . ولم أتمالك نفسي من التأمل بعمق في جميع تلك الأحداث الغريبة كلما مررت بتلك الحفرة . وتدريجياً زال الجِلْدُ والشَّعْرُ عن تلك الجماجم تاركاً العظم الأبيض ومحاجر الأعين والأسنان المكشرة . ومع ذلك فهذه جماجم رؤوس متوجة وأنبياء وبطارقة جمعت معاً في حفرة ضيقة من بلاد متباعدة . وهو دليل واف على ما بلغته سلطة المهدية من أثر بعيد . هذا وقد أخذ المارة يضربون هذه الجماجم بعصيّهم ومع ذلك كم من آلاف الأنفس كانت هذه الجماجم الفارغة مسئولة عنها وهي ترقد الآن متعفنة في ميادين قتال بعيدة . هذا دليل على صدق حكم الإله على السودان !

الآن اعتقد الخليفة أنه سيد الكون بأكمله . ففي لحظات حماسه الجامح لم يحلم قط بمثل هذا الانتصار الهائل على الإثيوبيين . ومع ذلك فإن انتصاراً آخر مثل هذا كان سيدمر قوته . فهو قد فقد الآلاف من أفضل محاربيه وأن النساء والأبقار التي استولى عليها لا يمكنها أن تعوضه عن مثل تلك الخسارة . بالطبع أن الزاكي وأمراءه لم يلتزموا دائماً بالحقيقة في مكاتباتهم مع الخليفة كما لم يكن الأخير حريصاً على ذلك . والواقع أنه كان سيرقى إلى جريمة من ناحية الزاكي إذا أبلغ الخليفة أن حامية القلاّبات كانت ضعيفة . إذا فعل ذلك فلربما أودع السجن حتى ولو كان من أقرباء الخليفة . ويعتبر خيانة قول أي شيء ينتقص من فكرة الخليفة عن قوته . وقد كان محاطاً بأناس متملقين حقيرين وإمّعات يميلون مع الريح حيث تميل وهم آخر من يخبره بالحقيقة .

لكن جميع هذه الحروب والاضطرابات قد كادت أن تخرّب البلاد تماماً . وعندئذ

حلت المجاعة الرهيبة التي استمرت لحوالي سنة وجلبت معاناة لا توصف . ومع ذلك كان الخليفة أعمى بالنسبة إلى جميع ما حدث من بؤس وكرب . ففكرته الوحيدة هي تعظيم نفسه . ولم يدرك أن الجوع على الأرجح يشكل أسوأ و أخطر عدو تواجهه المهدية ولكن هذا ما تعلمه الخليفة في النهاية بتجربة مريرة .

بعد موت الملك يوحنا حدثت اتصالات ومعاملات محدودة بين الدراويش والإثيوبيين واعتاد عدد غير قليل من الإثيوبيين المجيء إلى القلاّبات وقد وعدوا بالعمل كأدلاء للزاكي لإرشاده إلى حيث تخبأ كنوز الملك الراحل ولكن من المحتمل أنهم وعدوه بذلك بهدف محاولة جره إلى كمين داخل إثيوبيا . وفي النهاية فإن الجوع هو الذي أجبر الزاكي على اتخاذ بعض الإجراءات العملية . فقد أرسل عبد الله إبراهيم إلى داخل إثيوبيا مع بضعة آلاف من الرجال . هذا ولا بد من ذكر بضعة كلمات عن سيرة حياة هذا الأمير :

كان هو ابن أخ أحمد بك دفع الله في كردفان . وقد أثار الانتباه أثناء حصار الأبيّض . كان كلما رأى ماشية بالقرب من المدينة حيث كان دائماً في حالة مراقبة مع عبيده يندفع خارجاً معهم من الطابية ويقبض على الماشية ويعود بها بنجاح إلى الداخل . وقد قيل إنه في إحدى المناسبات عند ما كان المهدي يقترب من الأبيّض أن إبراهيم هذا خرج من الطابية وتوجه إلى المهدي مباشرة بقصد قتله ولكنه جرح مرتين بمسدسه الذي أراد أن يستعمله . لكن على أية حال نجح في العودة إلى الطابية سليماً . وبعد سقوط الأبيّض عفا عنه المهدي لإعجابه القوي بشجاعته ووضعه قائداً لإحدى الفرق تحت قيادة أبو عنجة . وقد صحب أبو عنجة في جميع حروبه العديدة وأظهر شجاعة أعظم في القتال في صفوف المهدية مما فعل حين كان في جانب الحكومة . ولو كان من البقّارة فلا شك أنه كان سيخلف حمدان أبو عنجة .

عبد الله إبراهيم هذا تغلغل الآن في إثيوبيا ولمدة طويلة لم يسمع عنه أحد وكان الاعتقاد أنه قد أبيد مع رجاله . ولكن في النهاية عاد إلى القلاّبات بعد أن فقد عدداً كبيراً من رجاله . وإن الوقائع الفعلية التي حدثت أثناء هذه الحملة قد ظلت مجهولة

وأنه في الغالب لم يصادف نجاحاً .

بعد وفاة الملك وقعت إثيوبيا ضحية حرب أهلية ضروس مما لم يترك للسكان وقتاً للانتقام لقتل ملكهم . والدراويش كانوا أيضاً مرهقين تماماً ومضطرين إلى مكافحة مجاعة رهيبة حصدتهم بالآلاف . وقد أقنعت هذه المجاعة الأمراء العقلاء في القلابات مثل عبد الرحمن ود أبو دقل بالدخول في علاقات تجارية مع إثيوبيا استمرت دون انقطاع إلى الوقت الحاضر .

الباب الخامس عشر

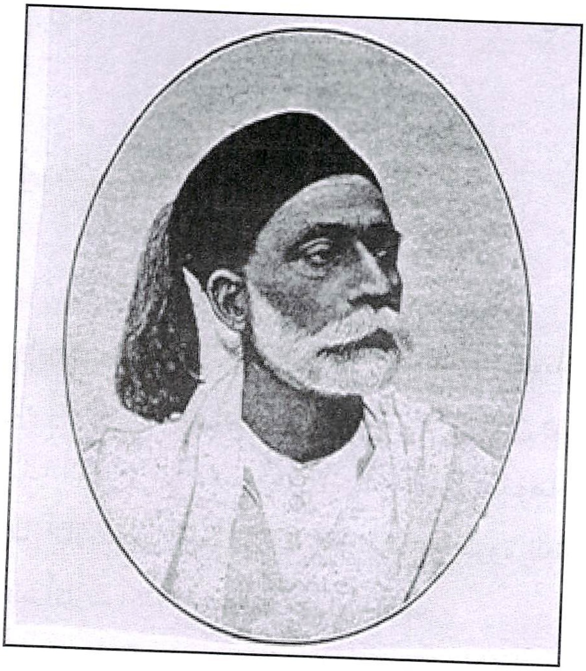
هزيمة النُّجومي في توشكى وعثمان دقنه في طوكر

نوايا الخليفة تجاه مصر . أرسل ود النُّجومي إلى الشمال . عدة عمليات على الحدود المصرية . معركة توشكى . هزيمة ووفاة النُّجومي الأحداث اللاحقة في دنقلا . عمليات عثمان دقنه ضد سواكن . هزيمته في طوكر . أمين باشا والأحداث في الاستوائية . الوقائع الحديثة في يوغندا وأونيورو .

حيث أننا درسنا بإيجاز عمليات الخليفة داخل السودان ، دعونا الآن نلتفت ونتابع تحركاته ونواياه تجاه مصر . فمنذ إبادة حملة هكس باشا فإن فتح مصر كان حلم حياة المهدي . فأولئك الذين رأوا مصر من أتباعه فقد وصفوها للسودانيين بأكثر العبارات توهجاً مما أثار تماماً طمعهم في أموالها . فالثروة الضخمة في القاهرة والنساء الجميلات قد أثارت أكثر الرغبات التهاباً لديهم .

المهدي نفسه قرر أن يكون قصر عابدين التابع للخديوي هو مكان إقامته عند فتح مصر . ومن هناك كان ينوى مواصلة الزحف إلى سوريا وبعد فتحها أن يتقدم إلى مكة . وتنبأ بأن فتح مصر سوف ينفذ تحت راية الخليفة شريف وأنه هو شخصياً فعل كل ما في استطاعته لتحريض المصريين على الثورة . وقد كتب عدداً من الخطابات إلى الشيوخ البارزين ووجهاء القاهرة . ولولا وفاته لكان من المؤكد سريان نفوذه بدرجة كبيرة في مصر . فالعديد من الناس في مصر اعتقدوا فيه أنه المهدي الحقيقي . وبجانب ذلك أصبح الآن حاكم مئات الألوف من الناس . وبموته بدأ الاعتقاد في المهدية يضمحل . والحقيقة أن خليفته كان رجلاً ذا طاقات غير محدودة . وكانت لديه أفكار طموحة مثل سلفه فيما يتعلق بفتح مصر ولكن الظروف قد تغيرت تماماً .

إن موت المهدي وتولى الخليفة للحكم جعل الحركة المهدية تنقسم إلي قسمين : العرب البقّارة الذين سموا أنفسهم « عرب السودان » و « أولاد البلد » مثل الدناقلة والبرابرة والجعليين والقبائل الأخرى على النيل الأبيض . هذا الانقسام قد أضعف المهدية بصورة كبيرة



شيخ عربي من صعيد مصر

ود النُّجومي وأمراؤه يتبعون للقسم المعارض للخليفة الذي يريد أن يحرر نفسه من تحكمه . ونتيجة لذلك رتب الخليفة أن يكون هناك أمير بقاري ملازم دائماً للنُّجومي ليطلعه على جميع أفعال النُّجومي .

وضع المهدي خطة غزو مصر بحيث تكون بتحركات مشتركة من دنقلا نحو وادي حلفا ومن أبو حمد نحو كورسكو . وبناء على ذلك عندما جلا الإنجليز عن دنقلا في يونيو ١٨٨٥م (عقب سقوط الخرطوم) قام محمد الخير فاتح مدينة بربر مع عبد الماجد بالاستيلاء فوراً على مديرية دنقلا . وكان أول قتال جرى بين هذين الأميرين من ناحية والقوات الإنجليزية والمصرية من ناحية أخرى في ديسمبر ١٨٨٥م في بلدة جنس . وكانت قد تمت هزيمة محمد الخير وأقام معسكره المتقدم في كرمة .

هذا وقد مكّن سقوط سنار الخليفة من إرسال المزيد من القوات لعملياته ضد مصر .

وكان تنبؤ المهدي بأن فتح مصر سيتم على يد راية الخليفة شريف قد توافق بالكامل مع ترتيبات الخليفة إذ أوكل قيادة القوة المتقدمة نحو مصر إلى الأمير ود النُّجومي التابع لراية الخليفة شريف . وهكذا نجح في إبعاد هذا الأمير القوي الذي ينظر إليه بكثير من الخوف والحسد إلى أبعد مسافة ممكنة[1] .

خرج ود النُّجومي من أم درمان في نوفمبر ١٨٨٥م وسار محاذياً لضفاف النيل إلى بربر . وقامت قواته بالنهب والسلب كأنها كانت تتقدم في بلد من بلاد الأعداء . وقام ود النُّجومي بالاستيلاء علي بضائع التجار في بربر وأعطاهم إيصالات على أساس أن يتسلموا حقوقهم عندما يستولى على أسوان . وهنا قبض على جاسوسين مصريين قطع رأس أحدهما والآخر رجله ويده . وأثناء مقامه في بربر نهب وسلب في جميع الاتجاهات وكان يباهي بفتحه القادم لمصر . وقد أوقف جميع التجارة مع الشمال ودفع بجميع السكان نحو دنقلا .

وعلى أي حال لم يصل إلى دنقلا إلا في أواخر نوفمبر ١٨٨٦م . وهناك بدأ في تنظيم قواته المقاتلة التي ازدادت باستمرار نتيجة التعزيزات التي كانت ترسل من أم درمان .

في أوائل ١٨٨٧م أرسل الخليفة أربعة رسل بخطابات إلى جلالة ملكة إنجلترا وسلطان تركيا وخديوي مصر . وقد سمح لهؤلاء الرسل بالحضور إلى القاهرة وتسليم تلك الخطابات شخصياً . ولكن عندما تم فتح الرسائل والنظر بإمعان في مضمونها ووجدوا أنها لا تحتوي إلا على دعوات من الخليفة لاعتناق المهدية والاستسلام للخليفة وإلا أن هؤلاء سوف يلاقون مصير غردون وهكس ، عندئذ صرف الرسل على الفور وأعيدوا من حيث أتوا دون رد على رسائل الخليفة . وأعتبر الخليفة هذا أبلغ إساءة توجه إليه .

استمر حرس المقدمة من الدراويش في الزحف نحو الحدود المصرية بينما قام حسن خليفة ابن أخ المدير السابق لبربر باحتلال الآبار الواقعة في الصحراء وقام بعدة هجمات

---

١ - معرفة هذه الحقيقة جعلت الجنرال جرينفل في خطاب كتبه إلي ود النُّجومي يدعوه فيه إلي الاستسلام قبل معركة توشكي . ويقول له " اعلم أنك أنت شخصياً كنت ضحية حسد وضيع من قبل الخليفة المزيف " ص ٤١٨ من كتاب المهدية والسودان المصري .

على النهر شمالي وجنوبي كورسكو . وقد قام هؤلاء المغيرون الشجعان وهم على ظهور الإبل بهجوم مباغت على القرى غير المحمية و أخذوا معهم كميات من الغنائم واختفوا في جوف الصحراء .

في هذا الوقت قام المصريون بالانسحاب إلي وادي حلفا وقام الدراويش باحتلال صرص وهي قرية تقع إلي الجنوب قليلاً . ومن هناك قاموا باستمرار بإزعاج النقاط المصرية الخارجية . وعلى أية حال حدثت ظروف متنوعة منعت الخليفة من تنفيذ مشاريعه ضد مصر . فالثورة في دارفور والحرب الإثيوبية والصراعات الداخلية ، جميعها تضافرت لإعاقة إرسال مزيد من القوات إلي الشمال . وبجانب ذلك فإن حامية دنقلا قد قامت بالكثير لتدمير رفاهية وازدهار المديرية . فقد نهبت السكان الذين أصبحوا بدورهم كارهين لاحتلال الدراويش لمديريتهم . وقد نجمت عن الحرب المستمرة مجاعة وماتت أعداد من الناس من مرض الجدري .

في ١٨٨٨م احتل بحر الكرّار آبار هيمر واونجات ومن هنا أصبح قادراً على إزعاج السكان على النيل بين أسوان وكورسكو . فقد أغار على قرية كلبشه على بعد ٥٠ ميلاً جنوبي أسوان وقتل الحراس من الشرطة وحمل ضابطهم أسيراً إلى أم درمان . وفي كل هذا الوقت كان يدور كثير من الحديث في العاصمة عن فتح مصر ولكننا لم نتلق أي أنباء قاطعة . هذا وقد تم استعراض الضابط الأسير في الشوارع بروح من الزهو ثم أحضروه إلى الخليفة الذي استقبله بصورة طيبة واستجوبه استجواباً شاملاً عن مصر لكن الضابط أدرك تماماً نوع الإجابات التي ينبغي أن يرد بها على أسئلة الخليفة . ولم يخبره إلا بما يعلم أنه سوف يسره . لذلك عاملوه معاملة حسنة وأطلقوا سراحه . وهو يعيش الآن في أم درمان .

كان الخليفة يرسل من وقت إلى آخر تعزيزات إلى دنقلا لم ترجع مطلقاً . وهذا هو السبب في أن الطريق الرئيسي الذي يخرج من أم درمان في اتجاه الشمال كان يسمى « درب الشهداء » .

أما الحكومة المصرية فقد اقتصرت جهودها الآن على الدفاع عن حدودها . وفي يونيو

١٨٨٨م قام بشير بك ، وهو شيخ تدعمه الحكومة مالياً ، بطرد بحر الكرَّار من آبار هيمر . لكن من ناحية أخرى فإن دراويش صرص قد هجموا فجأة على سوق دبروسا وقتلوا عدداً من التجار وهربوا قبل أن تستطيع قوات من حلفا من اعتراضهم . وفي نفس الوقت لم يتوفر كثير من الانسجام بين كبار الأمراء . فالنُّجومي وأتباعه كانوا يغارون من البقّارة المستبدين . وبصعوبة شديدة طوعوا أنفسهم لإظهار أي نوع من الاحترام للأمير مساعد وهو من البقّارة الهبانية وكان أرسله الخليفة إلى دنقلا لمراقبة أعمال النُّجومي وابلاغ الخليفة عنها .

وأما البقّارة فكانوا يكرهون ود النُّجومي إلى درجة أن أحدهم حاول قتله بالسم . ولكنه شفى بعد مرض طويل رغم أن السم لم يخرج تماماً من جسمه . وقد قيل إن إبصاره أصبح سيئاً على الدوام فيما بعد . وقد بددت هذه المشاحنات المستمرة بين البقّارة وود النُّجومي طاقات الأخير . ففيما سبق كانوا يخشونه خشية عظيمة ولكن الآن أتباعه أنفسهم تضايقوا من أنه قد أظهر الكثير من الاحترام للخليفة وأمرائه . وأما بالنسبة للخليفة فقد كان ساخطاً تماماً من تراخى النُّجومي واستدعاه إلى أم درمان .

أثناء غيابه من المديرية قام منشق هارب من الجانب المصري بقيادة الدراويش ومهاجمة طابية في خور موسى وهي على بعد خمسة أميال من حلفا حيث قتلوا بعض أفراد الحامية ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الطابية كلها . وعندما تم إبلاغ العقيد ود هاوس بالهجوم ، أرسل نجدة على الفور وتمت مفاجأة الدراويش وإبادتهم .



بشير بك شيخ عرب العبابدة

في أواخر عام ١٨٨٨م عاد النُّجومي إلى دنقلا وقد هدد الخليفة بوضعه في الأصفاد ما لم يظهر مزيداً من الطاقة في عملياته ضد مصر . وقد أظهر عدم رضاه من قبل بسجن شيخ إدريس ومكين ود النور اللذين أظهرا عدم الرغبة في التقدم إلى الأمام إذ قررا أن هجوماً ناجحاً على مصر هو استحالة . فهما لم يستطيعا الاستيلاء حتى على وادي حلفا . فطرق الصحراء صعبة الاجتياز بسبب انعدام الماء بينما النهر في أيدي الأعداء الذين لديهم عدد من البواخر ويمكنهم منع أي تقدم لقوات الدراويش عن طريق النهر . وجميع هذه الصعوبات كانت واضحة تماماً للنُّجومي وأمرائه ولكن كانت لدى الخليفة ثقة زائدة في نفسه ولم يصدق وجود أية عقبات كبيرة في فتح مصر

. أضف إلى ذلك أن العديد من شيوخ صعيد مصر قد أكدوا للخليفة بأنه عندما يتقدم جيش الدراويش فإن جميع السكان سوف ينضمون إليهم .

وهكذا أصر الخليفة على رأيه ولم يكن بإمكان النُّجومي إلا أن يطيع . وقام الخليفة بنقل جميع قبيلة البطاحين إلى دنقلا بعد أن أظهرت روح التمرد . وفي أوائل ١٨٨٩م أرسل مفرزة إضافية تتألف من ثلاثين راية معظمها من عرب جهينة . وهم غير مولعين بالحرب كما أنهم أكثر كراهية للقتال في صفوف الدراويش . وهكذا دفعت هذه القبائل غير الراغبة في الحرب إلى المعركة مثلما تدفع الحملان إلى المذبح.

عندما تم قمع الثورة في دارفور وقهر إثيوبيا ، وجّه الخليفة انتباهه بصورة جدية أكثر من ذي قبل لغزو مصر . وأرسل يونس الدكيم إلى دنقلا . وعند وصوله كان على ود النُّجومي أن يبدأ تقدمه نحو الشمال .

والآن تم تعيين ود النُّجومي قائداً عاماً . ولما كان ود النُّجومي أحد أمراء المهدي الأكثر تصميماً وتعصباً فقد لقبه المهدي باسم « أمير الأمراء » . وكان تحت قيادته عدد من الأمراء الشجعان مثل الأمير عبد الحليم والأمير مكين النور والأمير ود جبارة والأمير شيخ إدريس والأمير عثمان أزرق وآخرين غيرهم . لكن الظروف التي يقاتل فيها هؤلاء الدراويش قد تغيرت إلى حد كبير خلال السنوات القليلة الماضية . فالأنصار لم يعودوا يقاتلون من أجل المهدية . فجميع تلك الوعود بنعيم الجنة لم يعد هناك من يصدقها . إذ بموت المهدي ثبت أنه مزيف وكذلك جميع ما تنبأ به . وهم لا يحاربون للحصول على الغنائم لأن التجربة الطويلة قد أظهرت لهم أن الغنائم يستولى عليها الخليفة وأمراؤه بالكامل . أما الآن فإن الخوف من غضب الخليفة هو الذي دفعهم إلى القتال . وقد هرب عدد منهم عندما ظهرت فرصة سانحة لفعل ذلك .

لم تكن هذه المشاعر وحدها تتفاعل وسط جيش النُّجومي ولكن أيضاً فإن أحوال بلاده التي يعمل في إطارها الآن مختلفة من تلك الأحوال التي حقق فيها جميع انتصاراته السابقة . وكان في ذلك الوقت يعرف كل درب وكل شجرة تقريباً . فتلك كانت بلاده والسكان هم أهله . والمتطوعون يهرعون للانضمام إلى راياته . وكان دائماً يتفوق عددياً

على أعدائه . ولكن الآن كل شيء مختلف تماماً . فهو لا يعرف شيئاً عن البلاد التي عليه أن يسير فيها . فهناك صعوبات ضخمة تعوق كل تحرك منه . وحتى ولو كان سكان صعيد مصر يرغبون في الانضمام إليه ، فإنهم ما كانوا يستطيعون ذلك لأنهم كانوا تحت مراقبة دقيقة من قبل القوات والحكومة . وهناك صحراء شاسعة تفصله عن الموقع الذي يرغب في الوصول إليه .

والنتيجة أنه مثل جيش هكس عانى كثيراً من عدم وجود الماء . وكالمعتاد فقد رافقه عدد من النساء والأطفال ، وفي بعض الأحيان كان مبلغ خمسة ريالات لا يكفي لشراء شربة ماء .

لقد أظهر الخليفة عدم ثقته في المقاتلين بسماحه بمرافقة الزوجات والعوائل للجيش حتى لا يفكر مقاتل في الفرار وترك زوجته وأطفاله خلفه ولذلك سيكونون مضطرين إلى القتال . لكن هذا الجمع العظيم من النساء والأطفال أعاق تحركات ود النُّجومي بصورة كبيرة وكذلك فاقم كثيراً من الاحتياجات السائدة في معسكر الدراويش . وعندما كانوا في دنقلا عانى المقاتلون من جهينة بصورة فظيعة من المجاعة بحيث اضطروا إلى سرقة الفروات (جمع فروة وهي من جلد الماعز المدبوغ) التي يصلي عليها الدراويش وأكلوها .

إن من الجنون محاولة غزو مصر بمثل القوة التي كانت لدى النُّجومي والمكونة من كل قبيلة وعرق حشدت مع بعضها وهي تفتقر تماماً إلى التماسك والانسجام . وكان العدو الذي سوف يواجهونه من طراز مختلف تماماً من الجيش الذي تغلبوا عليه في السودان . فالمصري لم يكن هو نفسه الذي كان في سابق الأيام . فالجيش يتألف الآن من كتائب مدربة تدريباً جيداً من قبل الضباط الإنجليز . ومن الملائم هنا أن نشير إلى أن احتلال مصر من قبل إنجلترا كان ضربة قوية للخليفة وأتباعه . وكثيراً ما سمعت الخليفة يقول : لو أن الإنجليز يجلون فقط عن مصر لاستوليت عليها في أقرب وقت .

وهكذا زحف النُّجومي بجيشه من دنقلا . وفي صرص أقيم استعراض للجيش . وكان تعداد الجيش ١٤٠٠٠ ولكن كان نصف هؤلاء تقريباً من النساء والأطفال . وكان

النُّجومي ينوي أن يتحاشى حلفا ويزحف مباشرة إلى بمبان حيث أن سكان ذلك المكان قد وعدوا بالانضمام إليه . ولكن عند قرية أرقين هاجمه العقيد ود هاوس وهزمه . وهنا فقد النُّجومي حوالي ١٠٠٠ من رجاله من بينهم عدة أمراء بما في ذلك شيخ إدريس وعبد القادر قورو بالإضافة إلى كثيرين قد جرحوا . وبسبب هذا الانتصار عُرف ود هاوس باشا في السودان باسم « قاهر ود النُّجومي » .

لكن بالرغم من هزيمته ، واصل ود النُّجومي تقدمه . وأصبح الطعام الذي لديه لقواته هو لحم الجمال والحمير وأصبحت قواته ميتة أكثر من أنها حية . واضطر إلى وضع قواته من الخيالة كحرس للمؤخرة لمنع هروب الجنود ومع ذلك نجح عدد كبير منهم من الالتحاق بالقوات المصرية .

هذا وقد كتب السردار الجنرال قرينفل باشا خطاباً إلى النُّجومي أوضح له فيه أنه يدرك الحالة البائسة التي وصلت إليها قواته وحثه على ألا يعرض دون فائدة الكثير من أرواح أتباعه للهلاك وأن يسلك المسلك الحكيم ويستسلم . وعلى أية حال رد النُّجومي بجرأة قائلاً إنه إذا اعتنق قرينفل باشا المهدية فإنه سيضمن له السعادة والاطمئنان ، وبغير ذلك فإنه سوف يكنسه هو وقواته من وجه الأرض .

عاد بهذه الإجابة واحد فقط من الرسولين اللذين أرسلهما الجنرال قرينفل أما الآخر ويسمى عبد الهادي فقد أرسل إلى أم درمان حاملاً خطاب الجنرال إلي الخليفة . وقد أخبر النُّجومي الخليفة بأن عبد الهادي كان في الأصل في جانب الدراويش في أبو حمد ولكنه تحول إلى جانب « الترك » [٢] . وعند وصوله استجوبه الخليفة بصورة دقيقة فيما يتعلق بأخبار النُّجومي وعن حالة الجيوش التي تواجهه . رد عبد الهادي بأن « الترك » كانوا في غاية القوة وأن من المحتمل هزيمة النُّجومي . وبسبب هذه الأقوال فقد أودع السجن لشهور ولربما كان سيموت جوعاً لولا نيوفيلد الذي كان معه في السجن والذي

---

٢ - يجب أن نذكر بأن لفظ " الترك " بالنسبة لعرب السودان هو مرادف للظالم المكروه من أية جنسية . وحتى القوات الإنجليزية قد أدرجت تحت نفس المسمى .

أعانه بعض الإعانة . وفي النهاية أطلق سراحه بوساطة الحاج سعد وسمح له بأن يعود إلى أبو حمد حيث هرب من هناك راجعاً إلى مصر .

في غضون ذلك استمر النُّجومي في تقدمه . وهو لا يستطيع ولا يود الاستسلام . فمن ناحية كان ذا طبيعة شديدة الاعتداد بالنفس لا تجعله يستسلم للقوات المصرية المكروهة . ومن ناحية أخرى فإن خوفه من الخليفة أضاف إلى عناده المتأصل في طبيعته . وفي توشكى أوقف تقدمه الجنرال قرينفل الذي كان على رأس القوات المصرية ولم يكن لدى ود النُّجومي من سبيل آخر غير القتال . وقد هزم هزيمة ماحقة وقتل هو ومعظم أمرائه بينما وقعت أعداد غفيرة من الرجال والنساء والأطفال أسيرة في أيدي القوات المصرية .

وقعت هذه المعركة في الثالث من أغسطس ١٨٨٩م وبها تم الانتقام لإبادة حملة هكس وانهار تماماً مشروع غزو مصر الذي ظل ينضج على مدى السنوات الثلاثة الأخيرة . هذا وسببت أنباء هذه الهزيمة اضطراباً شديداً في أم درمان . فقد انطلقت الإشاعة في البداية أن كل شخص قد قتل وأصبح الخليفة في حالة يأس . فهو يكره الأوربيين والمصريين . وبالرغم من أننا فرحنا في قلوبنا لهذه الأنباء إلا أننا أيضاً عانينا من قلق شديد حيث خشينا أن يكون من المحتمل تماماً أن يطفئ غضبه إلى حد ما بتنفيس انزعاجه فينا . وقد كانت الهزيمة في الواقع ضربة ساحقة بالنسبة له ولأتباعه .



ود النُّجومي

من صورة فوتوغرافية لرسم قام به ضابط مصري للأمير العظيم وهو يرقد في ساحة المعركة في توشكي

الأمير حسن النُّجومي وهو قريب لود النُّجومي وسوار الدهب اللذين نجيا من المذبحة عادا بأسرع ما يمكن إلى دنقلا ومن هناك إلى أم درمان . وقالا إنه جنون من ود النُّجومي أن يحاول ما فعله وأن جميع أمرائه كانوا يعارضون ذلك وأنهم أخبروه بأنهم متأكدون بأن الخليفة لو كانت لديه المعلومات الكافية عن جميع الظروف لما سمح له بالتقدم . فالمجاعة وانعدام الماء كانت ينبغي أن تكون أسباباً كافية لتأجيل الحملة ولكن ود النُّجومي أدار أذنا صماء لجميع الاحتجاجات فقد خشي من الخليفة . وإن أعمال

النهب والوحشية التي مارسها كانت تصرخ للسماء من أجل الانتقام . وقد ظهرت وسائل ذلك الانتقام في شخصي الجنرال قرينفل والعقيد ود هاوس .

قام صالح بك ابن حسين باشا خليفة ومعه شيخ بتلقي معونة من الحكومة المصرية بطرد ابن أخ ود النُّجومي من المُرّات وتقدما إلى ما يقارب أبو حمد . وقد راودنا الأمل بتقدم الحكومة على الأقل إلى دنقلا ولكن خاب أملنا مرة أخرى .

الآن أصبحت الحركة المهدية مرهقة لدرجة لا تستطيع معها القيام بمحاولات أخرى ضد مصر . وقد تخربت مديرية دنقلا تماماً . ومعاملة يونس الدكيم السيئة للسكان كانت تفوق الوصف . وأخيراً وصلت الشكاوى عن أعماله الشريرة إلى آذان الخليفة . وخشية من أن يدفع ذلك السكان للانضمام إلى " الترك " فقد أعفى يونس من الإمارة واستبدله بخالد زقل ، وهو بالرغم من إزاحته من قبل من السلطة ، كان معروفاً بأنه رجل عادل . وقد أوكل إليه الخليفة إعادة ثقة السكان . ولكن الخليفة لم يثق في زقل ثقة مطلقة فترك مساعد في وظيفته لمراقبة زقل وأرسل بقّارياً آخر يسمى عربي مع ثلاثمائة من القوات لمراقبة أعمال زقل .

أصبحت دنقلا الآن مرتعاً للتجسس والتجسس المضاد . وأصبحت الأمور خطيرة للغاية حتى بدا أن قتالاً سيقع وشيكاً بين الأطراف المتنافسة وتأتى مع كل بريد خطابات من أحد الطرفين يتهم الطرف الآخر بسوء التصرفات . لذلك استدعى الخليفة الأميرين مساعد وعربي من دنقلا . وعند وصولهما أبلغا بأن زقل ينوى تسليم المديرية إلى الحكومة المصرية . وبناء على ذلك استدعى الخليفة خالد زقل واستبدل به يونس الدكيم .

عند وصول زقل إلى أم درمان تم استقباله بصورة طيبة . ولم يتردد زقل في دحض أقوال الأميرين غير الصحيحة . لكن الخليفة لم يصدقه ورماه في السجن مكبلاً بالأغلال حيث بقى هناك إلى اليوم . وغلطة زقل الوحيدة هي أنه دنقلاوي ومن أقرباء المهدي بينما معارضوه جميعهم بقّارة وهم الطرف الحاكم ولذلك من غير المرجح أن يتلقى منهم أية رحمة .

بجانب ود النُّجومي وأبو عنجة بقى أحد أعظم أمراء المهدي القدامى وأقصد بذلك عثمان دقنه الذي أشرت إليه في الصفحات الأولي من هذا الكتاب . أرسله المهدي إلى شرق السودان بعد سقوط الأبيّض في يوليو ١٨٨٣م واتخذ له موقعاً بالقرب من سواكن . وقد أعطاه المهدي منشورات لتبليغ الدعوة المهدية ولتوزيعها على جميع القبائل الموجودة بالقرب من كسلا وسواكن ويأمرهم فيها بالثورة ضد الحكومة . واستجيب لدعواته وبنهاية ١٨٨٣م استولى عثمان دقنة على جميع النقاط الرئيسية فيما حوله . وأهم عمل قام به عثمان دقنه للمهدي هو قطع الاتصالات بين سواكن وبربر وهكذا أغلق أقصر وأفضل طريق برى إلى داخل السودان . وبما أن الحكومة كانت متنبهة تماماً لأهمية هذا الطريق فقد حاولت مراراً إعادة فتحه ولكن عثمان دقنه مع أتباعه من الهدندوة الشجعان بذلوا كل مجهود لإفشال ذلك .

وفي الثالث من فبراير قام الجنرال بيكر باشا بمحاولة فاشلة لفتح الطريق ولكن دقنه قطعه إرباً إرباً في معركة التب وفقد أكثر من ألفى مقاتل وجميع أسلحته وذخيرته . وبعد هزيمة بيكر ، قام الإنجليز بمحاولة أخرى . وبعد أن هزم الجنرال قراهام عثمان دقنه في كل من معركة التب الثانية وفي طاماي جرى الاقتراح لفتح طريق بربر وبذلك يمكن نجدة غردون الذي كان محاصراً في الخرطوم . لكن رؤى أنه من المستحيل مقاتلة حشود عثمان دقنه والتغلب على صعوبات الصحراء ولذلك تركت الفكرة .

طيلة سبع سنوات استمر عثمان دقنه في إزعاج ومحاصرة سواكن بالتناوب . ولكن بالتدريج تراجع العرب المحليون .. وبالأخص الأمرأر- عن تأييد الدعوة . وبدأت نزاعات بين القبائل . وعندما كاد جميع الهدندوة أن يتخلوا عن عثمان دقنه ، جاء إلى أم درمان . وفي يناير ١٨٨٧م رجع إلى منطقته عن طريق القضارف وكسلا حيث جمع حوالي أربعة آلاف مقاتل واحتل في النهاية هندوب . ومرة أخرى حاصر سواكن . وهزم أيضاً الأمرأر وقتل أكثر من سبعمائة منهم .

أثناء هجومه على هندوب جرح كتشنر باشا حاكم عام منطقة البحر الأحمر الساحلية جرحاً بالغاً . وفي مارس من نفس السنة وصل أبو قرجة مع قوة من كسلا . وهكذا أصبح

عثمان دقنه قوياً مثلما كان من قبل واستمر في إزعاج سواكن وتدمير المناطق المجاورة . وكان مما لا طائل منه محاولة الاستيلاء على سواكن . لذلك تلقى أوامر من الخليفة لتوطيد وضعه في طوكر في يناير ١٨٨٩م . وفي نفس الوقت سمح له فتح علاقات تجارية مع سواكن . هذا وقد تمت إقامة نقطة في هندوب وقد سمح بالفعل للتجار من الدراويش بدخول المدينة وشراء البضائع .

ظلت هذه العلاقات التجارية قائمة بين سواكن والدراويش لحوالي سنتين . وعندما سادت المجاعة في طوكر ، قام العدو بتلقي معظم إمداداته من خلال ميناء ترنكتات . وفجأة وصلت أنباء إلى أم درمان فحواها أن بوابات سواكن قد أغلقت وأن جميع النشاطات التجارية قد أوقفت بين طوكر وهندوب . ونتيجة لذلك ازدادت المجاعة وذكر تجار وصلوا إلى أم درمان أنه لا شك أن الحكومة تنوي مهاجمة عثمان دقنه قريباً .

أغنى هؤلاء التجار شخص يسمى عمر كِشّه قام بتهريب كميات من مادة الرصاص والبارود عن طريق سواكن . وقد تأكدت سريعاً الأخبار التي حملها التجار . وفي فبراير ١٨٩١م تم احتلال هندوب . وفي مارس وصلت رسالة من زقل بدنقلا فحواها أنه قد أطلق الرصاص في حلفا كتحية عسكرية لإعلان احتلال طوكر من قبل الحكومة وهزيمة عثمان دقنه هزيمة تامة . وصول هذه الأنباء إلي أم درمان خلق نوعاً من الفزع . ومما زاد من سوء الوضع هو عدم التيقن من هذه الأنباء . فلم ترد أنباء عن طريق بربر أو كسلا تؤكد ذلك . وبعد ثمانية أيام وصل أحد أفراد عرب الشكرية من كسلا وذكر أنه سمع الكثير عن الهزيمة في طوكر ولكن مصير عثمان دقنه غير معروف فالبعض يقول إنه قتل والبعض الآخر أنه جرح جرحاً خطيراً . وبعد شهر وصلت خطابات من عثمان دقنه نفسه تؤكد أنباء الهزيمة . وقد أحدث ذلك فزعاً عظيماً وقام الخليفة بجمع مجلسه على الفور .

قيل إن حملة مصرية قد وصلت إلى بربر وفي كل يوم توقع الناس وصول أنباء عن الاستيلاء على دنقلا . وتقرر إقامة معسكر في المتمة . وابتهجت جميع أم درمان سراً لسقوط الخليفة الذي اقترب . ولكن مرة أخرى تعرضنا لخيبة أمل مريرة . فقد وردت

أنباء من بربر أنه ليس لدي " الترك " نية لمزيد من التقدم وأنهم قانعون باحتلالهم لطوكر حيث بنوا هناك طابية ووطدوا إقامتهم بأمان . ولكن بالرغم من أن النظام قد نجا مؤقتاً فإن فقد طوكر كان ضربة مؤلمة للغاية للخليفة حيث أن الحكومة أصبحت الآن على اتصال مباشر مع القبائل على طريق سواكن. بربر وأن الطريق أصبح سالكاً .

في آخر أيام احتفالات مولد النبي وصل عثمان دقنه إلى أم درمان مصحوباً بعدد قليل من أتباعه . وخلال فراره من طوكر نحو كسلا ، لم يكن لدى أتباعه شيء ليأكلوه خلاف التين البرى . والكثيرون منهم قد تضوروا من الجوع . هذا واستقبل الخليفة عثمان دقنه ببرود ووبّخه على الهزيمة . وفيما بعد أرسله ليعمل في الزراعة على نهر عطبرة حيث يعيش الآن في مكان يسمى أداراماب .

من جميع معارضي الحكومة ربما كان عثمان دقنة أشدهم ضراوة . فقد قام بأعمال عظيمة في سواكن وكسلا وعلى الحدود الإثيوبية ولكن نظراً لقسوته الزائدة فقد استعدى العرب ونفّرهم عن تأييد قضيته . لكن ربما كانت عزلته الحالية مناسبة للتفكير في جميع أعماله التي اتصفت بالشر وإراقة الدماء والتي انتهت بتدمير بلاده وموت أتباعه . ويكاد يكون جميع العرب الذين ناصروا قضيته بكثير من الحماس هم الآن بين الأموات . وإن إهانته في الوقت الحاضر هي الجزاء المناسب لموالاته العمياء لطاغية مزيف متحجر القلب .

إن ندرة النقود في بيت المال بأم درمان كانت السبب الرئيسي لإرسال حملة جنوباً على النيل الأبيض . ومنذ ١٨٨٥م لم يزعج الدراويش أمين باشا (الألماني ادوارد شنتزر حاكم الاستوائية) وكرم الله انسحب منذ مدة طويلة إلى بحر الغزال . ومنذ ذلك الوقت لم تصل عن أمين أخبار لسنوات .

لم تكن هناك نقطة للدراويش جنوبي فشودة وهى السوق التي يحضر إليها السود أبقارهم للبيع . وقد ترك الدراويش القبائل الزنجية على طول النيل الأبيض دون أي إزعاج . ولكن خطر للخليفة إرسال حملة لجمع سن الفيل والعبيد ولإخضاع أمين باشا . وقد تم تعيين عمر صالح لقيادة الحملة ووضعت تحت تصرفه ثلاث بواخر نهرية

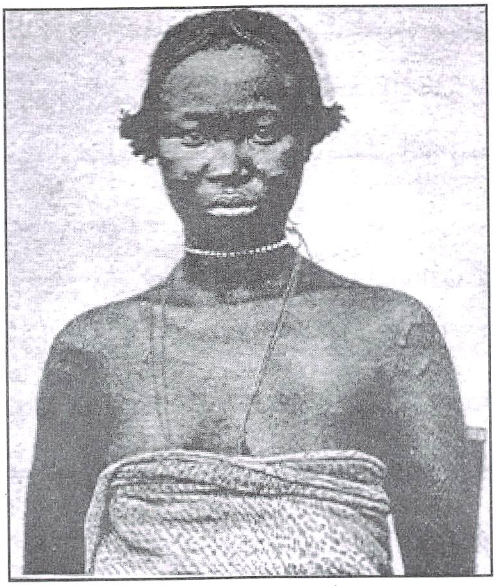
وعدد من المراكب الشراعية . وقد حمله الخليفة خطاباً إلى أمين باش يطلعه فيه على الأحداث العديدة التي وقعت في السودان كما طلب منه أن يستسلم للأمير عمر صالح . ولإضافة وزن لخطابه أمر استامبولى السوري أن يكتب إلى أمين باشا في نفس المعنى كما أمر بعض الأقباط المقيمين في أم درمان أن يكتبوا إلى الأقباط المعروف أنهم كانوا في خدمة أمين باشا .

ترك عمر صالح أم درمان في يوليو ١٨٨٨م وانقضت سنة كاملة دون أن تصل إلى أم درمان أية معومات عن تحركاته . وسرى اعتقاد بأنه لابد أن أمين باشا قد أباد الحملة واستولى على البواخر . وأصبح الخليفة قلقاً ولكن بعد لأي عادت إحدى البواخر محملة بسن الفيل والعبيد .

بالطبع كلنا كنا شغوفين للغاية للسماع عن أمين باشا . وقد أخبرنا الرجال الذين جاءوا بالبريد أنهم وصلوا إلى الرجّاف في أكتوبر وأنهم احتلوا هذا المكان بهجوم عاصف و أنهم أرسلوا إلى أم درمان أحد الكتبة الذين أسروهم . أما بالنسبة لأمين باشا فقد ذكروا أنه ورجل إنجليزي (خمّنا أن هذا الإنجليزي لا بد أن يكون هو ستانلى الجسور) قد وضعا في القيود من قبل العساكر المتمردين لأن الرجل الإنجليزي أراد أخذ أمين إلى مصر حيث أرسله الخديوي إلى هناك لهذا الغرض . هذا وانتهز عمر صالح فرصة التمرد للاستيلاء علي المديرية الاستوائية ولكن تم صده من قبل المتمردين . هذه الأخبار الأخيرة لم تبلغ إلى الخليفة ولكننا سمعنا بها سراً . وقد توسل عمر إلى الخليفة أن يعيد إليه الباخرة دون تأخير . ونتيجة لذلك أرسلت الباخرة جنوباً مرة أخرى بعد بضعة أيام .

وبعد فترة طويلة بعد ذلك وصلت باخرة أخرى من المديرية الاستوائية ولكنها لم تحمل معلومات مهمة . ويبدو أن أمين باشا قد غادر المديريات الجنوبية وأن البلاد قد سقطت في حالة من الفوضى بعد مغادرته . وأن السود قد قتلوا جميع العرب . أرسل الخليفة على وجه السرعة أميرين حسيب وإلياس ود كنونه إلى الرجّاف في باخرة . وحسبما قيل فإن الدراويش قد عانوا هناك كثيراً من الطقس . لذلك قرر الخليفة أن

يجعل الرجّاف مكاناً للنفي . وأنه فيما بعد لم يرسل إلى هناك إلا المغضوب عليهم .



امرأة من مكراكا زوجة أحد ضباط

في ١٨٩١م وصل الأمير حسيب إلى أم درمان . وقد جاء كهارب . وقد ذكر أنه كانت معه باخرتان . وأنه تم إرساله إلى موضع يبعد مسيرة يومين من الرجّاف لجمع سن الفيل . وأنهم قد أعدوا زريبة وأنه تم تحميل إحدى الباخرتين بسن الفيل وعندئذ هاجمهم السود فجأة وقتلوا كل من كان في الزريبة وأنه قد تقهقر بالباخرة الفارغة الباقية بعد أن وقعت الأخرى في يد الأعداء .

بعض السود الذي جاءوا إلى أم درمان مع حسيب قالوا إنهم سمعوا أن أمين باشا قد عاد إلى المديرية وحرض السود على الثورة ضد الدراويش . لكن كانت لحسيب وجهة نظر أخرى . وهو يعتقد أن الهجوم كان شأناً محلياً خالصاً [٣] .

---

٣ – وصول جزء من حامية الاستوائية القديمة إلي القاهرة في يونيو ١٨٩٢م والذين سافروا تحت رعاية شركة شرق أفريقيا الملكية البريطانية خلال يوغندا إلي ميناء ممباسا يلقي المزيد من

شعر الخليفة ببعض الخطر على سلامة نقاطه في اللادو والرجّاف خاصة أنه الآن في حالة حرب مع الشلك . وأن نقطته العسكرية في فشودة مطوقة بهذه القبيلة المولعة بالحرب . لذلك أرسل باخرة أخرى إلى الجنوب للحصول على مزيد من المعومات ولكن الدراويش الذين رغب في إرسالهم رفضوا ذلك واضطر إلى سحبهم إلى ظهر الباخرة وهم مقيدون بالسلاسل .

في رأيي أن الخليفة سيجد صعوبة في الاحتفاظ بنقاطه العسكرية على النيل الأبيض . وعندما غادرت أم درمان فإن رأس ملك الشلك كان متدلياً من المشنقة وقد ثار شعبه الشجاع ضد عمل الخيانة هذا الذي حرمهم من زعيمهم . هذا واتخذت الثورة أبعاداً كبيرة وتم إرسال الأمير الزاكي طمل على وجه السرعة من القلاّبات إلى فشودة وقد هاجمه السود الغاضبون بعنف .

الضوء على الوضع الحالي في الاستوائية . يقولون إنه بعد مغادرة ستانلي من كاقالي فإن سليم بك القائد القديم التابع لأمين باشا والذي أرسل إلي الشمال لجمع الحامية استقر هناك مع مجموعة صغيرة من الجنود في معسكره القديم في كاقالي بعد أن وجد أن ستانلي قد ذهب . بينما بقي في جوار واديلاي الضابط المتمرد فضل المولى بك مع أغلبية أفراد الحامية . وأخيراً هاجم الدراويش هذا المكان ولكن تم صدهم . وأما معظم الحامية وكانت تشعر بعدم الثقة في فضل المولى الذي عرف أن لديه اتصالات مع الدراويش فقد هربت إلي سليم بك . وقد جاء أمين باشا إلي كاقالي في أبريل ١٨٩١م وعندما ذكر أنه في خدمة الألمان لم ينضم إليه إلا القليل من حاميته القديمة ولم يحاول أن يدخل مرة أخرى مديريته القديمة . وبعد قليل من مغادرة أمين باشا وصل النقيب لوقارد وأخذ كل القوة إلي يوغندا ويونيورو حيث أقام هناك بعض النقاط العسكرية .

الباب السادس عشر

المجاعة في أم درمان ١٨٨٨م ـ ١٨٨٩م

أورفالدر يصف أم درمان . قبة المهدي وكيف أنها بنيت . الحج إلى مكة ممنوع . وصف للمسجد الكبير . الأسواق . السكان . حكم الخليفة الطغياني . المجاعة الفظيعة ١٨٨٨م . ١٨٨٩م . مناظر مخيفة ومعاناة . كارثة الجراد .

في هذا الفصل اعتزم أن أعطى وصفاً لعاصمة السودان في عهد المهدي . لقد أعطيت من قبل وصفاً للمكان حسبما وجدته عند وصولي من كردفان في ١٨٨٦م ولكن المدينة قد زادت الآن في حجمها إلى درجة كبيرة .

عندما دعّم الخليفة سلطته تماماً في السودان وكان يفكر في غزو مصر فقد خطر له أيضاً أن يقوم بتحديد حدود مملكته . ويؤسس استخلافاً وراثياً في عائلته . وفي الواقع أن السبب الوحيد في استمرار حكمه تحت مظهر المهدية هو خوفه من أن تغيير الاسم قد يورطه في صعوبات . ولكن مع ذلك فقد تقيد بصورة دقيقة بمراميه بحيث كانت النتيجة أنه لم يبق من المهدية إلا اسمها . أقر العديد من الأنظمة الإدارية للحكومة السابقة ولولا خوفه من احتمال أن يفقد مملكته الجديدة ، اعتقد أنه ما كان سيمانع في استبدال اسم خليفة المهدي باسم السلطان (عبد الله) .

حدث إدراك عام أن سلطة الخليفة لم تعد قائمة كلياً على المبادئ الدينية كما هو الحال بالنسبة للمهدي . فقد استبدل ذلك بنظام الملك فإن لم يكن بالاسم فعلى أية حال في الواقع . لقد أبطل جميع مراسيم المهدي تقريباً . استبدل المهدي نظام الإعدام بالمشنقة بنظام الحد بالسيف ولكن الخليفة أعاد نظام المشنقة . وعذره في ذلك أن طريقة المشنقة أكثر ترهيباً للسودانيين وأن قطع الرقاب بالسيف هو موت بدون ألم .

كذلك غيّر اسم أتباعه . فالمهدي أصدر مرسوماً ليحل اسم « الفقراء » والذي كان يطلق على الدراويش ، محل اسم « الأسياد » وتم الالتزام بهذه التسمية جزئياً إلى تاريخ وفاة المهدي .

لكن الخليفة رأى أن اسم « الفقرا » فيه تحقير لروح حكمه لذلك أمر بإلغاء هذا الاسم واستبداله باسم « أنصار الدين » . كما سمح أيضاً بتسمية الأتباع باسم « أحباب » أو « أصحاب » المهدي . وتبعاً لذلك سميت المرأة باسم «حبيبة» وهذا التلاعب بالكلمات قد خلق كثيراً من النكات من جانب الرجال . ولم تمر بضعة أيام حتى تم نسيان « فقير » تماماً . والآن جرى اسم « الأنصار » بالنسبة للرجال و « الأنصاريات» بالنسبة للنساء في جميع أنحاء السودان .

وأبطل الخليفة أيضاً اسم « فكي »(فقيه) وهو الاسم الذي يطلق على معلمي الدين . هناك قول متداول في السودان نصه « الفكي يفك الدين » والخليفة يعلم تماماً كيف أن هؤلاء يخدعون عقول الناس وكيف أنهم يكتبون الأحجبة والتمائم للوقاية من العين الشريرة والسحر والأمراض وسوء الحظ وكيف يدعون أنهم يستطيعون إعطاء النساء وسائل للانتقام من أزواجهن الذين يبرد حبهم لهن ومساعدة أولئك اللواتي يرغبن ضمان حب أزواجهن لهن دون غيرهن . والخليفة يعلم تماماً مدى اعتقاد السودانيين في هذه الأمور . وقد أعطى المهدي الأوامر من قبل بمنع ممارسة كتابة الأحجبة والتمائم . والآن الخليفة أشد صرامة وقد أمر بقطع اليد اليمنى لأي فكي يوجد متلبساً بكتابة الأحجبة والتمائم . ولكن بالرغم من هذه الإجراءات الصارمة فإنه يكاد أن يكون من المستحيل استئصال اعتقاد الناس في هذه الخرافات . فالخليفة نفسه أعلن صراحة أنه ليس لديه أي اعتقاد في السحر والأحجبة والتمائم وما شابه ذلك وأن الله وحده الذي يحكم على الصواب والخطأ وهو وحده الذي لديه القدرة على الثواب والعقاب . لكنه يعتقد في قدرة العين الشريرة . وهو لا يسمح لأعور أن يمثل أمامه حيث قيل إن العين الواحدة السليمة تستطيع إحداث ضرر كبير .

والخليفة مثل المهدي مصمم على تدمير المدن القديمة وذلك حتى يلف النسيان بصورة أسرع حكم الحكومة السابقة . لذلك تم هجر بربر القديمة منذ زمن وبناء بربر جديدة شمالي المدينة القديمة . وبالطبع فإن أم درمان - خرطوم الدراويش - هي الأهم بدرجة كبيرة من جميع المدن . وبما أنها مكان وفاة ودفن المهدي فمن المناسب جداً أن

تكون عاصمة المملكة التي أسسها . وكما أن المدينة المنورة هي إحدى أقدس الأماكن في الإسلام لذلك اعتبر أنه من المستحسن رفع أم درمان إلى وضع مشابه .

إلى حد بعيد فإن أهم وأبرز الأبنية في أم درمان هي قبة المهدي . وبالرغم من اختلاف وجهات نظر الخليفة عن وجهات نظر سيده فلا زال يعتبر أن من الحكمة إظهار الإقرار بجميل من أحسن إليه . فالخليفة يرغب في بناء قبة تفوق كل شيء بين أم درمان والإسكندرية . وقد قيل إنه يمكن رؤية القبة على بعد رحلة ثلاثة أيام من أم درمان . لكن في هذه النقطة فإنني غير مستعد لإبداء وجهة نظر حيث أنني لم أذهب قط أبعد من الخرطوم . من هنا بالطبع فإن القبة ترتفع عالية فوق أكواخ الطين وأكواخ القش البائسة كشيء أكثر بروزاً ومن المؤكد أنها الأعلى من جميع المباني في السودان .

لم يدخر الخليفة أية نفقات في سبيل تشييد هذا البناء . فقد أمر أولاً برسم الخرائط واختار المهندس إسماعيل المعماري الذي شيد قبة سيدي الحسن في كسلا . وأعير عمر المعماري السابق للحكومة لمساعدة إسماعيل وكانت مناسبة وضع حجر الأساس مشهداً عظيماً صاحبتها احتفالات وأفراح عامة وقد جمعت فيه حشود ضخمة لحضور المراسم وسحق كثير من الناس تحت الأرجل من شدة الزحام واعتبروهم من السعداء لوفاتهم في مثل هذا اليوم الأغر .

والآن تم الشروع في عمل البناء بقوة وجلبت المواد من الخرطوم . فأرسل آلاف الناس إلى هناك وجرت أعمال الهدم بسرعة . هدمت الجدران للحصول على الطوب الأحمر وإرساله عبر النهر إلى أم درمان . اقتلعت أحجار الأساس من دار الحكومة واستخدمت كأحجار أساس للقبة . وقام بالأعمال الخشبية النجار محمد برناوي . ومعظم البناءين مصريون تعلموا المهنة في إنشاء دار البعثة والكنيسة في الخرطوم . وقد علموا العمال الدراويش كيفية هدم الجدران دون تحطيم الطوب الأحمر . كان من عادة مراقب العمال مضغ التبغ سراً وفي يوم من الأيام ودون أخذ الحيطة والحذر وضع قطعة من التبغ في فمه فلاحظه أحد الدراويش الذي انقض عليه وطرحه أرضاً وكاد أن يمزقه إرباً إرباً لولا أن تدخل ود عدلان وأخذه إلى الباخرة وأخفاه .

وفي نظر الدراويش أن مضغ التبغ الممنوع أثناء العمل في قبة ضريح المهدي ، يعتبر جريمة لا تغتفر . ومعظم الدراويش كانوا يعملون دون أجر « في شان الله » كما يقولون . وكان يسمح لهم بكمية قليلة من الذرة ولكن البناءين كانوا يتقاضون أجوراً . أما الجير فكان يتم الحصول عليه من أم درمان نفسها .

لأجل دفع سير العمل ذهب الخليفة عبد الله وبصحبته الخليفتان الآخران وجميع الأمراء والقضاة إلى شاطئ النيل للمساعدة في حمل الحجارة للقبة . وبالطبع فإن جميع المدينة تبعتهم . حمل الخليفة عبد الله حجراً كبيراً على كتفه وسار به إلى موقع الإنشاء . وحذا الجميع حذوه . وبهذه الطريقة لم يمض وقت طويل حتى تم جلب جميع الحجارة المطلوبة . هذا وقد وعد الخليفة ببركة المهدي لجميع من ساعدوا في هذا العمل . وأكد بخشوع لعمال البناء أنهم سوف يمتلكون قصوراً عديدة في الجنة بعدد الحجارة التي حملوها إلى القبة . هذا وحملت النساء الماء المطلوب للبناء . وقد بنيت القبة بنفس أسلوب جميع القباب الإسلامية التي تشيد على قبور بعض الشيوخ الصالحين .

العديد من القباب في السودان مبنية من الطين . لكن الخليفة صمم أن تكون قبة المهدي هي الأعظم في السودان . فالكوخ الطيني الذي مات فيه المهدي تم هدمه وبنى حول الموقع بنيان مربع الشكل ارتفاعه حوالي ثلاثين قدماً وبه نوافذ كبيرة . وقامت فوق ذلك قبة يبلغ ارتفاعها حوالي ثمانين قدماً . وكانت الأساسات عميقة والجدران سميكة للغاية . وتوجد في الأركان الأربعة من المبني التحتاني حيث تلتقي القبة بالمبنى أربع كرات مستديرة تقوم على أربعة أعمدة صغيرة . وفي قمة القبة ثلاث كرات كبيرة وأكبرها الوسطي . وفوق هذه الكرات رأس حربة ضخمة مطلية .

حقيقة أن باب مدخل القبة عمل فني ويعتبر مفخرة للعمال السودانيين . وقد دهن بألوان براقة وتم صنعه في الترسانة بالخرطوم . وعندما تم صنعه ذهب الأمير يعقوب (أخ الخليفة) بنفسه لإحضاره و كافأ العمال الذين أوكل إليهم العمل مكافأة سخية . كانت الجدران الخارجية للقبة مطلية باللون الأبيض . في البداية حاولوا طلاء القبة بألوان زيتية . ولكن لما كانت الألوان لم تعد إعداداً صحيحاً فإن الدهان سرعان ما تقشر

عندما جف ولذلك اضطروا إلى القناعة بطلائه بالجير الأبيض . وقال المتعصبون أن هناك بعض المواد المسيحية الشريرة قد خلطت مع الطلاء مما جعله لا يلتصق بالمبنى . وسقوط الطلاء برهان على أن المهدي لم يقبل تلك المادة .

النوافذ الكبيرة تسمح لكمية من الضوء إلى داخل القبة وهي مزينة من الداخل بأكثر الألوان بهرجاً . والقبر الفعلي ليس موضوعاً في مركز المبنى تماماً . وهو مغطى بتابوت خشبي مطلي . ولتقليل وهج الشمس تمت تغطية النوافذ بستائر . وفي كل ليلة توقد كميات من الشموع طيلة الليل في القبة . ومن المستحيل ألا يتأثر المرء بجلال القبة . والجدران سميكة بدرجة أن حرارة الشمس المدارية لا تستطيع اختراقها ، ويوجد دائماً نسيم عليل منعش بالداخل . والعطور الزكية التي ترش داخل القبة بصورة مستمرة تملأ الهواء بروائح طيبة . وإن الجدران المحيطة التي تعيّن الحدود لبيت المهدي الأصلي عالية جداً بحيث تخفى البنيان الذي تستقر عليه القبة .

هذه القبة تعنى لمسلمي السودان ما تعنيه الكعبة في مكة بالنسبة لآلاف الحجاج الذين يزورونها . ولكن الحج غير مأمور به لقبة المهدي . والمجيء إلى أم درمان كاف للغاية دون أن يكون مفروضاً عليك اجتياز العديد من المراسم . فأم درمان مكروهة في السودان . ولا أحد من غير المضطرين للعيش فيها سيمكث فيها ليوم أكثر مما يستطيع وكلما استطاع الناس الابتعاد عنها إلى أبعد مدي كلما كان ذلك أفضل وأحب بالنسبة لهم .

منذ ظهور المهدي توقف الحج إلى مكة لأنه حينما كان المهدي حياً كان يفترض أن الزيارة إليه تعطى جميع مزايا الحج . وعندما توفي اعتبرت الزيارة إلى قبره تمنح فوائد أكبر من الحج إلى مكة . فالعديد من الفلاته الذين جاءوا من أجزاء بعيدة من برنو ووداى وغيرها تم إيقافهم في أم درمان عندما كانوا في طريقهم إلى مكة .

وهكذا أصبح السودانيون منشقين عن الدين الإسلامي التقليدي وهم يؤكدون أن الذين لا يعتقدون في المهدي هم كفار حتى ولو كانوا مسلمين . الآن بالطبع جميع هذه الأفكار قد اختفت تماماً وجميع محبي الإسلام الحقيقيين في السودان يستهجنون بشدة الأوضاع الحالية . وقد درج العديد من الناس أن يقولوا لنا « إن وضعنا هو أكثر الأوضاع

بؤساً ! أنتم المسيحيون ليس لديكم ما تؤنّبون أنفسكم عليه فيما يتعلق بالدين . أما بالنسبة لنا نحن المسلمين فإن وضعاً كالوضع الماثل في الحاضر بغيض أكثر ما يمكن التفكير فيه ونحن لا نعرف استقراراً » .

وهناك عدد كبير من الناس الآن يعيدون صلواتهم اليومية داخل بيوتهم بالرغم من أنهم أدوها في المسجد إذ أنهم لا يعتقدون في المهدي ويعتبرون الصلوات التي أدوها في مسجده لا قيمة لها .

وهناك أعداد من النساء يزرن قبة المهدي بالرغم من أن معظمهن لا يعتقدن فيه بأنه المهدي ولكنهن مازلن ينظرن إليه بسبب انتصاراته الكبيرة بأنه من الرجال الصالحين الذين لهم مكانة في الآخرة لصلاحهم . ولكن برغم ذلك فإن الدائرة الكبيرة لأقربائه هي التي تتمسك بمعظم هذه الأفكار ودوافعهم دائماً المصلحة .

الخليفة عبد الله على أية حال لم يحصر نفسه فقط في تجميل قبة المهدي . وبما أنه أصبح الآن الملك الوحيد فقد رغب أيضاً في تجميل مسكنه الخاص . وينبغي أن نتذكر كيف أن الخليفة قد نظم بيت المال بمساعدة ود عدلان . والآن وبالقرب من قبة المهدي يقع مسجده الكبير . وهو ليس مسجد بالمعنى المعتاد بل ساحة ضخمة تتسع إلى ٧٠٠٠٠ من المصلين يقفون في صفوف طويلة بكل صف ١٠٠٠ شخص . والمسجد مسقوف بحصائر كبيرة مرفوعة على عدد كبير من الأعواد ذات الشّعب مما يعطى المكان مظهر الغابة . هذه « الراكوبة » تتسع لعدد ٣٠٠٠٠ شخص تسمع همهمتهم مثل دمدمة رعد بعيدة . في البداية بنى الجدار المحيط بالمسجد من الطين . ولكن فيما بعد أمر الخليفة بهدمه وبناء جدار جيد من الطوب الأحمر والجير .

المحراب الذي يحدد اتجاه الكعبة والذي يؤدي منه المهدي الصلاة يقع قليلاً شرقي الوسط وهو مربع الشكل مع جدران طينية وسقف جملوني من ألواح حديدية أخذت من ترسانة الخرطوم . وله أبواب في الجدران من ناحية الشمال والجنوب والشرق والغرب . ويتم الدخول إلى المحراب من ناحية الباب الغربي . وأما الأبواب الأخرى فهي محمية بفروع وغصون مقطوعة من أشجار وذلك لمنع الأنصار من التزاحم قريباً من المهدي

. أما أرضية المحراب فهي مفروشة برمل ناعم . ويؤدي الخليفة صلاة يوم الجمعة في المسجد الكبير . أما في الأيام الأخرى فإنه يصلى في الراكوبة حيث توجد بها منصة بارتفاع ستة أقدام مطلية بالجير الأبيض يقف عليها الخليفة في الصلاة .

قريباً من الراكوبة يوجد مبنى مربع بسقف من القش جملوني الشكل مدعوم بعمودين . وهو مفتوح من ثلاث جهات ولكنه محاط بدرابزين خشبي جيد النحت والطلاء . وفي هذا المبنى يوجد مقعد يرتفع بحوالى ٣ أقدام يجلس عليه الخليفة عند مخاطبته الأنصار . وعندما يغادر الشخص الباب الشرقي للراكوبة تواجهه بوابة قصر الخليفة الذي بنى قريباً جداً من المسجد .

يعرف قصر الخليفة باسم « الباب « تماماً مثلما يعرف قصر سلطان تركيا باسم « الباب العالي « . يحتوي قصر الخليفة على عدد من الأقسام المختلفة . جميعها بنيت من الطين وطليت بالرمل الأحمر . وخلف البوابة الكبيرة يوجد المنزل الوحيد في أم درمان الذي بنى من طابقين وقد بناه الخليفة بهدف أن يطل على المدينة من أعلى . ويستطيع أن يرى من هنا إلى جبال كرري من ناحية الشمال وإلى طابية أم درمان من ناحية الجنوب . كذلك يمكن رؤية قصر غردون المخرّب في الخرطوم . وبالقرب من البوابة الكبيرة وبالقرب من الجدار الخارجي للمسجد يوجد مبنى محاط بدرابزين خشبي حيث يجلس فيه القاضي لإدارة محكمته .

الخليفة مغرم بالتجوال في أرجاء المدينة المختلفة مصحوباً بجمهرة غفيرة من الناس . ولما رأي أن الشوارع الضيقة تعوق مسيرته وتنتقص من أبهة موكبه ، أمر مهندسه عمر بإنشاء طرق عريضة مستقيمة إلى جميع الأماكن الرئيسية . وهذا قد اقتضى إزالة الآلاف من بيوت الطين . وقد أزيلت على الفور . لكنني لم أسمع مطلقاً أن ملاك تلك البيوت قد تم تعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم . والآن هناك طريق عريض يبدأ من البوابة الشمالية للمسجد ويتجه إلى « الهجرة « وهو المكان الذي تبدأ منه الحملات العسكرية إلى الشمال وهو بالقرب من خور شمبات . وهذا الطريق كما ذكرت من قبل يسمى « طريق الشهداء « . والطريق الثاني الكبير يبدأ من البوابة الغربية

للمسجد ويؤدي إلى « العرضة » وهو مكان استعراض الجيش ويسمى « درب العرضة » . وهناك طريق ثالث رئيسي ويؤدي إلى الهجرة الجنوبية وهي الحملات العسكرية المتجهة إلى كردفان ودارفور وما كان في اتجاهها . وبالإضافة إلى هذه الطرق الرئيسية توجد شوارع وأزقة متعرجة لا تحصى ولا بد من دليل لاجتيازها . وتمثل قبة المهدي معلماً أرضياً ممتازاً .

يعطي الخليفة عناية خاصة جداً للاحتياجات الضرورية للحرب . ولديه لهذا الغرض مبنى ضخماً وقد شيد على مسافة قريبة إلى جنوبي المسجد . وهو يتألف من قاعة كبيرة سقفها يرتكز على أعمدة وهي مشيدة من الطوب الأحمر . وهذا المبنى معروف باسم « بيت الأمانة » وهو مقسم إلى أقسام فرعية . وفيه يحفظ البارود والذخيرة والمدافع والبنادق وغيرها من معدات الحرب . والدخول إلى هذا المبنى من خلال بوابة كبيرة مقنطرة . ومن غير المسموح بناء بيوت بالقرب منه . وهو محاط بجدار عال ومحروس ليل نهار بمفرزة من الجند . وفي باحة المبنى غرزت جميع رايات فرق الجيش في الأرض بصورة ثابتة وهي بهذا تشكل منظر غابة صغيرة من العصي . أما الراية الكبيرة « الزرقاء » السوداء الخاصة بالخليفة فإنها ترتفع عالياً فوق جميع الرايات الأخرى . وبالقرب من ساحة الرايات يوجد مبنى صغير من طابقين تحفظ فيه طبول الحرب « النحاسات » . وهي موضوعة عن قصد في مكان مرتفع حتى يمكن سماعها . من مسافات بعيدة . وأمام بيت الأمانة يوجد ميدان مربع كبير مفتوح يتصل بالمسجد بأحد الطرق الرئيسية .

بجانب قصره يمتلك الخليفة عدداً من البيوت الأخرى التي يزورها من وقت إلى آخر . من هذه واحد يقع قريباً من شاطئ النيل الأبيض وسقفه مزيّن برأسين ضخمين من رؤوس فرس النهر . ولديه بيت آخر في بيت المال يستطيع منه أن يصل إلى النهر بسهولة ويركب على إحدى بواخره ليزور « الهجرة الشرقية » حيث تبدأ من هنا الحملات العسكرية إلى الجزيرة أو إلى اثيوبيا . كذلك يمتلك بيتاً في العرضة أو منطقة استعراض الجيش . وآخر في « الهجرة الشمالية» وفي جميع هذه البيوت يحتفظ

بعدد كبير من النساء .

تكاد أن تكون أم درمان مبنية بأكملها من الطين . فأكواخ القش أو ما يسمى « التّكل » قد اختفت . وكل صاحب بيت يحيط باحة البيت بجدار لمنع اللصوص وتطفل الجواسيس الذين تعج بهم المدينة . وغير مسموح بناء بيوت جيدة حيث أنها قد تدل عن إغراء لأصحابها لإخفاء النقود . فمتي ما عرف عن شخص أنه موسر أو غني يكاد أن يكون من المؤكد سلب تلك الثروة منه .

أهم أحد الأماكن في أم درمان هو مكان السوق الذي يؤدي إليه طريق عريض من المسجد . إنه مكان ملئ بالحياة ويعج بالمشترين والبائعين وكذلك العاطلين عن العمل الذين يأتون للثرثرة وجمع أية أخبار يستطيعون جمعها . ومما يدل على أن المهدية لم تكن تعتبر نظاماً راسخاً ، يتضح من القلق المحموم لدى الجميع لسماع آخر الأخبار ومكان السوق هو نقطة اللقاء لجميع الباحثين عن الأخبار . هنا تجار متجمعون من كردفان والجزيرة ومن بربر ودنقلا وسواكن جميعهم منهمكون بجد لمعرفة أخبار بعضهم بعضاَ .

إنه من المستحيل إعطاء فكرة عن الشائعات الجامحة التي تتطاير بصورة مستمرة من هنا وهناك . وبنفس القدر من المستحيل فرز الأخبار المزيفة من الأخبار الحقيقية . ومن هذه الناحية فإن الخليفة ينظر إلى السوق بمطلق عدم الثقة . وهو يود لو يستطيع أن يلغيه عن طيب خاطر . ويتألف السوق من خليط غريب من الدكاكين والأكشاك والورش وأكواخ القش . وقد أوكل أمره إلى الخليفة على ود حلو الذي وزع أماكن خاصة لكل تشكيلة من السلع والأسواق المختلفة مفصولة الآن في هيئة صفوف .

في الليل تجمع كل البضائع وأدوات العمل وما شابه لتحفظ وإلا فإنها لن تكون آمنة إذا تركت في مكانها بحيث يكون السوق أثناء النهار هو حياة أم درمان بينما في الليل فارغ تماماً ومهجور . وعلى أية حال منذ أن تولى الخليفة على ود حلو أمر السوق فقد بدأت تظهر دكاكين صغيرة من الطوب حيث يغلق بعض التجار بضائعهم بداخلها ويتركونها تحت رعاية حراس . وقد قامت الآن أماكن لتجار القماش والأدوية وباعة

الخضراوات والملح واللحم وكذلك صاغة الذهب والفضة والحدادون والنجارون والخياطون والحلاقون . وكذلك توجد أماكن خاصة للمطاعم العامة والمقاهي وباعة الحطب والبناءون وصانعو الأحذية .

وللنساء أقسامهن المنفصلة . وعلى مدى السنوات القليلة والماضية منع الرجال من أي تعامل مع النساء . ولتسوية المشاجرات والمنازعات التي تحدث كثيراً في السوق توجد محكمة خاصة بالسوق على رأسها قاض ويحبس جميع منتهكي القانون في زريبة كبيرة مكشوفة لأشعة الشمس الحارقة . وتوجد بالقرب من الزريبة ثلاث مشانق بجانب مشنقتين أخريين في أجزاء مختلفة من المدينة . ووضع المشانق بالقرب من السوق على أمل أن يرى الناس عملية الإعدام فيكون لذلك أثر رادع على ارتكاب الجرائم .

سكان أم درمان خليط من كل عرق وجنسية في السودان : فلاته وتكارير وأهالي برنو ووداي والبرقو والفور وسودانيون من إقليم سواكن ومن إقليم مصوع وزنوج سود كالآبنوس وتتدرج الألوان إلى اللون الكاكاوي الفاتح وقبائل النيام نيام والموبوتو آكلي لحوم البشر والبازه والدينكا والشلوك والكاره و الجانقي والنوبا والبرته والمساليت والعرب بكل قبائلهم بقّارة ورزيقات وتعايشه وحمر وحوازمة ومسيريه وكبابيش وهبّانية ودغيم وكنانه وجوامعه وبديرية وبنى جرّار وجهينة وسكان بني شنقول وسكان الجزيرة من شكرية وبطاحين وحداربة وهدندوه وبرابره وجعليين ودناقله ومصريين واثيوبيين وأتراك وعرب مكة وسوريين وهنود وأوربيين ويهود . وجميع هذه الجنسيات المختلفة لها مناطقها الخاصة من المدينة . وهؤلاء يتزوجون في القبائل والفروع الخاصة بهم . واللغة العربية هي اللغة العامة . وجميع السكان يتحدثونها أو يتحدثون لهجة محرفة من العربية .

للدناقلة والبرابره والهدندوه لغتهم الخاصة بهم ولكن بما أنها مشتقة من العربية فإنها تسمي « رطانة » كما لو أن العربية هي اللغة الأصلية الوحيدة في العالم ـ لغة آدم وحواء ولغة أهل الجنة . والعربية ليست إجبارية ولذلك فإن السود مازالوا يتحدثون بلهجاتهم الخاصة .

يصل تعداد سكان أم درمان إلى حوالي مائة وخمسين ألف شخص . ولكن بأية حال لم يكن العدد ثابتاً . فخلال الشتاء تغادر أعداد من الناس المدينة ويذهبون إلى كردفان والجزيرة للزراعة . ولكن عندما يأمر الخليفة بتجمع عام فإن الأعداد تزداد بالطبع بدرجة كبيرة . ففي عام ١٨٨٨م أصبحت المدينة ربما أكبر من أي وقت آخر ففي تلك السنة أمر الخليفة جميع سكان الجزيرة بالمجيء والعيش في أم درمان . والسبب في ذلك لم يعرف بالضبط مطلقاً ولكن يظن أن الخليفة قد خشي من ثورة يقوم بها الأشراف أهل المهدي .

تم تدمير جميع المدن والقرى الرئيسية على النيل الأزرق إلى كركوج جنوباً مثل الكاملين والمسلمية وود مدني وأبو حراز وود العباس ورفاعة . فسكان جميع هذه المدن من رجال ونساء وأطفال اضطروا تحت إرهاق شديد المجيء إلى أم درمان حيث استقروا شمالي أم درمان بالقرب من خور شمبات .

جميع هذه الإجراءات القاسية قد نفّرت الناس من الخليفة . وكانت الزوجات غاضبات على أزواجهن لخضوعهم المذل لنير الخليفة . وقد أصبح الآن من الواضح جداً أن الناس يخشونه بدرجة عظيمة . فكلمة واحدة منه كافية لجعلهم يهدمون بيوتهم وحزم أمتعتهم وتحميلها على الجمال والحمير والبغال ونقلها إلى أم درمان المكروهة المخوفة . ولطالما تاقوا إلى الحكومة التي شتموها بمرارة « ألف في تربه ولا ريال في طُلبه » أي موت ألف شخص ودفنهم في تربة أخف من مطالبة الحكومة بريال كضرائب . وقد كان هذا المثل هو شعار الناس في بداية الثورة على الحكومة التركية . وقد ثبت أن ذلك صحيح إلى حد بعيد وكيف أنهم ندموا ندماً شديداً على غلطتهم حيث لا ساعة مندم . فالخليفة قد أمسك بهم بقوة في قبضته وقد جعل التفرق والاختلافات التي خلقها بين القبائل والجنسيات جميع الآمال في الإنعتاق والحرية مستقبلاً أمراً غير وارد بتاتاً .

أولئك الذين كرهوا المهدية قبل عام ١٨٨٨م ، أصبحت لديهم أسباب أقوي بكثير في عامي ١٨٨٩م و١٨٩٠م . فأولى هاتين السنتين قد جلبت مجاعة فظيعة في البلاد . أما في عام ١٨٩٠م فبالرغم من أن فترة العوز الفعلية قد ولت إلا أن كل شيء ، أصبح غال جداً .

في عام ١٨٨٨م كان الحصاد سيئاً . وفي صيف ذلك العام أصدر الخليفة أوامر مشددة بألا يحتفظ شخص بأكثر من أردب واحد من الذرة في منزله وإلا تعرّض لعقوبة قاسية . وفوق ذلك على كل شخص أن يحضر الذرة إلى محطة الإنزل في أم درمان . ولما كان هناك عدد قليل من حيوانات النقل لحمل الذرة إلى أم درمان فقد تقاضى أصحابها أجوراً فاحشة نظير النقل . ونتيجة لذلك ظلت كميات كبيرة من الذرة على شاطئ النيل مما عرّضها للسرقة .

وسريعاً ما ارتفع أردب الذرة من ١٢ إلى ٢٠ ريالاً وفيما بعد إلى ٦٠ ريالاً . فحتى أكبر المعمّرين لم ير قط طيلة حياته مثل هذه المجاعة التي تجتاح البلاد الآن . فالحروب المستمرة قد أوقفت الزراعة وكذلك شح الأمطار كانت من الأسباب الرئيسية لهذه الكارثة الفظيعة . في عام ١٨٧٨م عندما كان هناك شح في الأمطار فإن أسعار الذرة لم تتجاوز قط ١٦ريالاً للأردب أما الآن فإن السعر قد تضاعف أربع مرات تقريباً . إن واردات الذرة الشامية من فشودة هي الوحيدة التي أنقذت أم درمان من مجاعة تامة . الواردات من النيل الأزرق تم استنزافها تماماً واستمرت فشودة حتى ١٨٨٩م كسوق لواردات الذرة . وكان المزارعون من أهالي فشودة يتلقون مقابل الذرة السكسك الزجاجي وقطع من النحاس والحديد والودع والريالات المجيدية القديمة . ومقابل كل هذا أرسل الخليفة الزاكي طمل وجيشاً من القلاّبات قتل ملكهم غدراً وحارب هؤلاء الناس الذين بالفعل قد أنقذوه وعاصمته من أنياب الموت !

الذرة التي يستوردها التجار إلى أم درمان يتم تفريغها تحت الرقابة المشددة وتباع إلى البقّارة تحت الإكراه المطلق بستة ريالات فقط للأردب . بينما على القبائل الأخرى أن تشترى الذرة بعشرة أضعاف ذلك السعر . وهذا ما جلب أشد الشكاوى مرارة ضد ظلم الخليفة .

إن المناظر المروّعة للجوعى في سوق أم درمان تجلّ عن الوصف . فالناس جاءوا من بربر وكسلا والقلاّبات وكركوج معتقدين أن المحنة ستكون أخف وطأة مما في الأقاليم ولكنهم كانوا مخطئين تماماً . فعند ما يسير المرء في الطريق يستطيع أن يعد خمسين

جثة ملقاة على قارعة الطريق وهذا بغض النظر عن الأعداد التي تموت في بيوتها .

ففي سوق المواد يقف الباعة فوق بضائعهم حاملين عصياً ضخمة في أيديهم لإبعاد الهياكل العظمية الفقيرة البائسة التي تلقى نظرات حزينة من أعينها الغائرة على الطعام الذي منعت منه . وأحياناً يتوحد عشرون أو ثلاثون من هؤلاء الجائعين التعساء وبغض النظر عن الضربات التي تنهمر عليهم وتغطي أجسامهم بالجروح والكدمات يهاجمون الباعة بهياج ويخطفون بجنون أي شيء تقع عليه أيديهم من الطعام ويبتلعونه على الفور وهو ملوث بالغبار وربما ملطخ بدمائهم .

وآخرون يتسللون خفية كالحيوانات المتوحشة تغطى عوراتهم خرق بالية . فإذا رأوا أي شخص منفرد يحمل مأكولات فإنهم يقفزون عليه كالنمور ويقنعون حتى بخطف ما يملأ الكف من الطعام . وهؤلاء يسمون « الخطّافين » . في البداية كانوا ناجحين تماماً في هجماتهم المفاجئة ولكن تدريجياً أدرك الناس ما يجب عليهم الاستعداد له . وأصبح هؤلاء البائسون يضربون بالعصي ضرباً مبرحاً ولكن يبدو أن الجوع قد جعلهم لا يحسون بالألم .

يستطيع المرء أن يرى مئات من هؤلاء الجائعين وهم يتجولون . مجرد حقائب من الجلد والعظام وبلا شكل تقريباً . إنهم يأكلون أي شيء مهما كان مقززاً . جلود الجمال التي قتلت بعد هزيمة الكبابيش وجهينة والتي استخدمت كأغطية لسقوف الأكواخ . الآن انتزعت وتم شواؤها وأكلها بتلك الحالة .

ربما كانت أكثر المناظر فظاعة ما تحدث في مكان ذبح الحيوانات . مئات من الرجال والنساء الجياع يشاهدون وهم وقوف بأكواب أو قرع (GOURDS) في أيديهم جاهزين لتلقى الدم قبل أن يسقط على الأرض وكذلك عندما يتلوى الحيوان الذبيح على الأرض في سكرات الموت يقعون عليه لتجميع الدم السائل من جرحه . بينما يشاهد حشد من الناس يتصارع على قطرات قليلة من الدم تدفقت واختلطت بالتراب والرمل وتنتهي هذه الصراعات بمشاجرات تتحطم فيها الأكواب والأوعية التي يحملونها ويتلطخ المتصارعون بمحتوياتها مما يضيف إلى الشناعة المثيرة للاشمئزاز من هذا

المنظر المروع . وليس هناك قوة في الأرض كان يمكن أن تكبح جماح هؤلاء البؤساء فآلام الجوع قد دفعتهم إلى الجنون .

وبالرغم من أن المجاعة قد حصدت المئات إلا أن الناس ما زالوا يتدفقون من الأقاليم على أم درمان . أصبحت الذكور من الجمال والبقر نادرة والآن أصبحت تذبح الإناث دون رحمة حتى ولو كانت معها صغارها . العظام القديمة للحيوانات يتم طحنها كدقيق ويصنع منها نوع من الرغيف الذي كان يؤكل بشراهة . وحتى جيف الحمير المتعفنة تم أكلها في غضون هذا الصراع المخيف على الطعام .

لكن أثناء كل هذا البؤس الرهيب لم يبد الخليفة أية رحمة أو شفقة أو رغبة في تخفيف هذه المعاناة الفظيعة . لقد حرص كل الحرص أن يتم إطعام البقّارة التابعين له أما بالنسبة للآخرين فلم يهمه مثقال ذرة . بالتأكيد أن الجوع كان له تأثير في ابتعاث كل أنواع العبقريات المبدعة . وبما أنه أصبح الآن من غير الممكن النهب والسرقة ، قرر الخطافون ترك البائعين وشأنهم شريطة ألا يحولوا بينهم ومحاولاتهم للحصول على ما يستطيعون من المشترين .

أم درمان مليئة بالغرباء الذين ليست لديهم فكرة عن وجود الخطافين . وهم يذهبون بدون أخذ الحيطة إلى السوق لشراء طعامهم . ولكن بمجرد أن يضعوا النقود في يد التاجر حتى يهجم الخطافون بصيحات مجلجلة ويخطفوا النقود في لحظة تاركين المشتري صفر اليدين . وبالطبع فإن التاجر لا يسلم إليهم السلعة حيث أن الثمن قد نهبه الخطافون .

يستطيع المرء أن يملأ كتاباً بآلاف الوقائع الغريبة التي حدثت أثناء هذه المجاعة المرعبة . أطفال تركتهم أمهاتهم ، مساكين تعساء صغار جياع يتسولون بأكثر صورة مثيرة للشفقة طالبين الصدقة . والمتسولون يتابعون المرء حتى ساعة متأخرة من الليل ، كما يقفون على أبواب المنازل ويتسولون لساعات طويلة حتى لحبوب يصنعون منها طعاماً . وفي يوم من الأيام اقتحم منزلنا ولد صغير مسكين عريان وهو يصيح " جعان قوي " وكانت النغمة التي قال بها ذلك والعيون الغائرة الحزينة وحالته البائسة قد

أثارت شفقتنا . وبالرغم من أن مئات المتسولين قد تم صرفهم قبل أن يجيء هذا الولد إلا أننا أطعمناه واستطاع أن يتجاوز سنة المجاعة المرعبة ولكنه قد نسي اسمه ولذلك كنا نناديه باسم " جعان قوي " . وكثيراً ما رأيت أطفالاً صغاراً في شكل هياكل عظمية يحاولون الحصول على غذاء من أثداء أمهاتهم الميتات .

الواقعة التالية سوف تعطي القارئ بعض التبصر في صور الرعب لهذه المجاعة . في يوم من الأيام جاءت إليّ امرأة ومعها ثلاثة أطفال جياع وكانت تحمل في كل ذراع واحداً بينما سار الأكبر متعلقاً بجلبابها . والأربعة جميعهم بدوا مثل هياكل عظمية متجولة . وبصوت ضراعة فيه ألم مبرح مما لا يصدر إلا من أم فقد توسلت إليّ بإلحاح لأخذ الولد الأكبر وإطعامه وإذا عاش يمكن أن يبقى إلى الأبد عبدي . هنا امرأة فقيرة تفضل أن تري طفلها عبداً من أن تنظر إليه وهو يموت من الجوع أمام عينيها . هذه الواقعة قد أثرت في نفسي تأثيراً كبيراً ولكن لم استطع قبول العرض لأن لدي من الطعام ما يكفي بالكاد لنفسي ولذلك صرفتها مع حفنة من الذرة .

وفي اليوم التالي أتت المرأة مع نقص واحد من الأطفال الثلاثة وفي اليوم الثالث أتت بطفل واحد فقط وأخيراً جاءت بمفردها قائلة إنها الآن سوف تتبع أطفالها الثلاثة المحبوبين . وبعد ذلك لم أرها مرة أخري . فإذا كان الحزن لم يقتلها فإن الجوع لابد بصورة أكيدة أن يجعلها ضحية .

وفي يوم من الأيام مثلت بنت أمام قاضي محكمة السوق وذكرت أن أمها قد شوت أخاها الصغير وأكلته وأنها الآن قد هربت من البيت خوفاً من ملاقاة نفس المصير . أرسل القاضي على الفور بعض العساكر مع البنت للقبض على الأم غير الطبيعية . وهناك وجدوا امرأة فقيرة شبه جائعة مع أذن وقطعة من رجل بشرية . أخذوها إلى القاضي وأقسمت اليمين أن الطفل الوحيد الذي كان لديها هي البنت . وفي الحال تم سجنها في الزريبة ورفع الأمر إلى كبير القضاة الذي أمر بتعليق الأذن والرجل في المشنقة . إنه حتى السود المتوحشون الذين قسّت قلوبهم الحروب المستمرة قد تأثروا من الرعب الذي أثاره فعل المرأة المسكينة وتجمعوا حول الزريبة للتحديق فيها . ولكن

سرعان ما اكتشفوا أن المرأة البائسة تهذي من الجنون ولذلك عفا عنها الخليفة ولكنها ماتت بعد بضعة أيام من ذلك .

لم يكن مأموناً على الإطلاق ظهور الأطفال في الشوارع ليلاً أو أنه من المؤكد أن يقبض عليهم الجياع . في إحدى الأمسيات سمعت صراخاً عند بابي . وفي الحال هرعت وعدد من الجيران لاستطلاع الأمر . رأينا رجلاً يجر ولداً . وفي الحال ركضنا خلفه فأطلق الولد وهرب . لقد نوى أن يجعل من الولد وليمة جيدة في تلك الليلة .

أثناء المجاعة باع العديد من الناس أنفسهم أو أبناءهم كعبيد . ولكن عندما انقشعت المجاعة ، أمر الخليفة بإطلاق سراح جميع هؤلاء دون تعويض لأسيادهم .

إن الدراويش الذين أمطروا الأتراك بالإساءات أثناء حصار الأبيّض لأكلهم الحمير وغيرها من الحيوانات النجسة ، هم الآن يشعرون بالانتقام الرباني حيث أنهم لم يأكلوا الحيوانات النجسة فحسب بل أكلوا أطفالهم كذلك . كان هناك الكثير من الجثث بحيث لم يكن من الممكن دفنها جميعاً . في البداية كانوا يدفنونها داخل المدينة ولكن الخليفة أوقف ذلك وصاروا بعد ذلك يأخذونها إلى خارج المدينة في الجانب الشمالي الغربي . وحتى هذا اليوم إذا مشى أي شخص في ذلك الاتجاه فإنه سيجد جماجم وعظاماً بشرية منتشرة في السهل وهي تلمع تحت الشمس بيضاء كالثلج . وقد صقلتها كالزجاج الرياح الرملية والشمس الحارقة .

كم من الجثث حملها النيل في تياره .. الله وحده يعلم . إذا فكر الناس في ذلك فلا اعتقد أنهم سيأكلون السمك مرة أخرى لأنه لابد أن السمك قد أكل من اللحم البشري حتى التخمة . فرائحة الجثث قد جذبت الضباع في كل مكان . وقد أصبحت من الجرأة بحيث تأتي تقريباً إلى بابي . أما بالنسبة للنسور وقد كان اسمها الفيلق فإنها لم تستطع أكل جميع الجثث حتى بمساعدة الضباع .

دعونا نغادر أم درمان للحظة ونتابع مسار المجاعة في الأقاليم . في دنقلا وبربر ارتفع سعر الذرة إلى مائة ريال للأردب . جميع المناطق بين أم درمان وبربر أصبحت خالية من السكان . فقد تجد في كوخ رجلاً وزوجته وأطفاله جميعهم أمواتاً راقدين على "

عناقريبهم " سرائرهم . وحتى في مناطق الملح بالقرب من شندي فإن جميع السكان تقريبا قد ماتوا من الجوع . وفي كسلا والقلاّبات كانت الأمور أسوأ . فهنا ارتفع سعر أردب الذرة إلى مائتين وخمسين ريالاً . وحتى بالنسبة لهذا السعر العالي يكاد يكون من المستحيل الحصول على الذرة إذ أنه لا توجد ذرة في البلاد حقيقة . وقبيلة الشكرية العظيمة قد أكلت تقريباً جميع إبلها وقد تضاءلت أعدادها من أربعين ألفاً إلى أربعة آلاف .

أما ود زايد شيخ قبيلة الضباينة الكبيرة الموجودة بالقرب من القضارف فقد أودع السجن في أم درمان لمعارضته للمهدية وقد كادت قبيلته أن تنقرض . وتناقص عدد سكان كسلا والقضارف والقلاّبات إلى العدم تقريباً . وللحصول على طعام لجنوده فقد قام الزاكي طمل بنهب الذرة من التجار وأجبرهم على تسليم آخر مؤن لديهم ولم يترك لهم حفنة من الذرة .

حول القلاّبات أصبحت الضباع جريئة لدرجة أنها تتسلل داخل القرى حتى قبل غروب الشمس وتسحب الجوعى البائسين الذين يكونون شبه أموات . ولم يتبق من قوة الزاكي طمل التي كانت تبلغ سبعة وثمانين ألفاً قبل المجاعة إلا عشرة آلاف نفس بما فيهم النساء والأطفال . كركوج وسنار اللتان كانتا تسميان عموماً بمخزن غلال السودان قد أقفرتا بسبب المجاعة . إنه حقاً الانتقام الرباني الرهيب من أناس مارسوا أعمال قسوة لا تحصى وأراقوا أنهاراً من دماء الأبرياء .

كان الكرب عظيماً حتى أنه أصبحت مقولة سائرة أن من لم يمت في عام ١٨٨٩م فإنه لن يموت أبداً . وهذه السنة وهي تقابل سنة ١٣٠٦ من التاريخ الهجري سوف تظل محفورة إلى الأبد في أذهان أولئك الذين عانوا المجاعة في السودان ثم ساعفهم الحظ أن يعيشوا بعدها .

عندما وصلت أول إمدادات من المحصول الجديد إلى الأسواق عمت الفرحة جميع البلاد وكل جار هنأ جاره بانتهاء محنتهم . لكن حتى المحصول الجديد لم يكن جيداً ولم تنزل أسعار الذرة لأقل من أربعة وعشرين ريالاً للأردب . فالجراد قد أتلف كثيراً

من المحصول . وهذا البلاء قد دمر البلاد الآن لحوالي أربع سنوات .

هناك نوعان من الجراد الأصفر والأحمر الزاهي وقد غزا جميع البلاد من كردفان إلى دنقلا وإلى طوكر . وقد جاء في أسراب هائلة حتى أنه كان يغطي الشمس أحياناً . وفي مرة من المرات عبرت الأسراب أم درمان واستغرق عبورها ما بين ساعتين إلى ثلاث ساعات . وقد أرعب الناس صوت اندفاع الجراد . وحيثما حط ترك المكان بلقعاً تماماً وأرضاً جرداء . والتهم حتى جريد النخل القاسي بحيث بدأ وكأنما تم قطعه بمقص . وحتى لحاء الشجر لم يتركه . وحيثما يحط يبدو وكأنه سحابة عظيمة ويغطي تماماً الشوارع والسقوف والجدران . السودانيون كقاعدة عامة ينامون خارج الغرف ، لذلك فإن أسرتهم تتغطى بالجراد كذلك وبمجرد طرد سرب من الجراد يحل محله سرب آخر .

يعتبر الجراد بالنسبة للسودانيين طعاماً شهياً للغاية . وعندما يتم شواؤه جيداً بالزيت فإن طعمه يكون مثل طعم السمك المقلي . وعموماً يأتي الجراد بين شهري يونيو وسبتمبر تماماً عندما ينضج المحصول أو عندما تنبت براعم المحصول الجديد بعد هطول الأمطار . لم تجر محاولة لتدمير بيضه . وهناك وباء آخر هو الفئران . هذه الحيوانات الصغيرة ذات اللون الضارب إلى الحمرة تأتي بأعداد كبيرة بحيث تدفع الزرّاع إلى اليأس . فما أن يبذر الزرّاع البذور في الأرض حتى تقوم الفئران بإخراجها وأكلها . وكثيراً ما يضطرون إلى زراعة الحقول مرتين وثلاث مرات . وعندما تنزل أمطار غزيرة فإن جميع الفئران تموت غرقاً . وعند ما ينحسر الماء فإن الأرض تكون مغطاة بالفئران النافقة .

يبدو كأن السودان بأكمله يقع تحت لعنة . والناس كذلك قد عرفوا هذه اللعنة ونظروا إلى الأمر بأنه حكم الله العادل عليهم بسبب الأعمال الشريرة التي دفعوا للقيام بها بتحريض من مهدي شرير مزيف.

الباب السابع عشر

الخليفة وحكومته

نظام حكومة الخليفة . أهل بيت الخليفة . موجز لشخصيته . نظام صلاته في المسجد . رؤاه وأحلامه . نظام التجسس لديه . الجنود التابعون لأهل بيته . نشاطه العظيم وحذره . وصف الاستعراض العظيم للجيش في يوم الجمعة . هجرة البقّارة والقبائل الغربية إلي أم درمان . هروب الشيخ غزالي . إدارة بيت المال . نظام الضرائب .

أنوي أن أخصص هذا الفصل لوصف موجز للخليفة عبد الله ونظام حكومته .

عبد الله بقّاري ولون بشرته كاكاوي غامق مع أنف طويل بارز وله لحية قصيرة مشذبة كعادة المسلمين . عندما رأيته أول مرة أثناء حصار الأبيّض كان نحيلاً جداً ولكنه الآن بدين للغاية وبشرته متهدلة في طيات كبيرة تحت جفنيه . لديه صوت قوي واضح . وبالرغم من أنه نال تعليماً جيداً في العربية إلا أنه لا يستطيع إخفاء لهجته ونبرته البقّارية .

لبسه يتألف من جبة الدراويش المعتادة والسروال كما يلبس في رجليه صندلاً أو « شبطاً » وفوق الجبة التي تفوح عموماً برائحة الشحم والدهن يلبس ثوباً خفيفاً من القطن . وعلى رأسه طاقية مكة المعتادة وحولها عمامة ملفوفة .

وفيما يتعلق بالطعام فالخليفة أكثر اعتدالاً وبساطة من المهدي . فما زال يتمسك بطعام أهله البقّارة وهو العصيدة . وتؤكل مع اللبن أو اللحم . ويُصب على العصيدة مرق حاد المذاق به كثير من التوابل والشطة . وأحياناً يأكل الدجاج المشوي ويشرب كميات من اللبن بالسكر وخاصة لبن الإبل الذي يحبه جميع البقّارة . وليس للخليفة وقت محدد لتناول الطعام بل يفعل ذلك وقتما شعر بالرغبة فيه . ومن المدهش كمية الطعام التي يستطيع السوداني التهامها في مرة واحدة .

مثل سيده المهدي وجميع الشخصيات المهمة في السودان ، فإن الخليفة مكرس نفسه إلى حد بعيد لحياة الحريم . فبعد أن استقر له الأمر كحاكم أعلى بوقت قصير فكر في إحاطة نفسه بجميع مظاهر الأبهة والفخامة لسلطان سوداني . ومن أهمها استحوازه

على مجموعة كبيرة من الحريم . وكما فعل المهدي من قبل أخذ هو لنفسه عدداً كبيراً من الزوجات . ففي أي مكان وجدت امرأة جميلة فإنه يتلقى على الفور معلومات عنها من جواسيسه وفي الحال يحضرونها لتنضم إلى حريمه .

كل واحدة من زوجاته لديها بيتها الخاص ومطبخها وعبيدها في انفصال تام عن الأخريات . وتبعاً لذلك فإن مصروفات أهل بيته ضخمة جداً . زوجته الأولى هي رئيسة على جميع الزوجات الأخريات اللائي يصل الآن عددهن مائة وخمسين زوجة . وهي امرأة بقارية ويقوم على خدمتها عدد من الخصيان الذين كانوا من قبل في خدمة الباشوات الأتراك والمصريين . وبالرغم من أن تحويل الرجال إلي خصيان ممنوع قطعياً في قوانين المهدي إلا أن الخليفة يوظف سراً عدداً من الأشخاص الذين يدبرون له الحصول على الخصيان عند اللزوم .

رئيس الخصيان شخص يسمى عبد القيوم وهو رئيس جميع الخدم في بيت الخليفة . فتحت إمرته عدد من الإماء اللائي يطحن الذرة ويقمن بإعداد الطعام ويقدر أن بيت الخليفة يستهلك ثلاثة أرادب من الذرة في اليوم .

الخليفة بطبيعته ذو بنية قوية ولكن طريقة حياته غير المنتظمة قد نجحت كثيراً في تدمير تلك البنية . ففي مرتين تعرض لنوبات مرضية حادة كادت أن تقتله . وفي كلتا المناسبتين كان يهذي وأصبح جسمه منتفخاً بصورة كبيرة . وفي المرة الأخيرة التي كان فيها مريضاً تلاشي كل أمل في شفائه . وكاد الطبيب الذي يقوم بعلاجه والذي أعطاه دواء مسهلاً أن يفقد رأسه لولا أن الدواء أعطي مفعولاً إيجابياً في آخر لحظة وكانت الوسيلة السعيدة لإنقاذ حياة كل من الخليفة والطبيب .

أمراض الخليفة تظل دائماً سراً . لذلك كلما تغيب عن حضور الصلاة يعتقد عموماً أنه مريض . بعد خمسة عشر يوماً من آخر أزمة مرت بالخليفة وعندما زال جميع الخطر ، استدعى الخليفة الخليفتين الآخرين والقضاة ليشاهدوا أنه قد شفي . وعندئذ قام الخليفة على ود حلو على الفور بأداء صلاة شكر لشفاء الخليفة عبد الله برغم أنه إذا تم تحليل مشاعره الحقيقية لوجدوا أنه أبعد ما يكون عن الشكر . وبعد أن غادروا

الخليفة أعلن الخليفتان محمد شريف وعلى ود حلو في المسجد أن الخليفة عبد الله كان مريضاً جداً لدرجة خطيرة ولكن الله برحمته قد عافاه .

هذه الأخبار كانت إشارة لصيحات مدوية بالفرح وصلت إلى آذان الخليفة فسرته أيما سرور . وبعد ثمانية أيام من ذلك ظهر لأول مرة في المسجد وعندئذ صار الابتهاج بلا حدود وسمعت الهتافات على بعد أميال . هنأه الأمراء بالشفاء . وترددت في الجو أصداء الصيحات بعبارة « الله يطوّل عمرك » . وكل هذا الملق قد سر الخليفة سروراً عظيماً . وهذا التظاهر بالولاء هو بوضوح خصيصة متطورة جداً لدي السودانيين .

والآن نورد بضع كلمات عن شخصية الخليفة . فهو رجل في غاية الاختيال والغطرسة وقاس جداً وسريع الانفعال . أحياناً تكون أفكاره جيدة ولكنه محاط بكثير من المتعصبين بحيث أن أفكاره مهما كانت جيدة فإنها عموماً تموت قبل أن تولد . وهو ذو طبيعة شديدة عدم الثقة لأنه يعلم أنه محاط بأعداء . وهكذا فهو خليط عجيب من التصميم والتقلب . وهو يستمع بشغف إلى الافتراءات بقصد تشويه السمعة وينشرح لسماع أحاديث السوء عن الآخرين . وهذا ما يجعل قراراته متقلبة وخاضعة للنزوات . وهو يستهدي إلى حد كبير بما يقوله له الأفّاكون الوضيعون . ولكن عليهم مراقبة مزاجه عن كثب وقد أصبحوا مهرة للغاية في إدخال السرور على قلبه . إنه يخشى ويغار على سلطته وأقل مساس بها ينظر إليه كجريمة خطيرة ويعاقب عليه تبعاً لذلك . لقد أحاط نفسه بالجواسيس الذين يزينون له غيرته وطبيعته الطغيانية .

هؤلاء الجواسيس موجودون في كل مكان . وإنهم يدخلون البيوت الخاصة ويحضرون كل اجتماع وغالباً ما يبدأون النقاش ضد الخليفة وضد المهدية لمجرد إيقاع الغافل في الشرك وجعله يكشف عن مشاعره وآرائه الحقيقية . وهم يخبرون الخليفة عن أتفه الأشياء . وأحيانا ينفجر الخليفة أثناء خطبة بأقسى عبارات الشجب ضد نقاده المعارضين . وهو يعلم تمام العلم بأنه مكروه لكنه لن يسمح أن يقال ذلك علناً . وبالرغم من أنه لا يهتمّ كثيراً إن كان محبوباً أو مكروهاً ولكنه لا يريد أن يقف أي شيء بينه وبين سلطته .

يتقيد الخليفة بصورة صارمة بأشكال الصلاة المقررة . ففي كل يوم يحضر الصلوات الخمس في المسجد ويفرض حضور جميع الأمراء الرئيسيين . وهو لا يريد للأنصار أن يركنوا إلى حياة الدعة وسبل الحياة المترفة ويصر دائماً على أن يخشوشنوا وأن يكونوا على استعداد لمقاومة رهق الحرب . وتنتهي كل الصلوات بقراءة الفاتحة وبعدها دعاء بنصرة الدين وإطالة عمر الخليفة والنجاح المستمر لجيوشه . ثم يعقب ذلك دعاء باستنزال انتقام الله على الكفار وأولئك الذين ضلوا عن طريق المهدية والدعاء بأن تصبح نساؤهم وأولادهم غنيمة للمؤمنين الحقيقيين . وفي نهاية الصلاة تشارك جموع المصلين في ترديد آمين بصوت عال .

وبعد صلاتي العصر والمغرب يعقد الخليفة عموماً محادثات سياسية قصيرة تبحث فيها شئون الدولة والعاصمة . ويستقبل أمراءه ويصدر إليهم التعليمات . وفي مرات كثيرة يخطب من مكان أداء الصلاة وأحياناً يستدير ويخاطب المتجمعين حوله المنكسي الرؤوس في خضوع واستسلام بأسلوب مفعم بحب الخير . وإذا كان لديه مأخذ على أي شخص فإنه لا يحاول إخفاء ذلك بل يشير إليه في المسجد بأصرح أسلوب . وعند ذلك يتقدم الشخص المعنى بسرعة ويلقي بنفسه تحت قدمي الخليفة ويناشده الصفح عنه . فإن لم يفعل ذلك فإنه يتم تهديده عموماً بالسجن .

والمسجد في نفس الوقت ثكنة وسجن لأن الخليفة هنا يقوم بتعليم أتباعه التواضع والطاعة والخضوع . وهو يردد مراراً أوامره أن يكون الجميع مواظباً في الحضور إلى المسجد وحينما تحين ساعة الصلاة فكل الذين يوجدون في الشوارع يجلدون بالسياط ويحملون إلى الزريبة (السجن) . وهذه هي الطريقة التي يختبر بها الخليفة طاعة شعبه ويضمن لنفسه أنهم مستعدون في جميع الأوقات إطاعة أوامره مهما كانت .

أعلى عقوبة محتملة لمن يتغيب عن الصلاة في المسجد هي أن يلزم بالحضور بانتظام للصلوات الخمس لمدة ثمانية عشر شهراً تحت رقابة الشرطة . والشرطي عادة من البقّارة وهو لا يدع المخالف أن يغيب عن نظره . والمرء تحت هذا الحكم ، إذا كان لديه مال ، قد يدفع غرامة أو يرشى حارسه . ولكن إذا لم يكن يستطيع ذلك يجب عليه

الحضور مهما كان بيته بعيداً عن المسجد . فبعض الناس التعساء الذين يسكنون بعيداً عن المسجد يقضون اليوم بأكمله في الذهاب والإياب بين البيت والمسجد . وحتى الأمراء إذا أهملوا تنفيذ هذا الأمر يعاقبون عقاباً شديداً . وقد أضاف هذا التنفيذ القهري لحضور الصلاة في المسجد إلي عدم شعبية الخليفة وذلك لأن الأعمال يتم إيقافها باستمرار وأن ذلك يفسد المشاعر الدينية الحقيقية .

في السابق كان لكل أمير وفكي (فقيه) راكوبته الخاصة يصلى فيها مع جماعته ولكن الخليفة أوقف ذلك خوفاً من أن تميل جميع هذه الاجتماعات إلي التآمر والتمرد . وهو نفسه من المؤيدين للسلطة أكثر من الدين ويستميل السلطة عن طريق الدين . وهو شخصياً لا يهتم كثيراً بالدين . وإن جميع أحلامه ورؤاه الخيالية السخيفة تجعله فقط مضحكة لدى الناس وهو يعتبر من قبل المسلمين العاديين فاسد العقيدة تماماً .

وفي مناسبة عندما أبلغه جواسيسه بأنه غير محبوب لدرجة كبيرة لدى الناس وأن الناس عامة يتمنون موته ، اعتكف لمدة ثلاثة أيام . وهذا الاعتكاف أخاف الناس لدرجة كبيرة لأنه لم تكن لديهم فكرة عن نوع الانتقام الذي يدبره لهم . وفي نهاية هذه الفترة ظهر مرة أخرى ، ومن مكانه في المسجد أعلن ما يلي :

« لقد عُرج بي بالروح إلى السماء الثالثة حيث شاهدت المهدي والنبي إلياس وعيسى المسيح . وعندما حييت المهدي قدمني على الفور إلي النبيين الاثنين . للنبي إلياس مظهر وجه لوّحته الشمس ويضرب كثيراً إلى الحمرة . وقد أخذ بيدي بخشونة ولكن النبي عيسى كان أبيض وناعماً كالوبر . وقد سر النبيان لمعرفتي . هذا وقد أوضحت للمهدي أنه لا رغبة لي في مغادرة هذه السماء اللطيفة . وتوسلت إليه أن يرسل أحداً غيري ليحكم شعبي بدلاً منى إذ أنني تعبت وأرهقت من محاولة حكم أناس لا يهتمون بي . ولكن المهدي أخبرني ألا أيأس وأنه سوف يمنحني القوة لأرضي الجميع . كذلك أخبرني المهدي بأنه راض للغاية عن حكمي . وبعد ذلك أخذني المهدي إلى حضرة الإله الذي أبدى سروره لمعرفة خليفة المهدي » .

جميع المسلمين الحقيقيون الذين سمعوا هذه السلسلة من الأكاذيب غير العادية

غضبوا غضباً شديداً لأن يتجرأ ويتعامل مع اسم الله بغير احترام بهذه الطريقة . وقد فهموا تماماً أسبابه للتفوه بمثل هذه الادعاءات السخيفة التجديفية .

وفي مناسبة أخرى ، أخبروه بأن الخليفتين الآخرين غير راضيين على الإطلاق بحكمه التحكمي وأنهما مستاءان من إبعادهما من أخذ نصيب في حكومة البلاد . دفع هذا إلى رؤيا أخرى أعلن فيها أن المهدي أخبره بأنه سوف يعيش ثماني سنوات أخرى وبعدها سوف يظهر النبي عيسى . وبهذه الطريقة أرادهما أن يفهما أنه ليس لديهما كبير أمل في اعطائهما أية سلطة . ولكن هذه الرؤيا بدت بأن أثرها عكسي تماماً على الخليفتين اللذين أصبحا أكثر صخباً من ذي قبل في مطالبتهما . لذلك أعطى تعليمات لسكرتيره المختص بالرؤيا والأحلام سحب هذه الرؤيا من التداول . وأضاف بأنه إذا سمع أي شخص يتحدث عن هذا الموضوع مرة أخرى فإنه سوف يعاقب بقطع يده ورجله من خلاف . ثم حاول تبرير فعله بإعلان أن ذلك كان نتيجة خطأ سكرتاريته الذين وضعوا تفسيراً مختلفاً للرؤيا لما أراده وفي الحقيقة لما رآه بالفعل !

بعد صلاة الظهر يأمر الخليفة بقراءة بعض المقتطفات من كتاب يتعلق بحروب الإسلام الأولي . وهذا انحراف جديد للغاية . فمن الضروري للاحتفاظ بأي كتاب عن الدين أو التاريخ الديني ففي المرحلة الأولى لا بد من الحصول على موافقة الخليفة . وفي الحقيقة إنه من الصعب جداً الاحتفاظ بأي من مثل هذه الكتب سليمة من تعصب الدراويش الأهوج . لقد كان من مقاصد المهدي تدمير بقدر ما يمكن كل شيء بذكّر الناس بالأيام الغابرة حتى يؤمنوا بسهولة بما يذكره من وحي يأتيه .

الخليفة لا يقبل عرائض مكتوبة إذ أنه هو نفسه لا يستطيع القراءة . فإذا كان لدي أي شخص شكوى ، فيجب عليه أن يصيح عند دخول الخليفة إلى المسجد للصلاة بقوله : « خليفة المهدي! « أو « سيدي « أو قد يصيح بقوله : « يا سيدي أنا مظلوم « عندئذ يستمع إليه الخليفة ويقضى في الأمر . وسواء أكان القرار في مصلحة الشاكي أم لا فعليه أن يقنع بذلك .

كثيراً ما تُلتمس الهدايا والصدقات من الخليفة وأساساً لأنه ليس ذا طبيعة خيّرة مثل

المهدي وفوق ذلك فليس لديه الكثير ليهبه كسالفه .

إذا لم يحسم الخليفة على الفور القضية التي تعرض عليه ، فإن ذلك علامة مؤكدة أنه لا ينوي اتخاذ قرار بشأنها . وويل لمن يجرؤ على عرض الأمر علية مرة أخري ! ويغضب الخليفة غضباً شديداً إذا تمت مقاطعته أثناء حديثه . وتظهر على وجهه بوضوح التعابير المختلفة من رضا وضجر وانتقام بحيث من النادر عدم معرفة حالته الذهنية في أية لحظة محددة بالرغم من أنه كثيراً ما يحاول عبثاً إخفاء مشاعره الحقيقية .

هناك بعض الناس في أم درمان قد جعلوا من محاكاة تعابير وجه الخليفة موضع دراستهم . وهم خبراء مدهشون في معرفة ما يدور في ذهنه . إنهم يصغون بانتباه إلى كل كلمة يقولها . وتنتقل تقديراتهم لحالاته الذهنية بين الأصدقاء من شخص إلي آخر ولكن غالباً ما تتشوه إلى حد ما أثناء النقل . وقارئو الأفكار هؤلاء يعينون أسباباً لحالاته النفسية العديدة وهم ينسبونها إلي أسباب متنوعة مثل اعتلال الصحة أو حدوث كارثة أو مشاجرة مع واحدة من زوجاته العديدات . وتنتشر جميع هذه التقارير في الحال في جميع أرجاء البلاد ويعتقد المرء أنه لا يوجد للناس من عمل آخر يفعلونه إلا بحث أمر الخليفة وكل واقعة في حياته اليومية . وربما لا يكون هذا موضع استغراب ، طالما كان هو يمارس سلطات الحياة والموت دون قيد . كلمة واحدة من الخليفة تستطيع استنهاض همم جميع أولئك الجواسيس الذين مهمتهم الخاصة هي الإبلاغ عن شاربي الدخان والمريسة[1] وإن دفع مبالغ سخية كرشاوى من قبل مخالفي القوانين تجعل هؤلاء الجواسيس أحياناً يهملون واجباتهم . ولكن إذا أراد الخليفة أن يسد نقص موارد بيت المال المتضائلة فإن الإبلاغ عن بضعة مخالفين يملأ بسرعة بيت المال مرة أخرى .

الخليفة رجل ذو نشاط جم . وهو يوجه شخصياً جميع الأمور المهمة . وهو يتلقى تقارير عن أكثر الشئون تفاهة . وهو دائماً غارق في العمل . وهذا على أية حال يساعد على احتفاظه بصحة جيدة ويمنعه من أن يحيا حياة المتع الحسية التي لا شك تميل

١ - جعة تصنع من الذرة .

إليها أهواؤه . فحقيقة كونه ما زال حياً لا تعود إلى أي شيء خلاف نشاطه في العمل . إلا أنه في السنوات القليلة الأخيرة تدهورت صحته وذلك بسبب الانغماس أكثر من المعتاد في شهواته النسائية .

بعد صلاة الفجر عموماً ينام نومة قصيرة . أما أثناء بقية اليوم فإنه يكون مشغولاً بشئون الدولة . البريد يرد ويصدر باستمرار . وأما التلغراف بعد أن تم تحطيمه فقد تم تنظيم خدمات بريد بالجمال ولكنه يستخدم كلياً للرسائل الرسمية فقط . أما أي شخص يريد أن يرسل رسائل خاصة فعليه أن يفعل ذلك بواسطة التجار والمسافرين .

بعد انتهاء يوم العمل فإن الخليفة يبتهج بمجلس القيل والقال إلى وقت متأخر من الليل ويحيط به الأمراء والقضاة . وأحيانا يدخل المسجد قبل منتصف الليل ويستدعي الشعراء لإلقاء قصائد في مدحه . كذلك يبتهج للموسيقى ويحتفظ بعدد من المغنين من دار فرتيت والنيام نيام ويصاحب الغناء العزف على الربابة . وإن ألحانهم الغريبة والعجيبة تبهج روح الخليفة . فلدى هؤلاء الموسيقيين المحليين نوع من المدرسة الموسيقية يتدربون فيها طيلة اليوم على العزف ولكن يبدو أنهم لا يتعلمون أي شيء جديد .

عبد الله ليس بأي حال حاكماً بالاسم فقط . فقصره مزدحم بالخدم والعبيد من إناث وذكور وبالخصيان والصبيان الصغار الذين يقفون على خدمته باستمرار ويحملون وراءه الإبريق الذي لا غنى عنه للوضوء . وهناك أحد العبيد مخصص لحمل الفروة التي يصلى عليها الخليفة إلى المسجد . ويسمى الخدم الآخرون باسم « الملازمين » . وهم يعملون على الأصح في وظيفة جواسيس أكثر من كونهم ملازمين شخصيين . فكلمة طيبة أو سيئة منهم لها وزن كبير لدى الخليفة . بالطبع جميعهم خاضعون لسيدهم . وإذا كانوا قد نشأوا في خدمة الخليفة فعندما يحين الوقت المناسب فإن الخليفة يسمح لهم بالزواج ويعطي الواحد منهم حصاناً كذلك . فالزوجة والحصان هما أكثر ما يتوق إليها الملازم . وللخليفة حلاقه الخاص وهو عبد ، ولديه مشرف على الخيل وهو دينكاوي طويل جداً ولديه كذلك عبد عملاق يساعده على ركوب الحصان والنزول منه . ويتألف حرسه الخاص من ٥٠٠ من العبيد السود المسلحين ببنادق الرمنجتون . وهم

يرافقون الخليفة دائماً كلما خرج راكباً . وهم يلبسون جبة قصيرة تشبه الزي العسكري وسروال واسع مزموم عند الركبتين . بينهم حوالي ١٠٠ من عرب التعايشه والحمر ومهمتهم الخاصة هي منع أي شخص من الاقتراب من شخص الخليفة . وليضيف المزيد إلي هيبته فقد عين مجلساً جديراً بالاحترام يتكون من جميع الشيوخ الرئيسيين لقبائل السودان الكبيرة .

« ملازمو الباب » أو خيالة بيت الخليفة ملزمون بالوجود المستمر عند البوابة الكبيرة للقصر ولا يتركون مواقعهم إلى أن يأوي الخليفة ليلاً إلى فراشه . وأحياناً يختار واحداً أو اثنين من ضباطهم الرئيسيين لإرساله في بعثات مهمة إلى المديريات . وتقع مرتبة خيالة بيت الخليفة بعد القضاة فيما يتعلق بالصدارة في المسجد . وإذا كان أي شخص يبحث عن وظيفة يجب عليه أن يحضر إلى المسجد في وقت الصلاة ويعلن بتذلل طلبه إلى الخليفة . وإذا أراد أن ينجح عليه ألا يدخر جهداً في إغداق الثناء بإسراف على الخليفة عند تقديم طلبه . والخليفة يصغى خاصة لمثل هذا الملق ويختار دائماً لخدمته أشخاصاً لديهم هذه المؤهلات بدرجة ملحوظة .

تدار شئون أعمال الدولة بجيش من الكتبة ومن أكثرهم نفوذاً فوزي ومنتصر وأبو الغارم وأحمد . جميع هؤلاء الرجال ممن يملكون معرفة جيدة باللغة العربية ويعرفون شيئاً من التاريخ والشريعة الإسلامية . وهم يقرأون للخليفة جميع الرسائل الواردة ويردون عليها وفقاً لتوجيهاته . وأحد هؤلاء الكتبة هو حامل أختامه الخاص . ويفترض أن تكون جميع الرسائل سرية للغاية وكذلك مداولات ومباحثات المجلس . وإذا ذكر في أي وقت أمراً على الملأ فيه لوم أو توبيخ فإن ذلك يفهم على أنه مجرد تحذير . وإذا أراد توقيع عقوبة عندئذ يقبض على المتهم على حين غرة وهو غافل وينفذ الجلد أو السجن دون مزيد من الضجة . وهكذا يخضع رجال السودان أمامه ويدوس على رقابهم .

يبتهج الخليفة على وجه الخصوص في استعراض الفخامة . ففي أي وقت تبدأ فيه حملات كبيرة من أي من الهجرات فإنه عموماً يتقدم إلى هناك بعد الظهر ويعود في المساء وفيما بعد قلل من هذه المسيرات حيث كثرة العمل وعدم انتظام الحياة قد بدأ

يفعل فعله في صحته . وهو لا يعلن مسبقاً ما ينوي فعله ولكن قبيل صلاة الظهر يطلق صوت الأمبايه ويصيح المنادي « خليفة المهدي يركب » وعندئذ كل من لديه حصان يركب ويرافق الخليفة . وقد تعودت الخيل في أم درمان على صوت الأمبايه . فكلما سمعت الصوت تصهل وتثب في الهواء كأنها تبتهج بشرف السماح لها بالانضمام إلى موكب الخليفة .

فوراً بعد الصلاة يقوم العبد العملاق بمساعدة الخليفة لركوب حصانه . وعندما يتقدم يتبعه مئات من الفرسان وآلاف من الراجلين يصيحون ويظهرون جميع علامات الفرح . يحمل الخليفة دائماً حربة كبيرة وهو مختلف قليلاً عن بقية الراكبين ، وهؤلاء الراكبون لا يسيرون بهدوء وراء الخليفة ولكن باستمرار يندفعون إلى الأمام في مجموعات من أربعة وثمانية وحرابهم موجهة إلى الأمام للطعن وفجأة يكبحون أعنة الخيل ويعودون إلى صفوف الموكب . هذه « النزوة » تبهج الغوغاء فيصيحون بأعنف صورة استحساناً لهذا العمل .

خلال هذه المسيرات يلاحظ الخليفة بدقة جميع ما يجرى حوله وما يفعله الناس . في إحدى المناسبات عندما كان راكباً إلى بيت المال وكان يلقى نظرة عامة على النهر العظيم ، أحضرت إليه من سفينة قريبة امرأة تلبس ملابس الرجال . وفي إجابة على سؤال الخليفة لها عما كانت تفعله ، ذكرت أنها كانت تعد الطعام لطاقم السفينة . عندئذ سألها إن كانت متزوجة . وعندما نفت ذلك بدأ في الدعابة وعرضها لود عدلان ليتزوجها . ولكن الأخير لما رأي أنها لم تكن صغيرة ولا جميلة رد على الفور أن لديه أربع نساء شرعيات . وبالطبع لا يمكن أن يخالف الخليفة الشريعة . لذلك استدعى قبطان السفينة وأصر عليه أن يتزوج على الفور هذه المرأة العجوز . كذلك علق عرضاً أن لدي البحارة نقّارة في السفينة . وفي الحال أصدر أمراً عاماً بألا يسمح بالنقّارة على ظهر السفن .

وفي مناسبة أخرى لاحظ سحابة كثيفة من الدخان وعند التحري وجد أن الدخان أتي من مصنع للصابون . لذلك أصدر أوامر على الفور بأن صناعة الصابون تكون حكراً

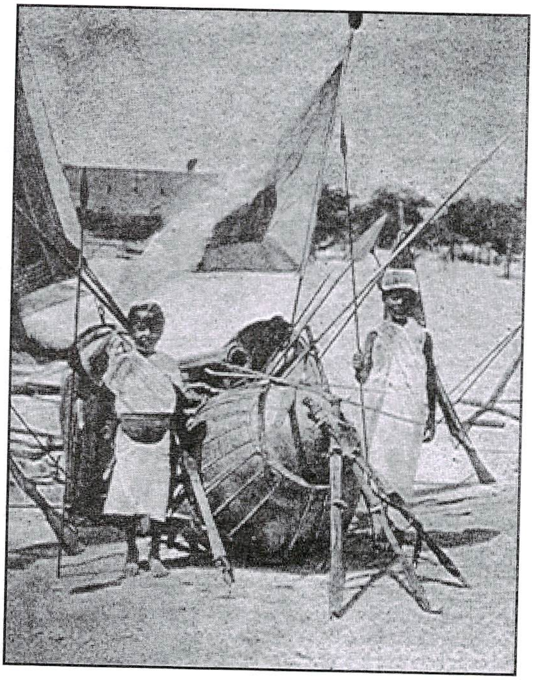
لبيت المال وأية مصانع أخري ممنوعة . وبهذه الطريقة فقد حرم كثيراً من الناس من وسيلة معيشتهم .

وفي يوم من الأيام لاحظ كومة كبيرة من الأوساخ في وسط المدينة وقد نشرت حولها روائح كريهة للغاية . وقد كان ذلك سبباً لأن يقرر الخليفة بنفسه في المسجد أنه عندما يقوم بتفتيش المدينة بعد ثلاثة أيام إذا وجد أي أوساخ فإن المخالفين سوف يعاقبون عقاباً شديداً . أصبح الآن كل واحد مسئولاً مسئولية مباشرة عن نظافة مسكنه وما جاوره . وقد كان لهذا الأمر تأثيراً ممتازاً للغاية . وتم تدعيمه أكثر بوجود الخيالة الذين اعتنوا عناية فائقة بتنفيذ التعليمات بدقة . وذهب الخليفة أبعد من ذلك حيث أمر أنه إذا وجدت أية قذارة أو نجاسة في الشوارع العامة فإن على صاحب المكان القذر أن يحمل بيديه تلك القذارة أو النجاسة ليزيلها . وكان هذا مصدر فرح كبير للدهماء الذين يوجهون سيلاً من الإساءات لمن يلحق به مثل هذا الخزي ويركضون ويصيحون خلفه بكلمة « شالوا » وتعني « حمله « . لكن كما كان الشأن مع المهدي كذلك مع الخليفة . ففي البداية كانت الأوامر تطاع وتنفذ بنشاط وسرور ثم أصبح الناس غير مبالين . فأم درمان في الوقت الحاضر ليست بأية حال مدينة نظيفة أو صحية على وجه خاص .

المناسبات التي يظهر فيها الخليفة في أروع أبهة هي عندما يخرج في موكب لساحة استعراض الجيش . فحسب أوامر المهدي أقيمت هذه الاستعراضات دائماً في أيام الجمعة مهما كان الطقس مطراً أو شمساً مشرقة أو عاصفة رملية . فإن « العرضة « كما كانت تسمي هي من المراسم الدينية وأولئك الذين يشتركون فيها يفترض أن يحصلوا على بركات ومزايا خاصة . بالطبع أراد المهدي أن يحافظ على الروح العسكرية لدي أتباعه ولذلك أسس استعراضاته العسكرية على أسس دينية . أحياناً يتغيب الخليفة عن « العرضة « فيحل محله الأمير يعقوب .

في أيام العرضة يبدأ قرع طبول الحرب « النحاس « الكبيرة قبل ساعتين من شروق الشمس . ولدى العبيد المكلفين بقرع الطبول نوعان من الإيقاع بينما يضرب طبل صغير في إيقاع سريع لتكملة النداء لحمل السلاح .

الناس يستعملون جميع أنواع التعابير لتشبيه قرع الطبول السريع مثل « ناكلكم » أو « نكتلكم » بمعنى نأكلكم ونقتلكم والمقصود بذلك العدو . ففي هدوء الليل تسمع هذه الطبول من مسافات بعيدة جداً . وفي الأوقات العصيبة لحروب المهدي فإن أصواتها الغريبة الرتيبة تخلق في نفسي تأثيراً محزناً ومحبطاً للغاية .



غنيمة أسلحة ورايات وطبول

أخذت من الدراويش

فور انتهاء صلاة الصبح يتقدم القادة إلى ساحة الرايات ويأخذ كل منهم رايته . ويقف الجميع في صف وذلك في الساحة المكشوفة أمام بيت الأمانة .

تقف رايات الخليفة عبد الله والخليفة على ود حلو على جانب معزولة عن البقية . وأما الخليفة شريف فنادراً ما يخرج . ويمتنع بقدر الإمكان عن الظهور في أي مكان عام مع الخليفة عبد الله إذ هو معه على علاقة سيئة لأنه حرم من جميع السلطة .

يقف قارعو الطبول الأربعة أمام الرايات وتدريجياً يتجمع الأتباع حول قادتهم . وبمجرد شروق الشمس يبدأون في الهتاف ثم يسيرون إلى ساحة الاستعراض . وعند الوصول إلى الساحة توضع الرايات في صف . ويتبع الفرسان الأمير يعقوب أو أي شخص آخر يفوضه الخليفة .

يرتب الأنصار في صف طويل متجه إلى الشرق ويندفع جميع الناس فوراً للالتحاق بالفرق المختلفة التي ينتمون إليها . ثم ينطلق صوت الأمباية ليشير إلى أن الخليفة نفسه قد وصل . وهذه إشارة إلى جميع أولئك الذين تأخروا في محاولة للتهرب من الاستعراض أن يندفعوا بدون نظام إلى الصفوف حيث أن الخليفة يغضب غضباً شديداً ما لم يتم الحضور للاستعراض بصورة جيدة . وهو يأتي عموماً راكباً على جمل أصيل يقوده ود بشير . يجلس الخليفة وفي يده سيف مسلول ويتحرك ببطء محاطاً بحرسه الخاص من السود في شكل مربع . ويمشي نافخو الأمباية الأربعة أمام موكب الخليفة مباشرة . وهم يتداولون نفخ ناب الفيل الضخم (الأمباية) وخلف الخليفة يتبع الملازمون وهم راكبين وعند الوصول إلى مكان الاستعراض يقوم الخليفة أولاً بتفتيش الصف بأكمله وأحياناً يقوم ببعض مناورات الفرسان في التلال التي تمتد نحو جبال كرري . ويفترض أن هذه التلال يسكنها الجن[٢] الذين قيل أنهم قوات مساعدة للخليفة في المعارك . وكثيراً ما يطلق العنان لرؤياه منعزلاً في كوخ صغير بينما على الأنصار الوقوف في الخارج لساعات في انتظاره في الشمس المحرقة .

في النهاية يعطي الخليفة الإشارة للعودة . ومرة أخرى تتحد الرايات في مجموعتين ويتبعها الدراويش وهم يهتفون . ويستمر الفرسان في الاندفاع حول الصفوف لمراقبة عدم تخلف أي شخص من المسيرة . فالجميع يجب أن يرجعوا إلى بيت الأمانة حيث ينتظرون وصول الخليفة لكي يقوم بصرفهم .

---

٢ – يعتقد المسلمون في وجود الجن وأنهم ينقسمون إلي كفار ومؤمنين . ويؤكد المهدي دائماً أن آلافاً من الجن يحاربون في المعارك إلي جانب الدراويش .

يتم التقيد بصورة مطلقة بجميع الأوامر المتعلقة بالأسلحة والمعدات التي يحملها الأنصار في الاستعراض . فيجب على كل واحد أن يحمل ثلاث حراب واحدة كبيرة واثنتان صغيرتان وكذلك سيف يعلق في الكتف وحزام (كرّابة) فكل من يظهر بدون أي من هذه الأشياء يجلد .

في الاحتفالات الكبيرة فإن الاستعراضات تكون مهيبة للغاية . فقبل شهور ترسل الأوامر إلى كل الاتجاهات للأنصار لكي يتجمعوا . وفي هذه المناسبات يكون هناك عموماً حوالي ١٠٠٠ فارس ويلبس الخليفة درعاً وخوذه ويكون راكباً على حصان أصيل ومحاطاً بحوالي ٢٠٠ من الفرسان وهم يلبسون الدروع والخوذات أيضاً بالإضافة إلي دروع السيقان . وتتم تغطية رؤوس الخيل أيضاً بدروع من معدن الصفر محشوة بمواد حشواً جيداً بقصد حماية رؤوس الخيل من ضربات السيوف .

يلبس الراكبون عمائم حمراء كثيفة يلفونها حول الخوذات ثم يربطونها بإحكام تحت الذقن . وبهذا يتركون القليل جداً من وجوههم مكشوفاً . كذلك يلبسون أحزمة حمراء تمر أجزاء منها فوق الكتفين . وإن الجمع بين اللون الأحمر وبشرة البقّارة السوداء مؤثر بصورة غريبة وهو يعطي المحاربين مظهراً حربياً للغاية . وإن العمامة الحمراء والحزام هما كلياً فكرة الخليفة . في البداية لم تستعمل الحدوة للخيل ولكن مؤخراً أمر الخليفة أن تصنع في الترسانة بضعة آلاف منها .

إن الإثارة الجامحة والفوضى التي تسود في مثل هذه المناسبات يمكن فهمها بسهولة . فجميع المدافع يتم إخراجها من بيت الأمانة وتوزع الأسلحة على الأنصار وليس للهتاف والصراخ حدود وتندفع حشود من الفرسان بخيولهم هنا وهناك يركضون في هياج ويثيرون سحباً من الغبار .

فالخيل والفروسية هي مباهج عظيمة للسودانيين . وأفضل الخيل من دنقلا وإثيوبيا . وفي وقت من الأوقات كانت هناك أعداد كبيرة من الخيل في دارفور . ولم تكن هناك صعوبة في حشد أربعة آلاف منها ولكن منذ أن هجمت المهدية على البلاد فإن أعدادها قد انخفضت كثيراً . يستحق كل صاحب حصان نصف أردب من الذرة من بيت المال .

إن الاستعراضات العسكرية التي وصفتها للتو تفضي إلى المحافظة على الحماس حياً ، وكذلك لإرهاب أولئك الذين يعارضون الخليفة سراً ولا يمكن أن يخفق منظر وأعداد أولئك الأنصار من راجلين وفرسان في ترك أثر نفسي على أعداء الخليفة . وأفضل راكبي الخيل هم أهل الخليفة من البقّارة الذين يتربون على ظهور الخيل منذ طفولتهم الباكرة . وقد رتب الخليفة ببراعة أن تبقي جميع الخيل في أيدي البقّارة . في البداية لم يلتحق كثيرون من هذه القبيلة بالمهدي . فقد آثروا أن يظلوا في مناطق صيدهم السعيدة، يربون خيولهم ويعيشون في حرية غير مقيدة في سهولهم الشاسعة وغاباتهم. وعلى ذلك لقبتهم القبائل العربية الأخرى باسم « عرب الشجرة » . لكن عندما نجح الخليفة بالوصول إلى قمة السلطة رأى أن سلطته سوف تتعزز إلى حد بعيد بجمع قبيلته حوله .

بعد قهر السلطان يوسف حاكم دارفور ، أمر الخليفة عثمان ود آدم بجمع عشيرته التعايشه قريباً من أم درمان . وقام الشاب عثمان بإعطاء هؤلاء البدو الرّحل وصفاً مشوقاً للبلاد الرائعة الواقعة بالقرب من النيل وعن قوة الخليفة وسلطته الضخمة وليبرهن لهم على صدق ما قاله عرض عليهم جميع أنواع الريالات اللامعة ومختلف أنواع الملابس . ولم يهدأ له بال حتى أقنعهم أخيراً بترك بلادهم في غرب السودان .

شرعوا في الهجرة بجميع ممتلكاتهم المنقولة مع النساء والأطفال والبهائم واتجهوا جميعاً إلي أم درمان . وقد نهبوا سكان جميع المناطق التي مروا بها . واستولوا بالقوة على جمالهم للنقل . فقبيلة دار حامد وحدها التي مروا بها فقدت ٤٠٠٠ جمل . وعندما وصلوا إلى الأبيّض فرضت ضريبة خاصة لإعاشتهم ولكن بغض النظر عن ذلك فقد اقتحموا البيوت واستولوا على كل ما وجدوه .

من الأبيض اجتازوا إلى الطيارة وشات .ومن هناك رحلهم الخليفة ببواخر إلى أم درمان . وكان عددهم جميعاً ٧٠٠٠ محارب بخلاف النساء والأطفال . وقد نظر إلى وصولهم إلى أم درمان بدرجة معينة من التخوف ولم يكن ذلك دون سبب . فكما استخدمت الحكومة التركية في الأيام الخوالي الأرناؤوط والباشبوزق كذلك التعايشة

سوف يستخدمون الآن تحت حكم الخليفة . فقد فضّلهم في كل ناحية ممكنة . وأصبح بيت المال مسئولاً عن إعاشتهم ورواتبهم . وبعد أن استقروا جزئياً ومنح البعض أخصب قطع من الأرض على ضفاف النيل وكذلك عدة جزر ، فقد تم ترحيل البقية إلى بربر وأبو حمد ودنقلا والجزيرة .

وفي جميع هذه الأماكن جعلوا أنفسهم بسرعة سادة على الوضع . وأعطاهم الخليفة أهم الوظائف في الحكومة لمئها . ولكن بالرغم من جميع هذه المعاملة التفضيلية فما زالوا غير قانعين . وكلما أعطوهم كلما طالبوا بالمزيد . وقد فر منهم ما يصل إلى ٤٠٠٠ من أم درمان في طريقهم إلى منطقتهم في غرب البلاد ولكن لحقت بهم قوات الخليفة . ولجعلهم عبرة للباقين قطع الخليفة اليد اليمني والرجل اليسرى لثلاثة منهم ، رغم أنه عاقب عشيرته بهذه الطريقة دون رغبة في ذلك . ووضع مائتين من الهاربين في السجن حيث مات بعضهم خلال بضعة أيام . لقد أثر رعب هذا السجن كثيراً في نفوس أبناء الصحراء هؤلاء المتوحشين لدرجة أنه حتى هذا اليوم يرتجفون لمجرد التفكير فيه .

كان شيخ التعايشة رجلاً يسمي غزالي ولم يكن بأي حال من الأحوال سعيداً في وضعه الجديد . وبالرغم من أن الخليفة استقبله استقبالاً طيباً لم يستطع أن يطيق الشعور أنه تحت سلطة رجل كان في وقت ما أحد أحقر خدمه . وبلغ الخليفة أنه ساخط مستاء لذلك استدعاه فمثل أمامه وخاطبه الخليفة كما يلي :

« عندما كنت شيخاً في بلدك ألم نكن مجبرين على تقبيل يدك وأن نظهر لك كل التبجيل والاحترام ؟ نعم : وقد كان صحيحاً أن نفعل ذلك . لكن الله الآن قد وضعني فوقك كسيد لك ، إذن لماذا ترفض الآن أن تعطيني نفس التعظيم والاحترام الذي تطلبته من رعيتك عند ما كنت في وضع مماثل ؟ » .

الغزالي لم يرد على الخليفة ولكنه قرر عند ذلك أن يهرب . وقد أظهر هذا روح استقلال ماتت بين العرب لقرون ولكي نجدها علينا أن نرجع إلى زمان صلاح الدين الأيوبي . الشيخ غزالي رجل لا يعرف الخوف . وقد أسّر إلى زوجته وبنته بخطته . وهما أبعد ما تكونان عن إثنائه بل شجعتاه على تنفيذ خطته . أسرجت له زوجته حصانه

وحثته على الموت من أن يستسلم لوضع دون مقامه بكثير .

رافق غزالي اثنان من أقاربه وركب حصانه في منتصف الليل وودعته زوجته دون أن تذرف دمعة وتمنت له النجاح في مهمته . ولكي يضلل أعداءه اتجه في البداية نحو الشمال حتى وصل إلى ما دون جبال كرري ثم اتجه إلى الجنوب الغربي إلى كردفان . لكن غزالي ارتكب غلطة قاتله باستخدامه للخيل في مثل هذه المهمة . فبسبب انتهاء فصل الشتاء أصبح الماء نادراً في الصحراء . وكان من الأفضل بكثير لو أنه استخدم جمالاً .

دفع الرجل المسكين ثمناً غالياً نتيجة غلطته . فما أن خرج من أم درمان حتى أبلغ الخليفة بهروبه أحد أفراد قبيلته . واستشاط الخليفة غضباً ولعن التعايشة لعدم حفظهم للجميل وأمر بملاحقة الفارين علي الفور . بحثوا الصحراء حول أم درمان في كل اتجاه ولاعتقادهم بأن الفارين لابد أنهم استخدموا الإبل فإنهم لم ينتبهوا في البداية لآثار حوافر الخيل ولكن في النهاية قرروا متابعة أثر الخيل وبسرعة اقتنعوا بأنهم كانوا في أعقاب الفارين .

بعد مغادرة كرري ببعض المسافة وجدوا خيلاً تركها غزالي ورفاقه نظراً لما أصابهم من إرهاق واستمروا في فرارهم على الأرجل . أصبح المطاردون الآن على بعد يومين من أم درمان وكانوا على وشك إنهاء المطاردة عندما سمعوا صوت طلقة أطلقت من خور به غابة كثيفة . كان ذلك غزالي الذي قاسى كثيراً من العطش وانفصل عن رفيقيه بحثاً عن الماء . وكان يحفر في الرمل واكتشف الماء الذي تاق إليه فأطلق طلقة يجعل رفيقيه يعلمان بنجاحه في الحصول على الماء .

كشفت هذه الطلقة عن مكانه واندفع المطاردون إلي المكان وأحاطوا به . وبالرغم من أنه قتل وجرح العديد منهم إلا أنهم تغلبوا عليه فسقط وكل جسمه مخترق بالرصاص . هذا وقد تم قطع رأسه لأن الخليفة أعطي أوامر ألا يحضروه حياً بأي حال من الأحوال . أما الاثنان اللذان رافقاه من أقاربه فقد استسلما وعفا عنهما الخليفة فيما بعد . وهو دائماً أكثر رفقاً برجال قبيلته مما هو مع الآخرين . أُحضر رأس غزالي إلى أم درمان

وألقى بين كومة رؤوس المنكرين للمهدية .

ليس من شك أنه إذا كان غزالي قد نجح في استعادة منطقته لأصبح منافساً خطيراً للخليفة . فمعظم التعايشة يفضلون بدون حدود حرية غاباتهم المحلية من تقلد مناصب عليا في أم درمان ولكانوا انضموا مرة أخرى للشيخ غزالي بأعداد كبيرة .

أحد أهم الإجراءات التي اتخذها الخليفة للاستحواذ على كل السلطة في يديه ، محاولته حيازة جميع الأسلحة النارية . فقد أصدر أوامره مرات ومرات أن كل من توجد لديه بندقية يعاقب بقطع يده ورجله من خلاف . وبالطبع كانت النتيجة الطبيعية أن كل شخص خشي تسليم بندقيته خوفاً من العقوبة التي لا محالة سوف تتلو ذلك . ولما فشلت هذه الخطة ، عندئذ أمر الخليفة اثنين من التجار اليهود بشراء جميع الأسلحة النارية لبيت المال . ولما كان الناس ليست لديهم خشية من اليهود فقد باعوا لهم الأسلحة بحرية .

بهذه الطريقة حصل على حوالي ١٠٠٠ بندقية رمنجتون . وبنفس الطريقة حصل الخليفة على الدروع . ولكن كما يمكن تصور ذلك تماماً فإن اليهود لم يحصلوا على ربح كثير من العملية . فقد وضعهم في القيود لمدة ثمانية أشهر واضطروا كذلك إلى إعادة مبلغ كبير من المال .

وهكذا استطاع الخليفة أن يركز جميع السلطة تدريجياً في يديه . فأمين بيت المال ملزم بإعطائه يومياً بياناً بجميع الدخل والمنصرف . وعلى شيخ السوق أن يقدم إليه تقريراً يومياً عن كل شيء يحدث في السوق وعلى رئيس القضاة أن يبلغ الخليفة عن جميع القضايا الهامة التي تصل إلي علمه . ويحتفظ الخليفة لنفسه بسلطات الحياة والموت بالرغم من أن الذي يصدر الحكم هو القاضي .

كل مديرية لها حاكم أو أمير وأعني دنقلا وبربر والقلاّبات وكركوج والجزيرة وفشودة وكردفان ولادو وجبل الرجّاف . وجميع هؤلاء الأمراء من البقّارة ولديهم عدة أمراء صغار تحت قيادتهم وكل أمير لديه بيت ماله الخاص ولديه سلطة تعيين أمين بيت المال الخاص به والقاضي . فالأمير هو الحاكم الأعلى المدني والعسكري في مديريته وهو

مسئول كلياً عن إدارتها .

بيت المال في أم درمان يسمى بيت المال العمومي وأمينه يعطى الأوامر مباشرة إلى جميع مساعديه في المديريات . وكل أمير ملزم بالإبلاغ عن كل الحوادث الهامة إلى الخليفة . وهم يستدعون مراراً إلى أم درمان لتقديم تقرير عن إدارتهم ولتلقى تعليمات الخليفة .

يراقب الخليفة بدقة جميع الأحداث في المديريات الحدودية مثل دنقلا وبربر وما شابه ذلك . ويتم إرسال الجواسيس باستمرار إلى مصر متخفين في هيئة تجار حيث يحصلون له على الصحف العربية التي تقرأ له دائماً من قبل سكرتاريته . ولا ينبغي لأمير أن يزور أم درمان خالي اليدين وإلا فمن المرجح أن يطرد .

بالإضافة إلى الأمراء فهناك العملاء وهم جباة الضرائب الذين يزورون المديريات سنوياً ويجمعون العشور والزكاة . هذه التعيينات تترك للعملاء بأجر ضخم . عدة آلاف من الريالات في السنة . وعلى العملاء أن يغطوا جميع نفقاتهم وهو ما يفعلونه ويحصلون على ربح ضخم جداً بجانب ذلك .

لذلك من الواضح أن السكان مظلومون بصورة فاحشة . فالأمراء والعملاء يتصرفون بأسلوب تحكمي للغاية في مديرياتهم . فإرادتهم مطلقة وتسود في كل مكان أنظمة مروعة من القسوة . أحد العملاء واسمه ود حمدو الله فلكي ينتزع المال من شخص ربط يديه ربطاً محكماً خلف ظهره بحيث أنه عندما أطلق سراحه أصبحت يداه مشلولتين ذهب الرجل المظلوم إلى أم درمان للحصول على جبر الضرر . وأمر الخليفة بناء على مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » بقطع يدي العامل أو أن يدفع للمتضرر مبلغاً من المال . لا شك أن المتضرر قد اختار التعويض إذ أن قطع يدي الظالم لا ينفعه بشيء . وهكذا تلقي ٢٠٠ ريال وأربعة عبيد كتعويض . لكن هذه قضية استثنائية . فمثل هذه الأعمال الوحشية كقاعدة نادراً ما تصل إلى أذن الخليفة وإذا كان الفاعل من البقّارة فإنها لا تلقي اهتماماً بالمرة .

يعقوب أخ الخليفة هو مسانده الرئيسي . وهو والخليفة ليسا من أم واحدة . ويعقوب

أكبر من الخليفة ببضع سنوات . ولون بشرته افتح من بشرة الخليفة . لكنه إن أمكنه فهو أكثر قسوة من الخليفة . وهو مسئول عن قسم الحريم . الأخوان يعملان معاً كلياً . ولأن الخليفة مقتنع بنزاهة يعقوب فإنه يعطيه كامل حريته في التصرف . فالأوامر التي يصدرها يعقوب تنفذ بنفس السرعة والنشاط كأنها صدرت من الخليفة نفسه . وهو يتسلم في كل يوم من أمين بيت المال جميع النقد الفائض . وبالإضافة إلى ذلك هو مسئول عن الاحتياطي من الجلود والجوالات وما شابه ذلك مما يمد به احتياجات البقّارة . ويقال إن يعقوب يملك مخازن كبيرة من الثروة .

وهكذا يمسك الأخوان عبد الله ويعقوب السودان بأكمله في أكثر قيود العبودية قسوة بينما السكان منهكون بالبقّارة عديمي الرحمة الذين نصبوا أنفسهم سادة متحجري القلوب على البلاد بأكملها .

الباب الثامن عشر

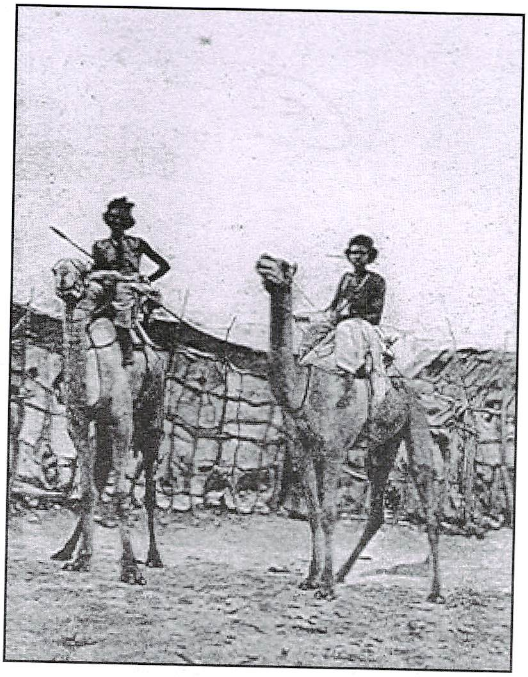
فصل من أعمال الرعب

ثورة قبيلة البطاحين . قمع الثورة بقسوة مروعة . إعدامات بالجملة . طريقة الشنق . العقاب والتمثيل بالجثث . إعدام عبد النور . التجارة مع مصر . ود عدلان أمين بيت المال . سجنه ووفاته .

مثال آخر على معاملة الخليفة القاسية لكل من يعارضونه قد ظهرت في الأسلوب الذي تعامل به مع قبيلة البطاحين .

هذه قبيلة صغيرة ولكنها مولعة بالحرب وتسكن الشاطئ الأيمن للنيل الأزرق بالقرب من مكان اقترانه بالنيل الأبيض وتمتد بعيداً إلي رفاعة . وكذلك أجزاء من هذه القبيلة توجد متناثرة في الجزيرة . وهم أكثر اللصوص جرأة ويركبون جمالاً سريعة . وهم يختبئون في كمائن انتظاراً للقوافل والتجار . وهم غالباً ما يقتلونهم ويفرون ببضائعهم . ويعلق السيد بروس (BRUCE) في كتابه " الأسفار " (TRAVELS) أن المنطقة المكسوة بالغابات حول أم درمان كانت مأواهم المفضل . وكانوا أخلص أتباع الشيخ العبيد الذي هزمته باخرة غردون المسماة " محمد على " والتي يسميها غردون باسم " الباشا المقاتل " .

خلال المذبحة في الخرطوم كان البطاحين الأكثر قسوة ولأعمالهم الشريرة فإن الانتقام العادل من الله قد أدركهم قبل أن يمضي وقت طويل . أرسل الخليفة أميراً مع بضعة عساكر لجباية ضريبة العشور ولكن البطاحين المتهورين الذين كان نظامهم الخاص نهب وسلب المساكين تاركينهم حتى بدون المال الضروري للمعيشة قاموا بمقاومة الأمير ورجاله وأجبروهم على الفرار من منطقتهم . وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة غضب غضباً شديداً وقرر أن يتعامل بأقسى أسلوب ممكن مع هذه القبيلة المتمردة . لذلك أرسل الأمير عبد الباقي مع قوة كبيرة وبتعليمات بالقبض على كل بطحاني يجده ويضعهم في القيود وإحضارهم إلي أم درمان .



بطاحين على جمالهم

هذه القبيلة مطاردة الآن في جميع أنحاء البلاد . وقد نجح عبد الباقي في الحصول علي بضعة مئات منهم بالإضافة إلى طاهر ود شيخ العبيد الذي كان يحرضهم وقد جاءوا بجميع هؤلاء إلى العاصمة . وعائلة العبيد ذات النفوذ قد شاركت مشاركة بارزة في حصار الخرطوم ولكن بعد وفاة المهدي أصبحت ساخطة ، ولم تكن على علاقة طيبة مع الخليفة . ولذلك صدرت أوامر إلى الطاهر لمغادرة رفاعة والاستقرار في أم درمان .

عند الوصول إلى حلة خوجلي والتي تقع مقابل أم درمان في الضفة الأخرى من النيل ، كتب إلى الخليفة قائلاً إن والده الذي أصبح منذ وفاته يبجل كأحد الأولياء الصالحين في الجزيرة بسبب صلاحه وأنه قد تلقى هدايا كثيرة بسبب قدرته على الحفاظ على حياة الأطفال ، وأنه قد ظهر له في المنام وقال له أن يقيم في حلة خوجلي وأن يجعلها مقراً رئيسياً لعائلته ، وأنه لذلك غير قادر علي المجيء إلى أم درمان .

وقد أظهر طاهر حصافته في رفضه الإذعان للأمر . ولكن الخليفة الذي كانت رغبته هي إلغاء مسألة الشيوخ الصالحين في السودان وافق على إمهال طاهر ٢٤ ساعة ليقرر إن كان سيأتي إلي أم درمان أم لا . ولذلك لم يكن هناك يد من أن يذهب إلى أم درمان .

علي أية حال بعد مدة سمح له بالعودة إلى رفاعة تاركاً أسرته في أم درمان كرهائن . وهذه طريقة الخليفة المعتادة في التعامل مع جميع الأشخاص ذوي النفوذ الذين يشك في ولائهم .

لكن لنرجع إلى موضوع البطاحين . معظمهم مات من الجوع وسوء المعاملة . تسعة وستون منهم اقتادوهم إلى ميدان مقابل بيت الأمانة حيث تركوا تحت حراسة عساكر بينما عقد الخليفة مجلساً استشارياً فيما يتعلق بمصيرهم . لم يتوصل المجلس لبعض الوقت إلى قرار بشأنهم وذلك لأن المزيد من المشانق كان يتم إعدادها . حتى الآن توجد واحده فقط . أما الآن فهناك ثلاث مشانق قرب " الزريبة " . اثنتان في الطرف الجنوبي من مكان السوق وثالثة في الطرف الغربي . وجميعها مزودة بحبال من وبر الجمال .

في الصباح الباكر من اليوم التالي قرعت طبول الحرب (النحاس) ونفخ في بوق الأمبايه وتم شنق ثمانية عشر من البطاحين ثلاثة في وقت واحد في كل مشنقة . مثل هذه الإعدامات تشكل دائماً مصدر جذب عظيم للسودانيين . جميع الثمانية عشر رجلاً أحضروا إلى المشانق وأيديهم موثقة خلف ظهورهم . ودون صوت أو حتى تغيير في تعابير وجوههم استسلموا لقدرهم أو كما يقول المسلم "سلموا أنفسهم للمكتوب "

يوجد تحت كل مشنقة عنقريب يقف عليه من يراد إعدامهم بينما يقوم دينكاوي طويل للغاية يسمي برنجي بوضع الأنشوطة حول رقبة الشخص ويشدها ويربط طرف الحبل إلى أعواد المشنقة ثم يسحب العنقريب من تحت الشخص . وبهذه الطريقة وفي وقت قصير أصبح الثمانية عشر يتأرجحون في الهواء ، بينما الجماهير المحتشدة ترسل صيحة بعد أخرى من صيحات التهليل .

كان منظراً مرعباً للغاية . لبس المساكين فقط قطعة بائسة من القماش حول أصلابهم

وهم لم يذوقوا طعاماً لعدة أيام وظهروا في أبشع حالة والريح تحرك أجسادهم الهزيلة إلى الأمام والخلف . كانوا جميعهم شباناً أقوياء وأما المشاهدون . كما هو الحال دائماً مع الدراويش . فقد ذموهم واتهموهم بكل أنواع القسوة الغاشمة . بينما أكثر من محتمل أن يكون هؤلاء الذين أعدموا للتو أبرياء كلياً . وأنهم يكفّرون عن جرائم أولئك الذين كانوا محظوظين بالتمكن من الهرب . وعندما هدأت حركة أجسام الضحايا جمعت الجثث لتترك مجالاً للبقية الذين كانوا يحدقون بهدوء في مصير إخوانهم الذي سيكون مصيرهم بعد لحظات .

في هذه المناسبة . مثلما حدث من قبل . انقطع الحبل تحت وزن آخر رجل . ولكن برنجي كان سريعاً جداً ولم يضع وقتاً في وصل أطراف الحبل وإتمام عمله الوحشي . إن الانطباعات التي تركتها هذه المناظر المخيفة في ذهني لا يمكن أن تمحي أبداً . لكن إذا كان مصير الثمانية عشر قاسياً فإن مصير الواحد والخمسين الباقين كان أسوأ .

الآن ركب الخليفة مصحوباً بالخيالة وآلاف حاملي الحراب وأخذ البطاحين البؤساء معه وذهبوا نحو ساحة استعراض الجيش (العرضة) وما بين الآونة والأخرى في الطريق يأمر بقطع رأس أحدهم . وبهذه الطريقة قطع رؤوس أربعة وعشرين في الطريق إلي العرضة . وبقي الآن سبعة وعشرون منهم . وعند الوصول إلى الساحة أرسل إلي الجزارين لقطع أيدي وأرجل الباقين من خلاف . وفي وقت قصير كانت هناك كومة من هذه الأعضاء النازفة بينما ترقد أجسام البطاحين المساكين على الأرض وهي تتلوى من الألم . وحبات العرق الناجمة عن الألم المبرح تقطر من حواجب عيونهم . ومع ذلك لم تصدر منهم أية صيحة ألم ومعظمهم مات في وقت قصير . حتى أكثر القلوب تحجراً تحركت مشاعرها لرؤية هذا المشهد المرعب ولكن لا أحد تجرأ ليظهر ذلك — في الواقع أن كل واحد حاول أن يفتعل ضحكة أو حركة ساخرة لأن الخليفة نفسه يبتهج لمشاهد سفك الدماء والقسوة بينما في الحقيقة أن جميع سكان أم درمان يتفجعون سراً عليهم .

ظلت الجثث معلقة في المشانق لمدة يوم حتى يتمكن كل إنسان من رؤيتهم بينما توسلت الأمهات والأخوات لأولئك الذين تم التمثيل بهم في ساحة الاستعراض للخليفة لكي

يسمح لهن للذهاب إلى الساحة لرؤية إن كان أحد أقربائهن ما زال حياً . وسمح لهن بذلك وهناك وجدن بضعة أناس أحياء فقمن بتضميد أعضائهم النازفة وحملنهم على ظهورهن إلى مكان السوق حيث استجدين الطعام لهم .

لن أنسى مطلقاً وجه إحدى النساء المسكينات بعيونها التي تجمدت فيها الدموع وهي تحمل ابنها المبتور اليد والرجل بين ذراعيها . ومن الصعب القول أي الاثنين كان يعاني أكثر من الآخر الأم أم الابن . فالأخير يرفع ذراعه الأيمن المقطوع بينما وضع رجله اليسرى المقطوعة على اليمنى لمنع أي شيء من الاصطدام بجذعه المجروح .

إنه كان حقاً منظراً يسبب الصدمة ويثير الشفقة . يمر العديد من الناجين من مذابح فتح الخرطوم على هؤلاء الناس البؤساء ويحدقون في جراحهم ويصيحون بهم " هل نسيتم الخرطوم ؟ " وبعد مدة طويلة بعد ذلك كنت أرى هؤلاء المساكين يسحبون أنفسهم في مكان السوق يستجدون الصدقات .

بعد فترة قصيرة بعد ذلك عفا الخليفة عن البطاحين وأرسل أحمد ود البدري ليحاول إقناعهم للحضور والاستقرار في أم درمان . وفي النهاية شكلوا جزءاً من جيش النُّجومي . وقد قتلوا جميعاً تقريباً في توشكي . وهكذا فإن انتقام الإله قد لحق بهم لفظائعهم غير المحدودة أثناء مذبحة الخرطوم . ويقال إن الخليفة قد ندم على قتله الوحشي لهذه القبيلة .

بعد هذا تملك الخوف حتى أشجع الشجعان ولم تحدث محاولات أخرى للمقاومة . وانتشر السخط في كل مكان . ليس في أم درمان وحدها بل في جميع أنحاء المديريات . وحتى البقّارة الذين تم تفضيلهم في كل ناحية وأُعطوا كل المزايا الممكنة ، اشتاقوا للعودة إلى ديارهم .

من المعتاد عندما ينتهي يوم العمل ، يجتمع الجيران مع بعضهم في الليالي القمرية الحلوة التي اشتهر بها السودان ويسمرون وينتقل الحديث دائماً إلى السياسة وتبحث بشغف آخر الأنباء من جميع الاتجاهات وغالباً ما تصدق أكثر القصص غير المحتملة والمستحيلة . وحقيقة أن الناس يتوقون إلى الحرية وأن أصغر آمالهم تتضخم ليس إلى

احتمالات بل إلى حقائق يقينية . وهم يتمثلون دائماً بالمثل القائل : " الغرقان يمسك في شعرة " أو في قشة أي أن الغريق يتمسك بالقشة لإنقاذه وأيضاً يتجه الحديث كثيراً إلى ما قاله وما فعله الخليفة وما يريد أن يفعله وما دار في آخر مجلس للخليفة وما شابه ذلك . لكن الخليفة لخشيته أن جميع هذه الأحاديث قد تقود إلى مؤامرات أمر بإيقاف هذه التجمعات . لكن بالرغم من ذلك فإنها ما زالت مستمرة ولكن سراً .

بالقرب من مكان السوق عاش شخص ما يسمي الفكي عبد النور . واعتاد جيرانه أن يتجمعوا كل مساء في بيته . بالطبع فإن الحديث ينتقل دائماً إلى المهدية ويجرى شتم الخليفة بحرية ويتحدث عبد النور بانفعال أكثر من الباقين واعتاد أن يقول إن السودان لم يعد يشكل جزءاً من العالم الإسلامي وأن كلاً من الخليفة والمهدي كفار . وقد دلل على ذلك باقتباسات من الكتب المقدسة . وكل ذلك نقله جاسوس إلى الخليفة . وفي الحال أرسل الخليفة سرية من الجند فأحاطوا فجأة بالفكي الغافل وأودعوه السجن .

في الصباح الباكر من اليوم التالي وقف عبد النور أمام القضاة الذين سألوه إن كان حقيقة قد تكلم ضد المهدية . ولما رأى أنه الآن خاسر رأى أن هذه فرصة طيبة في حضور هذا الجمع الكبير لكي يثبت ادعاءه . فأعلن أن المهدي الحقيقي ينبغي ألا يموت في أم درمان وأن المهدية الحقيقية لا تكون محصورة في السودان وحده . وبما أن الناس قد خدعوا مرة فينبغي تجنب طرق الشر وإتباع طرق الحقيقة وترك ظلم المسلمين نهائياً .

إن القضاة الذين كانوا مقتنعين في قلوبهم بصحة ادعاءات عبد النور لم يستطيعوا إرهابه بينما جميع أولئك الذين استمعوا إليه لا يساورهم شك في عقولهم في صحة أقوال هذا الرجل الصريح . لكن الخوف من الخليفة منعهم من الاعتراف بقناعاتهم . وفي النهاية وقف أحد القضاة ورغبة في وضع حد لهذا الوضع الخطير والمهين خاطب عبد النور قائلاً " نحن مع النبي والمهدي وخليفته فهل أنت معنا أم لا ؟ " فرد الفكي: " أنا لست معكم " وبناء على ذلك حكم عليه الخليفة بالإعدام . وفي الساعة العاشرة من نفس الصباح كان جسمه متدلياً من المشنقة . أما أصدقاؤه فلم يشنقوا ولكن تم توبيخهم بشدة .

كان هذا الإعدام مفاجئاً وغير متوقع حتى أن كل واحد يتساءل ماذا كانت جريمته . لكن الخليفة كان حريصاً لإرسال الجواسيس إلى كل مكان لنشر تقارير مزيفة عنه إلى درجة أنه كافر وساحر . وهؤلاء الجواسيس أمروا أيضاً بالتحقق مما قاله الناس بالضبط . ولكن الناس عرفوا أنهم مراقبون لذلك لم يقولوا أي شيء واعتزلوا . وأحرق الجواسيس ملابس الفكي وابلغوا الخليفة في صبيحة اليوم التالي أن نار جهنم قد أحرقت ملابس الفكي .

لكن الأمر لم ينته إلى هنا . فحسب الشريعة إذا اكتشف كافر فإن جميع جيرانه في نطاق دائرة نصف قطرها أربعون ياردة يعتبرون مذنبين وأن منازلهم تنهب وتدمر . وقد طبق هذا القانون في قضية الفكي . فقد سحبت عدة عوائل مع جميع ممتلكاتهم إلي بيت المال بينما احتل العساكر منازلهم وتم تهديد عدة رجال بالمشنقة وحدث كثير من الاضطرابات في المدينة . وكان أتباع الخليفة يهتفون : " ابعدوا هؤلاء الكفار " . وتم القبض على عدة مشتبهين وحبسوا لمدة ثلاثة أيام وهم في حالة خوف دائم من الإعدام .

في اليوم الثالث جاءت عدة زوجات وعوائل إلى الخليفة وتوسلوا للعفو عن المشتبهين وهالت النساء التراب على رؤوسهن وأبدين كل مظاهر الحزن الشرقي . وفي هذه المناسبة رأي الخليفة أنه يكفي ذلك لإخافة الجميع تماماً . ولذلك عند انتهاء الأيام الثلاثة أفرج عنهم وأعاد لهم ممتلكاتهم . وانتهز هذه الفرصة وأصدر أمراً أنه من واجب كل شخص أبلاغ الخليفة عن أي فكي يقوم بكتابة الأحجبة والتعاويذ . وفي وقت قصير أبلغ الجواسيس والمخبرون عن أعداد من هؤلاء الناس الذين أنقذوا أرواحهم فقط بالتعهد للخليفة بعدم عصيان هذه الأوامر مرة أخرى .

وفي مناسبة أخرى اتهم صبي يعمل في مركب بأنه قال شيئاً ضد المهدية فأسرعوا به إلى القاضي واعترف بجريمته . وعندئذ أخذ إلى ساحة استعراض الجيش حيث أمر الخليفة بقطع رأسه . كان السيّاف هو أحمد الطليعه الذي ضرب الصبي ضربة خاطئة بالسيف أحدثت جرحاً عميقاً في كتفه ولكن في الضربة الثانية فصل الرأس عن الجسد.

غيرة الخليفة وخوفه على سلامة مملكته قد حفزته الآن ليوجه اهتمامه إلى ود عدلان . فكما ذكرت من قبل أن ود عدلان قد أسدى إلى الخليفة خدمات جليلة . فقد نظم له بيت المال ونظم له الحسابات وفق نظام الحكومة التركية السابقة . ولكي يزيد من إيرادات الدولة دون اللجوء إلى استخدام القوة فقد أقنعه بفتح التجارة مع مصر .

كانت فكرة الخليفة الأصلية تشييد نوع من سور الصين العظيم بين مصر والسودان لمنع جميع أنواع التدخل في أراضيه التي امتلكها حديثاً . ولكن ود عدلان كان رجلاً لبقاً للغاية وبالتدريج أقنع الخليفة ليوافق على اقتراحه . أعلن أن سن الفيل والصمغ محتكران لبيت المال . فسن الفيل يأتي بكميات قليلة من الرجاف واللادو . بينما الصمغ الذي يشتريه بيت المال بسعر خمس ريالات للقنطار يبيعه للتجار بعشرين ريالاً . ويقبل بيت المال أيضاً الصمغ في السداد بدلاً من النقود . وبسرعة قامت تجارة نشيطة بين بربر وسواكن وأسوان وكورسكو . وسمح لتجار أم درمان بالمجيء إلى سواكن وشراء البضائع . وحقق بيت المال أرباحاً كبيرة وخف الظلم على الناس عن ذي قبل .

وهكذا أسدى ود عدلان خدمة كبيرة لسكان السودان ومن خلال نفوذه تغيرت كثير من إجراءات الخليفة القاسية . وطيلة ما كان هو المسئول عن بيت المال كان محبوباً من الجميع فالعاصمة في أيد أمينة والأسواق منتعشة . وحتى عندما كانت الأموال تنخفض في الخزانة ، فلم تكن لديه مشكلة في الاستدانة من التجار الأغنياء مقابل كمبيالات . وعادة يمكن جمع مبلغ قرض من ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ ريال من خمسة عشر إلى عشرين تاجراً بسهولة بسبب الشعور بالأمن الذي يحدثه وجود ود عدلان . كذلك فإن الناس البيض مدينون له بالشكر لأنه أعطاهم حماية مستمرة .

في إحدى المناسبات عندما طارت إشاعة بأن مصر سوف تغزو السودان ، اقترح الخليفة فرز جميع البيض وتشتيتهم بين العرب في أجزاء البلاد المختلفة ولكن ود عدلان أقنعه بضرورة الاحتفاظ بهم جميعاً تحت نظره في أم درمان وبهذا فقد أسدى لنا (نحن البيض) خدمة عظيمة . ففكرته الرئيسية هي أن يخفف نير المهدية ويخفف الظلم على الناس .

لكن هذا الرضا المتزايد بدأ تدريجياً يصيب الخليفة بعدم الرضا إذ هدفه الرئيسي إفقار جميع الناس وإغناء قبيلته البقّارة . وهكذا تضاربت مراراً آراؤه مع ود عدلان ولكن ود عدلان كان أكثر تعقلاً وعرف متي يتنازل عن رأيه . وأكثر ما أسخط الخليفة هو أن يرى أعداداً من الناس متجمعين في كل صباح أمام باب ود عدلان ينتظرونه ليذهب إلى بيت المال حيث يعرضون عليه شكواهم .

إن مظاهر الحفاوة والتكريم التي يبدونها لود عدلان والثناء الذي يغدقونه عليه قد أثار حسد الخليفة وقد وبّخه مراراً بصورة حادة ولكن ود عدلان لم يلق بالاً لإنفجارات غضبه العنيف . وفي نوبة غضب في إحدى المناسبات رماه في السجن مقيداً لمدة أربعة عشر يوماً . وعند إطلاق سراحه اعتقد ود عدلان الآن أن الخليفة لا يمكنه الاستغناء عنه وبدأ يظهر إذعاناً أقل لسيده من ذي قبل . وهذا ما زاد من الهوة بينه والخليفة وقد زاد الوضع سوءاً أعداء ود عدلان الكثيرون الذين يحسدونه على مركزه العالي لدى الخليفة .

كان يعقوب أخ الخليفة أخطر منافسيه . حيث أن شعبية ود عدلان قد قللت نوعاً ما من سلطته . وقد قام يعقوب وآخرون بتصويره للخليفة بأنه رجل خطير وأنه قد يحشد نفوذه في أية لحظة في معارضة مباشرة للخليفة . ولذلك لم يكن من المستغرب أن الخليفة أصبح متشككاً فيه . وفي يوم من الأيام عندما كان ود عدلان يقدم تقريره اليومي انتهز الفرصة ليخبره أنه غير راض عنه بالمرة ووبّخه لتأخره في إرسال الذرة إلى الدراويش الجائعين في دنقلا . أجابه ود عدلان بقوله : " ماذا أستطيع أن أفعل ؟ فالناس لا يريدون المهدية أكثر من هذا وهذا هو السبب في أنني أواجه بمعارضة شديدة " . البعض يقول إنه قال أكثر من هذا . لكن الخليفة لم يتعود على مخاطبته بهذه الطريقة . لذلك أمر ود عدلان بأن يسلم سيفه وفي نفس الليلة أودعه السجن . هذا الأجراء أعطى منافسيه فرصة كافية للحديث ضده وأصر يعقوب على إعدامه .

تم تقييد ود عدلان بقيود ثقيلة ومنع من أي اتصال بالعالم خارج السجن . وفي بداية الأمر لم يحدث اعتقاله أية إثارة وكان ذلك بسبب التقارير الكثيرة المزيفة التي تم

تداولها فيما يتعلق بسبب الاعتقال . وفي اليوم التالي أعلن أنه قد يتم إعدامه . وفي اليوم الثالث تم تأييد حكم الإعدام وأرسل له رسول لتخييره بين الإعدام أو القطع من خلاف فاختار الإعدام .

وتحت وقع قرع الطبول وصوت الأمبايه قادوه ويداه مقيدتان إلى مكان السوق . وهنا شكل الخيالة من البقّارة مربعاً حول المشنقة ودخل ود عدلان المربع بخطى ثابتة وحوله حراس . وعندما وصل إلى المشنقة لقنه القاضي الشهادة فرددها بصوت واضح ثم اعتلى العنقريب وعدّل أنشوطة الحبل بنفسه وقام برنجي بشد الأنشوطة وتدلى الجثمان في الهواء . وفي نفس اللحظة أشهر البقّارة سيوفهم ولوحوا بها في الهواء للدلالة على أن نفس المصير من المؤكد أن يلاقيه جميع أعداء الخليفة . ظهر الحزن على كل وجه ولم يحدث من قبل إطلاقاً مثل تلك المناحات الصادرة من القلوب في أم درمان .

إبراهيم ود عدلان كان أذكى سوداني . له وجه أسود وأنف معقوف وكان عمره حوالي خمسة وثلاثين عاماً .

بعد أن تدلى جسده لمدة نصف ساعة ، قام يعقوب بصحبة عدد من الرجال الآخرين بإنزاله ووضعه على العنقريب . ويقول المشاهدون إن يعقوب لم يستطع إخفاء نظرته التي تجمع بين الندم والخوف عندما كان يحدق في جثمان الضحية . هذا وقد لف في كفن قطني وأخذ إلى المقبرة خارج المدينة حيث ووري الثرى وكان يعقوب يقود الجنازة . وفي تلك الليلة أخرج اللصوص الجثة وسرقوا الكفن وتركوا الجثة على الأرض لتصبح طعاماً للضباع .

لا يمكن عدم إدراك أسباب الخليفة لإرسال يعقوب لحضور جنازة ود عدلان لأن كل شخص علم أن يعقوب كان المحرض الرئيسي على إعدامه . ومع ذلك كان الخليفة قصير النظر بتخيله أنه بإرسال أخيه لحضور الجنازة يستطيع إلى حد ما أن يبدد الانطباع السيئ الذي خلفه إعدام ود عدلان .

كان الحداد على ود عدلان عاماً وصادقاً . فخلال كل فترة إدارته لم يؤذ أحداً . وقد فعل أقصى ما يستطيع لتسهيل الصعاب وتخفيف الظلم . وأستطيع أن أؤكد بثقة أنه

الشخص الوحيد الذي يمكن أن يقال عنه ذلك ، لأنه كقاعدة فإن السوداني الذي يرتفع إلي مواقع من القوة والسلطة يصبح دون استثناء أكثر قسوة وتحكماً .

الآن ما هو الخير الذي يمكن أن يجلبه هذا الإعدام للمهدية ؟ لا شك أن الخليفة فكر في تبرئة نفسه في تقدير الجمهور لأن ود عدلان كان محبوباً للغاية ولكن السبب الحقيقي هو أن الخليفة قد توجس منه لأنه علم أن عدالته وحكمته جعلته محبوباً لدي الناس .

مع الاستثناء الوحيد المتمثل في أن ود عدلان فتح التجارة مع مصر أساساً من خلال الوساطة السرية لتاجر خرطومي سابق يسمي عبد الماجد ، فلا اعتقد أن هناك أي شيء آخر ضده . لقد قيل إن هناك خطابات وجدت ويفهم منها أن ود عدلان قد كتبها يتوسل فيها إلى الحكومة المصرية أن تستعيد حكم السودان . لكن هذا البيان إذا كان صحيحاً لكان الخليفة قد أعلنه في كل مكان . هذا على أية حال ما لم يفعله الخليفة . وقد أتفق عموماً أن الأمر برمته هو الخوف من جانب الخليفة الذي دفعه لقتل ود عدلان.

صودرت جميع ممتلكات ود عدلان وأضطهد أصدقاؤه . وقد تذكر بعض أصدقائه بعد موته أنه حدثهم كيف أن امرأة عجوزاً قد تنبأت له أثناء دراسته في القاهرة أنه سوف يموت موته عنيفة . لفترة طويلة لم يعر هذه النبوءة اهتماماً كبيراً . ولكن أثناء حصار الأبيّض تذكر النبوءة واعتقد أنه ربما تتحقق هناك . ولكن عندما ارتقى في النهاية إلي مركز عال في أم درمان اعتاد أن يضحك على نبوءة المرأة العجوز . وعلى أية حال أثناء سجنه الأخير اقتنع تماماً أن النبوءة سوف تتحقق . وهذا ما جعله رابط الجأش ومتماسكاً عندما واجه الموت بالفعل .

في مكان ود عدلان عين الخليفة قريبه الزاكي وهو الآن أمير بربر ولكنه مرض بعد فترة قصيرة واستقال . وعندئذ عين الخليفة النور الجريفاوي الذي كان مسئولاً عن بيت المال في بربر . ولما كان النور صديقاً حميماً لود عدلان فقد رؤي أنه قد يلاقي نفس مصير صديقه ولكنه كان شخصاً ماكراً . أرسل إلى الخليفة ثلاثين ألف ريال وقد علم

أنها ستحدث الأثر المطلوب .

عند وصوله إلى أم درمان وقف بالقرب من البوابة الكبيرة ليقابل الخليفة ولكن الخليفة لم يستدعيه في ذلك المساء لذلك رقد في تلك الليلة على الأرض بجانب باب الخليفة . وهو تذلل كسب قلب الخليفة . وفي الصباح التالي عيّن النور رسمياً خلفاً لود عدلان . ولكي يخلق انطباعاً تاماً في نفس النور عن أخطار وضعه الجديد ، أعلن الخليفة للنور أنه رأى رؤيا في الليلة الماضية شاهد فيها جهنم وإبراهيم عدلان يقاسي عذاباً لا يوصف في أدني مهاوي النار مع سلسلة طويلة مربوطة حول عنقه وأن النور مقيد في الطرف الآخر من السلسلة وأن ود عدلان يحاول أن يسحبه إلى أسفل إلى الهاوية ولكن الخليفة فك السلسلة وأطلق سراحه (سراح النور) .

وهكذا تم إرعاب النور تماماً . وقد فعل أقصى ما يستطيع للتقيد برغبات الخليفة ويعقوب . فقد فصل جميع الأقباط الموظفين في بيت المال واستبدل بهم موظفين سوداً . عين مساعداً له " عوض " رئيس الكتبة السابق في مديرية كسلا . ومن خلال دهائه واحتياله لم يضيّع فرصة لسلب المال بالقوة من الناس .

الباب التاسع عشر

الحياة الاجتماعية في أم درمان

نظام الأمن العام والعدالة في أم درمان . محكمة القضايا الصغيرة. الرشوة والفساد. قصة الأمة وسيدتها. كيف يتعامل الخليفة مع الأشخاص المشاغبين. اللصوص والنشالون. قصة زغير . المرابون و مهنتهم . رئيس الشرطة . قطع الطريق . اختلال نسبة الرجال إلي النساء في أم درمان . كيف تغلب الخليفة على المشكلة . حفل الزواج .

قد يتخيل البعض أن الخوف من الخليفة وحكمه الطغياني قد يحدث على الأقل شعوراً بالأمن العام والحصانة من القانون ولكن الفصل التالي سيوضح أن الأمر لم يكن كذلك.

في سنوات المهدية الأولي لم يكن هناك انضباط وقد وضعت القوانين جانباً بأكملها لأن جميع السكان كانوا في حالة حرب والجميع في حالة تجوال . وهم يعيشون على الثروة التي يغنمونها وعلى الرخاء الاقتصادي للحكومة . في ذلك الوقت لم يكن هناك كثير من اللصوص . فعندما كنا نعيش في كردفان كنا آمنين تماماً ونستطيع أن ننام وأبوابنا مفتوحة في الليل . ولم يفكر أي شخص مطلقاً في اتخاذ إحتياطات ضد اللصوص بالرغم من أنه لم يكن هناك أسهل من الكسر والدخول في أكواخنا المبنية من القش بصورة مهلهلة .

بعد سقوط الخرطوم وعندما أصبحت أم درمان مدينة كبيرة فإن ازدهار البلاد السابق بدأ يضمحل تدريجياً واندلعت المجاعة وعندئذ أصبح الأمن العام مهدداً . ازداد اللصوص بأعداد مخيفة حيث أصبحوا مصدر إرهاب للجميع وفي السنوات ٨٨ / ١٨٨٩م أصبح الأمر سيئاً لدرجة أن الناس نادراً ما تجرأوا على الذهاب إلى النوم . صحيح أن عقوبة القطع من خلاف قد مورست بحرية ولكن حتى هذا كان له أثر ضعيف وذلك أساساً لأن السرقة والفساد تعملان بتعاون . فاللص ليس لديه صعوبة في دفع رشوة .

كما ذكرت من قبل أن الخليفة عيّن قضاته ورئيسهم أحمد قاضي الإسلام وقد أقيمت كذلك محكمة خاصة للفصل في نزاعات الزواج التي لا حصر لها والتي تشكل

جزءاً كبيراً من التشريع الإسلامي . وأمر الخليفة قضاته بوجه خاص للفصل في هذه القضايا من جوانبها الظاهرية لا الداخلية .

الأدلة المعتادة المطلوبة هي الشهود بعد أدائهم اليمين . وعلي الشاهد أن يتوضأ قبل أداء اليمين . ثم يضع يده اليمني على المصحف ويقول « بحق كتاب الله « ويؤدي القسم ويدلى بأقواله . وفي قضايا الشكاوى للمتهم فقط حق أداء اليمين بينما على الشاكي أن يقدم شهوداً . وإذا لم يقدم شهوداً فالمتهم يقسم ثم يبرأ .

إن الفهم والمعني الحقيقي للقسم يتم تجاهله تماماً . مئات القسم تتم يومياً في محكمة السوق لأتفه الأشياء فربما لا تزيد قيمة النزاع عن قرش واحد . وزيف أداء الفرد للقسم باستمرار واضح تماماً ولكن ما لم يتقدم الشهود لأداء الشهادة فإن أفظع القضايا سوف تنتهي دون عقاب .

إن الفكرة الشائعة هي أن كل من يقسم بالقرآن زوراً سوف يسقط ميتاً على الفور . وإن حلف الزور المستمر هو دليل واضح على عمق الانحطاط الخلقي والتفسخ الديني الذي وصل إليه أتباع المهدي .

في القضايا المتعلقة بالدين يعتبر اعتراف المدين بمسئوليته عن الدين كافياً . ولكن إذا لم يحدث ذلك فإنه يلزم تقديم شاهدين . وبسبب عدم الثقة والنفاق المنتشرين فحتى أصغر الأمور تكتب عموماً على الورق أو تعقد الصفقة بحضور شهود . ولكن هذا لا يعتبر إجراء مأموناً بسبب انتشار الرشوة . وقد أعطي الخليفة أوامر بوجوب دفع جميع الديون وإذا حدث تأخير يوضع المدين في السجن ويتم تجويعه إلي أن يعود إلى جادة الصواب .

دعونا نلقي نظرة للحظة على المحكمة في مكان السوق بأم درمان حيث يجري الفصل في جميع القضايا الصغيرة . هنا نجد شيخ السوق مع القاضي وبعض العساكر (وفيما بعد فقط) قليل من العرب كشرطة حراسة . الشيخ يركب عموماً إلى المحكمة في الثامنة صباحاً على حمار . أحد حراسه يضع فروته في راكوبة صغيرة من القش (فيما بعد بنيت هذه من الطين) وفي هذه الراكوبه يجلس الشيخ والمصحف بجانبه .

يصل أطراف النزاع وتدور القضية مثلاً تعامل احتيالي ، ديون ، سداد بعملة مزيفة الخ . وبما أنه لا يوجد محامون فكل طرف عليه أن يدافع عن نفسه . وكقاعدة السودانيون أذكياء ودهاة في محادثاتهم . والشخص الذي يجيد الحديث بصورة أفضل فإنه يكون قد حاز على نصف النصر في القضية . الضجيج والصياح داخل المحكمة يصم الآذان . وللسودانيين عرض عجيب للمكر الخبيث . وآخر مصدر للقاضي هو القرآن .

أحياناً يحاول المتفرجون التوسط بين الأطراف المتنازعة . وهذا السياق عموماً يطيل الكلام والضوضاء إلى ما لا نهاية . كما أنه غالباً لا ينجح . العقوبة المعتادة هي الجلد التي توقع في الحال . فشاربو المريسة ومدخنو التبغ يتلقون ثمانين جلدة . فالشخص الذي يحكم عليه ينبطح ووجه نحو الأرض ويسند رأسه بيديه بينما يتناوب على جلده عبدان بسياط مصنوعة من جلد فرس النهر . الضربات القليلة الأولي عموماً تسيل الدم ولكن كقاعدة يظل الضحية ثابتاً لا يتحرك بينما يصفق له المتفرجون لشجاعته. فإذا بدرت منه صيحة أو أنين فإنهم يضحكون عليه ويسخرون منه . أما الشيخ ومساعدوه فإنهم مدمنون كثيراً على البقشيش وهو ما يساعد كثيراً من المجرمين على التهرب من العقاب .

أما إذا كان النزاع ذا طبيعة خطيرة جداً فإنه يعرض على المحكمة العليا في باب الخليفة . لكن هنا يلعب المال دوراً أهم مما في المحكمة الأصغر . ويعتمد نجاح أو فشل القضية على مقدرة الوسطاء للطرفين من التأثير في الحكم . ومجرد تلميح أو إشارة من اليد يكفي لجعل القاضي يدرك وبذكاء مدهش يحتال للأمر ليعطي القضية وجهاً جديداً كلياً . وجهاً ربما قبل بضعة لحظات شجبه بكل قوة ولكنه الآن يرى أن من المستحسن تحت الظروف أن يتبناه . وهذا التغيير في الموقف ينفذ دون أدني تردد .

سأعطى هنا مثالاً لما يعتبر عدالة في أم درمان . أمة من الرقيق كان لها شجار لمدة طويلة مع سيدتها فقررت الانتقام من سيدتها . ولما كانت سيدتها تدخن التبغ وتلبس المجوهرات فقد ساعدها ذلك لتنفيذ خطتها . أخذت تبغ سيدتها والورق الذي تلف فيه سجايرها وكان مخبأً تحت الأرض . وربطت ذلك في صرة صغيرة وهربت وسلمت ذلك

إلى عسكري من أقربائها يتبع لحرس يعقوب الخاص . وأبلغت عن الأعمال الشريرة التي تقوم بها سيدتها .

وفي الوقت نفسه عندما وجدت السيدة أن خادمتها قد هربت أرسلت أخا زوجها للبحث عنها . أصبحت الأسرة الآن منزعجة للغاية وتوقعت كل أنواع العواقب الوخيمة . أسرع الزوج إلي بيت الأمير يعقوب معتقداً أن الخادمة ربما ذهبت إلى هناك . وقد وجدها بالتأكيد هناك محاطة بحشد من الأنصار . أحاط الأنصار بأحمد المستطلع (كما قد نسميه) وحملوه إلي يعقوب . أحمد لم يفقد رباطة الجأش وأوضح للأنصار أنه كان دائماً لديه انطباع أن الخليفة قد عيّن قاضياً للتحقيق في مثل هذه الأمور جميعها وأنه مستعد للانصياع لقرار القاضي . وهكذا ذهب هو وخادمة الأسرة والأنصار جميعاً إلى المحكمة . أخرجت الخادمة من جيبها الصرة ووضعتها أمام القاضي ثم أدلت بشكواها ضد سيدتها .

في نفس الوقت قابل أحمد صديقاً وأخبره كيف أن الخادمة كانت لفترة طويلة على علاقة سيئة مع سيدتها وأنها انتهزت هذه الفرصة للانتقام منها . وأضاف أن من المحتمل أنها حصلت على التبغ وورق لف السجاير من مكان آخر وأنها قد لفقت هذه القضية لإلحاق الضرر بسيدتها التي لم تدخن في حياتها كما أنها لم تلبس مجوهرات . وفي الحقيقة إذا أرادوا فيمكنهم الذهاب وتفتيش المنزل .

أعطي الوسيط إشارة للقاضي الذي حسم القضية على الفور لصالح أحمد وأمره بالذهاب إلي شيخ السوق الذي صدرت له تعليمات لإرسال شخص لتفتيش المنزل .

لم يكن أمراً صعباً الالتفاف حول شيخ السوق ومراوغته . وعندما وصلوا جميعاً إلي المنزل ، دعيت الخادمة لتبين المكان الذي أمروها أن تخبئ فيه تبغ سيدتها . ودون تردد للحظة تقدمت الخادمة وبدأت في نبش التراب في ركن . وكان من الواضح أنها كثيراً ما فعلت ذلك من قبل وان المخبأ قد أعد بعناية . وفي الحقيقة أن الخادمة قد وجدت بعض التبغ ما زال هناك ولكنها لم تلاحظه من قبل فأخرجته وهي تتهلل فرحاً . لكن في تلك اللحظة صفعها أحد الأنصار على وجهها قائلاً « أنظر إلي بنت الكلب هذه .

لقد أحضرت بعض التبغ هنا وألقته عن عمد في الحفرة عندما كانت تستخرج التراب من الحفرة « أمطرها المتفرجون بالشتائم وسحبت الخادمة المسكينة إلى مكان السوق حيث تلقت ثمانين جلدة لأنها فشلت في إثبات ادعائها . هذه هي عدالة أم درمان .

بالرغم من أن هذه ما هي إلا واحدة ضمن آلاف قضايا الفساد المشينة إلا أن جميع هذا يُبقي على العبيد منضبطين . وإذا لم يكن الأمر كذلك فلا شك أن السادة سوف يصبحون في خطر دائم وسوف يكونون تحت رحمة عبيدهم . والواقع أن كثيراً من العبيد قد نجحوا في جعل سادتهم يفقدون الحظوة بصورة كبيرة وذلك بالإبلاغ عنهم . وهذا ما يجعل السادة في حالة خوف عظيمة من عبيدهم . وحتى لو أن العبد ولد وتربي في بيت سيده فلا يمكن الوثوق به . وإذا تلقي عقوبة بسيطة فإنه أكثر احتمالاً أن يذهب ويبلغ عن سيده كمدخن أو شارب مريسة أو أنه أصبح متراخياً عن مبادئ المهدية . ومن المحتمل أن يتم جلده أو يتلقى عقوبة أسوأ .

حسب الشريعة الإسلامية تعتبر شهادة العبد ضد سيده باطلة . ولكن هذا القانون وكذلك جميع القوانين الأخرى لا تطبق إلا حسب رغبات الخليفة وظروف القضية . ونفس الملاحظة تنطبق على قيمة الأدلة التى تنتزع تحت التعذيب .

من الغريب تماماً أن حوادث القتل نادراً ما ترتكب وعند ما نضع في الاعتبار طبيعة السودانيين المتوحشة فإن ذلك عكس ما يتوقعه المرء . المشاجرات والمنازعات لا تنتهي ولكن بالرغم من كونهما مسلحان إلا أن كلا الطرفين يبدو أنهما يستنفدان طاقتهما في الكلام العنيف والإيماءات . وقد أصدر الخليفة أصرم الأوامر فيما يتعلق بالتهجم والضرب . فإذا ضرب شخص شخصاً آخر فإنه يكون عرضة لقطع يده . وهذا الأمر ينفذ دون تغيير ما لم يكن الشخص المدان غنياً وعندئذ تصادر ممتلكاته كما يتضح من القضية التالية :

نشب نزاع بين تاجر يسمى يوسف كردي وآخر يسمى محمد وهو ابن بانّقا التاجر الغني . وكلاهما كان سكراناً واستلا سيفيهما وجرح كل منهما جرحاً طفيفاً . وصل الأمر إلي آذان الخليفة فأمر باعتقالهما وهدد بقطع يديهما . ولكن في الحقيقة كان يرغب في

الحصول على بعض أموالهما . بانقا رجل مسن يبلغ تسعين سنة من العمر رمى بنفسه عند قدمي الخليفة وتوسل أن تعدل عقوبة ابنه . وبعد بضعة أيام من الحبس والتهديد المستمر رضي الخليفة في النهاية أن يتكرم ويستبدل الحكم بمصادرة مبلغ ٦٠٠٠ ريال وابن بانقا ٥٠٠٠ ريال بينما حفظ كلاهما في السجن لعدة شهور للتكفير عن خطوتهما المتسرعة . ويتعامل الخليفة مع اللصوص والمحتالين بطاقة لا تقل عن ذلك .

هناك فئات مختلفة من اللصوص . فهناك النشّالون . ويقع مجال عملهم أساساً في الأسواق والدكاكين الصغيرة وأماكن النزول . وهم أساساً ناس الخرطوم أو مصريون وأعمالهم في خفة اليد مدهشة فأخذ وقطع محافظ وأكياس النقود هي عملية بسيطة جداً بالنسبة لهم . وهي تجري عموماً عند ما يكون الناس منشغلين في نزاع عنيف . ولدى اللص عموماً شريك يعمل معه . فمثلاً يجلسان في قارب معدية مكتظ بالركاب وفي أثناء ما يقوم أحدهما بجذب انتباه الركاب الآخرين بالغناء أو بسرد قصة مثيرة ، يكون الشريك منهمكاً في عملية النشل . أو أحياناً يبدأ أحدهما في رج القارب بينما يستغل شريكه فزع الركاب لنشلهم . وهم يحومون كل اليوم في السوق يراقبون فرصهم لسرقة كل من المشترين والبائعين . تباع البضائع المسروقة لفئة معينة من الناس يعملون في تحالف مع اللصوص . وأما المال الذي يحصلون عليه فيبعثرونه بسرعة . إن فن النشل قد أصبح علماً وهم حاذقون لدرجة أن اكتشافهم يكاد يكون مستحيلاً . ويتم تمرير البضائع المسروقة من يد إلي يد بسرعة وحتى إذا تم القبض على اللص الأصلي فإن الشخص الضحية ربما لا يحصل على ما فقده . مرات ومرات يتم القبض على اللصوص متلبسين بالجرم المشهود ولكن عندما يحضرونهم أمام القاضي لا يوجد أثر للأشياء المسروقة . وكثيراً ما يحصل القاضي على نصيبه من أرباح اللصوص . لذلك فإن لديهم كل حافز للاستمرار في ممارساتهم الشائنة .

لكن الأكثر خطورة من النشالين هم لصوص المنازل . وعن هؤلاء هناك هيئة منظمة ورئيسها معروف بشيخ الحرامية . فالعصابة مكونة من عبيد أقوياء وشجعان وهم خبراء في كسر الجدران أو التسلق فوقها مسلحين بسكاكين طويلة لا يترددون في طعن

أي شخص يحاول إيقافهم . وهم يستخدمون النساء والأطفال كجواسيس يتسولون من بيت لبيت ثم يزودون اللصوص بمعلومات كاملة . وبناء على ذلك يقوم اللصوص باقتحام المنزل وهم بلباس شبه عراة ومسلحون بسيوف وخناجر . ويتم توجيه أحدهم دائماً للوقوف فوق صاحب المنزل النائم وأن يجهز عليه إذا حاول النهوض . بينما يقوم الآخرون بنهب المنزل . وينطلقون بالسرعة التي جاءوا بها لكي يقوموا بتوزيع الغنائم . وحينما تسمع صيحة : « الحرامي » في الليل فإن النوم يهرب وتستمر المراقبة الدقيقة حتى الصباح .

في الماضي كانت كلاب الحراسة مفيدة للغاية للتحذير من لصوص المنازل . ولكن الخليفة أصدر أمراً بأنها حيوانات نجسة ومنع من الاحتفاظ بها . والآن لا يرى كلب في جميع أم درمان . ولكن بالرغم من أمر المنع هذا فإن العرب في الصحراء ما زلوا يحتفظون بها . وإذا حدث بالصدفة أن ضل أحد هذه الحيوانات المسكينة طريقه ودخل المدينة فإن جمهرة من الناس تركض خلفه مسلحين بالحراب وهم يصيحون « عريان » وبسرعة يقتلونه .

هناك رجل يسمى زغير وهو مصري مولود في بارا أصبح أحد أشهر اللصوص . فمنذ عمر مبكر تربى على السرقة وأصبح محترفاً للغاية . وبالإضافة إلي بنيته القوية كان شجاعاً شجاعة تليق بأشياء أعلى . وكرئيس لعصابة لصوص فقد قاد كثيراً من العمليات الجريئة . ولديه براعة عجيبة في النجاة دائماً من كل أذى . ففي إحدى المناسبات عندما قدمت ضده الكثير من الشكاوى أودعوه في سجن السوق . وقد وعد شيخ السوق الذي كان في ذلك الوقت في حاجة إلي بعض المال بإطلاق سراح السجناء إذا جمعوا له من بينهم مبلغ خمسين ريالاً .

وافق زغير بالحصول على المبلغ وأطلقوا سراحه لمدة ساعة من السجن . وفي الحال ذهب إلي السوق وبسرعة وجد ضحية في شخص بائع دمّور (قماش ينسج محلياً باليد من القطن) وكان قد باع كل بضاعته تقريباً وجلس ومحفظته أمامه مليئة بالريالات . جلس زغير بجانبه وبدأ حديثاً عن القماش وبدأ يقلب فيه قطعة قطعة وبخفة يد شديدة

نجح في الاستيلاء على المحفظة التي أخفاها تحت الجبة . وعندئذ ذهب إلي القاضي وعرض عليه المحفظة التي كان بها مبلغ سبعون ريالاً ورجع بهدوء إلي السجن وأمر حارسه بأن يعيد القيود كما كانت .

في الحال اكتشف تاجر الدمور السرقة واندفع كالمجنون إلي محكمة السوق وهناك أوضح أن لصاً سرق ماله . وأنه لا يمكن أن يكون شخص آخر خلاف زغير لأنه كان جالساً معه . وقام الشيخ بتوبيخ التاجر توبيخاً شديداً لتوجيهه اتهامات مزيفة متسائلاً عما إذا كان كاذباً أو مجنوناً ثم أخذ التاجر إلي السجن وأراه زغير مقيداً بقيود ثقيلة . وبعد هذا كان على التاجر التعيس أن يشكر حظه الطيب أن لم يجلد هو نفسه .

أثناء المجاعة أقام زغير تجارة ناجحة . في مرة من المرات أكتشف أن بعض العرب في السوق باعوا للتو كمية من الذرة وكانوا يعدون نقودهم التي بلغت ٧٠٠ ريال وكانوا يفحصونها بدقة للتأكد من أنها غير مزيفة . هذا المنظر جعل زغير يتوق إلي الحصول على هذا المال . لذلك غمز لشريكه ثم جلس بالقرب من العرب ثم بدأ يسألهم إن كانوا يريدون أن يقدم لهم ريالات من النوع « المجيدي » مقابل الريال « المقبول » .

عند ما أوشكت الاتفاقية أن تتم ، أخرج زغير ريالين من جيبه وأعطاهما إلي واحد من شركائه ليشتري بعض التمر . وعندما عاد الشريك بالتمر بدأ زغير ببعثرة التمر في كل اتجاه وهو يصيح « كرامة ... كرامة » ويعني بذلك أن التمر صدقة . واندفع المتسولون الجياع نحوه في حشود وبدأوا في الشجار حول التمر بينما اختفت الحقيبة الجلدية التي تحتوي على ٧٠٠ ريال فجأة .

صراخ العرب وهم يبحثون عن مالهم المفقود يكاد لا يسمع من الضوضاء المخيفة التي أحدثها توزيع التمر . وفي كل هذا الوقت استمر زغير في مواساة العرب لفقدهم المال . ثم انتهز فرصة مواتية للهرب واقتسام محتويات الحقيبة الجلدية مع أصدقائه .

وأخيراً كثرت الشكاوى ضده وحكم عليه بالقطع من خلاف . واستسلم بغاية الانشراح للعملية وهي حقيقة عملية بسيطة جداً . يستدعى جزار فيقوم بربط الذراع والرجل بخيط بإحكام فوق المكان الذي سوف يتم فيه القطع . وهذا الجزار الذي له ممارسة

طويلة يعرف بالضبط موضع القطع وتستغرق العملية بضع لحظات فقط لقطع اليد والرجل عند المفصل . أما الخيط المربوط بإحكام فوق موضع القطع فهو يمنع نزف الدم بغزارة . ولمنع الغنقرينا والتسمم تغمس الأجزاء المبتورة فوراً في زيت أو شحم مغلي ثم تمسح بالقطران أو زيت السمسم . وفي خلال حوالي شهرين يتم الشفاء وذلك لمن يعيش بعد الصدمة الأولي لكن العديدين يموتون كذلك . وعلى أية حال فإن العدد الهائل من العُرج أو ذوي الرجل الواحدة في أم درمان هو دليل عملي على أن أعصاب السودانيين قوية .

زغير عاش بعد العملية ولكن ما أن شفي حتى عاد مرة أخري إلي سابق حيله القديمة . وهو الآن مالك لحمار جيد وهو يتجول به في ملابس أفضل من التي كانت عليه من قبل . وإجمالاً وبالرغم من نقص أعضائه يبدو أن حالته عموماً قد تحسنت . لكن السرقات المستمرة قد دفعت به مرة أخري إلى السجن حيث تم تقييده بسلسلتين في رجله واثنتين في عنقه . وما زال يرى أن من غير الجدير به أن يلجأ إلى عكاز في السجن لمدة سنتين وخلا ل كل ذلك الوقت اعتني به أصدقاؤه وأمدوه بكل احتياجاته . وأخيراً أطلق سراحه وهو مرة أخري أفضل لص محترف في السودان .

لكن اللصوص ليس هم كل ما في لأمر . فهناك المحتالون كذلك . العديد من الناس يرغبون في إقراض أموالهم بفائدة . وبالطبع هناك أعداد من الناس مستعدون أن يدفعوا لهم ما يطلبون . لكن النبي ينهي عن إقراض المال مقابل معدل فائدة شهري . والمهدي جدد هذا الأمر المانع مع التهديد بأن أية مخالفة لذلك سوف تتضمن مصادرة الممتلكات . وقد قاد هذا المحتالين إلى أتباع أنواع من الحيل . فمثلاً بعض الناس يقنعون العرب لإعطائهم ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ريال لفتح مطعم مع وعد المقرضين بنصف الأرباح . وطالما كان لدى الطباخ مال في يده فكل شيء يسير بصورة جيدة . وربما يقوم المقرض بالتحري يومياً عن تقدم العمل . ويكون الرد بـ « إنه يسير بصورة ممتازة » ويقوم الطباخ بإكرام راعيه الذي يشكره بدوره على كرمه . وعموماً يتلقى وجبة ممتازة .

يتم تسجيل حساب دقيق والأسعار عالية . وفي نهاية الشهر تقسم الأرباح . ويتلقى

العربي مثلاً ما بين ثمانية إلى خمسة عشر ريالاً . ويستمر العمل ربما لسنة والعربي قانع ومسرف في ثنائه على الطباخ ولكنه غير مدرك أن الطباخ قد سدد له نصيبه في الأرباح من القرض الأصلي الذي دفعه في المشروع . وفي نهاية حوالي العام يبدأ الطباخ في الشكوى من أن « السوق بارد » واللحم غالي والزبائن قليلون وبدلاً من الربح فإن هناك خسارة واضحة . وعندما يجد أنه الزبون الوحيد يأكل العربي الراعي بسرعة ويذهب . وفي النهاية يتم إغلاق المطعم ويأتي العربي لاسترداد قرضه فيقابل بالجواب البسيط « لا يوجد شيء » . ترفع القضية أمام القاضي . ويقدم الطباخ بياناً بحساباته مبيناً أن الربح بلغ ١٥٠ ريالاً منها ما قيمته ٨٠ ريالاً قدمت في صورة طعام للراعي والباقي خسارة نظراً للكساد العام في التجارة . الحسابات صحيحة وقد احتار العربي حيرة عظيمة إذ لماذا ينبغي أن يدفع كثيراً نظير ما تقدم به الطباخ من كرم من تلقاء نفسه .

العديد من العرب الذين أقل معرفة بالدنيا من الجلاّبة (التجار) فقدوا كل ما يملكونه بطرق الاحتيال هذه . وأظن أن سوق أم درمان هو مكان للاحتيال والخداع أكثر من أي مكان من نفس حجمه في العالم . ولا عار في أن يكون الشخص لصاً أو محتالاً . فقط عندما يكتشف الشخص أنه كذلك يلحق به بعض العار .

العديد من السادة يحتفظون بالعبيد لغرض خاص وهو النهب والسرقة واقتسام الأرباح معهم . فالعبيد من هذا النوع هم سلع قيمة حيث أنه إذا اكتشفوا فعموماً من المؤكد أن سيدهم يمكنه رشوة القضاة . ولكن هذا بالطبع يعتمد كله على العلاقات القائمة بين الفرد والسلطات المحلية . وهكذا مدخنو التبغ وشاربو المريسة عليهم أن يدفعوا مبلغاً شهرياً لشيخ السوق وذلك مما يمكنهم من تنفيذ ممارساتهم غير القانونية مع إفلاتهم من العقاب . وإذا رفض أي فرد من مثل هؤلاء أن يدفع فإنه يتم التبليغ على الفور عن عاداته تلك ويعاقب عقوبة صارمة . والتبغ المصادر عندئذ يباع بواسطة الشرطة .

الشكاوى ضد هذه الممارسات الشريرة وعدم وجود أمن عام في أم درمان قد تطور وأصبح خطيراً بحيث أن الخليفة في النهاية اضطر للتدخل . والقضية التالية قد أوصلت

الموضوع إلى مرحلة الأزمة . عبد سكران أطلق النار على واحد من رفاقه العبيد . وحسب القانون فإن لسيد العبد المعتدي أن يقتله . ولكنه عفا عنه لأنه لم يرغب أن يفقد عبدين في وقت واحد .

عندما سمع الخليفة بالقضية أمر على الفور بقتل العبد وبعد هذا أتي كل واحد وأبلغ الخليفة عن المدخنين وشاربي المريسة وعندئذ عين الخليفة شخصاً يسمي ود الريّس كما يسمي أيضاً حسين ود الدايم كشيخ للسوق .

هذا الرجل الذي كان من قبل مأمور شرطة بربر نجح في إخافة اللصوص . وقد أخبر الخليفة بصراحة أنه لا تصلح معاملة للصوص وفقاً للقانون وأنه فقط أقوي الإجراءات وأكثرها فاعلية هي التي تقوم بتشتيت هذه العصابات .

وافق الخليفة على ذلك وعلى الفور قام رئيس الشرطة الجديد بالقبض على جميع اللصوص المعروفين ووضعهم في القيود ثم قام بضربهم بالعصي وأجبرهم على الاعتراف بما سرقوه وإلى من باعوا المسروقات وقيمة المسروقات . وهكذا عرفوا أسماء جميع اللصوص تقريباً في المدينة .

أحدثت هذه الإجراءات ضجة كبيرة في أم درمان حيث وجد أن العديد من الناس في مراكز عالية كانوا متورطين في هذه الجرائم وقد أدينوا . واللصوص كذلك انتهزوا هذه الفرصة لابتزاز مبالغ نظير السكوت عن جرائم بعض الناس . لكن ود الريّس في وقت قصير أعاد إقامة الأمن العام . ولزيادة المراقبة قسم السوق إلى أرباع وعين لكل ربع مساعداً لشيخ السوق يعرف بشيخ الحارة ويكونون مسئولين وبمساعدة سكان الربع عن الحفاظ على الأمن ليلاً . أعداد من شاربي المريسة جرى اعتقالهم وكميات كبيرة من التبغ تمت مصادرتها وإحراقها علناً في مكان السوق . وتم ترحيل جميع اللصوص الرئيسين إلى محطة السجناء في الرجّاف وهذه طريقة رآها الخليفة مفضلة على قطع الأيادي والأرجل .

حوالي هذا الوقت تماماً هرب سجين مصري من سواكن ووصل إلى أم درمان . كان قد أدين بتزوير العملة في مصر وحكم عليه بعشر سنوات سجناً في سواكن . وعندما كان

في السجن هناك توصل هو وأحد رفاقه مع العسكري الذي كان يحرسهما في السجن إلي اتفاق وهرب ثلاثتهم وتوجهوا إلى بربر وفي الطريق مات العسكري والسجين الثاني . أما المصري فقد نجا ووصل إلى أم درمان . وتوسل لكي يقابل الخليفة . لكن الخليفة رأى أن مقابلة سجين هارب تقلل من مقامه . لذلك تم ترحيله على الفور على الباخرة المتوجهة إلى الرجّاف مع جميع اللصوص والمنفيين الآخرين . وقد سمع الخليفة وهو يقول « إن أي شخص يأتي من مصر هو بصورة لا تتغير إما مجرم أو رجل غير أمين » .

الوظائف الجديدة مثل وظيفة شيخ الحارة هي وظائف بدون راتب وبما أن القائمين بهذه الوظائف لا بد أن يعيشوا فقد اضطروا للحصول على المال بوسائل غير شريفة . وهذا أدي إلى مفاسد التبغ والمريسة القديمة مما جعل الأوضاع تتدهور إلى نفس الحالة السابقة .

طرق القوافل إلى داخل البلاد مأمونة إلى حد ما. لكن التجار يفضلون دائماً السفر في مجموعات من عشرين إلى ثلاثين شخصاً . غير أنه وكمسألة واقعية فإن حاميات البقّارة في النقاط المختلفة هي مصادر خطر أكبر على التجار من اللصوص وقاطعي الطريق .

هؤلاء البقّارة ينتزعون المال من التجار ويسرقون بضائعهم ولكن إذا كانت القافلة كبيرة فإنهم يخافون من فعل أي شيء قد يقود إلى الانتقام منهم . لقد فعل الخليفة الكثير على أية حال لتحسين الأمن العام في المديريات وهو يعاقب بصرامة عندما تصل القضايا إلى علمه .

إن حالة الآداب العامة في السودان سيئة للغاية . وفي أم درمان لم يكن من الممكن أن تكون أسوأ من ذلك . قبل ظهور المهدي كانت الأمور سيئة بما يكفي . فجميع المدن الكبيرة تقريبا مثل الخرطوم والمسلمية والمتمة والأبيّض ، وخاصة الأخيرة كانت مرتعاً للرذيلة من أسوأ أنواعها .

كان المهدي معارضاً تماماً لكل هذه العادات الشريرة وخلال حياته تحسنت الأمور كثيراً . ولكن ذلك كان راجعاً على الأصح إلى حقيقة أن جميع البلاد كانت تحت السلاح

وأن المدن كانت مهجورة في الواقع . بجانب ذلك فإن العقوبات لمثل هذه الجرائم تصدر دون تردد . كما أن إيقاف شرب المريسة

قد قلل من الشرور . وتم تبسيط مراسم الزواج وتقليل نفقاته . وصار التقدم الملحوظ في الآداب العامة ظاهراً .

لكن عندما انتهي القتال الرئيسي واستسلم الأمراء المنتصرون لحياة الرفاهية والانغماس في الشهوات وعند ما حلت حياة المدينة العاطلة مكان الحملات الدينية وعندما بنيت البيوت من الطين والطوب بدلاً من أكواخ القش الخشنة وعندما انتقل المهدي إلى الدار الآخرة عندئذ اندفعت أعمال الرذيلة بقوة مضاعفة بسبب الضغط الذي دام طويلاً . وأصبح الوضع سيئاً بلا حدود أكثر مما كان عليه في عهد الحكومة السابقة . وأشير بصورة خاصة إلى أم درمان . فالحرب المستمرة قد خفضت كثيراً من أعداد الرجال . وأصبحت أم درمان مليئة بنساء ليس لهن أزواج أو أقارب من الرجال . وهذا هو السبب الحقيقي لحالة الفساد الأخلاقي .

وصلت الأمور إلي الذروة في ١٨٨٨م بحيث أصدر الخليفة أمراً بوجوب تزويج أي امرأة غير متزوجة خلا ثلاثة أيام أو أنها سوف تسلم إلى بقاري كأمة أو خليلة . ونتيجة لهذا الأمر ولفترة ثلاثة أيام كانت كل المدينة في مراسم أعراس مستمرة . وانتهز الرجال فرصة لتزوج نساء ما كان يمكنهم تحت ظروف أخرى أن يسمح لهم بتزوجهن . وبالطبع فإن هذه الزيجات الجبرية لم تدم لمدة طويلة ففي ظرف شهر أو شهرين معظم الأزواج انفصلوا من بعضهم .

وهناك سبب آخر أفضي إلى الرذيلة هو أن أعداداً من الرجال أرسلوا إلى أجزاء بعيدة من البلاد في حملات عسكرية بدون مرافقة زوجاتهم ومعظمهن تركن في أم درمان لسنوات . وإنه من الصعب أن نعجب إذا بدأن بمرور الوقت نسيان أزواجهن وتكوين علاقات غير شرعية مما يضطر الخليفة إلي التدخل باستمرار .

في إحدى المرات وضعت حوالي ثمانون امرأة في السجن بسبب خيانة أزواجهن بصورة لا تدع مجالاً للشك . وانعقد مجلس للنظر فيما ينبغي فعله إزاءهن . وتقرر أن يجعلوا

من أحداهن عبرة لمن يعتبر . الضحية التعيسة التي اختاروها كانت قد ولدت طفلين غير شرعيين . أخذوها إلى الجزء الخاص بالحريم في السوق وهناك انزلوها في قبر مع طفلها الأخير وهو مربوط إلى صدرها وقام حشد من قساة القلوب يرجم الاثنين بالحجارة حتى الموت . ويبدو أن الحشد كان يجد بهجة شيطانية في هذا العمل غير الإنساني .

هذا على أي حال هو الإعدام الوحيد من هذا النوع الذي حدث أثناء المهدية . أما النساء الأخريات فقد أطلق سراحهن . ولكن الأثر الوحيد للعبرة أعلاه هو دفع النساء لاتخاذ وسائل إجرامية لتخليص أنفسهن من مثل هذه الأدلة للعلاقات غير الشرعية . والبيع العلني لأدوية الإجهاض أفضت فقط إلى مزيد من الانحدار الأخلاقي للشعب . ويستطيع المرء أن يقول بحق أن الشعور بالرعب والعار نادراً ما يوجد في السودان . فمن العبيد من كل الأعمار ومن الجنسين إلي الطفل الصغير الذي يبلغ ست سنوات من العمر جميعهم يجري تعليمهم بأسوأ أشكال الرذيلة . لكن عن هذا الموضوع المؤلم والمثير للاشمئزاز لن أقول المزيد .

قوانين الزواج البسيطة التي أصدرها المهدي ، حلت محلها تدريجياً العادات القديمة السابقة . فمثلاً تزوج عبد الماجد أمير بربر ابنة عبد الرحمن بك بانقا وتلقي من والدها ٢٠٠٠ غرام من الذهب . ومراسم الزواج التي حفلت بالرقص والغناء استغرقت حوالي شهر . لكن عندما سمع الخليفة بذلك سجن الأمير لبعض الشهور وأعلن فسخ عقد الزواج وأرسل العروس لوالدها ومنعه من السماح للعريس من استرداد زوجته مرة أخري .

لكن للسودانيين ولع يمثل هذه الاحتفالات التي تتضمن الرقص والغناء ولا يمكن تقييدهم بأي من هذه القوانين الجديدة . فالنساء يلبسن الحلي كسابق العهد وهن يرقصن ويغنين ويقمن بإعداد المريسة والقمار كذلك أصبح موضة . لكن بالطبع أن كل شيء يتم سراً . ومن وقت إلى آخر يرفع الخليفة صوته ضد ذلك . وعندئذ ولبضعة أيام يتوقف كل شيء ثم يبدأ الأمر مرة أخرى ويسير تماماً كما كان من قبل .

الاحتفالات التي تعقب انتهاء رمضان وفي عيد الأضحى وفي مناسبات الميلاد والختان وغيرها لم تعد تجري بأي درجة من درجات تألقها السابق . ربما تقدم وجبة من اللحم وتتم زيارتان أو ثلاث في السنة . فأيام الابتهاج السابقة قد ولت . فكل ما هناك كرب وخوف . فلا حياة شخص أو ممتلكاته آمنه . فكل شخص مضطر بحكم الظروف إلى مخالفة القوانين التي معظمها غير عملية إطلاقاً وفي نفس الوقت في خوف دائم من الجواسيس الموجودين في كل مكان . فلا يوجد أمن أو عدالة أو حرية . فالسعادة والرضا غير معروفين .

الباب العشرون

معاملة الخليفة للأسرى من البيض

وصف السجن أو « الساير » . أبو حجّار . سجن تشارلس نيو فلد . معاناة المساجين الرهيبة . دومينكو بوليناري . خطر التخاطب مع المساجين الأوربيين . تهديد نيو فلد بالإعدام . منحه المسئولية عن حفر الملح الصخري . مصير الشيخ خليل المبعوث المصري . معاملة الخليفة « للبيض » . النفي إلي النيل الأبيض .

في الصفحات السابقة تمت الإشارة باستمرار إلي السجن . هذه مؤسسة لها أهمية كبيرة فيما يتعلق بالمهدية مما تستحق معه وصفاً مفصلاً .

« الساير » إن مجرد ذكر هذه الكلمة في السودان يسبب رعشة . وكلمة الساير في الحقيقة هي اختصار لعبارة « بيت الساير» . والساير هو اسم شخص رهيب من قبيلة الجوامعة بكردفان . وكان سجّانا منذ الأيام الأولي للمهدية . وأصبح اسمه مرادفاً للمكان المخيف الذي كان يحرسه .

تروى قصة غريبة عن اسمه ويقال إنها حقيقية . نساء الجوامعة غير مشهورات بالعفاف . وعندما ولد السائر سئلت أمه عمن يكون أبوه . لم تستطع أن تقول . وعندما أحضروها أمام السلطات وسألوها مرة أخرى ، أجابت بأنه « الساير » أي الأمر المعتاد في منطقتها . لذلك سمي الولد بالساير والتصق به الاسم .

حتى سقوط الخرطوم كان السجن مجرد زريبة كبيرة . وفقط بعد موت المهدي بني سور بواسطة المساجين أنفسهم ليحل محل السياج الشوكي . يقع السجن على ضفة النيل ويتكون من ساحة كبيرة وفي وسطها مبني من الطين والقش والحجارة وهو معروف باسم ((أبو حُجّار)) وبه فتحات صغيرة مربعة تشكل نوافذ وباباً وبالقرب من هذا الكوخ بئر . وفي ركن واحد توجد الزنزانات وهي بالكاد تتسع لشخص واحد وقد بناها تشارلس نيوفلد .

السجناء العاديون لا يفصل بينهم بل يرقدون تحت ظل السور أثناء النهار . وفي الليل يتم جمعهم ، البعض في أبو حُجّار والبعض يتركون للنوم في الساحة . والقليلون من

السجناء الموسرين الذين يقضون فترات طويلة في الحبس سمح لهم ببناء أكواخ صغيرة لأنفسهم . وخلف البوابة مباشرة يوجد مبني صغير من الطوب المجفف بالشمس يخص ود جزولي نائب المدير السابق للخرطوم الذي هرب إلى المهدي قبل وصول غردون . وهذا الكوخ يتسع فقط لشخصين وهو منخفض السقف حتى أنه من المستحيل أن يقف فيه الشخص منتصب القامة .

يعتبر تفضلاً كبيراً أن يمنح الشخص كوخاً بهذا الوصف . وهو فضل لا يمنح إلا لسجناء مميّزين وبالإضافة إلى ذلك فإنه مكلف جداً ولكن له ميزة أن ساكنه يمكنه على أية حالة أن يعيش منفصلاً . ولا يوجد في السجن إلا ثلاثة أكواخ بهذا الشكل .

السجناء غير مسموح لهم بالنوم على مراتب ولكن من لديه كوخ يستطيع بناء منصة مرتفعة قليلاً عن الأرض يسمح له بالنوم عليها . أما السجناء العاديون فهم عموماً يرقدون على فروة الصلاة أو على حصائر تفرش على الأرض .

جميع السجناء مقيدون بالسلاسل ويعتمد عددها على طبيعة الجريمة المرتكبة . تسمي السلاسل بالمكّيات « واحدتها مكّية » وتتألف من حلقات حديدية كبيرة بشكلها الحداد حول كاحل القدم . ويتم توصيل الحلقتين بقضيب حديد سميك أو قضيبين أحياناً . والقيد كله ثقيل ومرهق للغاية والمشي به متعب للغاية . ولتخفيف هذه الصعوبة فإن السجناء عموماً يربطون حبلاً بهذه السلاسل يرفعون به السلاسل أثناء المشي . إذا كان طول القضيب الذي يربط بين الحلقتين اثنتي عشر بوصة فإن المشي يكون سهلاً . وأما السجناء الذين يسخط عليهم الخليفة سخطاً شديداً فإنه توضع حول أرجلهم أربع مكيّات مما يجعل وقوف السجين يكاد يكون مستحيلاً . وبجانب هذا فإن هناك سلسلة ثقيلة طويلة تثبت حول العنق . ولمنع الجلد من التقرح بالاحتكاك بالسلسلة يمكن شراء لفاع جلدي من حراس السجن لوضعه بين السلسلة والعنق . وقريباً من بوابة السجن يوجد سندان كبير وعدة مطارق . توضع رجل السجين في الحلقة المفتوحة ويُطرق طرفاها المفتوحان لقفل الحلقة بإحكام مما يجعل من المستحيل سحب القدم من الحلقة . والسندان في حالة استعمال مستمر في كل يوم بحيث أنه تآكل .

على السجناء أن يدبروا طعامهم بأنفسهم . فإذا كان لهم أقرباء أو أصدقاء فإنهم عموماً يمدونهم بالطعام أو إذا كان لديهم أي مال فيمكنهم شراء طعامهم من باعة متجولين سمح لهم بالدخول إلى السجن . لكن الويل للسجين البائس الذي ليس لديه أقرباء أو أصدقاء إذ من المحتوم أن يموت جوعاً .

في الليل كما قلت يغلق السجناء في كوخ أبو حُجّار وأحياناً يحشد الساير السجناء في السجن إلى درجة يكاد السجناء أن يختنقوا أو يدهسون حتى الموت . إنه يفعل ذلك عندما يكون في حاجة إلى المال لأن الشخص يدفع أي شيء في سبيل إطلاق سراحه من هذا الثقب الأسود المخيف الذي يحشر فيه السجناء كالساردين في العلبة ثم يغلق الباب .

تصبح جدران الكوخ ساخنة أثناء النهار ولذلك تكون درجة الحرارة في الداخل مثل الفرن . يدخل قليل من الهواء من خلال فتحة صغيرة ولكن الجو المهلك الذي يسببه العشرات من الناس الذين يتصببون عرقاً الملتصقون ببعضهم التصاقاً شديداً هو أمر غير محتمل بالمرة . والعديد منهم قد يكون ممن يعانون من أمراض مختلفة ولكن لا توجد إمكانية للخروج بمجرد إغلاق باب الكوخ . هذه المشاهد المرعبة على أية حال يمكن تخيلها بصورة أفضل من وصفها . ويكفي القول إن الضجيج والشجار بين السجناء بسبب العمليات المقززة للنفس التي تجرى يقمعها عموماً الحراس الذين يدخلون عليهم بالسياط ويضربونهم بضراوة ثم يخرجون ويغلقون الباب مرة أخرى .

النوم يكاد يكون مستحيلاً لأنه لا يوجد مكان لمد الأرجل كما أن الحرارة لا تحتمل وتكثر العقارب ومن وقت لآخر تسمع صيحة تبين أن بعض الأفراد التعساء قد تعرضوا للسعات العقارب ولكن لا أحد يلقي بالاً لذلك . وكثيراً ما تحدث حالات سكته دماغية من الحرارة والوفيات بهذا السبب كثيرة . وعندما يسقط شخص في نوبة مرض فإن التعليق الوحيد الذي يقال هو أن « الدم ضربو » أي ضربه . وهكذا في كرب وبؤس تام تمضى الليلة . وفي اللحظة التي يفتح فيها الباب يندفع الجميع إلى الهواء الطلق . أما الأموات فيسحبون إلى الخارج وتفك قيودهم ثم يدفنون .

السجناء الذين لديهم إذن خاص للنوم خارج الغرف فإنهم يقيدون مع بعضهم لمنع الهروب ، ويحرسهم عدد من العساكر . وأدني مظهر من مظاهر المقاومة من السجين يعاقب عليه بالجلد . وما لم يصدر الخليفة أوامر خاصة عكس ذلك فإنه يسمح للسجناء بزيارات من أصدقائهم وأقاربهم . ولا توجد فترات محددة للسجن باستثناء حالات مدخني التبغ وشاربي المريسة فإن العقوبة المعتادة بالنسبة لهم هي مصادرة الممتلكات وثمانون جلدة وأربعون يوماً سجناً . لكن مؤخراً تجبى غرامة تقدر حسب قيمة الممتلكات بدلاً من المصادرة التامة للممتلكات وذلك بالإضافة إلى السجن والجلد .

السجناء يقسّمون عموماً إلى ثلاثة أصناف . الصنف الأول يضم أولئك الذين يحاكمهم أمين بيت المال . وبالرغم من أنه يوجد سجن خاص لمن ارتكبوا جنايات ضد بيت المال إلا أن جميع القضايا الخطيرة ترسل إلى الساير .

الصنف الثاني هم أولئك الذين يخضعون لأحكام من القضاء . وكلا هذين الصنفين يأمل أن يطلق سراحه عندما يقوم شخص ذو نفوذ كاف بدفع مبلغ من المال لهم على أن يشفع المبلغ بشهادة من الساير أنهم كانوا يسلكون سلوكاً حسناً خلال فترة السجن .

أما الصنف الثالث فهو هؤلاء الذين يقذف عليهم الخليفة حمم غضبه . وجرائمهم في أغلبها سياسي . وكل الوساطات في قضاياهم لا تجدي قط ولا أحد حتى القاضي مسموح له بقول كلمة طيبة في حقهم لدى الخليفة وفقط عند ما يهدأ غضبه قد يخطر له أن يتحرى عنهم وعندئذ ربما ينظر في توصيات لإطلاق سراحهم . ولكن رأي الساير مقدم على أي رأي آخر ولذلك من المهم الحصول على رضا هذا الشخص والحظوة لديه . فكلمة سيئة واحدة من الساير يمكن أن تلحق ضرراً لا حد له . وقد يؤجل أمر إطلاق السراح إلى أجل غير مسمي وكان على وشك الصدور .

الساير يدرك تماماً كيف يستعمل نفوذه لأنه ينتفع بدرجة كبيرة بممارسته لسلطاته . فهو لا يتلقى راتباً ولذلك فهو يعتمد كلياً على ما يمكن أن ينتزعه من السجناء . فكلما كان ضحاياه أغنياء كلما كان سروره أعظم لمعرفته بأنه يستطيع انتزاع المال منهم بحرية . ومرة في كل شهر يذهب القاضي أو من يمثله ومعه كاتب إلى سجن الساير

ويعد قائمة بجميع السجناء مع توضيح المدة التي قضاها كل سجين في السجن . وفي هذه المناسبات يرمى عدد من السجناء بأنفسهم تحت أقدام القضاة متوسلين لإطلاق سراحهم لأنهم جياع . وهذه القائمة يعرضها القاضي على الخليفة . واسم تشارلس نيو فلد يظهر دائماً في أعلى القائمة . يتفحص الخليفة القائمة ويتحرى بدقة عن السجناء فالبعض يتم إطلاق سراحه والأسماء الأخرى يمر عليها الخليفة في صمت وهي علامة لا تنذر بخير .

رأى الساير وسمع الكثير من محن كل من السودانيين والأوربيين . أول الأوربيين الذين عرفهم هما سلاطين بك ولوبتن بك . وقد وضع غوستاف كلوتز في القيود في معسكر أبو قرجة . وخلال حصار الخرطوم كان هناك اعتقاد بأن الأوربيين قد يحاولون الهروب إلى غردون . لذلك وضعوا في القيود . وقد بقي في القيود كل من سلاطين ولوبتن لمدة تصل إلى عشرة أشهر لدي الساير . وقد عانيا بصورة مخيفة من الجوع وسوء المعاملة والتهديد مراراً بالقتل . بعد سقوط الخرطوم أطلق سراحهما وأبلغهما الخليفة أنه عليهما أن يشعرا بالامتنان لكونهما كانا في السجن وإلا فمن غير شك أنهما كانا سيلقيان مصير غردون .

أحد إخواننا في بعثتنا الكنسية ، دومينكو بوليناري ، وضع أيضاً في السجن لمدة ستة أشهر . وقد سجن في نفس اليوم الذي وصلت فيه من كردفان .

بعد سقوط الخرطوم كان أخ بوليناري يعمل بستانياً في حدائق البعثة تحت سيده الجديد الخليفة شريف . أما البستاني السابق وهو دنقلاوي فقد تم فصله من العمل لعدم أمانته . وقبل أن يذهب أمر الخليفة شريف بتفتيشه بعناية حيث رؤى أنه ربما أخذ بعض ممتلكات سيده . بوليناري وهو رجل حي الضمير لأقصى درجة حيث لم يأخذ مطلقاً حتى ليمونة من دون إذن سيده ، قام بالتفتيش بعناية شديدة ونجح في استرجاع كميات من الأشياء التي أخذها البستاني اللص . لم يقل اللص شيئاً لفترة من الزمن ولكن خلال زمن قصير قام بمساعدته دهاء زملائه من السجناء الدناقلة وقام بتدبير خطة للانتقام لنفسه من بوليناري ليصبح رئيس البستانيين مرة أخرى .

مواد الحرب مثلما تركها غردون في منزل البعثة ظلت هناك . وقد حدث أن سرق في أحد الأيام بعض البارود . وبالرغم من التحريات الدقيقة للغاية لم يمكن التوصل إلي اللص والآن بدأ البستاني السابق يدلي ببعض التلميحات بأن بوليناري متورط في السـرقة وقد أوكل إلي شخص يسمى حاجي زبير بالتحقيق . وتم تفتيش كوخ بوليناري ولكن لم يوجد فيه شيء . وكانت أمانته معروفة للجميع بحيث لا يمكن تصديق بلاغات شريرة أو إشانة سمعة ضده . ولكن البستاني السابق لم يتراجع . ولما فشل في تهمته الأولى بدأ الآن ينشر أخباراً أن بوليناري شرب الكحول ومضغ التبغ وكدليل على ذلك أحضر زجاجة كبيرة وبعض الأعشاب الجافة وكان هناك بعض التمر الطري في الزجاجة وكان بوليناري يريد أن يصنع منه خلاً ولكن البستاني أصر على أنه كحول . أما الأعشاب الجافة فهي نوع من الكرنب الذي قصد بوليناري أن يطبخه لطعامه . ولكن الدنقلاوي أكد أنه تبغ . أجبر بوليناري التعيس على أن يمشي في شوارع أم درمان والزجاجة على رأسه ويتبعه حشد غير منظم يردد الإساءات نحوه إلى أن وصل إلى القاضي . القاضي أحمد الذي كان معروفاً بمحاباته للأوربيين ، أدرك على الفور أن هذا كله إشانة سمعة ملفقة وكان حريصاَ على إطلاق سراح بوليناري . ولكن حاج زبير الذي كان لا يزال لديه نفوذ كبير لدى الخليفة كما حرضه البستاني السابق ، أرسل بوليناري إلى سجن الساير . درجنا أن نرسل إليه كل يومين بعض الخبز والتمر ولكن العبد الذي كان يسلم إليه الطعام لم يسلمه مطلقاً حسبما اكتشفنا فيما بعد . ولولا أن اثنين من الشيوخ اللذين كانا معه في السجن كانا يعطيانه بعضاً من طعامهما فلا بد أنه كان سيموت جوعاً .

بين الكثير من السودانيين الذين كانوا في فترات مختلفة سجناء في الساير يمكن ذكر شيخ الشكرية المسن ، الشيخ عوض الكريم أبوسن الذي مات في السجن وكان من أكثر المخلصين لغردون باشا . وود زايد شيخ قبيلة الضباينة وقد قضى في السجن أربع سنوات . وهناك أحمد ود سليمان الذي كان أمين بيت المال في عهد المهدي . وصالح باشا ود الملك أحد ضباط غردون الرئيسيين . وسيد عبد القادر وسيد عبد الكريم

من الأشراف . وود عدلان الذي أشرنا إليه من قبل وجبر الله سلطان دارفور وأولاده الخمسة ومعظمهم مات وود النُّجومي وشيخ إدريس ومكين ود النور وكثيرون آخرون .

عندما وصل التعايشة ، قبيلة الخليفة ، في البداية نهبوا السوق وألقى الخليفة ٢٠٠ منهم في السجن « ليعلمهم الطريق الصحيح » كما قال . وفي كل ليلة كان يحشر خمسون منهم في كوخ أبو حُجّار وفي الحقيقة كان هذا تغييراً مرعباً من غاباتهم وسهولهم . وفي كل يوم يموت عدد منهم بحمى التيفوس والآن فإن مجرد ذكر الساير يجعلهم يرتجفون . وحتى شيخهم الكبير الغزالي الذي قصصت من قبل سوء حظه قضى بعض الشهور في السجن قبل أن يقوم بمحاولته غير الناجحة للهرب .

ياسين ، من الجعليين ، الذي وقع في أيدي الإنجليز في توشكي والذي أطلق سراحه فيما بعد وبعث برسالة إلى الخليفة من الحكومة المصرية كان عليه أن يدفع ثمناً غالياً لأنه قال للخليفة إنهم لم يستطيعوا القتال ضد الإنجليز .

أحد الأسرى الآخرين الذين أخذوا في توشكي والذي رجع أيضاً إلى أم درمان كان أكثر دهاء في مقابلته للخليفة . فقد روى أنه عندما كان في القاهرة قال له راهب مسن « ألم يسمى خليفة المهدي باسم عبد الله ؟ » وأنه رد عليه بعبارة « نعم هو كذلك » « أليس به عرج طفيف ؟ » نعم » « أليس عليه آثار جدري ؟ » « نعم » ثم قال الراهب « هل ترى هذا الكتاب ؟ إنه يحتوي على تاريخ المهدي وخليفته . وقد ذكر فيه أن الخليفة سوف يفتح مصر وسوريا ومكة » وقد سر الخليفة أيما سرور بالقصة والتفت إلى جماعته قائلاً : « أترون فالمسيحيون يعلمون تماماً أن المهدية ليست زائفة » وعندئذ منح مؤلف القصة الماكر هدية من المال .

أحياناً يعامل الساير سجناءه بقسوة شديدة . هناك فكيّان (فقيهان) أُتهما بأنهما منكران للمهدي عوقبا بألف جلدة لكل منهما . أحدهما مات في الحال والثاني بعد بضعة أيام . أحياناً يخفف من الرتابة بأن يضرب سجناءه ٤٠٠ جلدة وهي لا تعتبر عقوبة غير مألوفة .

في احدي المرات كان اثنان من عرب العبابدة قادمين من كورسكو كتجار وقد اكتشفا

جنوبي المتمة ومعهما بنادق مفككة قطعاً ومخفية بعناية في بالات قماش . كذلك وجدت معهما رسائل وفي الحال اعتبرا جواسيس وأخذا إلى الخليفة . وبمجرد أن طارت الإشاعة بأن عرباً يحملون رسائل إلى الأوربيين قد تم القبض عليهم ، جاءني صديق على الفور وأخبرني أن الرسائل من المؤكد أن تكون معنونة إليّ . وهذا قد جعلني في حالة حمى من الكرب والتوجس . وقد وضعت في السجن وقضيت تلك الليلة في أشد الرعب . وأنذرنا الخليفة ألا نتراسل بصورة محددة مع مصر وهدد بأن يسجننا إذا اكتشفت أية رسالة .

في هذه المرة كانت لدي كل الأسباب للتوجس لأنه كانت لدي من قبل تجربة مماثلة . فبعد فرار الأب بونومي أرسل عربياً من الكبابيش إلى كردفان لمحاولة تأمين هروبي . ظل العربي مع شيخ صالح بك وحسب علمي لم يحضر قط إلي الأبيّض . وعندما قتل صالح في ١٨٨٧م وجدوا بين أوراقه رسالة من الأب بونومي مرسلة إليّ ينصحني فيها بأن أثق في العربي الذي لن يفشل في أن يقودني بأمان إلى حلفا . جاءوا بهذه الرسالة مع المراسلات الأخرى إلى الخليفة وترجموها له . كان الخليفة غاضباً ولولا أن حماني ملاكي الذي يحرسني لكانوا حولوني إلى السجن بالتأكيد .

الرسائل العربية أقل خطورة لأنها تقرأ للخليفة من قبل سكرتيره ولكنه يشك دائماً في أن الرسائل الأوربية تترجم ترجمة صحيحة . كم أنا مشتاق إلى رسائل حتى ولو كلمة من العالم الخارجي أو من أي أقارب أو أصدقاء . ولكني الآن في أسرى كم صليت بجد ألا توجد رسالة موجهة إلى بين هذه الرسائل التي أحضرها العرب .

بمجرد شروق الشمس خرجت باحثاً عن الأخبار وقد سررت عندما أبلغوني أن الرسائل بالعربية وأنها ليست موجهة لي ولكن إلى شخص أعرفه جيداً . محتويات الرسائل كانت غير ضارة بالمرة . هي فقط تبادل تحايا بين عوائل في القاهرة وأم درمان وأخبار عرس تم في القاهرة . ومع ذلك كان الرجلان اللذان أحضرا الرسائل في غير قليل من الخوف ويعتقدان أنهما سيعدمان على التأكيد . ولكن الخليفة قد استوعب محتويات الرسائل تماماً وبالرغم من أن الوقت كان مساء فقد ركب الخليفة حصانه

الأبيّض الضخم وفي هذا الوضع يقوم عادة بإلقاء خطبه المهمة على الأنصار . وقد أخبر الأنصار أنه قد تم الاستيلاء على رسائل جاءت من مصر موجهة إلى « الأنصار الجِّداد» (أي الجدد) أو سكان الخرطوم والنيل الأزرق تمييزاً لهم عن « الأنصار القُدام « (أي الأنصار القدماء) أو أنصار كردفان وهم أتباع المهدي الأصليون . وأنه لا يود أن يذكر أسماء الأشخاص الموجهة إليهم الرسائل وأنه متأكد أنهم سوف يقضون ليلة بدون نوم .

في الصباح التالي أُرسل العربيان إلى الساير لكن دون الحكم عليهما بالإعدام . بعد بضعة أيام ذهبت لرؤية نيوفلد في السجن وسألت عن العربيين . رأيتهما الاثنين مقيدين بالسلاسل وعندما رأياني سألاني على الفور لأعطيهما شيئاً وخاطباني بعبارة « يا بلدينا « أي يا ابن بلدنا ظناً منهما أنني مصري . ثم حدثاني في سرية تامة أنهما جاءا بهدف تأمين هروب شخصين. أحدهما مانكاريوس غطاس الذي مات في القلاّبات والآخر مقيم في بربر والذي بسبب طيشه تم إفشاء سرهما . لم يكن لدى هذين الرجلين التعيسين أي شيء ليأكلاه لمدى ثلاثة أيام لذلك أعطيتهما بضعة قروش كنت قد أحضرتها لنيوفلد . ولما لم أكن أجرؤ على البقاء مدة أطول معهما توسلت إلى زغير أن يعتني بهما .

بعد خمسة عشر يوماً رجعت إلى الساير فوجدت الرجلين ميتين وممددين تحت ظل السور . فقد ماتا من الجوع . وقد جاء الحراس للتو لفك قيودهما وحمل جثتيهما إلى خارج ساحة السجن . منظر هذين الرجلين العبّاديين ملأ قلبي بالحزن . هناك يرقدان كتلة من الجلد والعظم . لقد جاءا لمساعدة أسرى مساكين على الهرب وهذه هي نهايتهما البائسة . وهذا حقاً تحذير لي للتصرف بمزيد من الحكمة والحذر .

مصري مولود في السودان أرسل أيضاً إلى الساير لبضعة أشهر لإعلانه أنه الخليفة الرابع. أي أنه الخليفة عثمان . في أحد الأيام قدم هذا الشخص نفسه إلى الخليفة وتوسل أن يسمعه الخليفة لبضعة لحظات إذ أنه رغب في أن يخبره بحلم رآه . وإنها وقائع طبيعية تماماً أن يروي الأنصار أحلاماً للخليفة يثنون فيها عليه من أجل الحصول

على بقشيش .

وهكذا روى خليفتنا عثمان في حلمه أو رؤياه أنه رأى المهدي الذي أبلغه بأن يعلن نفسه الخليفة الرابع ولذلك توسل إلى الخليفة أن يؤيده كخليفة رابع وأن يسمح له لأخذ نصيبه من السلطة مع الخلفاء الآخرين . كذلك توسل أن يمنح كل ما يستحقه من مظاهر التبجيل والتكريم فوراً كخليفة رابع .

هذا المجنون الذي يستحق الشفقة قد دفع ثمناً غالياً لرؤياه . قام الخليفة بإعطاء إشارة فقط إلى حرسه الشخصي فأسرعوا به إلى الساير حيث تلقي خمسين جلدة مرتين في اليوم . وفي نهاية المطاف اضطر للاعتراف بأن الشيطان أغراه للسعي وراء هذا المنصب .



تشارلس نيوفلد

بقي تشارلس نيوفلد في السجن مدة أطول من أي شخص آخر . لقد سردت في فصل سابق كيف أنه انضم بجرأة إلى جماعة صالح بغرض إنشاء علاقات تجارية مع العرب

وكيف أنه وقع في شرك الدراويش في واحة سليمة . هذا الرجل الطيب لم يعلم شيئاً عن السودان وعن المهدية . وعند هذا الوقت بالضبط كان الخليفة قد حزم أمره لسحق الشيخ صالح وقبيلته الكبابيش .

في السابع من مارس وصل نيوفلد إلي أم درمان سجيناً تحت حراسة مشددة . انتشرت الأخبار كالنار في الهشيم بأن هناك باشا إنجليزي تم القبض عليه . وقد سبب هذا النبأ حركة كبيرة في العاصمة . واعتبره الخليفة من أهم من تم قبضهم وقد جيء بنيوفلد أمام الخلفاء الثلاثة واثنين من الأوربيين اللذين أوكل إليهما بعض أوراقه . كان نيوفلد يتحدث العربية ولم يكن خائفاً بالمرة . أظهرت أوراقه أنه ألماني بروسي وأنه درس في جامعة لايبزج . وقد ترجمت جميع المستندات بعناية كبيرة للخليفة إذ كان من المهم جداً التأكيد للخليفة أن نيوفلد ليس إنجليزياً وإلا لسارت الأمور معه بصعوبة شديدة للغاية . وكانت هناك رسالة واحدة بالإنجليزية فلو أنها ترجمت بصدق فربما أوقعته في خطر عظيم .

بعد الفحص التمهيدي ، يبدو أن ذهن الخليفة قد أطمأن إذ ألقي من مقعده العالي خطبة طويلة على الأنصار الفضوليين فيما يتعلق بهذا الباشا الإنجليزي العظيم الذي كما قال الخليفة إنه جاء إلى السودان بأسلحة وذخائر بهدف الاستيلاء على كردفان ومحاربة المهدية . ولكن لحسن الحظ فإن قوات ود النُّجومي الشجاعة قد التقت به بالقرب من دنقلا فقتلت جنوده وقبضت عليه .

كانت عادة الخليفة أن يبالغ في الحقائق وبذلك يشجع الأنصار . كذلك وصف القبض على نيوفلد بأنه أهم حدث لأنهم حتى الآن لم ينجحوا في القبض ولو على واحد من الإنجليز المكروهين . لذلك ألقي نيوفلد التعيس في القيود وحرسه العساكر بعناية . وطيلة الليل هناك زنجية دينكاوية اعتادت أن تلبس ملابس الرجال وتتقلد سيفاً كانت تصرخ باستمرار على نيوفلد قائلة " الله أكبر على الكفار " .

تقرر أن يشنق نيوفلد في الصباح التالي . وأرسل الخليفة في وقت مبكر أوامره لضرب الطبل الكبير (النحاس الكبير) بينما كان نفخ الأمباية الكبيرة بالقرب من أذن نيوفد

كاد أن يطيحه أرضاً من الخوف . واتخذ العبيد منه لعبة كأنما هو قرد . لكنه ما زال رابط الجأش وقد واجه كل هذه الإساءات بروح رجولية . تم ربط الحبل في المشنقة وتجمعت حشود من الناس لمشاهدة إعدام الإنجليزي المزعوم . لكن نيوفلد لم يحضر لأن الخليفة لم يتخذ قراره النهائي . فحتى هذه اللحظة لم يعدم الخليفة رجلاً أبيض بهذه الطريقة المكشوفة . وقد أخر إعدام نيوفلد لأنه ما زال غير متأكد من أنه ألماني بروسي . إذا كان نيوفلد إنجليزياً لكان قد أعدم دون أدني شك .

في نهاية المطاف قرر الخليفة ألا يعدمه ولكن اكتفي بإرهابه . وحوالي منتصف اليوم سيق نيوفلد إلى مكان السوق مخفوراً بالخيّالة وصدرت عن الحشود صيحات الفرح عندما ظهر ولكن نيوفلد واصل السير دون خوف وعندما وصل إلى المشنقة قفز على العنقريب وأحنى رأسه حتى يقوم برنجي بوضع الحبل حول عنقه . وفقط عند آخر لحظة تقدم القاضي وقال إن الخليفة قد تكرم ونقض حكم الإعدام . لذلك أعيد نيوفلد إلى الساير حيث أغلقت عليه غرفة الحجر .

بعد ثلاثة أيام تم تقييده بثلاثة قيود ثقيلة ووضع على جمل وطافوا به جميع شوارع أم درمان حتى يراه كل إنسان . كذلك أخذوه إلى ميدان استعراض الجيش في " العرضة " وسأله الخليفة إن كان لدى الأتراك قوات كثيرة مثل قوات الخليفة التي يراها أمامه . أجاب نيوفلد بأن قوات الخليفة هي الأكثر عدداً ولكنها غير جيدة التدريب في التمارين والتحركات بعكس الأتراك .

هذه الإجابة لم تعجب الخليفة . ولكي تكون لنيوفلد رغبة في المهدي وخليفته فقد أخذوه إلى الخرطوم وهناك جعلوه يرى مباني البعثة المسيحية التي استولى عليها المهدي ثم أعادوه مرة أخرى إلى السجن حيث ظل فيه أربع سنوات . وقد هاجمته مراراً أمراض حمى التيفوس والدوسنتاريا وغيرها من الأمراض وتعرض للسعات العقارب . ولولا أن الأوربيين في أم درمان ساندوه فلا بد أنه كان سيموت جوعاً .

إن عمق البؤس الذي تردي فيه التعيس نيوفلد يمكن إدراكه عندما نعلم أنه قضي سنة كاملة في غرفة الحجر . وحتى بعد قضاء سنتين في السجن وخلال وساطة صديق سمح

له أن يبني لنفسه غرفة صغيرة في أحد أركان ساحة السجن حيث يمكنه النوم بعيداً عن بقية السجناء . هذا المبني الصغير تبلغ مساحته حوالي اثنتي عشر قدماً مربعاً وهو منخفض جدا . وهنا كان نيوفلد التعيس يقضي اليوم كله جالساً . والجبة التي يلبسها متسخة جداً وتعج بالحشرات التي لم تسمح له بالراحة في الليل . وفي حالة يأسه اعتاد أن يدع أحد رفاقه في المحنة أن يحك له جلده بالرمل المبتل بالماء مما يجعل جلده أقل قابلية للتهيج . وقد نصحه بعض العرب المتعاطفين أن ينقع البرسيم المهروس في الماء وأن يمسح جسمه بالعجينة . ووجد نيوفلد هذه العجينة دواء ممتازاً بالرغم من أن جلده كان يؤلمه ألماً شديداً في البداية . إن طيبة قلب نيوفلد قد أكسبته في وقت قصير تعاطف حراسه وكثيراً ما سمحوا له أن يظل بدون إزعاج في كوخه الصغير أثناء الليل بدلاً من سحبه إلى غرفة الحجر .

في إحدى الأمسيات سمع نيوفلد أن الساير في حالة مزاج متعكر فأخبر حراسه أنه يريد أن يبيت الليلة في غرفة الحجر . لكن العساكر المتعاطفين أكدوا له أنه في اللحظة التي يعلمون أن هناك تفتيشاً سيخطرونه على الفور . رقد نيوفلد في غرفته عندما أيقظه الحراس فجأة في منتصف الليل قائلين له " انهض بسرعة ! فإن الساير قد أقسم أنه سيعاقب أي واحد يجده خارج غرفة الحجر بمائة جلدة " .

نهض نيوفلد بأسرع ما يمكن واتجه نحو غرفة الحجر ولكن القيود منعته من التحرك بسرعة . وعندما وصل إلى غرفة الحجر لم يستطع إدارة المفتاح وفي تلك اللحظة دخل الساير إلى ساحة السجن وعندما رأى نيوفلد أمر بجلده ١٠٠ جلدة على الفور . لكن العساكر رفضوا إطاعة الأمر بحيل مختلفة . أحدهم قال إنه يعاني من الحمي والآخر قال إنه كان يقوم بجلد الناس طيلة اليوم وأنه مرهق للغاية . لذلك أضطر الساير أن يستدعي عبيداً من منزله الخاص . وقاموا بجلد نيوفلد ١٠٠ جلدة وتركوه وجسمه كله مغطي بجروح عميقة .

في ١٨٨٩م حصل نيوفلد على رفيق جديد في المحنة في شخص خبّاز من بوهيميا كان يعمل مع بعض الإغريق في حلفا . وفي يوم من الأيام وهو في حالة شبه مخمور غادر

الخباز حلفا وهو لا يحمل أي شيء بخلاف كمنجته قاصداً الذهاب إلي سواكن . لكنه ضل طريقه في الصحراء وسيطر عليه العطش فاتجه نحو النيل الذي وصله في نهاية الأمر . وبجهل تام للاتجاه الذي يسير فيه بدأ يسير نحو الجنوب فصادفته دورية من الدراويش فأرسلته إلى أم درمان .

عند وصوله أرسله الخليفة إلى السجن حيث ظل هناك لمدة سنتين . وأشركه نيوفلد في كل لقمة طعام . ولكن أثناء المجاعة عاني بصورة مروعة من الحاجة . وأخيراً ومن خلال وساطة المقدوم الذي كان مسئولاً عن الأوربيين أطلق سراحه . لكن بعد بضعة أشهر ذهب إلى الجزيرة . أما المقدوم الذي ضمنه برأسه فقد أرسل عدة رجال على الجمال للبحث عنه ولكنهم لم يجدوه . وبعد وقت من الزمن تم الإبلاغ عن أنه مات من الجوع في بلدة رفاعة على النيل الأزرق . وقد أراحت هذه المعلومة ذهن الخليفة .

أما بالنسبة لنيوفلد فقد فعلنا أقصى ما نستطيع لإطلاق سراحه ولكن الخليفة لا يريد أن يسمع عن هذا الأمر . وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك تقارير مزورة كانت تدور عنه . فبعض الناس الذين أتوا من دنقلا قالوا إن نيوفلد قد أرسل متخفياً من قبل الحكومة المصرية لمرفة إن كان المدير مصطفي ياور ما زال موالياً أم أنه انحاز إلى الدراويش . لكن في الحقيقة أن الذي أوكلت إليه هذه المهمة هو كتشنر باشا .

وفي مناسبة أخرى أحضرت إلى الخليفة صحيفة عربية تطبع في القاهرة تشتمل على فقرة فحواها أن ضابطاً إنجليزياً قبض عليه الدراويش في دنقلا . أدهش هذا الخبر الخليفة كثيراً وفي الحال اعتقد أنه خدع وأن نيوفلد ما هو في الحقيقة إلا إنجليزي . ولأن الخليفة في حقيقته ما هو إلا رجل متوحش وجاهل فقد اعتقد أن جميع الأخبار الموجودة في الصحيفة لا بد أن تكون صحيحة . ولام نفسه لعدم إعدامه لنيوفلد في المرحلة الأولي . وعلى أية حال أمر بزيادة القيود الثقيلة عليه .

مرة أخرى نشر آخرون شائعات في الخارج أن نيوفلد قد جاء بغرض مساعدة سلاطين على الهرب . وقد أثارت هذه الأنباء غضب الخليفة أكثر من أي شيء آخر . وهكذا قضي نيوفلد أربع سنوات في السجن وبدا أن إطلاق سراحه لا أمل فيه . لكننا حاولنا بكل

وسيلة ممكنة لتحقيق ذلك . وحصلنا على رضا جميع أكثر الناس نفوذاً في أم درمان بما في ذلك حتى " أم المؤمنين " أرملة المهدي والشريفة ست نفيسة ابنة سيدي الحسن الميرغني الذين طالبوا بجد لإطلاق سراحه . ولكن الخليفة لم يستمع لأي أحد .

عندما أصبح البارود نادراً في أم درمان ، اقترح أحدهم في أحد مجالس الخليفة أنه سيكون من الأفضل كثيراً أن نجعل الكفار يعملون من أجل نصرة الدين بدلاً من بقائهم طيلة اليوم عاطلين في سجن الساير وأنه ينبغي أن يتولى نيوفلد أمر مصفاة الملح الصخري . فقال الخليفة : " افعل ما تراه صائباً ـ أنا مقتنع " . وفي نفس اليوم أرسل نيوفلد إلى الحلفاية للبحث عن الملح الصخري (ملح البارود) فوجد بعضاً منه وبعد شهر نقل إلى الخرطوم حيث يعمل الآن في دار البعثة القديمة مع مساعد مصري يسمي سعيد . وما زال في رجله قيد واحد . ومن كثرة احتكاكه بالرجل أصبح لامعاً كالفضة بينما هناك آثار سوداء للقيد على الكاحلين . وفي الخرطوم سمح له بحرية أكبر مما كان لديه في أم درمان .

في ١٨٩١م جاء تاجر يهودي من مصوّع إلى كسلا حيث كان الأمير أبو قرجة عندئذ قائداً . وكان أبو قرجة يفضل فتح علاقات تجارية بواسطة اليهود والسماح لغير المسلمين بالمجيء وبيع بضائعهم في كسلا أو السماح لهم بالتوغل أكثر إلى داخل البلاد . ولذلك عندما باع التاجر اليهودي بضاعته ذهب حسب نصيحة أبو قرجة إلى أم درمان . وعند تقديمه إلى الخليفة ، استدعى الخليفة يهودياً آخر يسمي بسيوني جعله الخليفة مسئولاً عن اليهود الذين يصلون حديثاً إلى البلاد . ولكن كالعادة فإن صوت إشانة السمعة لم يصمت . فدار الهمس بأن اليهودي الجديد هو جاسوس إيطالي وأنه من الأفضل وضعه تحت المراقبة . كان نادراً ما يغادر الحضور أمام الخليفة عندما استدعوه وأرسلوه إلى سجن الساير " ليتم تعليمه كأنصاري حقيقي " .

إن مصير أوليفر بين ومعاناة نيوفلد وهذا اليهودي هي أدلة كافية تبرهن على عدم جدوى محاولة الدخول شخصياً في علاقات تجارية مع حاكم السودان الحالي . فأي شخص يأتي إلى أم درمان عليه ألا يتوقع أي شيء خلاف القيود وأسوأ نوع من السجن

والإساءات والأعمال المخزية من السودانيين .

ما زال هناك غموض وقع للشيخ خليل الذي أرسل من مصر إلى السودان في بعثة خاصة إلى الخليفة ووصل إلى أم درمان يرافقه شيخ من العبابدة بحيث كان الأمير خالد زقل هناك في ذلك الوقت . والأخير بعد إبلاغه بصورة صحيحة عن طبيعة مهمة الشيخ خليل سمح للرسوليين بالسفر إلى أم درمان بدون حراسة . وأثناء الطريق وجد الشيخ خليل فرصاً للتحدث إلى الناس والكثير من مساوئ الحكومة المصرية . وقد شاهد بعينيه الدمار الذي أحدثه الدراويش والمجاعة في جميع المدن والقرى على طول النيل . ولبعض الأيام قبل وصوله بالفعل إلى أم درمان سمعنا باقترابه ووصوله مما أحدث حراكاً ليس بالقليل في أم درمان . بعض الناس يعتقد أنه جاء بمقترحات للسلام التي إذا رفضها الخليفة سوف تضطر الحكومة المصرية للتقدم مرة أخري إلى داخل السودان . وراجت شائعات من كل نوع . ولكن لم تكن هناك وسيلة ممكنة لمعرفة الحقيقة .

في وقت متأخر من إحدى الأمسيات وصل الشيخ خليل لابساً كأحد المصرين في عباية طويلة سابغة . أخذوه إلى الأمير يعقوب فسلمه رسالته وعندئذ أخذوه إلى الخليفة فتحدث إليه كما قيل بصراحة عما دار بذهنه . وأن الخليفة قد أرسله في نفس المساء مخفوراً إلى كرري حيث وضعوه في كوخ تحت حراسة مشددة ولكن لم يقيدوه بقيود . وأمدوه باللحم والزبد والذرة الشامية والسكر ووضعت أمة تحت تصرفه من قبل الخليفة . الذي أرسله إلى خارج أم درمان عن قصد وذلك لمنعه من التحدث إلى أي شخص وللاحتفاظ بجميع المعلومات المتعلقة بمهمته في غاية السرية [1] وبهذه الطريقة

---

١ - أوكلت إلى خليل بضعة سطور ذات طبيعة غير سياسية تماماً . فقد طلب من الخليفة بأدب إعادة ملابس وأوراق الخ الخاصة بالجنرال غردون التي ترغب أسرته بشدة في الحصول عليها . كذلك حمل معه قوائم بجميع الأسرى الذين استسلموا في توشكي مبيناً كيف تمت معاملتهم في مصر . وأضاف أنه عندما يستعاد السلم والطمأنينة بين البلدين فسوف يسمح لهم بالعودة ولكن في نفس الوقت فإنه تجرى العناية الجيدة بهم .

اعتقد الخليفة أنه سوف يعطيه انطباعاً مختلفاً عن المهدية بينما تم توبيخ حاجي زبير كوسيط بين الخليفة والشيخ خليل .

ويعتقد عموماً أن خليل قد لام الخليفة لمعاملته السيئة واضطهاده للمسلمين وأوضح له كيف أن حكمه قد خرّب السودان . وتوسل إليه بترك شرور المهدية والعودة إلى الدين القويم . وأثناء احتجازه في كرري تم تهديده مراراً بالموت . لم يعلم أحد ما هي مهمته فقد عرف الخليفة كيف يتكتم عليها . وهكذا تدريجيا بدأ الناس في نسيان موضوع خليل . وكانت المفاجأة كبيرة عندما ظهر خليل ورفيقه في يوم من الأيام راكبين على بغلين في الاستعراض الكبير للجيش أثناء احتفالات عيد الأضحى .

أحضر الخليفة المبعوث هنا ليريه كيف أن قوته وسلطته واسعة وقبل أن ينتهي الاستعراض عدا الخليفة بحصانه وجميع الفرسان وأحاطوا بالشيخ خليل وسأله الخليفة إن كان سيقيم تحت ظل قبة المهدي أم يرجع إلى مصر . أما خليل الذي قضى في الاحتجاز حتى الآن إلى ما يصل إلى خمسة أشهر ويعتقد أنه لن يسمح له بالمغادرة وفي نفس الوقت كان مشتاقاً بالسماح له بالعودة ورفع تقرير إلى الحكومة بكل ما رآه ، أجاب بدبلوماسية أنه ما أن رأى النور فليس لديه رغبة في العودة إلى الظلام .

هذه الإجابة أبهجت الخليفة وأمر بإطلاق سراحه . وفي الصلاة بالمسجد في ذلك اليوم جلس الشيخ خليل في وسط صف طويل من الأنصار خلف الخليفة مباشرة .

جرت العادة في كل المناسبات الاحتفالية أن يذهب جميع السجناء الأوربيين والإغريق والسوريون واليهود الخ ويقدموا إلى الخليفة تمنياتهم الطيبة . وعندما وصلوا في هذه المناسبة أمرهم الخليفة بالجلوس حوله ـ ولم يسمح لهم بتقبيل يده بحيث لا يتلوث بنجاستهم . وهو عادة يلقى خطبة يوضح فيها العقوبة التي قد تلحق بهم . ولكن في هذه المرة كان لطيفاً بصورة خاصة وسألهم عن أحوالهم وما إذا كانوا قد لاقوا أي سوء معاملة أو ظلماً على يد أي شخص . كما جعلهم يفهمون أن عليهم أن ينظروا إليه كحام لهم . وأنهم إذا ماتوا فإن أبناءهم سيكونون ورثتهم وأنه إذا لم يكن لدى العائلة أبناء فإن ممتلكات المتوفى سوف تباع ويوزع المال على السجناء الآخرين .

هذه الخطبة الودية كانت مفاجأة لنا جميعاً . لكن الخليفة الداهية أراد فقط أن يبين لخليل كيف أنه يعامل سجناءه معاملة طيبة . ومن المحتمل أيضاً أن خليل قد أبدى له ملاحظة عن كيف أننا نعامل معاملة سيئة في الواقع . ولكن هذا مجرد تخمين من جانبي . إن خطبة الخليفة الودية كانت من مصلحتنا على أية حال لأنه بالطبع أن أي شيء يقوله ينتشر في كل المدينة . وعندما علم الناس أننا استقبلنا استقبالاً جيداً ، أظهروا لنا وداً واحتراماً أكبر بكثير . ومن ناحية أخرى إذا وجه الخليفة في أي وقت إلى أيّ منا كلمة لوم ، فإن رد الفعل لدى الناس يكون فورياً وفي الحال يتم شتمنا وإساءة معاملتنا . ويقال دائماً « إن البيض » - وهو الاسم الذي نعرف به في السودان - « يعيشون تحت ظل السيف » .

عندئذ سأل الخليفة رفيق الشيخ خليل إن كان يرغب في العودة أو الإقامة حيث هو . أجاب الرجل أنه ببساطة رسول وأنه بهذه الصفة « ينبغي أن يعود إلى من أرسله » وفي نفس اليوم منحه الخليفة الإذن للمغادرة .

لكن الآن راجت تقارير مشئومة في الخارج عن خليل . فقد قيل إنه كان صديقاً عظيماً لمصطفى ياور المدير السابق لدنقلا . وأنه قد منعه من الانضمام إلى المهدية من خلال نفوذه عليه أساساً . وقيل أيضاً أنه رئيس الجواسيس الذين أرسلهم الإنجليز وأنه عدو لدود للمهدي . تحت مثل هذه الظروف كان من غير الحكمة ذهاب خليل إلي أم درمان كمبعوث . لقد أعطى خدماته للحكومة المصرية لهذا الغرض وتمسك بها بشجاعة ولكنه كان معروفاً جداً لسكان دنقلا ودار الشايقية . وكان من المؤكد أن الخليفة لن يسمح لمثل هذا الرجل بالرجوع إلى مصر . وحتى في أم درمان فإن الخليفة لن يدعه طليق السراح .

بعد يومين تم جمع القضاة لينظروا في قضية خليل . وجاء شهود زور وأكدوا أنهم رأوا خليل وهو يعبد الشمس وكثيراً ما يتجه جهة الغرب في صلاته . وتم تلفيق جميع أنواع القصص لدفع الخليفة لوضع خليل في القيود .

أدان القضاة المطواعون الشيخ خليل وأحالوه إلى سجن الساير . كان على نيوفلد

أن يتخلى عن كوخه الذي أعطي للشيخ خليل . هذا ولم يسمح لأي سجين بالحديث مع الشيخ . وهكذا ترك الرجل التعيس دون صديق أو رفيق يساعده . وتجنبه الجميع كما لو كان ضحية لمرض كريه . منذ أيام المهدية الأولي كان دائماً مصير أولئك الذين يسقطون من الحظوة أن يهجرهم الجميع . وكان هذا أكثر خاصة مع جميع من يغضب عليهم الخليفة . وهكذا فكل شخص - خوفاً على حياته - يتفادى كل اتصال مع مثل هؤلاء السجناء .

عندما صرف خليل كل نقوده القليلة التي كان يمتلكها باع سيفه وفروة صلاته وملابسه واشتري الخبز - مثل ذلك الخبز أيضاً - حتى السودانيون المتعودون على أكل جميع أنواع الطعام لا يستطيعون أكل خبز السجن إلا عندما يجعلهم الجوع مثل الذئاب الضارية . لكن خليل الذي جاء من مصر وملاهيها المترفة فإن خبز السودان قد أمرضه.

في نهاية الأمر لم يعد لديه مال ليشترى حتى هذا الخبز وعندئذ عانى من آلام الجوع . لمدة شهر قبل موته تحول شعر لحيته إلي بياض شديد وهو نفسه أصبح مثل هيكل عظمي . إن تعاسته وعزلته قد جلبت عليه المرض ومات موتة بائسة . حدث في يوم جمعة أثناء حضور الخليفة لاستعراض الجيش أن سقط الخليفة مصادفة من حصانه في ذلك اليوم ولكن تم الإمساك به قبل أن يصل الأرض . اعتبر الناس ذلك فألاً سيئاً واعتقدوا أن خليل قد أدين بصورة غير عادلة . واعتقدوا أن تلك الحادثة تشير إلى سقوط حكم الخليفة . وهو نفسه قد انزعج كثيراً لتلك الحادثة .

عبابدة حسن خليفة غير الموالين وضعوا أيضاً في سجن الساير . وحسن هذا هو ابن أخ مدير بربر السابق . وقد كان لمدة طويلة أميراً على أبو حمد وأثناء زحف النُّجومي على مصر احتل آبار المُرَّات . وقد قيل إنه عندما كان هناك تصرف بطريقة تستحق التوبيخ وأنه انتزع كميات من المال من التجار . وقيل كذلك إنه عندما زحف صالح بك من كورسكو إلى المُرَّات توصل معه إلى ترتيبات - لأنه لم يكن مهدوياً من قلبه - وتراجع إلى أبو حمد دون محاولة مقاتلة صالح بك .

وصلت جميع أنواع التقارير عنه إلى الخليفة ولكنه رفض تصديقها على أية حالة

هناك أحد العبابدة يسمي كرار وهو أحد جواسيس الخليفة كان قد قبض عليه صالح بك عند آبار المُرَّات لوجود رسائل في حوزته مرسلة إلى الشيوخ في مصر وقد ظل في سجن صالح لبعض الشهور ثم أطلق سراحه وعاد إلى أم درمان ، عندئذ أصبح الخليفة مقتنعاً بعدم ولاء حسن خليفة ، فأرسل أربعة من الملازمين إلى أبو حمد واعتقلوه هو وجماعته وصودرت جميع ممتلكاتهم . ووضع حوالي أربعون رجلاً في القيود وسحبوهم إلى أم درمان وأودعوهم سجن الساير . مات عدد منهم بحمى التيفوس وأرسلت البقية بعد سنتين من السجن إلى فشودة كمنفيين ما عدا حسن خليفة الذي ما زال باقياً في السجن بأم درمان .

يوجد بالقرب من الساير سجن آخر صغير للنساء ولكن لا يوجد به كثير من النساء .

الباب الحادي والعشرون

لوبتن بك والذخيرة

بدأ البارود والذخيرة التابعة للخليفة في التناقص . لوبتن بك يصنع الفلمينات ١ . محاولات غير ناجحة لصنع البارود . يوسف بيرتكاشي ينجح أخيراً . الانفجار في مصنع البارود .

---

١ - مركّب كيماوي متفجر مشتق من الحامض الفلمينى

نتيجة للحروب المستمرة وصرف الذخيرة بإهمال فإن الحاجة إليها بدأت الآن تكون محسوسة لدى الخليفة . وفي النهاية أصبحت أهم مسألة . كانت الحاجة الأساسية لكبسولات خراطيش بنادق الرمنجتون بسبب أنه بالرغم من وجود كميات من الظروف الفارغة فمن النادر وجود أي فلمينات باقية .

كثير من المصريين الجائعين بدأوا في محاولة اختراع مادة تحل محل الفلمينات . فما زالت هناك بضعة من كتب الكيمياء موجودة . ولكن كل المحاولات فشلت في إيجاد نتائج مرضية . وأخيراً قام حسن زكي الذي كان طبيباً سابقاً في الخرطوم باختراع المادة المطلوبة . وعيّن الخليفة لوبتن بك الذي كان يعيش في ذلك الوقت في فقر مدقع كمساعد لحسن زكي .

التجارب الأولي للفلمينات الجديدة أجريت في حضور الأمير يعقوب وكانت ناجحة للغاية . وقد برهن الاختراع على فائدته العظيمة للخليفة . مات سيء الحظ لوبتن بك في الثامن من مايو ١٨٨٨م واستمر حسن زكي في العمل . وخلال وقت قصير نسبياً أعد عدداً كبيراً من الكبسولات . وأمر الخليفة بإنشاء مختبر خاص ووظف عدداً من الصبيان لتعبئة الخراطيش . وأساساً بسبب هذا الاختراع استطاع الخليفة القيام بحملاته الناجحة ضد إثيوبيا .

الآن برزت صعوبة أخرى وهي ندرة البارود . قدم عدد من الأشخاص أنفسهم على أساس أنهم مستعدون لعمل البارود . فهناك هندي يدعى كمال الدين تقدم ضمن آخرين . وقد جاء من الهند للانضمام للمهدي . وانتحل شخصية دكتور وأطلق على

نفسه باقتخار اسم « كبير أطباء الخليفة » . ولهذا الهندي لسان طلق وبسرعة حصل على الاحترام والثروة . وكان يصبغ لحيته بالحناء [1] ولديه قدرات فائقة للإقناع وبذلك حصل من الخليفة على حق الامتياز لصنع البارود . وطالب بأن يبنى له مختبر خاص في الخرطوم وذلك حتى يكون بعيداً من المراقبة . كذلك طلب كمية من المال لشراء الكيماويات المطلوبة .

تم بناء المختبر في ظرف شهر في مخزن الذرة القديم بالخرطوم وشرع في العمل . وأعلن الهندي أنه من الضروري جداً الحصول على مادة الفسفور . لذلك طلب جمع كل عظام وجماجم الناس الذين قتلوا في مذبحة فتح الخرطوم . وقام بطحن هذه العظام في هاونات حتى تصبح مسحوقاً ناعماً . وانزعج الناس كثيراً من هذا العمل واحتجوا على تدنيس بقايا الموتى .

وفي كل مرة وأخرى كان يطلب المزيد من المال من بيت المال وكان يدفع إليه في الحال . والآن بدأ يعمل منفرداً تماماً وبسرية . وضع مسحوق العظام في أوعية فخارية وصب عليه الماء ثم أغلق هذه الأوعية بإحكام . والآن أعلن أنه لإعداد المادة الكيماوية فقط فإن هناك حاجة إلى شهر آخر . لذلك أوقف العمل وعاش حياة الراحة. وعند انتهاء الشهر قام سراً بفتح الأوعية . وليس لدى أحد فكرة عما سيفعله بعجينة العظام . لكنه أكد أن كل شيء حتى الآن ناجح جداً ودعا أمين بيت المال وكذلك عدداً من الأمراء ليحضروا تجربة مسحوق العظام .

جاء الأمراء وجلسوا في حلقة حول فرن كان العبيد ينفخون النار تحته بالكير . وعندئذ أحضر الهندي أحد الأوعية وطلب من الأمراء أخذ بعض من المادة وإلقائها في النار . وعندما فعلوا ذلك انفجرت المادة وأحدثت دوياً عظيماً مما أدهش المشاهدين كثيراً وقام أحدهم بتأدية ركعتين شكراً لله على نجاح الاختراع .

رافق الأمراء كمال الدين إلى أم درمان في فرحة بالنجاح وهناك أيضاً قدم برهاناً في

---

١ - أخذ سجينا من قبل القوات المصرية عند الاستيلاء على طوكر في فبراير ١٨٩١

حضور الخليفة على امتياز مسحوقه . جن جنون الخليفة من الفرح وأهدي إلى المخترع ٢٠٠ ريال ومحظية . رجع الهندي الآن إلى الخرطوم مع وعود كثيرة بأنه سوف يقدم عدة قناطير من البارود الجديد في خلال شهر .

لكن سرعان ما بدأ الناس يتكلمون عنه كفشاش ومحتال . مضي شهر ولم يتم تسليم البارود . أصبح أمين بيت المال قلقاً وأبلغ الأمر إلى الخليفة الذي أرسل في الحال أخاه يعقوب وود عدلان لعمل تحريات في الحال . ذهبا إليه وكان من الواضح جداً أن الهندي كان يخدعهم كل الوقت . أحضروه أمام الخليفة ومن الغريب أن نقول إنه لم يعاقب . علق الخليفة فقط بأنه أجنبي فقير وأنه بالطبع مضطر لفعل أقصي ما يستطيع لكي يعيش . إنه شيء غريب أن تكون لدى الخليفة بصيرة أعمق بكثير مما لدى معظم أهل البلاد فيما يتعلق بطرق الأجانب .

من ناحية ثانية كان هناك مقدوم من قبيلة الجعليين لم ينج من العواقب بسهولة . في أيام الحكومة التركية مارس أعمال احتيال واسعة في الخرطوم وفي سنار بوصفه كيماوياً . والآن تقدم بعرض خدماته لتصنيع معدن الرصاص . في البداية كان مشغولاً بصنع الذهب ولكن الآن بالنسبة للخليفة فإن الرصاص يعتبر ثميناً أكثر حتى من الذهب والحاجة إليه تسبب له خوفاً خطيراً.

تم قبول عرض المقدوم وتلقى هدايا من بيت المال حيث خصص له مكان خاص لينفذ فيه عمله ووضع عدد من العبيد تحت تصرفه وأعطوه كل المال الذي طلبه ليشترى أشياء مختلفة متعلقة بالتصنيع والتي أكد أنها ضرورية للغاية . كما خصص أربعة عبيد للمحافظة على فرن صهر كبير في حالة عمل جيدة بينما يقوم المقدوم وهو يلف رأسه وكتفيه في عباءة كبيرة بضرب الأرض بجنون بسوط طويل لكي يستدعى الجن لمساعدته . وقد أدهشت حيله الغريبة الناس كثيراً وسرعان ما أصبح موضوع الحديث الرئيسي في أم درمان . بعد أربعة عشر يوماً تم سحب كتلة ضخمة من الرصاص من الفرن وهكذا رسخت سمعته الطيبة .

السودانيون يعتقدون كثيراً في كيمياء تحويل المعادن . وكان يعتقد أن تجهيز أحد

المقوّمات يتطلب أعلى سرية . لذلك عمل المقدوم على الطبيعة الخرافية للشعب . وكانت ترى سحابة كثيفة من الدخان ذات رائحة كريهة تصدر باستمرار من مختبره المظلم الغامض . أرسل الرصاص على الفور إلى الخليفة الذي بدا أنه أقتنع تماماً بقدرات الصانع الإعجازية . وقد أحضرت قطعة الرصاص إلى المسجد لعرضها على الملأ . وبالطبع فإن المتملقين الأذلاء قد اخبروا الخليفة أن هذا العمل هو معجزة من معجزات المهدي لا يمكن إنكارها وأنها كانت الوسيلة لإمداد خليفته بالمعدن الثمين بواسطة هذا المقدوم .

أصبح الصانع الآن في حظوة كبيرة . وقد ضغط عليه الخليفة للاستمرار في العمل وأمده بأريحية بالمال والإماء . أحد الأوربيين حثه على التوقف عن هذا العمل وأخبره أنه من المستحيل تماماً تصنيع معدن الرصاص . لكن المقدوم رد عليه ثلاث مرات بأسلوب في غاية الرزانة قائلاً « هل تعتقد أنك تعرف علم الله ؟ » ثم استمر في عمله . واستمر يرسل من وقت إلى آخر قطعاً من الرصاص إلى الخليفة . لكن إمداداته استغرقت بضعة شهور . بدأ الناس الأكثر وعياً في الحديث وجادلوا أنه إذا كان يستطيع صنع قطعة واحدة من الرصاص فإنه يستطيع أيضاً صنع عدة قناطير منه . ازداد صوت المنتقدين قوة وأثار ذلك شكوك الخليفة فاستدعى المقدوم للمثول أمامه سأله الخليفة بأكثر أسلوب ودي إن كان بالفعل يعرف تماماً كيفية صنع معدن الرصاص أو أنه يحاول الخداع فقط فإن كانت الأخيرة واعترف بذلك فيمكن عندئذ الحصول على عفو .

لكن هذا التحذير الودى لم يكن له أثر بتاتاً ، فقد أجاب المقدوم بجرأة أنه يعرف كيفية صنع معدن الرصاص . وعلاوة على ذلك فقد شتم منتقديه وسمّاهم بأعداء المهدية الذين يكرهون الخليفة ولا يتمنون له امتلاك المعدن الثمين . وأضاف أنه إذا أعطي الوقت الكافي فإنه سيبرهن على أن أعداءه كذابون . سمح له الخليفة أن يستمر في عمله لمدة أطول قليلاً . لكن النتائج ما زالت كما هي . واستدعي مرة أخرى أمام الخليفة الذي هدده الآن بقطع يده ورجله ما لم يعترف بأنه كان يمارس الاحتيال . ولكن المقدوم أصر على الإنكار . فأمر الخليفة بضرب ثلاثة قيود حول قدميه وأرسلوه إلى

مختبره تحت حراسة مشددة وسمح له بالعمل لمدة ثلاثة أيام أخرى .

زاد الآن من ألاعيبه جاعلاً الغبار يدور حوله في شكل سحابة وهو يصيح في الأرواح لتساعده . ووضع بضعة أرطال من الرصاص في النار . وهو كل ما بقي من رصاص مجموع بجهد . لكن هذه المرة تركته الأرواح في موقف حرج . ظل يقلب فحم الفرن بقلق ويتصبب عرقاً ولكن لا رصاص يمكن أن يرى . توسل وتضرع لإعطائه مزيداً من الوقت فمنح وقتاً إضافياً . لكن في النهاية أفضى أحد عبيده بالسر . قال إن المقدوم اعتاد أن يشتري من السوق طلقات معدن الرصاص التي استخرجت من حفريات في الخرطوم ويبردها بالمبرد في شكل رقائق رفيعة ويخلطها مع بعض المزيج ويرمي كل ذلك في فرن الصهر . عندئذ يسحب الرصاص المنصهر ويتركه ليبرد . فشل في المرة الأخيرة والآن انكشف تماماً كل احتياله . أمر الخليفة بقطع يده ورجله وقال « ليس كل ذلك بسبب الاحتيال ولكن بسبب الإنكار المستمر » . تم تنفيذ العملية ولكن المقدوم مات بعد ثمانية أيام بسبب مرض الكُزاز (التيتانوس) .

فشل هذا الرجل وكذلك الهندي لتصنيع البارود ومعدن الرصاص لم يردع آخرين من الاستمرار في تجاربهم . ومن بين هؤلاء كان الأخير إغريقي يسمى يوسف بيرتكاشي الذي استمر يعمل بتصميم عنيد . فقد جرّب كل خطة لكسب العيش . لكن أي شيء وضع يده عليه يبدو أنه فشل وسرعان ما أصبح متورطاً في ديون . وفي هذا الوضع اليائس صمم على أن يدرس تصنيع البارود . ولمدة عام كامل استمر في تجاربه وفي حالته يصح المثل « الحاجة أم الاختراع » . فقد نجح في صنع بارود جيد إلى حد ما.

إن تجارب الهندي والمقدوم قد أشارت إلى اتخاذ غاية الحذر . لذلك لم يخبر الإغريقي ود عدلان أمين بيت المال الذي لن يصدقه حسبما اعتقد ولكن بعد موت ود عدلان تقدم باختراعه إلى الأمير يعقوب .

يعقوب رجل حتى قادة المهدية يجدون صعوبة في الوصول إليه . وبيرتكاشي المسكين حاول لشهور قبل أن يحصل على الموافقة لسماعه ولكن في النهاية أصغى إليه والمحاولات والتجارب المتنوعة للبارود الجديد في كل من المدافع وبنادق الرمنجتون برهنت على

أنها مرضية للغاية .

في الحال ارتفعت مكانته لدى الخليفة ويعقوب وأصبح من أصحاب الخطوة وسرعان ما أصبح غنياً نسبياً . وأمر الخليفة بوضع زجاجة من البارود الجديد في الانتيكخانه (المتحف) كتب عليها « بارود اخترعه الأسطى بيرتكاشى » .

في البداية شرع بيرتكاشي في العمل لتحسين البارود التالف الذي يوجد منه كميات من البراميل القديمة التي أخذت من مخازن الحكومة السابقة ولكن لما كانت قد تركت في أماكن رطبة فقد غطتها قشرة جافة . واستمر في عمله لعدة أشهر ونال رضا الخليفة التام ولكن سرعان ما لاقى نهاية مرعبة .

في السادس والعشرين من يناير ١٨٩١م ذهب بيرتكاشي كالعادة إلى مكان السوق في ساعة مبكرة للأنس مع الأوربيين الآخرين . وقد حدث أن قال « اليوم يصادف يوم سقوط الخرطوم - يوم غردون - يوم أسود ! » وبالنسبة للأحياء بعد سقوط الخرطوم فإنهم ينظرون دائماً إلى يوم السادس والعشرين من يناير على أنه يوم حزن وأسى . والعديد من الناس يوزعون الصدقات ترحماً على أرواح أصدقائهم الذين قتلوا .

قصد بيرتكاشي أن يذهب ليرى منزله الجديد الذي انتهى فيه العمل للتو . ولكن لما كان اليوم هو يوم السادس والعشرين من يناير لم يرد أن يذهب إليه وقرر أن يذهب إلى بيت المال بدلاً من ذلك حيث لديه بعض العمل لأدائه . وجد العمال مشغولين بفتح أحد براميل البارود التالف . وبعد تناول فنجان من القهوة ذهب ليساعدهم إذ ظهر أنهم في مشكلة . وبالكاد وصل إلى مكان العمال عندما - بسبب ضربة أو صدمة مفاجئة أو بسبب خراقة العمال - انفجر البارود انفجاراً مروعاً اهتزت له المدينة وأرعب السكان الذين اندفعوا بصورة جامحة في كل الاتجاهات ليروا ما حدث . وتصادف أن كنت في ذلك الوقت جالساً إلى النول الذي أنسج عليه وفي الحال صعدت إلى سقف منزلي . وهناك في اتجاه بيت المال رأيت عموداً من الدخان الكثيف يتصاعد .

أول ما خطر ببالي هو يوسف المسكين . أسرعت إلى بيت المال الذي كان يبعد مسافة نصف ساعة مشياً من منزلي . وجدت حشوداً تسير في نفس الاتجاه . وقد ظهر الخليفة

نفسه في مسرح الحدث جاء راكباً على حمار ومعه واحد أو اثنان من الحاشية . كان سؤاله الأول هو « الأسطى يوسف في ؟ » أي هل الأسطى يوسف موجود ؟ وكان الرد « تعيش أنت » ويعني ذلك أنه مات .

كانت هناك امرأة مصرية فقيرة لها ابن وظفه بيرتكاشي ككاتب له مات في هذا الحادث وكان تبكي وتصرخ بصورة تقطع نياط القلوب وكان قد قتل زوجها وابن آخر لها في فتح الخرطوم والآن وهي مستسلمة للحزن لعنت المهدي الذي من خلاله لقي أعزاؤها نهاية مبكرة . اقترب منها بعض الأنصار وهددوا بضربها بالسياط إذا لم تتوقف . لكنها صاحت فيهم « اقتلوني معهم ! فلماذا أعيش أطول من ذلك ؟ لقد قتلتم أعزائي. ربنا يقتلكم ! »

الخليفة الذي كان يقف قريباً وبّخ أتباعه الذين يعرضون خدماتهم دون أن يطلب منهم قائلاً « دعوها تبكي . إنها محروقة » . لم يبق الخليفة طويلاً في مسرح الحدث بل غادر حزيناً للغاية .

أسرع جميع مواطني بيرتكاشي إلى موقع الحدث . ومن منزله الكبير المربع الذي بني من طوب خشن مجفف بالشمس لم تبق واقفة إلا أربعة جدران . أما السقف الخشبي فطار قطعاً في الهواء . ولم يكن سهلاً جمع البقايا المتناثرة من أولئك الذين أصبحوا ضحايا . زوج من الأرجل وجد على مسافة خمسين ياردة . ورأس وجد نصفها مدفوناً في حائط . وهناك يد لم توجد في أي مكان .

هناك إغريقي آخر قتل مع بيرتكاشي واسمه يوسف أنجيلى اختفت رأسه ويداه وجسمه تناثر بحيث يكاد يكون من الصعب التعرف عليه . كان مقيداً . وقد وجدت مكيّة رجله مثبتة في الرجل . المسكين أنجيلى عاش حياة بائسة في أم درمان . فلم يكن لديه سكن ولا أصدقاء . وقد عاش في السوق كبائع إغريقي متجول . ونحو أواخر ١٨٩٠ أرسله تاجر إغريقي آخر إلي بربر ليحاول استرجاع دين له . هذه المهمة من المفترض أن تتم في سرية لأن الأوربيين ممنوعون منعاً باتاً من مغادرة أم درمان وأن المقدوم المسئول ملزم بالتبليغ على الفور عن أي غائبين .

لكن انجيلى كان رجلاً لا أهمية له ويمكنه أن يذهب بسهولة إلى بربر ويعود دون أن يتنبه إليه أحد . لكن سورياً كان يحمل ضغينة للإغريق ما إن سمع أن أنجيلى قد غادر أم درمان حتى ذهب سراً إلى الخليفة . لكن لما كان الخليفة في ذلك الوقت يسكن في بيته في الهجرة الشمالية قابل يعقوب بدلاً من ذلك فقال له حسب أوامر خليفة المهدي عليه أن يبّلغ أن يوسف أنجيلى قد هرب إلى بربر في مركب شراعي . وفي الحال أبلغ يعقوب الخليفة . وتخيل الخليفة أنني أنا الذي هربت لتطابق اسمي الأول مع اسم الإغريقي . وفي الحال أمر النور الجريفاوي أمين بيت المال لإرسال رجال على الجمال للمطاردة . وفي أخر الأمر تضايق الجريفاوي كثيراً لما علم أي اليوسفين هو المقصود ، لأنه ما كان سيفكر أن الأمر يستحق مطاردة أنجيلى . وعلى أية حال استمر المطاردون ووجدوا أنجيلى في سوق بربر فقاموا بالقبض عليه وأعادوه إلى أم درمان .

بيرتكاشي الذي هو من مواطني أنجيلى توسل لكي يتم العفو عنه وقد حصل على وعد من الأمير يعقوب بألا يمس بأذى . وقد أحضروه أمام الخليفة فذكر أنه فقير جداً وأنه ذهب إلى بربر لاستعادة دين ولإثبات ما ذكره قدم إيصالاً من المدين بالمبلغ وعندما سئل الأشخاص الذين طاردوه إن كانوا قد وجدوا معه أية رسائل أنكروا ذلك . ونتيجة لذلك تم إرساله إلي سجن بيت المال . وهذا عطف خاص جداً لأن النظام هنا ليس صارماً كما هو في سجن الساير والسجناء الذين يحبسون هنا يحصلون عموماً على إطلاق سراحهم بسرعة .

على أنجيلى ألا يشكر أحداً خلاف بيرتكاشي لمعاملته الرقيقة ولم يزل بيرتكاشي يتوسل إلى أن حصل على إذن الخليفة له بالعمل في مصنع البارود براتب شهري ثابت . لكن كان عليه أن يستمر في لبس مكيّة واحدة في رجله . وهذه كان بيرتكاشي يرتب لإزالتها عندما وقعت الكارثة العظيمة ـ وكان قد عمل ثلاثة أيام فقط في المصنع . وبالطبع كان هناك مشوهو السمعة الذين أكدوا أن أنجيلى كان يدخن السجاير وأنه قد أشعل النار عن قصد في البارود انتقاماً لأسره . لكن هذه المرة لم يستمع الخليفة إليهم وقال فقط « إنه أمر الله » وأضاف أنه متأكد من أن أنجيلي لا يمكن أن يكون قد حاول

متعمداً تدمير حياته وحياة مواطنه بيرتكاشي . قوة الانفجار غرزت حديد القيد في رجل يوسف ولم يمكن إخراجه لذلك جمعنا كل ما بقي من أنجيلى وبيرتكاشي ودفناه .

أعداء الخليفة ابتهجوا سراً لسوء حظه فيما يتعلق بالبارود لأنه الآن كما اعتقدوا لا أحد سيقوم بصنعه . لكن أحد عمال بيرتكاشي الذي تعلم الصناعة من معلمه حل محله كرئيس للمصنع . وبعد الكارثة تم تحويل المصنع إلى جزيرة توتي حيث بنيت ساحة كبيرة وحولها الورش الضرورية .

الباب الثاني والعشرون

الزراعة والتجارة في مملكة المهدي

ملاحظات عن الزراعة والتجارة في مملكة المهدي . عاصفة رملية في أم درمان . ندرة الماشية . نظام الضرائب على الواردات . بيوت مال المديريات . المصنوعات المحلية . الرق وأسواق الرقيق . تعذيب العبيد .

أنوي في الباب التالي أن أبدى ملاحظات قليلة عن الزراعة والتجارة والأعمال في مملكة المهدي . يعيش الجزء الأكبر من السودانيين على الزراعة وتربية الماشية . ويستمر العمل في الزراعة معظم السنة . تبذر البذور أثناء موسم الأمطار المدارية . ويسمي الشتاء بكلمة الخريف . وهو يبدأ في أم درمان في شهر يوليو ويستمر حتى نهاية شهر سبتمبر . وخلال هذه الفترة تنزل أمطار غزيرة ثلاث أو أربع مرات وغالباً أثناء الليل . وأحياناً تنزل أمطار غزيرة أثناء النهار وهي في بعض الأوقات غزيرة جداً .

تسبق هذه الأمطار العنيفة درجات حرارة عالية جداً فجميع الأرض ساخنة ، وكل شيء متقد وحتى في الظل لا يجرؤ المرء على لمس المعدن . عندئذ ترتفع في ناحية الشرق سحابة من الغبار وهي إشارة إلى عاصفة قادمة . تتراكم السحب بسرعة مدهشة . والآن حان الوقت للناس أن يذهبوا إلى بيوتهم بأسرع ما يمكن . سحب الغبار وقد أضاءتها شمس الأصيل تبين اتجاه العاصفة بالضبط . بعض السحب سوداء وأخرى رمادية وعلى بعد يمكن أن ترى وهي تتصادم وتشكل سلاسل من الجبال والوديان . حتى الآن نادراً ما تتحرك ورقة شجر وتبدو الطبيعة كلها ساكنة .

عندئذ يبدو أن سحب العاصفة قد لامست الأرض . فجأة يسمع حفيف ورق الشجر . وتختفي صور المنازل البعيدة . والآن حان الوقت لإغلاق جميع نوافذ وأبواب المنزل . وفي بضعة دقائق يتحول النهار إلى ليل . فالريح تعوي حول المنزل والنوافذ والأبواب يسمع لها صرير وارتجاج حتى يبدأ المرء في التفكير أن المنزل في ظرف لحظة أخرى سوف يسقط عليه . تستعمل المصابيح لأن الجو الآن أصبح أكثر سواداً من أظلم ليلة . يدخل

الغبار الناعم في كل مكان ويغطى كل شيء . الحرارة لا تقاوم ويعرق المرء من كل مسام العرق ويشكل الغبار طبقة على الوجه واليدين مما يعطى المرء شعوراً بأنه ملوث للغاية بالسخام وقذر .

لكن لا يمكن عمل شيء إلا الانتظار بصبر إلى أن يعود ضوء النهار عندما ينهض المرء وعيناه وفمه ملئ بالغبار . ولا شيء خلاف حمام كامل يجعله يشعر بأنه أصبح نظيفاً مرة أخري . هذه العواصف الرملية عموماً تتبعها أمطار غزيرة تثبّت الغبار تماماً .

العاصفة الرعدية المدارية مليئة أيضاً بالجلال المهيب . قصف رعدي يصم الآذان ورياح تعوي يتبعها طوفان حقيقي يبدو أنه يحول البلاد إلى بحيرة خلال دقائق معدودات.

هذه العواصف المفاجئة هي مصدر خطر ليس بالقليل على أم درمان خاصة في المكان الذي يقع فيه المسجد والسوق . فهنا لا يوجد مخرج لتصريف المياه التي تفيض وتغمر الساحات والمنازل وتذيب الجدران المبنية من الطين كما يذوب السكر . فخلال السنة الأولى أو السنتين من إنشاء أم درمان وقبل أن يكون للناس كثير من الخبرة فالعديد من الأكواخ قد انهارت أثناء عاصفة ودفنت السكان تحت خرائبها . وإن الظلام الشديد الذي يصاحب دائماً هذه الفيضانات يضيف الكثير إلى الخطر العام . ومع ذلك بعد حوالي يومين تصبح جميع المدينة جافة مرة أخرى . فالشمس الحارة والأرض العطشى سرعان ما تمتص كل الماء . والمرء لا يكاد يعرف أن هناك أمطاراً قد نزلت .

عموماً قبل حوالي شهر من بدء نزول الأمطار وعندما يأذن الخليفة بذلك يغادر الناس المدينة في جماعات ويذهبون إلى الحقول ويبدأون في تنظيفها من الحشائش . بعد سنة المجاعة ١٨٨٩م عمل الخليفة كل ما في وسعه لحث الناس لتوجيه انتباههم للزراعة . فالأمطار الغزيرة والعمل الجاد أنتج محصولاً ممتازاً في ١٨٩٠م وقد زرعت الذرة والدخن والقطن والسمسم والبصل وأنواع مختلفة من الحبوب .

عملية بذر البذور تحتاج إلى وقت قليل أو عناء . تنظف الحقول من جميع أجذال الأشجار والجذور وما شابه ذلك من بقايا الحصاد السابق ثم تحرق وكل شخص يقيم

حواجز ترابية حول حقله لكي يحتفظ بالماء داخل حقله وتتشبع التربة بالماء . وهذا الإجراء ضروري خاصة في أرض الجزيرة حيث لا تسمح التربة الطينية بامتصاص الماء بسرعة بينما الأمر في سهول كردفان الرملية عكس ذلك تماماً .

بمجرد أن تمتص التربة العطشى الأمطار الأولي يبدأ بذر البذور دون تأخير . وتقلب التربة بمعازق حديدية أو خشبية و تلقى البذور داخل الحفر . وتبدأ الحشائش في النمو بغزارة كبيرة . ويحتاج الأمر إلى تعب كثير لمنع الحشائش من خنق المزروعات النامية .

تنضج الذرة في حوالي شهرين والدخن في ثلاثة أشهر . أما النوعية الجيدة مثل ذرة الشّلك فتحتاج إلى ستة أشهر . وتدرس الذرة لاستخراج القشر منها ثم يتم تخزينها في مطامير في الأرض حيث يمكن حفظها دون أن تفسد لمدة تصل إلى عشر سنوات .

البذر والحصاد يستمر طول السنة على طول مجرى النيل . فالماء يسحب من النيل بالسواقي أو النواعير ويوزع على الحقول . بعد الحروب أعيد إصلاح عدد من هذه النواعير التي أعطبت أثناء الحروب . والآن توجد أعداد كبيرة منها تعمل وقد تغطت ضفاف النيل بالخضرة وجميع العمل يتم بالمعازق الحديدية أو الخشبية . ولا يستخدم المحراث إطلاقاً . والمحراث الوحيد الذي رأيته في السودان محراث يستخدمه مصري في الخرطوم وقد أحدث دهشة ليست بالقليلة بين الأهالي . القمح والذرة الشامية أو كما تسمى في السودان « عيش الريف » تنضج في أربعين يوماً .

في كردفان تزرع كميات من الفول المصري وكذلك السمسم وقصب السكر والقطن والبصل والثوم والبامية والفجل والطماطم والخيار والبطيخ . بينما يزرع في حدائق الخرطوم بكميات وافرة التين الهندي والرمان والليمون والبرتقال والنارنج والموز والعنب . وأشجار النخيل منتشرة بكثرة على النيل الأزرق وأبعد من ذلك جنوباً . ولكن ليس من الممكن تجفيف التمر لأن أشجار النخيل تمتلئ بالحشرات بسرعة . والأمطار غالباً ما تفسد محصول التمر .

بجانب الزراعة وتربية الماشية يمكن تسمية السودانيين بأنهم أمة رعوية بأكملها . وخلال الحروب الطويلة ضد الحكومة التركية وأيضاً في الإضطرابات الداخلية تكاد

الجمال والثيران أن تكون قد أبيدت . وفي ١٨٨٩م انتشر طاعون بقرى فقلل المزيد من أعداد البقر .

عندما تم احتلال فشودة ، أخذت كميات من الأبقار من الشلك وأرسلت إما إلى الجزيرة أو إلى سوق بربر لمحاولة تحفيز الإستيلاد . وتوجد أعداد من الماعز والضأن إذ لم تقتل منها إلا أعداد ضئيلة نسبياً . لكن الخسارة الكبرى كانت في الجمال وإنه ليس من السهل تعويض البلاد في هذا الصدد . وما زال يوجد عدد كبير من الحمير التي تستعمل للركوب وللتحميل . والحمار الجيد يجلب من أربعين إلى مائتي ريال .

السودانيون بطبيعتهم تجار ومتسبّبون ويكاد يكون هذا هواية لهم وهم يحبون السفر الذي تتطلبه التجارة . بالطبع فإن التجارة الرائجة في الأيام الخوالي قد تم تدميرها تماماً . وقد كان في السابق استيراد البضائع إلى السودان من الشمال والشرق في يد تاجر واحد . طريقا بربر . سواكن وبربر . كورسكو قد أعاد فتحهما ود عدلان وإعادة احتلال طوكر من قبل المصريين قد فعل الكثير لمساعدة التجارة . النور الجريفاوي الذي خلف ود عدلان فرض ضريبة العشور على جميع البضائع الواردة وذلك بالإضافة إلى الزكاة التي كانت هي الضريبة الوحيدة المفروضة .

هذه الزيادة في الضرائب قد أضعفت التجارة إلى حد ما أكثر من تحسينها . ولكنها ما زالت نشطة نوعاً ما . من ناحية ثانية فإن العشور تجبى مرتين في كل من أم درمان وبربر بحيث يحصل بيت المال على ٢٢،٥ ٪ من قيمة كل البضائع المستوردة . هذه الضريبة الفاحشة أدت إلى تهريب البضائع إلى داخل المدينة ليلاً . وبالرغم من اتخاذ كل الإحتياطات ما زال التهريب مستمراً . وأخيراً تقرر أن يقوم جميع التجار بختم بضائعهم في بيت المال .

هذا الختم يحمل الكلمات « عُشر بيت ما ل العموم » ولا يسمح ببيع أي بضائع ما لم تكن مختومة هكذا . وقد ذهب أمين بيت المال بنفسه أيضاً إلي السوق وختم شخصياً جميع بضائع التجار الخاصة . وبهذه الطريقة توقف التحايل . فالتاجر الذي يبيع بضائع غير مختومة تصادر جميع ممتلكاته .

كل شيء سار على ما يرام لبعض الوقت . لكن سرعان ما اكتشفت أختام مزورة يجرى استعمالها . وأدى هذا إلى فحص آخر لجميع البضائع في السوق ومصادرة كميات كبيرة من الممتلكات . وقد تسببت هذه العملية في توقف الأعمال لحوالي ثمانية أيام .

ثم استيراد كميات كبيرة من الأقمشة القطنية المطبوعة وكذلك العطور والأدوية والقرنفل والأرز والسكر والفواكه المجففة . البضائع المصنوعة محلياً هي بالطبع أسرع في التداول من المستوردة وهي تتألف في معظمها من المؤن الغذائية . فدنقلا ودار الشايقية تمد أم درمان بالتمر . وبربر ترسل الملح والحصائر والقفف المصنوعة من سعف النخيل . ويأتي من كردفان الصمغ والسمسم والدخن . ومن الجزيرة الذرة والدّمور (نسيج محلى من القطن) والقطن . ومن كركوج السمسم وكمية قليلة من الذهب . وأم درمان بهذا هي السوق الكبير للبيع بالإجمالي وبالمفرق وهي بدورها تمد المديريات . فهنا جميع السكان من رجال ونساء وأطفال من عمر ثماني سنوات جميعهم متسبّبون .

النساء العجائز لهن مكان خاص في السوق يبعن فيه الزيت والودك واللؤلؤ والخضراوات والأدوية والذرة والتمر . أما النساء الشابات فغير مسموح لهن بالذهاب إلى السوق . لكنهن يرسلن عبيدهن الذين يكونون مسئولين عن بضائعهن . وعليهم أن يقدموا حساباً كاملاً عند رجوعهم في المساء . والويل للعبد سيء الحظ الذي يخطئ في حساباته . هذا وتزرع كميات من الخضراوات في حدائق الخرطوم وفي توتي والجريف وتجلب إلى أم درمان للبيع . ونساء البقّارة بطبيعتهن متسبّبات جيدات وقد استولين الآن على جميع الزبائن تقريباً .

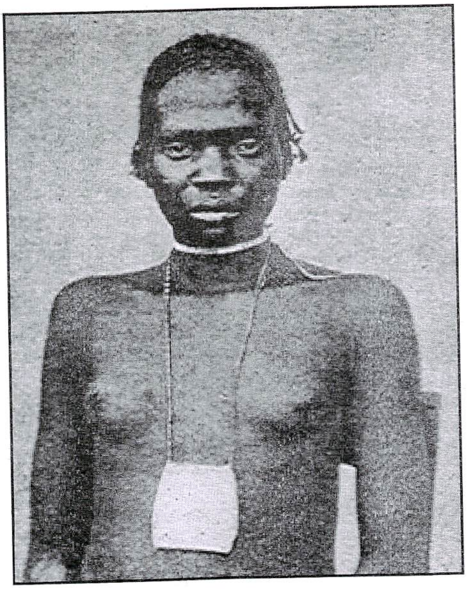
في أيام المهدية الأولي عاش كل إنسان بأبسط طريقة ولبس بطريقة أكثر بساطة . فالطعام الرئيسي هو الذرة التي يتم طحنها وغليها وصنعها في شكل عصيدة وأكلها . وكذلك الخبز الذي يسمى « كسرة » وهو أقراص من الذرة تؤكل بمرق مصنوع عادة من مسحوق البامية المجففة المغلية مع الشطة والملح . وأحياناً تستعمل اللوبيا بدلاً من

[illegible] نادر . لكن مرق اللحم المغلي مع اللبن والمخلوط بمسحوق [illegible] مفضلاً . ويتم الحصول على كميات من السمك من النيل [illegible] التي تحل أحياناً محل اللحم ليست بالأمر غير الشائع . لكن بينما يعيش الأغنياء في رفاهية نسبياً ، فإن الفقراء في غاية العوز والبؤس .

[illegible] التفكير في اللبس الجيد ، وكلما كان الرجل أغنى كلما كانت ملابسه [illegible] به صرف أنظار مشيني السمعة المتطفلين . أما زعماء البقّارة فليس لديهم [illegible] أي شيء . لكن يجب أن يكون واضحاً للجميع أن نوع الحكومة التي تبشر باحتقار مستمر للأشياء الطيبة في هذه الحياة فليس من المحتمل أن ترقّي أياً من رفاهيات الحضارة العليا .

لكن في المسائل التي تتعلق بالحرب والاستعدادات المطلوبة للجهاد فإن الأمر مختلف تماماً . فالحدادون مشغولون دائماً وهم يطرقون الحراب والسكاكين . وفي هذا النوع من العمل فإن النتائج عظيمة . وصانعو السروج يصنعون كل نوع من أنواع الزينة الجلدية لتزيين الخيل والجمال . ودابغو الجلود يعدون الجلد ويصبغونه باللون الأحمر أو الأسود . والخياطون يصنعون الآن جبباً أفضل من ذي قبل والرقع تصنع عموماً من قماش جيد وأصبح ثمن الجبة الممتازة حوالي ستة عشر ريالاً . فالنساء يغزلن القطن والرجال ينسجون منه الدّمور . وأفضل الدمور يأتي من بربر والمتمة . ونساء دارفور مشهورات أيضاً لغزلهن الجيد الأملس . ولكن الدمّور الإثيوبي يعتبر عموماً أفضل من أية صناعة دمّور سودانية .

السمكرية يصنعون أكواب الشراب من الصفيح وغيرها من المواعين المختلفة للاستعمال المنزلي . وأما قدور الطبخ فتصنع من النحاس والصاغة يقومون بأعمال نقش الذهب والفضة للسيدات . لكن هذا العمل لم يكن قريباً من الجودة التي كانت أيام الحكومة التركية وجميع هذه الحرف المختلفة كانت تمارس في السوق .



أمة من المديرية الاستوائية

أعادت المهدية ترسيخ تجارة الرقيق . وهي الآن في كامل عنفوانها . ويكاد يكون جميع العبيد الذين تم تحريرهم في أيام الحكومة التركية تم بيعهم مرة أخرى كرقيق . فأينما كان هناك بيت مال كان هناك أيضا سوق للرقيق وأكبرها بالطبع في أم درمان الذي يرسل إليه جميع العبيد الذين يتم القبض عليهم . وبيت المال يبيع العبيد بالمزاد العلني . والذكور من العبيد ذوي النمو التام يلحقون عموماً بالجيش . قريباً من بيت المال يوجد سوق الرقيق من النساء حيث يوجد عموماً ما بين خمسين إلي ستين إمرأة من مختلف الأعمار . وتجار الرقيق معظمهم مصريون . يرتب العبيد في صفوف في العراء وتمسح أجسادهم عموماً بكثير من الزيت للحفاظ على لمعة بشرتهم . والقصد أن يقوم المشترون بفحصهم بعناية دقيقة ويتراوح السعر ما بين عشرين إلى مائة ريال . الشابات يحفظن بعيداً عن الباقيات إذ يتم اختيارهن عموماً كمحظيات . وبهذه الصفة فإنهن يتعرضن لفحص دقيق جداً . شكل أيديهن وأرجلهن وشكل الفم والأنف والأذنين والأسنان جميعاً تتم ملاحظتها بعناية . السود يفضلون على ذوي اللون النحاسي واللون

الأخير يقتضى تخفيضاً كبيراً في السعر .

الشبان يباعون بسعر يتراوح بين ثلاثين وستين ريالاً للواحد . وهؤلاء عليهم أن يتعلموا عموماً حرفة . ويسأل المشترون كل أنواع الأسئلة الدقيقة مثل ما إذا كانت لهم صفات أخلاقية حميدة أو هل من المحتمل هروبهم الخ . وعلى البائع أن يقدم شهادة عن قبيلة العبد وتقريراً وصفياً كاملاً والسلطة القانونية التي تعطي الحق في الملكية .

أثناء أيام المهدية الأولي تلقت تجارة الرقيق دفعة هائلة خاصة بعد الاستيلاء على بحر الغزال واحتلال دارفور فبعد انتصار جسي باشا على ابن الزبير باشا وتشتيت تجار الرقيق ، هرب عدد منهم إلي داخل البلاد حيث كانت المطاردة مستحيلة . ثم أعقب عهد الحرية تحت راية المهدي ، خرج تجار الرقيق من مخابئهم ومع أعداد كبيرة من العبيد واصلوا السير إلي أم درمان .

عند ما كنت في الأبيّض كثيراً ما رأيت ما يصل إلي ٥٠٠ منهم يسيرون على وقع الموسيقي . كان العبيد يسحبون من دارفور مربوطين مع بعضهم بسيور من الجلد حول أعناقهم في دفعات تتكون الواحدة من ثلاثين عبداً . وقد أحضر أبو عنجة آلافاً من جبال النوبا . المناطق التي لم تمس حتى الآن كانت تلك المجاورة للنيل الأبيض . لكن حديثاً جداً اشتركت بنشاط حاميات فشودة والرجّاف واللادو في هذه التجارة البشرية . لكن هؤلاء السود الذين استعادوا قوتهم تدريجياً أثناء فترات السلام صمموا الآن على مقاومة سلطة الدراويش التي لم تكن قوية جداً في هذه المناطق البعيدة . إذا طرد الدراويش من اللادو والرجّاف لكان ذلك أمراً عظيماً . الحملات ضد إثيوبيا قد جلبت أيضاً كميات من العبيد إلي أم درمان : لكن هؤلاء أقل احتمالاً للعمل الشاق . وهم يستخدمون في أغلب الأحيان في طحن الذرة وجلب الماء وكمحظيات .

حملات صيد العبيد لم تنفذ بنفس الطريقة التي كانت سارية . فالخليفة ذكي جداً من أن يرسل حملات إغارة ضخمة على العبيد في المديريات البعيدة إذ يخشى أنه من المحتمل أن يصبحوا مستقلين وينقلبوا عليه . بالإضافة إلي أن الأفراد لم يعد مسموحاً لهم بحيازة الأسلحة النارية .

السود الذين يقبض عليهم في حروب الخليفة المختلفة يباعون كرقيق . وبينما القبائل المسلمة الحرة قد أضعفت كثيراً ونقصت أعدادها بالحروب والمجاعة فإن السود من ناحية أخرى قد زادوا في أعدادهم وقوتهم . وهناك دليل وافر على هذا في الصعوبات الكبيرة التي تواجهها الآن قوة الدراويش في فشودة فقد أصبحت قوتهم كافية بالكاد لإخراج بواخرهم ومراكبهم الشراعية . وسكان جبال النوبا أصبحوا مرة أخرى شبه مستقلين . ولا يجرؤ الدراويش الآن أن يذهبوا إلي سفوح جبال النوبا . كما أن سحب قبائل البقّارة المختلفة من جوار منطقة شكا وما شابه إلي أم درمان قد خلّص السود المحليين من وجودهم المكروه في بلادهم .

الجعليون والدناقلة الذين كانوا مشهورين في يوم من الأيام كصيادي رقيق بدأوا الآن يجربون إلي حد ما كيف هي حياة العبد وحقيقة يبدو كأنما الخليفة عبد الله كان أداة لانتقام السماء ضد صائدي الرقيق هؤلاء القساة المتعطشين إلي الدماء .

إن قدر العبد حقيقة قدر بائس . فهو ينظر إليه كحيوان خلق ، كما يقول السودانيون ، لجعل حياة المسلمين سهلة . يجب عليه أن يقوم بكل الأعمال الشاقة في كل من المنزل والحقل . إنها فكرة السودانيين وهي أنه إذا كان العبد يحصل على طعام كاف فإنه يصبح دائماً متكبراً وصعب المراس . يتألف لبسه من مجرد خرقة يربطها حول صلبه . وأي مال يحصل عليه من عمله هو ملك لسيده .

الإماء يجلبن الماء ويطحن الذرة وفي المقابل فإنهن يتلقين باستمرار اللوم واللعنات . وأي عصيان أو عدم أمانة يعاقب عليها بالجلد أو تجرح أجسادهن بالأمواس وتدلك الجروح بالملح . ولئلا يكون لديهن سبب للنسيان تفتح جروحهن التي كادت أن تندمل وتدلك بالملح مرة أخرى .

وفي معاملة العبيد فإن النساء هن أكثر قسوة من الرجال وخاصة إذا كانت الغيرة هي سبب غضبهن . فالويل للأمة التعيسة التي تظهر أي حب لسيدها ! إنها تعاني نوعاً من التعذيب مما لا يمكنني أن أصفه هنا . فما العجب إذن إذا كن وهن في حالة اليأس غالباً ما يهربن من أسيادهن وسيداتهن ؟

ومع ذلك فإنه فقط بهذه المعاملة القاسية يمكن جعل الأرقاء مطيعين . إنها مقالة صحيحة جداً أن الشخص الذي يحرم من الحرية بالقوة لا يمكن إخضاعه إلا بالقوة . فالعبيد تحت نظام المهدية لهم طرق عديدة مختلفة للانتقام لأنفسهم من أسيادهم بحيث أنه لا يخفقون في انتهاز الفرصة عند ما تعرض لهم .

إن الانحلال الخلقي بين العبيد هو مما لا يمكن وصفه ولكنه لا يمكن أن يكون ذلك خطأهم لأنه في بلادهم الهمجية لا يعتبر كذلك . إنهم يتعلمون كل رذائل أسيادهم . وحقيقة أنهم مجبرون للمشاركة فيها أو الاستسلام للجلد . وتبعاً لذلك فإن أمراضاً من أكثر الأنواع المنفِّرة منتشرة في كل مكان . ويعتقد أن الخلو منها علامة على أن الشخص من الرقيق . وفي الحالات الكثيرة التي وصلت إلي علمي أن أطفال أمثال هؤلاء الناس يموتون صغاراً متعفنين بسبب المرض . فمن خمسة عشر طفلاً لأحد الآباء مات ثلاثة عشر في خمس سنوات . في البداية لم يصب المرض البقّارة إلي درجة كبيرة ولكن الاتصال بسكان وادي النيل قد نقل إليهم الوباء الذي يأكل الآن في بنية أجسام هذه القبيلة القوية المولعة بالحرب في السودان[1] .

تصدير الرقيق إلي مصر والبحر الأحمر ممنوع لأن الخليفة يخشى من إمكانية اعتراض الإنجليز لتلك الشحنات وتجنيد الرقيق كعساكر . ولكن عدداً من الإماء ما زال يتم تهريبه . لكن بإعادة احتلال طوكر وطريق البحر الأحمر الذي كان يستعمل بصورة واسعة فقد أغلق ذلك الطريق في وجه الدراويش . ومن المسموح به إعطاء الرجال والنساء من الرقيق أوراقاً تثبت الحرية ولكن ذلك لم تتم ممارسته . وإذا حملت الأمة بطفل من سيدها فلا يمكن بيعها وبعد موت سيدها تصبح حرة . لكن إذا حملت بطفل من شخص محرر ليس أسود يبقى وضعها كما هو وينشأ الطفل عبداً لأنه يعتبر غير شرعي .

١- يظل المرض كامناً في الصيف ولكنه يكتسب حدة مع الطقس البارد . والأدوية التي تستخدم هي يوديد البوتاسيوم وسارسا بريلا .

إن الهرمان مكتظة بالرقيق وحتى في أفقر البيوت توجد على الأقل أمة واحدة . وإن الأعمال الشاقة والمعاملة السيئة تجعلهم يهربون بسرعة ، وكثيرون منهم يتوقون إلى مناطقهم الأصلية ويكرهون العبودية ولكن الأغلبية منهم تستسلم دون تذمر لمصيرهم التعيس :

الباب الثالث والعشرون

البقّارة سادة السودان

العلاقات بين الخليفة عبد الله والخلفاء المنافسين – المهدية ماتت عملياً – « عثمان » ابن الخليفة – زواجه من ابنة يعقوب – نواياه فيما يتعلق بالخلافة – البقّارة وأولاد البلد – البقّارة سادة السودان – أمثلة من طغيانهم – هجرة قبيلة الرزيقات – العداوة بين عوائل الخليفة وعوائل المهدي – مؤامرة الأشراف – السحر – النزاع بين الخلفاء – أعمال الشعب في أم درمان – أرامل المهدي .

أنوي أن أخصص هذا الباب لتحديد موجز للعلاقات القائمة بين السلطات الحاكمة في أم درمان ووصف للوضع الحاضر في السودان . إن الإطاحة بالنّجومي في توشكي وتدمير جيش أبو عنجة الضخم أثناء حملاته المستمرة في إثيوبيا وسنة المجاعة في ١٨٨٩م وأخيراً الاستيلاء على طوكر والهزيمة التامة لعثمان دقنة في فبراير ١٨٩١م فجميع ذلك أدى إلي تقليص سلطة الخليفة عبد الله .

بينما يجري تنفيذ العمليات الحربية ضد إثيوبيا ومصر فإن المديريات في داخل السودان تتعافى ببطء من التوتر الشديد الذي مرت به . مديريات دنقلا وكسلا ودارفور هي التي عانت أكثر . فأعمال السلب والنهب التي قام بها دراويش النُّجومي الهمج قد أقفرت كلياً مديرية دنقلا التي كانت خصبة فيما مضى . فهل من عجب أن سكانها التعساء يلقون بنظرات توَّاقة نحو مصر الثرية المزدهرة ؟

لكن الخليفة الماكر قادر جداً على التعامل بنجاح مع تغيُّر المشاعر من جانب السكان الذين سئموا الآن تماماً من المهدية والذين يرغبون دون شك في أن يمتد إليهم مرة أخرى الحكم القائم في مصر . لذلك قرر تغيير سياسة القهر وإقامة حكم أخف وطأة ولديه لهذا الغرض رؤيا ملائمة أكد فيها أنه قد أمر بتعيين خالد زقل أميراً على مديرية دنقلا .

هذا الرجل ، كما نتذكر ، كان من مواطني دنقلا وهو عم المهدي وكان موظفاً مسئولاً في دارفور أثناء الحكم التركي . كما أن لديه آراء متحررة ومستنيرة أكثر من معظم قادة الدراويش . رأي الخليفة ، ورأيه صائب ، أن زقل وحده الذي يستطيع أن يعيد حالة

الرضا إلي دنقلا . وإلي هناك تقدم زقل مصحوباً بعائلة كبيرة وتحت حكمه العادل المعتدل تعافت المديرية بسرعة .

إن لدى السودان ككل قدرة عظيمة على التعافي . وبالرغم من حكم الخليفة الأحمق فإنه سرعان ما يتعافى إذا وضع تحت حكام جيدين تابعين . كان الخراب في دارفور أكثر انتشاراً ولم يكن هناك ما يكفي من المحاصيل حتى لإشباع احتياجات الحامية اللازمة لاحتلالها . ولذلك تخلى عنها . لكن الخليفة ما زال متلهفاً للغاية لإعادة احتلالها عند ما يستطيع ذلك .

شغل الخليفة نفسه أثناء فترة الراحة وتوقف الحرب بتدعيم سلطته . ومن الوسائل المختلفة التي استخدمها فمن الواضح جداً أن نواياه هي إقامة إمبراطورية لنفسه وعائلته وقبيلته البقّارة وقد شرع في هذه المهمة بتدبر وحذر .

من الطبيعي أن الصراع للسيطرة بين السلطة الروحية ممثلة بالجانب الديني للمهدية والسلطة الزمنية للخليفة لا بد أن تتصادما باستمرار وتقود إلي حالة عدم الأمن وعدم الموثوقية في جميع أنحاء السودان . ما يرغبه السكان هو أنه ينبغي على الخليفة أن يقول لهم الحقيقة بوضوح . دعه يلقي المهدية الموجودة بالاسم فقط . ودعه يعلن نفسه سلطاناً على السودان . وهو لديه القوة والسلطة الكافية ليفعل ذلك . لكنه يخشى أن يعطي ذلك أعداءه يداً أخرى قد توجّه ضده . وهو لذلك يتقدم ببطء في المشروع الذي وجّه إليه ذهنه .

من الطريقة التي تربى بها ابنه الأكبر عثمان فالواضح أن الخليفة يسعى لإقامة خلافة وراثية . كان هذا الابن حتى وقت قريب ذا مزاج متغطرس للغاية . فكلما رأي أي شيء يريده يصر على أن يأخذه . فإذا رأى أحداً يركب حماراً جيداً فإنه يأمر الراكب أن ينزل ثم يقوم بقطع حنجرة الحيوان المسكين . لكن بالرغم من هذه الأفعال السخيفة والتي تتسم بالقسوة فإن الناس يسعون إلي كسب رضاه وقد تلقى هدايا كثيرة من الناس الذين يأملون في وسائل محاباة لإحضار مطالبهم أمام الخليفة . لكن الخليفة في النهاية تضّجر من سلوك ابنه . ووبّخه علناً في المسجد . ومنع أي شخص

تحت التهديد بالعقوبة الشديدة إعطاء ابنه هدية من أي نوع . وسلمه إلي معلم خاص مع عدد قليل من التعايشة الملازمين .

هذا النظام الصارم قد فعل بالصبي خيراً . وهو الآن في حوالي الثامنة عشر من العمر ويقال إن يعقوب أخ الخليفة غائر جداً من ابن أخيه لأنه ينظر إلي نفسه بأنه خليفة أبيه ولكن لمداهنة يعقوب والحد من غيرته أعرب الخليفة عن رغبة في أن يخطب بنت يعقوب لابنه عثمان . هذا المقترح كان مقبولاً للغاية ليعقوب . وإضافة إلي ذلك فقد رتب الخليفة لتزويج ابنته إلي ابن المهدي .

كانت التجهيزات عظيمة لهذه الزيجات الأميرية . وقد نفذت بفخامة متعارضة تماماً مع قوانين المهدي . وقد صاحب حفل الخطوبة رقص ولهو صاخب في كل من بيت المهدي وبيت الخليفة وعبق الهواء بالعطور . وكل التجار والأمراء الرئيسيين قدموا هدايا غالية في شكل ملابس للعرائس وأنواع من العطور الغالية وكذلك الحلي الذهبية والفضية والحرير المخمل . واخترع الصاغة نوعاً جديداً من الحلي سميت « ركاب الخليفة « . هذه الحلي بالرغم من أنها مناقضة تماماً لقوانين المهدي فإنها تلبس بصورة واسعة في كل من البيتين . قناطير من السكر قد أحضرت إلي بيت يعقوب وذلك بجانب الذرة والقمح والزبد والثيران والخراف السمينة والتي تقدر قيمة الواحد منها ما بين عشرين وثلاثين ريالاً .

من العادة أن يقدم العريس أو والده هدايا من المؤن إلي العروس وكذلك ملابس وحلي . وتسلم إليها جميع هذه الأشياء بمراسم عظيمة في يوم محدد . ثم هناك احتفال « الطفيل « الذي تدعى إليه النساء فقط ثم يعقب ذلك « يوم الحناء « عندما تصبغ يدا العروس ورجلاها بالحناء بلون أحمر . وجميع هذه المراسم تصحبها مآدب ورقص وغناء . ففي كل مساء يستضيف يعقوب مئات من الأنصار بطعام غني ويوزع عدة أرادب من التمر .

وفي مناسبة « الدخلة « تؤخذ العروس إلي منزل العريس في وقت متأخر من المساء . ولمدة أسبوع فيما بعد يتلقيان التهاني من أصدقائهما وعندئذ تنتهي المراسم والاحتفالات.

من الأبهة والمراسم التي أحاط بها الخليفة زواج ابنه ، كان من الواضح للجميع الذين فكروا في الأمر أن للخليفة مقاصد خفية . بعد الزواج بنى منزلاً أميرياً لابنه في المكان المعروف باسم ساحة أبو عنجة بالقرب من المسجد . وقد شوَّه المسجد تماماً ببناء منازل حوله من كل الجهات . وهي منازل تعتبر الأفضل في المدينة . وعندما تم بناء قصر « ولي العهد » الذي كان إلي ذلك الوقت يسكن مع والده رحل إليه بمراسم عظيمة . ووزع الخليفة صدقات بصورة سخية للغاية حتى يكون القصر مباركا .

سيد عثمان يشارك الآن في إدارة الشئون ويفتح ويقرأ الرسائل للكتبة . ويركب في كل صباح تقريباً في جولة مع الحاكم للتفتيش ولكنه لا يعيش كثيراً وسط الناس . وقد غيَّر الخليفة اسمه إلي شيخ الدين سيد عثمان . والآن يعرف عموماً باسم شيخ الدين فقط . إنه يفهم تماماً الدور الذي ينبغي أن يلعبه . إنه محب للطعام الجيد ويبتهج للأصناف الخاصة الممتازة التي يحضرها التجار من سواكن ومصر مثل قمر الدين والتين والزبيب وكل الأنواع من الكيك والبسكويت والتي تجلب بكميات كبيرة إلي بيت يعقوب . الخليفة يعامله باحترام ملحوظ . وأحياناً يسلمه قيادة استعراض الجيش . والعساكر يحيونه دائماً بالسلاح .

مما ذكر أعلاه من الواضح جداً أن الخليفة يرغب في تأمين الخلافة لابنه . وهذا ما فهمه الناس تماماً وهم لا يخفونه . وخطة الخليفة هي أن يسير ببطء ولكن بثبات . إنه يريد تأمين هيمنة البقّارة على الجعليين والدناقلة والبرابرة وقبائل السودان الأخرى الصغيرة .

حتى وقت ظهور المهدي ، ربما كان البقّارة الأكثر احتقاراً من بين جميع القبائل العربية . « أولاد البلد » حسبما يسمى الجعليون والدناقلة والبرابرة أصبحوا أكثر تحضراً بفضل موقعهم الجغرافي وهم أكثر براعة بطبيعتهم من البقّارة وهم يحتقرون البقّارة وتحت قيادة الزبير باشا هزموا القبائل الكبيرة في جوار بلدة شكا وهؤلاء هم نفس البقّارة الذين أصبحوا الآن سادة على « أولاد البلد » .

جميع انتصارات المهدي المبكرة قام بها أولاد البلد الذين يحتقرون البقّارة بنفس

الدرجة التي يحتقرون بها الفلاحين المصريين . فأولاد البلد ماكرون وفاسدون ولا يوثق بهم بتاتاً ومنذ البداية مارسوا القسوة أكثر من الآخرين . وحتى الآن فما زالوا هم جواسيس ومستشارو الخليفة . وحقيقة أنه تربى كلياً في مدرستهم ولكنه الآن قلب الطاولة تماماً عليهم . فالخلاف بين القبائل وعدم الثقة المتبادل الذي يسود بين أولاد البلد يفضي فقط إلى تعزيز الغايات التي لدى الخليفة . وفي أي مكان كانت البراعة وحدة الذهن مطلوبة فإنه يرسلهم إلى هناك ضامناً تماماً أنهم طالما كانوا مشغولين بمعرفة أعمال أهلهم السيئة فسيكون هو بخير ومخدوماً منهم بإخلاص .

عندما يرسل البقّارة لتفتيش بيت يفترض أنه يجرى فيه شرب المريسة أو التدخين فمن المؤكد غالباً ألا يجدوا شيئاً ولكن بالنسبة لأولاد البلد فإن الأمر عكس ذلك تماماً . فهم ينخسون الجدران وينقرون الأرض بأرجلهم ليسمعوا إن كان هناك صوت تجويف تحت السطح . إنهم يفتشون كل ركن تفتيشاً شاملاً ونادراً ما يغادرون المكان بدون نتيجة إيجابية . لكن الآن صارت للبقّارة اليد العليا وعلى أولاد البلد الانحناء أمامهم . وبالرغم من ذلك فإنهم يحاولون خداع سادتهم الجدد . وفي جميع المسائل التي يكون المكر مطلوباً فيها يكونون متفوقين عليهم بكثير .

من الصواب فقط أن البقّارة الذين تربوا في الغابات والسهول والذين هم أفراد أشد سذاجة وأمانة ينبغي أن يحكموا أولاد البلد الفاسدين . وإن هجرتهم إلى أم درمان وخضوعهم لحكم الخليفة كان له الفضل في ترويضهم وتقدمهم في المدنية مدهش للغاية . وبما أنهم أصبحوا الآن يملكون السلطة والمال فقد بدأوا يبنون بيوتاً أفضل ويلبسون ملابس أنظف وأن يغسلوا جببهم أحياناً التي كانت ملطخة بالزيت والشحم وتفوح منها روائح كريهة . وقد فعل الخليفة الكثير لتحسين سلوكهم وعاداتهم في هذا الصدد وتحسنت كثيراً لهجتهم . لهجة غرب السودان العربية . والآن يمكن لأطراف المعارضة الاثنين أن يفهما بعضهما جيداً . ولم يعد أولاد البلد يجعلون من إخوانهم أولاد الغرب أضحوكة .

سياسة الخليفة هي أن يضعف من سلطة أولاد البلد ويقوي البقّارة . وتماماً كما يفعل

الأب الجيد بالسهر على أطفاله . كذلك يفعل الخليفة بانتظار أية فرصة لتعزيز هذه الأهداف بالجمع بذكاء بين اللين والشدة وكثيراً ما يلوم أبناء قبيلته لافتقارهم تقديم الشكر لمن أحسن إليهم وأغدق عليهم الأفضال على حساب أولاد البلد . وفي إحدى المناسبات لعن اليوم الذي جلبهم إلى أم درمان وسمّاه " اليوم الأسود " . لكن في الواقع لم يكن الخليفة جاداً حقيقة عندما يوبخهم . فهو يفعل ذلك على الأصح ليرضى المتذمرين من محاباته لأهله . وهو ينتهز كل فرصة لإبعاد أولاد البلد بقدر الإمكان من مقر رئاسة الدولة حتى يقوي السلطة المركزية بوجود البقّارة فقط .

لقد سردت من قبل كيف أنه في سنة المجاعة جعل البقّارة يدفعون ستة ريالات ثمناً لأردب الذرة من بيت المال بينما يدفع أي شخص آخر ستين ريالاً . وهكذا لم يعان البقّارة أية شدة خلال تلك الفترة العصيبة . إنهم لا يحبون الذرة مثل حبهم للدخن الذي هو أفضل تغذية . وهم يسحقونه بالدق في هاونات خشبية . وخلال تلك الفترة من العوز المرعب ، عندما كان المئات من الأهالي يموتون من الجوع في الشوارع ، كان هؤلاء البقّاره الضخام الأقوياء يأكلون كفايتهم بغض النظر تماماً عن جميع المخلوقات التي تعاني حولهم .

إيرادات بيت المال تنفق كلها تقريباً على البقّارة . وجميع الجزر الخصبة القريبة وأفضل الأجزاء المزروعة من ضفاف النيل حتى بربر تم تحويلها إلى البقّارة بينما الملاك الأصليون للأرض طردوا دون تعويضهم قرشاً واحداً . فهم لذلك أصحاب أفضل الأراضي جميعاً ويتصرفون كحامية أجنبية تحتل بلداً بعد غزوه . وويل للشخص الذي يصادف أن يكون جاره بقّارياً ! ماشيته تنهب وعليه أن يقتسم محصول حقوله مع سيده المتسلط . وأينما ذهب البقّارة فإنهم يأخذون خيلهم معهم ويجب إطعامها والعناية بها على حساب السكان المحليين . والشكاوى ضد البقّارة لا تجد أدنى اهتمام أو كما يحدث دائماً فإن الشاكي يتلقى عقاباً شديداً لأنه تجرأ وأدلى بأقوال والتي تفسر دائماً على أنها غير حقيقية وغير صحيحة . وهكذا لدى رجال القبائل الوقحون هؤلاء كل إغراء ليصبحوا وحشيين أكثر فأكثر كلما بعدوا من أشراف الخليفة وسوف أورد مثالاً فيما يلي :

رجل غنى من أهالي الجزيرة كان له نزاع مع بقّاري . وقد ضرب مضطهده ضربة بعصا دفاعاً عن النفس . وقد شاء القدر أن يموت البقّاري بعد ثمانية وعشرين يوماً . ولكن موته كان بسبب الضربة . وعلى أية حال انتهز البقّارة الآخرون الفرصة وطالبوا بالدّية وهددوا أنه إذا رفض طلبهم فسوف يبلغون الأمر إلى الخليفة . لقد تم إرهاب ذلك الرجل الغني فدفع للبقّارة ١٠٠٠٠ ريال وأعلن أن الأمر قد انتهى . ولكن بطريقة ما وصل الأمر إلى مسامع الأمير يعقوب . ولما علم أن القاتل المفترض رجل غنى ، نصح أصدقاء البقّاري المتوفى ألا يقبلوا الديّة بل أن يصروا على إعدامه . تمت الموافقة على ذلك وتم اعتقال الرجل المسكين وسحبوه إلى أم درمان وشنقوه بينما صودرت ممتلكاته التي تتألف من عدد من الأغنام و ٣٠٠٠٠ ريال .

لم يقتنع الخليفة بذلك وأمر بإحراق سبع قرى مجاورة بدعوى أن السكان كان لهم هدف مشترك مع الجاني في مقاومة السلطة الشرعية . وفقط عندما قام سكان هذه القرى جماعياً بالذهاب إلى الخليفة وتوسلوا إليه بالعفو عنهم وفي النهاية وافق على طلبهم .

عندما وجدوا أن إيرادات بيت المال غير كافية لإعالة البقّارة الذين تزداد أعدادهم بسرعة ، أمر الخليفة بأخذ نصف محصول أراضي الجزيرة لبيت المال ويحتفظ أصحاب المحصول بالنصف الآخر . وقد نشر هذا كمرسوم مستوف للشروط القانونية وأمر جميع القضاة بالتأكد من تنفيذه بصورة سليمة . وقد أرسل إبراهيم نور ابن النور الجريفاوي أمين بيت المال مع مجموعة من العساكر والبقّارة للمساعدة في تنفيذ الأمر في الجزيرة . وقد اكتسب إبراهيم سمعة سيئة لا يحسد عليها بسبب القسوة الشديدة التي فرض بها سلطته .

وحسب تعليمات الخليفة يؤخذ من كل مائة أردب نصفها ويجبى من الباقي العشور والزكاة بحيث يحتفظ المزارع المسكين في النهاية فقط بنسبة ٣٧،٥ ٪ من الكمية الأصلية . وعلاوة على ذلك فقد جعلوه مسئولاً عن ترحيل الكمية التي تأخذها الحكومة وهي ٦٢،٥ ٪ إلى النهر . وكثيراً ما تكون الحقول بعيدة من النهر مما يتطلب تأجير جمال

لحمل المحصول بحيث أنه في النهاية ربما لا يترك للمزارع أي شيء . وبهذه الطريقة جمع إبراهيم ما يصل إلى ٦٠٠٠٠ أردب من النيلين الأزرق والأبيض .

كسب إبراهيم لقب " غردون الجزيرة " وذلك من الطريقة غير العادية في السرعة التي تحرك بها من قرية إلى أخرى وأعطى تعليماته .

وهنا دليل آخر على ظلم الخليفة عندما يعالج أموراً تتعلق بأهله البقّارة . حوالي رحلة يومين من أم درمان في اتجاه الجنوب على النيل الأبيض توجد مناطق معينة فيها زراعة مكثفة . وقد خطر للخليفة أن يرسل إلى هناك التعايشة الذين لم يكن لهم عمل آنذاك حتى يقوموا بالزراعة وفي نفس الوقت يظلون قريبين منه . لذلك أرسل شخصاً يسمى شيخ ود البدري ليختار أفضل المناطق التي سوف يستقر فيها التعايشة .

عندما علم السكان في تلك المناطق ما يراد بهم توسلوا وتضرعوا إلى ود البدري ليصرف عنهم هذه الكارثة المرعبة التي تهددهم مؤكدين له أنه إذا ساعدهم فإنهم سيفعلون أي شيء يريده خلاف قبول البقّارة كمستوطنين في منطقتهم . وشفعوا هذا الرجاء بمبلغ كبير من المال .

عاد ود البدري إلى أم درمان وزار الخليفة وهو يتهلل فرحاً وأبلغه أن سكان النيل الأبيض مسرورون غاية السرور أن خليفة المهدي[1] قد تكرم بالتفكير في إرسال التعايشة إلى منطقتهم . ولكن في نفس الوقت فإنهم يتوسلون بكل تواضع بأن يتقدموا أن من المحتمل أن يجد التعايشة مشقة في الرحيل لمسافة بعيدة مع أسرهم وأتباعهم . لذلك إذا كان يرى خليفة المهدي بحكمته العظيمة أن من المستحسن فإنهم مستعدون تماماً ليرسلوا لسادتهم كل شيء يحتاجونه وبذلك يوفروا عليهم تعب القيام بهذه الهجرة الممتدة .

بدا الخليفة مسروراً بهذا الاقتراح وأثنى على ود البدري لخدماته ووافق على تنفيذ اقتراحه . ناشد ود البدري أهله وفي سنة واحدة جمع أكثر من ٢٠٠٠٠ أردب من الذرة

١- لا يحب عبد الله أن يخاطب « بالخليفة » فقط . ولكن إذا خوطب بخليفة المهدي وأضيف إليها « عليه السلام » (وهذه العبارة لا تستعمل إلا في الحديث عن النبي) فإنه يكون سروراً جداً .

بالإضافة إلى كمية من المال تم توزيعه بين التعايشة الذين نظروا إليه منذ ذلك اليوم بأنه أحد أفضل أصدقائهم .

يوجد بين البقّارة لفظ غريب هو « هاي ! » يتخلل كلامهم باستمرار . والسوداني يشعر بمزيد من الرهبة عند سماع هذا الصوت أكثر مما كان يشعر به من منظر الطربوش الأحمر لدى المسئولين المصريين في الحكومة السابقة .

جميع الوظائف العليا في يد البقّارة أو على الأصح في أيدي أقرب أقرباء الخليفة . أمراء كردفان، الرجّاف ، فشودة ، القلابات ، كسلا وبربر جميعهم أقرباء الخليفة . دنقلا كانت المكان ذو الأهمية الوحيد الذي لم يعهد به إلى بقّاري ولكن زقل الآن قد زالت عنه الحظوة واستبدل به البقّاري يونس الدكيم . وعلى أية حال فإن بعض الوظائف الثانوية مازالت في أيدي أولاد البلد . ولكن تدريجياً كلما أصبح البقّارة قادرين على تنفيذ الواجبات فإنهم يحلون محل أولاد البلد .

لم يقنع الخليفة بإحضار التعايشة والحُمُر وعرب الهبانية من الغرب إلى النيل فما زال يضعف أولاد البلد أكثر فأكثر بإجبار قبيلة الرزيقات القوية بالهجرة من موطنهم في جنوب دارفور إلى أم درمان . شيخهم الشاب موسى ابن مادبو الذي قتله أبو عنجة في الأبيّض أوكلت إليه هذه المهمة . وقد سار عبر كردفان ومعه ٣٠٠٠٠ فرد . وذلك بجانب أعداد من الخيل والماشية . وقد وصلت طليعته إلى شات على النيل الأبيض في نفس الوقت الذي نفذت فيه عملية هروبي .

عيَّن الخليفة لجنة برئاسة حاجى زبير السيئ السمعة لتنظيم استقبال كبير للواصلين الجدد كما ألقى خطبة في المسجد يدعو فيها كل الناس ليتقدموا بسخاء بهدايا لإخوانهم . وألح على ألا تحصر الصدقات في حدود ضيقة ولكن سوف تقبل الملابس والذرة وجميع أنواع المواد الغذائية بكثير من الامتنان . وحتى « الفرطاقة » سوف تقبل (عملة من النحاس ذات قيمة زهيدة) وصدرت التعليمات إلى كل أمير ليجعل أتباعه يعلمون برغبات الخليفة . وعليه أن يجمع الهدايا ويسلمها إلى اللجنة . وإذا اعتبرت الهدايا صغيرة جداً فإنها تعاد مع تلميح قوي أن من المستحسن زيادتها . وقد طلب من

التجار بصفة خاصة إعطاء الكثير . وإذا لم يستجيبوا فإنهم يجلبون سخط الخليفة على أنفسهم .

يدقق الخليفة يومياً في قائمة الهدايا ويوزع أفضاله حسب ما يجده في القائمة . وكان حريصاً ألا يسمح للأغنياء بعطاء فيه تقتير . فمثلاً القاضي أحمد أهدى ٢٠٠ أردب من الذرة و ١٠٠ لبسة كاملة تتألف من ١٠٠ طاقية و١٠٠ عمامة و١٠٠ جبة و١٠٠ سروال و١٠٠ حزام من الجلد و١٠٠ زوج صندل . لكن ما زال الخليفة غير راض وسأل لماذا لم يقدم القاضي نقوداً . وفي الحال قام القاضي وهو مرتاع من سخط الخليفة بتسليم كمية كبيرة من المال لحاجى زبير .

التاجر عمر كشّه الذي اكتسب كثيراً من الثروة انتزع منه الخليفة في مناسبة واحدة ٣٠٠٠٠ ريال بحجة أن المال الكثير حريٌّ بأن يشغله عن الاعتبارات الدينية . وبعد سنتين أخذ منه مرة أخرى مبلغاً مماثلاً . وفي مناسبة وصول الرزيقات أهدى حمولة جمل من السكر وحمولة جمل من الموسلين الأبيض (نسيج قطني رقيق) وحمولة جمل من الكاليكو (قماش قطني) مصبوغ بالنيلة . بالإضافة إلى كمية من قمر الدين و٥٠ أردباً من الذرة وحمولة جمل من الدمُّور (نسيج قطني محلى) وجواد حرب مجهز بمعدات كاملة مع خادم الجواد .

الأغنياء يقدمون هدايا وافرة أملاً في النجاة من السلب . وعمر كشّه بالإضافة إلى سخائه في هذه المناسبة فهو يقدم من وقت لآخر هدايا قيمة إلى الأمير يعقوب . أما بالنسبة للخليفة فإنه مدرك تماماً أنه بكلمة واحدة منه يستطيع أن يطلب بحق مطلق أي شيء وكل شيء يحتاجه . ألم يقطع السودانيون عهداً مقدساً بأن يقدموا أموالهم وأولادهم وأرواحهم في سبيل دعوة المهدي وخليفته ؟

عندما كان في كردفان ادعى المهدي أنه المالك الفعلي لجميع الأموال ولكنه تركها في أيدي المستأجرين الأصليين ليقوموا بإدارتها إلى أن يحتاج إليها . والآن يحاولون بكل وسيلة ممكنة تطبيق نظريته المتعلقة بالملكية الحقيقية . فالخليفة يوجه انتباهه الخاص إلى التجار الذين يفترض أنهم يجنون أرباحاً كبيرة من التجارة .



امرأة بقّارية

حتى الآن ليس للبقّارة شأن بالتجارة الخارجية . فلم يذهبوا مطلقاً إلى سواكن أو مصر . فكل التجارة مع العالم الخارجي يقوم بها التجار الحداربه والجعليون والدناقلة والكنوز . لكن في أم درمان نفسها فإن البقّارة وخاصة النساء لهم نصيب كبير من تجارة التجزئة . وبالرغم من أنهم نادراً ما ملكوا قرشاً واحداً في حياتهم فإن الريال اللامع قد أثار بينهم طمعاً جامحاً للغاية . إنهم سريعو التعلم . وقد تفوقوا على أولاد البلد في كثير من فروع التجارة . هذه الحقيقة قد أبهجت الخليفة وهو يشجعها إلى أقصى مدى .

إن المساندة المستمرة التي يقدمها الخليفة لمواطنيه من الغرب على حساب بقية رعاياه قد أثارت بطبيعة الحال هؤلاء الرعايا ونتيجة لهذا القهر نجم نوع من الشجاعة . فالخليفة شريف يرفض بمرارة منعه من أي مشاركة في حكومة البلاد . وهو مفضل للغاية بين أرامل المهدي كما ينظر إليه الأشراف كزعيم لهم .

يستخدم الخليفة كل وسيلة لإيضاح خفض المكانة وتقليل الاحترام الذي يبديه له

الأشراف الذين لا يترك هو فرصة لكشف طريقة حياتهم المنحلة . فمثلاً للابن الثاني لأحمد شريف خليلة كان مخلصاً لها وكانت تسرج له حصانه بنفسها . ولكنها سراً لم تكن مخلصة دائماً لسيدها . وعندما عاد في يوم من الأيام ولم يجدها انتقم لنفسه منها عندما عادت بخنقها وقتلها بيديه . وعندما سمع الخليفة بهذا الاعتداء أمر بسجن الفاعل ومصادرة جميع أمواله . بينما حسب قانون المهدي فإن للسيد سلطة كاملة للتصرف كما يشاء في عبيده . واكتشف ابن آخر من أبناء أحمد شريف يعيش حياة غير أخلاقية وقد تم نفيه في مكان بأعلى النيل الأبيض .

اكتشاف آخر مماثل وربما أسوأ كان الوكيل الرئيسي فيه أحد أقرباء المهدي القريبين أعطى الخليفة فرصة باتهام الأشراف علناً بأنهم يعيشون حياة لا تؤهلهم لأبسط احترام . وبعد أن اثبت هذه الحقيقة بدأ بالعمل بأكثر أسلوب علني بإبداء كل علامة عدم احترام لهم .

عم المهدي ، سيد عبد القادر، رجل معتز جداً بنفسه . وكان قبل ظهور المهدي يكسب عيشه من علاج الحمير . وقد فكر بعد تغير الظروف ، أن مهنته ليست مشرّفة ولذلك لجأ إلى علاج الناس بمساعدة بضعة كتب عربية قديمة في الطب كانت لديه . وهو لا يخفي كراهيته للخليفة وقد استنكر علناً انحطاط المهدية الحقيقية . ولم يحضر مطلقاً إلى المسجد . وتحاشي الخليفة متعمداً في كل مناسبة . أما الخليفة فهو مدرك تماماً للوضع . وكان الجواسيس يتابعون سيد عبد القادر في كل خطوة . وفي النهاية ولما تجاوزت وقاحته كل الحدود ، استدعاه الخليفة فجأة إلى المسجد . وخاطبه علناً كما يلي : " لماذا لا تحضر إلى المسجد مرتين في الأسبوع وتحييني بين الفينة والفينة ؟ " رد السيد عبد القادر باعتزاز : " إنني أعبد الله وأصلى له يومياً في منزلي " .

هذا الكلام أزعج الخليفة بدرجة كبيرة ورد عليه بقوله : " صلِّ في منزلك ولكنني سأقطع يد ورجل كل من يعاشرك سواء في منزلك أو خارجه . وسوف أرسل إلى منزلك لإزالة كل هذه الكتب العربية . وعندئذ يمكنك أن تصلى لله دون شيء يلهيك " . وفي الحال تم الاستيلاء على الكتب وحرقها . وبعد هذا رأى عبد القادر أن يصلى الصلوات

الخمس في مسجد المهدي .

وهكذا فإن الشرخ بين عائلة المهدي وعائلة الخليفة يزداد اتساعاً يومياً . فآل المهدي يعقدون اجتماعات ومشاورات سرية باستمرار وأما آل الخليفة فإنهم مهتمون اهتماماً جيداً بالتقييم التام للوضع .

وهناك فرد آخر يسمى إسماعيل الخير الذي كان أحد أنصار المهدي المتعصبين للغاية . ولكنه بعد وفاة المهدي أظهر ميلاً للوقوف بجانب الخليفة شريف وعداء للخليفة عبد الله . وفجأة في يوم من الأيام صدر إليه الأمر أن يستعد في ظرف نصف ساعة للذهاب إلى الرجّاف . فقد شاع أن الخليفة اكتشف أن إسماعيل الخير كان يحضر الاجتماعات السرية للأشراف .

سوف أورد فيما يلي قضية أخرى : رجل يسمي ود البنا وهو رجل طيب ومسلم متعلم تعليماً جيداً ولديه إذن خاص من الخليفة بالاحتفاظ بعدد من الكتب التاريخية عن الإسلام والتي كان يقرأ منها مراراً للخليفة والأنصار بعد الصلوات في المسجد . ولما كان ذا حظوة عالية وصديقاً شخصياً للخليفة ، أرسل إليه الخليفة في وقت متأخر من إحدى الليالي أمة جميلة جداً . ولكن عندما وصلت إلى المنزل لم يجدوا ود البنا في أي مكان . وقد اكتشف أنه كان مع الخليفة شريف . وفي الصباح التالي أعلن الخليفة أن ود البنا يستحق الشنق . لكن لما كان الخليفة معجباً به للغاية فقد عفا عنه من أجل المهدي . ولكن أمر بحرق جميع الكتب وترحيل ود البنا إلي الرجّاف . ولما كانت الباخرة على وشك الإبحار وود البنا على ظهرها أمر الخليفة بإيقاف الباخرة والعفو عنه .

أصبح الآن يوجد قليل من الشك في أن الأشراف يدبرون مؤامرة . والنتيجة المباشرة لهذا الكشف كان الاعتقال المفاجئ والسجن لخالد زقل مما أحدث كثيراً من الحراك . ثم أعقب ذلك اعتقال فضل المولي (عرف فيما بعد باسم عبد المولى) مما أحدث مزيداً من الإثارة . فضل المولي هو أخ المرحوم أبو عنجة وهو يقود القوات السوداء في أم درمان . وفضل المولى رجل ذو نفوذ عظيم ليس بسبب سمعة أخيه ولكن هو أيضاً قد أدى عدداً من الخدمات القيِّمة للخليفة خاصة في وقت النزاع المتعلق بمن يخلف المهدي

. كان يسكن بالقرب من طابية غردون بأم درمان . استمتع بمركز مرموق وحصل على عدد كبير من أجمل النساء في السودان وضمهن لحريمه .

هؤلاء السيدات عشن في أعلى رفاهية . وقد بنى لهن منازل جميلة . وفي المساء كانت لديه فرقة موسيقية من الفرتيت السود الذين يعزفون أمامهن على أنواع من الآلات . وربما كان هو الأكثر حظوة من جميع الأمراء . وهو لا يتردد في التجوال في سكن عساكره ليختار الجميلات وضمهن إلى حريمه . لكن طريقة الحياة الفاسقة والمسرفة هذه سرعان ما ظهرت عواقبها . فقد أصيب بنوع من الجذام يبدو أنه أثر على عقله . فقد أصبح عنيفاً مما استوجب وضعه في القيود . وهو يرقد لشهور في هذه الحالة ولم يقدم إليه دواء ليخفف من آلامه .

في النهاية استدعى فكي (فقيه) الذي أعلن أن المرض نتيجة لسحر وقد تطوع للكشف عن الشخص الذي قام بهذا العمل . إحدى زوجات عبد المولي كانت فتاة صغيرة ذات جمال باهر وكان يفضلها على البقية وكانت تسكن مع أمها . وعلى أية حال سرعان ما ضعف الحب وأصبح هو متعلقاً بواحدة أخرى من زوجاته . لكن والدة الزوجة الجميلة قررت الانتقام ولمساعدتها في خطتها فقد استعانت بفكي أعطاها عدداً من الأحجبة والتمائم فأجزلت له العطاء . وقد وضعت هذه القطع من الورق التي تمثل الأحجبة والتمائم تحت صحن الحديد الذي يخبز فيه الرغيف لعبد المولى . وتدريجياً أصبحت صحته أسوأ فأسوأ . وفي نهاية المطاف اكتشفت تلك الأوراق وكل شخص اقتنع بأن مرضه قد سببه السحر . حوكمت المرأة ووجدت مذنبة فقطعت من خلاف . عبد المولى لم يتعافى لعدة أشهر والمرأة التعيسة أصبحت ضحية خداع الفكي .

الناس ما زالوا سريعي التصديق ومن المستحيل أن تجعلهم يتركون الاعتقاد في هؤلاء الدجالين الذين ينشرون الخرافة . مرة ، وبدافع حب الاستطلاع فقط ، أقنعت نفسي تماماً أن هذا السحر المفترض ما هو إلا خداع من جانب الفكي الذكي . وفاة أبو عنجة ومرض عبد المولى أثر كثيراً على نفوذ الأخير . وبالإضافة إلي ذلك فقد نظر إليه التعايشة بعين الحسد ، وأسلوبه المتعالي في التعامل مع الأمير يعقوب مما جعل الأخير

عدوه اللدود قد ساهم كل ذلك في سقوطه من المنزلة الرفيعة . والذين ينتقصون من قدره ليسوا قليلين . فقد أعلنوا بأن الذرة التي صرفت من بيت المال لعساكر عبد المولى قد استولى عليها عبد المولى لمنفعته الخاصة . لذلك أمر الخليفة بمصادرة ممتلكاته وخفض عدد زوجاته من ثلاثين إلى ثلاثة . أثارته هذه المعاملة إثارة شديدة فشتم الخليفة ويعقوب علناً . فقيدوه بالحديد وأودعوه الساير .

نتيجة اجتماع الخلفاء الثلاثة والقاضي في منزل أحمد شريف قد زاد من توسيع الشرخ . شريف معروف بلقب " جد الأشراف " لأن بنته هي أم المهدي . وعبد الله نفسه يخاطبه عموماً بكلمة " الجد " . ومن قبيل المزاح يعرف منزله بلقب " المديرية " لأنه يتألف من ساحة كبيرة مربعة بها غرف صغيرة مصفوفة حول السور الداخلي وتعيش بداخله العديد من الزوجات .

شريف رجل داهية وماكر ومتقدم في السن وهو يرى بصورة جيده أنه تحت الظروف القائمة أن لا فائدة من قلب سلطة البقّارة الحالية . وهو يثني على الخليفة بأسلوب شديد الخنوع ويقدم إليه هدايا باستمرار . وذهب أبعد من ذلك بالابتعاد عن عائلة المهدي حتى لا تقع عليه شبهات .

لنعود إلى موضوع الاجتماع . اجتمع الأربعة في إحدى الأمسيات وقد أغلقت البوابة الكبيرة وقام الملازمون بالحراسة في الخارج بينما في الداخل احتدم النقاش ووبخ الخليفة شريف الخليفة عبد الله بمرارة لعدم التزامه بتعاليم المهدي . واتهمه بظلم الناس والحكم بدون التعاون معه ومع علي ود حلو ، وجادل بأن عائدات بيت المال محتفظ بها للخليفة عبد الله والبقّارة ، وأنه بنى بيوتاً جميلة لنفسه ولأمرائه بينما استمرت عائلة المهدي تعيش في زريبة ، وأن أخاه يعقوب لديه سلطة أكبر من سلطة الخليفتين الآخرين . وأن زوجات المهدي يعشن في فقر مدقع بينما البقّارة لهم كل الرفاهية . وباختصار فقد اتهم الخليفة عبد الله بأنه حوَّل المهدية إلى سلطة دنيوية وزمنية تماماً بدلاً من الالتزام بالتعاليم الدينية التي أسست عليها . هذه التعابير غير المتحفظة أدت إلى نزاع حاد وأوشكوا على سل السيوف على بعضهم عندما قام أحمد

شريف والقاضي وعيونهم تدمع بالتوسل إليهم لإيقاف الشجار .

الآن تجاوز الوقت منتصف الليل . ويعقوب وقد توجس لغياب أخيه الخليفة وصل مع مجموعة من العساكر وعدد من البقّارة عند البوابة الكبيرة وبدأوا بقرع البوابة بعنف بحرابهم ، وصاحوا : " دعوا خليفتنا يخرج ! " كان للضجة في الخارج أثر فوري على المتنازعين في الداخل . أقسم الخليفة على القرآن الكريم أنه سوف يتصرف كلياً حسب نصيحة زملائه في الأمر . وبذلك التأكيد انفض الاجتماع العاصف . وقد قوبل ظهور الخليفة في البوابة بالتهليل والفرح وصاحبوه إلي منزله بابتهاج .

لكن بالرغم من هذه الأحداث لم يكن هناك وفاق حقيقي . استمر الخليفة شريف في التحريض سراً بينما زوجات المهدي اللائي نظرن إلى الخليفة شريف بأنه حاميهن المعين من قبل المهدي أضفن وقودا إلى النار . كان لديهن سبب لعدم الرضا . فبعد وفاة المهدي لم ينتبه لهن الخليفة كثيراً ولم يزعج نفسه باحتياجاتهن ولولا أحمد شريف كن متن من الجوع . ولما كن هن أرامل المهدي فلم يسمح لهن بالزواج مرة أخرى ولم يسمح لهن حتى التحرك خارج حدود القصر .

هذا الحبس المفروض قد أثار هؤلاء النسوة الطيبات فقررن أن يذهبن كلهن إلى الخليفة ويطالبن إما بحريتهن أو أن يعاملن معاملة طيبة . ولما علم أحمد شريف بقرارهن . فعل كل ما يستطيع لتهدئتهن ووعد بالتوسط لهن عند الخليفة . وقد فعل ذلك وتظاهر الخليفة بأن الأمر يعتبر مفاجأة تامة بالنسبة له وأنه كان تحت انطباع بأن بيت المال كان يمدهن بجميع احتياجاتهن وأنه هو نفسه قد أصدر أوامر متكررة للنور الجريفاوي في هذا الصدد . هذه كانت حقيقة ولكن. كما يحدث مراراً. أخذ يعقوب على عاتقه أن يصدر أوامر مضادة . بالطبع وقع اللوم على الجريفاوي وأمر بأن يصرف في الحال مبلغ ٦٠٠ ريال لأرامل المهدي . نصفها في صورة ملابس ونصفها نقداً . وهكذا رضيت هؤلاء السيدات النبيلات في الوقت الحاضر .

بعد حوالي شهر من الاجتماع الذي وصفته للتو اندلعت النار التي كانت تحت الرماد بقوة متجددة . وقبل حوالي يومين من الذروة الفعلية للأحداث أخبرني صديق بسرية

تامة أنه خلال بضعة أيام لا بد أن يحدث انفجار الأوضاع وأن الخليفة شريف والخليفة على ود حلو والأمراء الرئيسيين من أولاد البلد قد أقسموا على المصحف إما الإطاحة بالخليفة عبد الله أو الموت في المحاولة . لكن ليس من السهل تصديق هذه الأنباء لأن شريف كان صغير السن وعديم التجربة وحتى الآن لم يظهر أي دليل على قدرة خاصة تجلب ثقة الآخرين . وقد بدا لي كرجل منغمس كلياً في حياة الملذات الحسية . لكن في اليوم التالي أخبرني صديقي مرة أخرى أن معلوماته الأولي كانت صحيحة تماماً . ومع ذلك فقد أصررت على القول إنني لا أصدقها حتى أراها . تم حفظ السر جيداً فالتجار من أولاد البلد كانوا يأخذون بضاعتهم من السوق باطمئنان كالعادة . والخليفة وعائلته لم يعرفوا شيئاً عن المؤامرة لأن أحد أصدقائي الذين يسكنون بالقرب من القصر أعلن لي أن الأمر برمته هو مجرد اختلاف .

في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من نوفمبر ١٨٩١ فجأة سرت إشاعة في المدينة أن الخليفة شريف قد قرر المقاومة . وعلي الفور أغلق السوق وذهب الناس إلى منازلهم بأسرع ما يمكن . وجميع المكان كان في حالة توجس وإثارة . وانتهز البقّارة الفرصة للنهب والسلب ، ولم أعرف الظروف الفعلية التي أدت إلي نشوب الأحداث حيث أنني ظللت طيلة ذلك اليوم في كوخي وفي اليوم التالي قمت بالهروب .

قال البعض إن الناس انتفضوا لأن الخليفة نوى إعدام خالد زقل . وآخرون قالوا إن الخليفة نوى سراً أن يعلن ابنه خلفاً له ولكن الخليفة شريف قد اعترض على ذلك بعنف . وربما أن الخليفة - على مبدأ إضعاف قوة أولاد البلد - قد أمر بحملة من ٣٠٠٠ رجل تحت قيادة ود العريق للتوجه إلى كسلا للقتال ضد الطليان . بجانب ذلك أن لدى الخليفة نية لإرسال كرم الله - آسر لوبتن بك - وأخيه كركساوي مع قوة إلى بحر الغزال . وقد رؤى أن هاتين المحاولتين المقصودتين لإبعاد أولاد البلد من أم درمان كانت هي السبب الأساسي لنشوب الأحداث .

مضى يوم الثلاثاء دون اضطرابات ولكن كل شخص كان يستعد ليوم الأربعاء . في ذلك اليوم أمر الخليفة أن ينضم كل فرد إلى رايته وأن على جميع الأنصار الحضور إلى

المسجد . ولكن المسألة كلها تحولت إلي مهزلة مضحكة . أقام الخليفة شريف ومعه قليل من الدناقلة متاريس حول زريبة المهدي . كان كل ما معه من السلاح حوالي خمسين بندقية رمنجتون . كيف يحاول المقاومة بقوة ضعيفة . بمثل هذا الوصف ؟ لقد تصرف بمنتهي عدم الحكمة . وما زال في السر كان أولاد البلد جميعهم يرغبون في مساندته ولكن لا أحد منهم لديه الشجاعة ليتقدم بالرغم من أنه كان هناك عدد كبير منهم في أم درمان . لكن أرامل المهدي أظهرن تصميماً زائداً . فقد لبسن جبب الأنصار وتسلحن بالسيوف وشكلن كتلة صغيرة متماسكة وأقسمن على الموت مفضلات ذلك على الاستسلام .

حسب أوامر الخليفة أحتل الأنصار في يوم الأربعاء القصر والمسجد والطريق بين قبة المهدي والمسجد بينما أحاطت تماماً قوات الراية الزرقاء (السوداء) بالمسجد . وكان يعقوب مسئولاً عن توزيع الذخيرة . ربما ظن الخليفة شريف أن أولاد البلد سوف ينضمون إليه ، ولكن لم يجرؤ واحد منهم مغادرة صفوف قوات الخليفة عبد الله . العديد من الفرسان وهم يلبسون الدروع والخوذات كانوا يسلّون الجماهير بعدو صاخب بالخيل . وكانت قوة الخليفة بأكملها في حالة ابتهاج عام . وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً فتح الخليفة شريف النار فسقط حوالي سبعة عشر من البقّارة فردت قوات الراية الزرقاء النار وقتلت سبعة من قوات الخليفة شريف . ولم يسمح الخليفة عبد الله للأنصار بإطلاق النار وقد نجح بصعوبة شديدة في السيطرة على البقّارة الهائجين .

الطلقات القليلة التي أطلقت روعت أم درمان بأكملها . فكل واحد ذهب إلى منزله وسلّح نفسه بأفضل ما يستطيعه . وفي نفس الوقت ترك خيالة البقّارة موقع الحدث الفعلي وانتشروا في المدينة ينهبون ويسلبون ويقتحمون البيوت ويجرحون الناس ويستولون على النساء والعبيد والحلي الخ .

عندما سمع الخليفة بذلك لم يضع وقتاً بل أرسل على الفور خيالة يعقوب لحفظ النظام ولكن الكثير من اللصوص هربوا بغنائمهم . وفي المساء سرت شائعة بأنه قد تم التوصل إلى وفاق . وكان الوسطاء الخليفة على ود حلو وأحمد شريف والسيد المكي

. حاول الخليفة شريف أن يوضح لأرامل المهدي ألا فائدة من جميع أعمال المقاومة ولكنهن مزقن جبته وطردنه .

في يوم الخميس اجتمع جميع الخلفاء في قبة المهدي . وهناك أقسم الخليفة عبد الله والدموع في عينيه أن يوافق على جميع رغبات معارضيه وهي أنه ينبغي أن يتلقى كل خليفة ثلث الجيش وثلث الأسلحة وثلث إيرادات بيت المال وبالإضافة إلى ذلك أن يشارك في جميع الاجتماعات والمداولات . كان من الواضح جداً أن الخليفة عبد الله لم يقصد جدياً أن يفي بهذه الشروط . وكان يمكنه أن يقمع الثورة في الحال إذا رغب في ذلك ولكنه أراد أن يبين أنه ما زال يعظم ويحترم عائلة المهدي .

وفي الظهر سار الملازمون في شوارع المدينة وأعلن المنادون أن السكينة قد استعيدت وأن على الناس أن يعودوا إلى أعمالهم اليومية . وفي يوم الجمعة أقيم استعراض الجيش المعتاد ولكن لم يحضر أي من الأعيان واستمرت معظم القوات في احتلالها للمسجد والقصر .

وفي يوم السبت عاد التوجس مرة أخرى حيث رفض الخليفة شريف تسليم أسلحته ولكن في ذلك المساء أعلن على الملأ استسلامه . لم أسمع بالتفاصيل لأنه في يوم الأحد التاسع والعشرين من نوفمبر ١٨٩١م غادرت أم درمان في جوف الليل .

الباب الرابع والعشرون

الاستعدادات للهروب

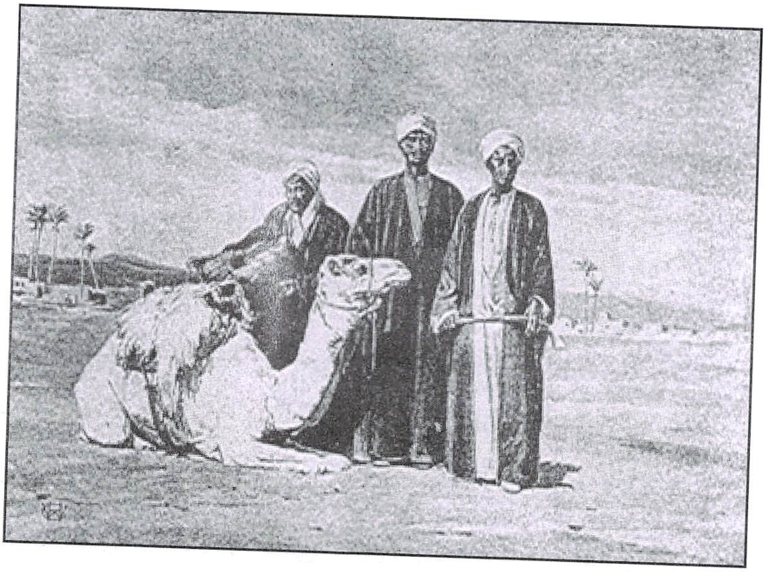
أورفالدر يشكل خططاً للهروب . مصير الأوربيين الآخرين الذين حاولوا الهروب. مراقبة صارمة. وسيلة عيش أورفالدر. رسائل من القاهرة. أحمد حسن المخلّص يكشف خطته. رئيس الأساقفة سوقارو . شقاء الأسر في أم درمان . وفاة الراهبة كونشيتا كورسي. الاستعدادات للهروب .

إن القارئ سوف يدرك بسهولة أنني لم أفقد طيلة هذا الوقت رؤيتي للهدف اللصيق بقلبي ، وهو استعادة حريتي والهرب من الوسط البائس المحيط بي .

عندما غادرت الأبيض ، اعتقدت عندئذ أنني بمجرد أن أكون في أم درمان فإن الهروب لن يكون صعباً للغاية . وخلال رحلتي الطويلة إلى عاصمة المهدي فإن هذه الفكرة قد دعمتني . على أية حال فإنني كنت أقرب بخطوة واحدة من تحقيق أمنيتي لأنه في ذلك الوقت لم تكن القيود شديدة على الأوربيين . وكان يسمح لهم بالتجارة والسفر لغاية الدامر التي يأتي إليها ويعود التجار المصريون بحرية .

عند وصولي إلى أم درمان ، عرض عليّ إغريقي ضيافته فقبلتها بامتنان . وقررت أن أبحث في المدينة عن صديق يمكن الوثوق به يمكن أن يساعدني لتحقيق هدفي . وقد خطر لي أن أرافق تاجراً إغريقياً أو سورياً إلى الدامر ومن هناك أقوم بالهروب . ولكن لسوء الحظ لم يكن لديّ مال في ذلك الوقت كما كانت خبرتي قليلة . ولم أدع اليأس يتسرب إلي نفسي ولكنني لم أجد أحداً مستعداً لمنحي المساعدة التي احتاج إليها . فالجميع يخشى انتقام الخليفة في حالة اكتشاف الموضوع .

قمت باستفسارات لدى أصحاب المراكب بهدف الذهاب إلى بربر في رحلة تجارة مفترضة ولكن لا أحد منهم وثق في شخصي . وفي الحقيقة أنني شكرت الله فيما بعد أنهم لم يتحدثوا عن خطتي . ولكن بالرغم من الفشل فإنني لم أفقد الأمل . وخلال الأيام الطويلة وكثير من الليالي المسّهدة أقلب الخطط العديدة مرات ومرات في ذهني .



الأدلاء العرب الذين نفذوا

هرب الأب أورفالدر والراهبات

وفي إحدى المرات قررت أنا وغوستاف كلوتز القيام بمحاولة للوصول إلى القلابات والهروب من هناك إلى إثيوبيا ولكن في أخر لحظة بدت الخطة غير عملية . علي أية حال بدأ كلوتز الرحلة ودون أي مال وصار يسأل الناس الإحسان من مكان إلى مكان إلي أن وصل في النهاية إلى القلابات وهو في غاية الإعياء ومات بعد بضعة أيام من وصوله .

أمضيت حوالي ثمانية أشهر مع الإغريقي ثم رأيت أنه ليس من العدل أن أبقي أكثر من ذلك اعتماداً على أريحيته . وبجانب ذلك فقد خطر لي أنه في حالة وجود فرصة مواتية للهروب فإنه من المؤكد أن يتهم بالتواطؤ معي ، وقد يعاني بسببي . لذلك بنيت لنفسي كوخاً صغيراً من القصب وعشت مع أخ من البعثة التبشيرية كان لديه دكان صغير في السوق . ولمدة خمسة أشهر تقريباً كان لدى أحد العرب أمل في مساعدتي للهروب ولكن في النهاية تأكدت أنه لم يقصد حقيقة مساعدتي . لقد عانيت لما يقارب السنتين من إسهال مستمر مما أضعف قوتي بصورة كبيرة .

في نفس الوقت عملت على إرسال أحد الأخوان من البعثة التبشيرية إلى بربر اسمياً لكسب العيش بتصليح الساعات ولكن بالفعل ليعرف إن كان من الممكن الهرب من هناك . لقد استغرقت رحلته بالمركب إلي بربر ستة وعشرين يوماً . وبعد أن استقر هناك لبعض الوقت نجح في الهرب إلى سواكن ومن هناك أرسل رجلاً بمبلغ من المال والبضائع للمساعدة في هروبي . لكن الرجل لم يأت مطلقاً ولا بد أنه قد سرق كل ما سلموه له .

وصل إلى مسامع الخليفة هرب الأخ التابع للبعثة التبشيرية وفي نفس الوقت تقدم إليه أحد الإغريق بعريضة طالباً عدم هدم مخبزهم بسبب إصلاح السوق . أرسل الخليفة إلي المقدوم ليتحرى عن الموضوع . وسأل المقدوم عرضاً عن الإغريق الآخرين وأين هم ؟ كان جواب المقدوم للخليفة أن بعضهم مريض والبعض مسافر . فانزعج الخليفة لهذا انزعاجاً شديداً . وأمر بإحضار جميع من في أم درمان من الإغريق في اليوم التالي . وباكتشافه لعدد من الغائبين يبدو أنه تنبه للخطر . ووبخ المقدوم بشدة لسماحه بهروب الإغريق . وقال كان ينبغي عليه أن يرسل المعلومات فوراً . والتفت إلينا وهدد بإلقائنا في النهر أو قطع أيدينا . وكانت كلماته الفعلية هي : " ماذا يمنعني الآن من إلقائكم في النهر وجعلكم طعاماً للسمك ؟ " وتحدث ضدنا بأشد الأساليب عنفاً لحوالي نصف الساعة وختم حديثه بالقول إنه ينبغي ألا يسمح لنا في المستقبل بالتحرك خطوة واحدة جنوبي طابية أم درمان أو شمال خور شمبات . وأي أوربي يعرف عنه أنه تخطي حدود العاصمة فقد أمر بأن يعاد بالقوة حياً أو ميتاً . هذا التغير المفاجئ في السياسة أجبرنا أن نطرح جانباً أية فكرة للهروب في الوقت الحاضر .

هناك شريف من مكة جاء لتحية المهدي ولكنه أصبح مقتنعاً تماماً بزيف دعواه وعبر عن رغبته أن يسمح له بالعودة ولكن لم يستجب لطلبه . لذلك قرر أن يهرب . اشتري حماراً وشرع في رحلته مبتهجاً . وعند وصوله إلي كرري وهي على بعد حوالي أربع ساعات تم إيقافه وسؤاله عن وجهته . أجاب بأنه جاء لزيارة قبة الشيخ الطيب في كرري ولكن لم يتم تصديق قصته وأعادوه إلى الخليفة الذي سلمه إلى سجن الساير حيث

مات خلال بضعة أيام .

هذه الحادثة جعلت الخليفة يمارس مراقبة أصرم على " البيض " والآن أصبح الهروب أكثر صعوبة من ذي قبل . وعلاوة على ذلك فإن حملة ود النُّجومي على مصر قد أغلقت الطريق على الحجاج . وخلال تلك الفترة أصبح الهروب استحالة تامة . وفي نفس الوقت كان عليّ أن أعمل شيئاً لأكسب قوتي . نصحني لوبتن بك بمحاولة غلي الصابون . لذلك دخلت في شراكة معه وغيّرت منزلي والآن أصبح سكني بعد أماكن سكن الإغريق والسوريين مباشرة .

كنت أفكر دائماً في الهروب ونتيجة لذلك اعتزلت الناس لدرجة كبيرة ونادراً ما قمت بزيارات أو زارني أحد . اثنتان من راهبات البعثة كانتا تسكنان بالقرب مني وتكسبان كسباً غير ثابت من أعمال الإبرة لمعيشتهما . لكن هذا يدر بصعوبة ما يكفي من المال لشراء احتياجات الحياة الأساسية لأن العديد من النساء اللائي نجون من مجزرة فتح الخرطوم يعملن عملاً مماثلاً مما جعل المنافسة كبيرة .

مات المسكين لوبتن بك فجأة لذلك كان لابد من ترك خطة غلي الصابون والتحول إلى شيء آخر . خطر لي أن أصنع خُطّافات من أسلاك التلغراف وتقوم الراهبات بخياطتها على المحافظ والطواقي الخ ولما كانت هذه بدعة فقد كانت مربحة لفترة من الوقت ولكنه عمل يستغرق وقتاً طويلاً كما أنه ممل . وتدريجياً انتهت تلك البدعة وقلّ الطلب .

المواد التموينية غالية والمجاعة أوشكت أن تطبق على البلاد . جميع أفكار المساندة المتبادلة قد انتهت لأن الإغريق والسوريين واليهود قد منعوا من مغادرة المدينة ولا شيء يمكن عمله من التجارة في أم درمان نفسها . وهكذا تدهورت أحوالي من سيء إلى أسوأ . والمجاعة الآن متفشية . وفي حالة اليأس تلك كان عليّ أن أعمل شيئاً لأكسب ما يكفي للبقاء حيّاً .

كانت الموضة للنساء في أم درمان لبس جلابيب طويلة مزخرفة الأطراف بمختلف أنواع الأشرطة وقد خطر لي تعلم كيفية عمل هذه الأشرطة . ولهذا الغرض حصلت على نول صغير وبسيط . الرجال القليلون في السوق الذين كانوا يحتكرون هذه الحرفة نظروا

إلى حصولي على النول بحسد شديد وهم لا يعلِّمون طريقة النسيج لأي أحد بأقل من مبلغ أربعين إلى خمسين ريالاً . وكنت لا أستطيع جمع هذا المبلغ لكن الضرورة لا تعرف قانوناً والجوع يشحذ ملكات الاختراع العقلية . بعناية حللت خيوط قطعة من الشريط الزخرفي ودرست طريقة نسجه باهتمام شديد . لديّ تذكر صورة معتمة وغامضة عن الأنوال الأوربية وبعد محاولات كثيرة غير مجدية نجحت في النهاية في عمل شريط واحد . العمل مضن للغاية . وفي البداية ظننت أن ظهري سوف ينكسر من الإجهاد . وبصعوبة شديدة استطعت بعد العمل ليوم كامل من إنتاج أربع ياردات من الشريط وبعتها بأربعة قروش اشتريت منها خبزاً . على أية حال ، بعد الممارسة المستمرة نجحت في نهاية الشهر من إنتاج ستة عشر ياردة في اليوم . لكن العمل على الأنوال ينبغي تعلمه في الصغر أما البدء في ذلك في مثل عمري ففيه إجهاد فظيع لظهري . ومع ذلك فقد أكسبني ذلك العمل مالاً كافياً لإبقائنا على قيد الحياة .

لمدة سبعة أشهر عشنا على خبز الذرة والقليل من الخضراوات المغلية بدون زيت أو زبد أو لحم . وقد أثر العمل الشاق والطعام غير الكافي على قوتنا . ومع ذلك فقد كنا أفضل بكثير من مئات الآخرين ممن كانوا راغبين في أن يعملوا ولكنهم لم يجدوا شيئاً يعملونه فأكرهوا على الجوع . خلال جميع هذا الوقت لم أتخل مرة عن الأمل في الهروب ونجحت مرة أخري في الحصول على شخص ليحمل رسالة مني إلي القاهرة طالباً النصح ولكن المشروع كان محاطاً بالصعاب حتى قد بدا أنه أقرب إلى المستحيل .

رفاقي في المحنة راقبوني مراقبة لصيقة . وكثيراً ما تطوعوا لمحاولة الهروب مع الراهبات . ولكن لما كنت مسئولاً عنهم لدى الخليفة لم يمكن فعل ذلك . وأما فكرة هروبي والراهبتين وحدنا فقد بدت سخيفة من مجرد التفكير فيها . كما بدا أنه من غير المحتمل أن تستعيد الحكومة التركية السودان مرة أخري . ولو أنني اعترف أن هناك شعاعاً من الأمل قد أضاء عندما وصل صالح بك من كورسكو فجأة إلي أبو حمد مع العبابدة التابعين له وقتل سليمان ود نعمان الشهير قاتل العقيد ستيوارت ورفاقه . أخبار هذه الحادثة تسببت في إثارة كبرى في أم درمان . واعتقدنا حقيقة أن وقت

خلاصنا قد اقترب . لكن صالح بك قد اختفي بسرعة مثلما جاء .

الاستيلاء على طوكر في فبراير ١٨٩١م رفع من آمالنا أيضاً . ولكن مرة أخرى حكم علينا بالإحباط . في ١٨٩٠م جاء إلى أم درمان شاب من عرب العبابدة وطلب مني أن أعطيه رسالة إلى أصدقائي في القاهرة . لم أثق فيه لأنني كتبت عدة رسائل لم تأت بنتيجة . وقد تعلمت بالخبرة أن العرب لا يمكن الوثوق بهم وأن الرسائل لا تصل مطلقاً إلي المقصودين بها . كذلك خطر لي أن الرجل قد يكون جاسوساً لذلك أبعدته وأجبته بعبارة " نشاور " وهي عبارة يستخدمها السودانيون عندما يريدون أن يكسبوا الوقت للتفكير في أمر .

في نفس الوقت قمت بتحريات كاملة عن الرجل ولم أسمع إلا كل ما هو طيب عنه . وسرعان ما عاد إليّ بعد ذلك وطلب إعطاءه رسالة بالتحية إلى أصدقائي . وقد علمت أن الرجل يتوقع الحصول على مكافأة إذا نجح في إحضار رسائل إلي الحكومة المصرية من السجناء مما قد تعطي الحكومة بعض المعلومات عن الوضع في السودان . وعندما اقتنعت تماماً بالوثوق به عندئذ قمت بالتشاور معه وكانت النتيجة هي أنني أود محاولة الهروب بمساعدته شريطة أن يستطيع الحصول على المساندة اللازمة من القاهرة . لذلك سلمته رسالة إلى القس الرسولي الموقر فرانز سوقارو وأوكلته للتباحث شفوياً معه .

كانت خطة الرجل هي أن يعود عند فيضان النيل - أي بعد حوالي سنة - للهرب في مركب أو طوف يحمله التيار السريع إلي بربر في حوالي ثلاثة أيام حيث تكون هناك جمال جاهزة لنقلنا عبر الصحراء إلى كورسكو . ألححت عليه أن يبقى هذه الخطط في طي الكتمان لأن كشفها من المؤكد جداً أن يجلب علينا العقوبات كما ألححت عليه أن يزودنا بأسلحة للرحلة .

ذهب أحمد حسن - وهذا هو اسم الرجل - وفي الحقيقة كان أملي ضئيل في أنه سوف يفعل أي شيء أكثر مما فعله الآخرون من قبل . وبجانب ذلك من يستطيع أن يقول ما هي التغييرات التي قد لا تحدث في سنة في أم درمان مما قد يحبط تماماً خططنا ؟

فسيف ديموقليس معلق إلى الأبد فوق رؤوسنا . وعندئذ ألا يتدخل الموت في أي يوم ؟ فكل من الراهبات وشخصي كنا موهنين تماماً بالعمل المستمر والمشقة . وقد كان من الممكن دائماً أن حمي خفيفة قد تطفئ جذوة الحياة التي كانت تتقد عندئذ خافتة.

بعد بضعة أيام من مغادرة أحمد نسينا الأمر برمته . وقبل مضي وقت طويل كنت مرة أخري أبحث مع عربي آخر لمساعدتنا على الهرب وذلك لأنني كنت أحاول بكل وسيلة ممكنة للوصول إلى ذلك الهدف. إذا كانت المسألة هي هروبي وحدي لما كانت هناك صعوبة كبيرة . فأنا كرجل كنت أستطيع تلوين بشرتي البنية طبيعياً وأن ألبس خرقاً بالية وأن استجدي طيلة طريقي على ضفاف النيل الأزرق إلى أن أصل إلى إثيوبيا . ولكنني لا أستطيع ترك الراهبات المسكينات ورائي . ولذلك صممت على الانتظار بصبر إلى أن يأتي مخلِّص .

العديد من التجار الذين ذهبوا إلى مصر أخبروني بأن رئيس الأساقفة سوقارو قد أرسل إلينا مراراً بعض المال عن طريق كورسكو وحلفا وسواكن ولكن العرب الخونة استولوا عليه دائماً لمنفعتهم . وفي الواقع منذ ١٨٨٤م لم يتوقف رئيس أساقفتنا الطيب مطلقاً عن جهوده لمساعدتنا ولجعل أسرنا أكثر احتمالاً . لقد فعل كل ما يمكنه وحرك المسلمين والمسيحيين والحكومة المصرية وحتى البابا نيابة عنا وأبقي أحد المبشرين على الحدود المصرية بهدف خاص هو محاولة الحصول على خلاصنا . وقد تناوب عدد من القسس في هذه المهمة وهم الأب دومينيكس فسنتيني ، يوهان دكتل ، إكزافير قريار ، الواس بونومي ، ليون هنريوت وألواس سبيك . والأخير منهم مات في أسوان . كانت لدينا الكثير من الصعاب الكبيرة ولكن ربما أكبرها هو سوء نية العرب المستمرة . نقل الرسائل يهدد بالخطر ليس فقط حياة حامليها بل أيضاً متلقيها . وأية رسالة موجهة إلى أوربي إذا اكتشف فلا شك أنها ستنتهي بموت المتلقي المستهدف أو بسجنه مدى الحياة . ولكن رئيس الأساقفة سوقارو قد عمل بجد لا يفتر . ففي أوائل ١٨٩٠م أرسل أحد مدرسي البعثة الأقباط واسمه حنا عرَّاقه بمبلغ من المال والبضائع إلى الحدود ، ومن هناك إن أمكن عليه أن يوالي السير إلي أم درمان لمساعدتنا . وقد أعتقد أن

الخطة قد تنجح لأنه كان خالد زقل في ذلك الوقت أميراً على دنقلا وكان راغباً في فتح التجارة مع حلفا . لذلك أرسل حنا أحد العرب لمعرفة كيف تسير الأمور بينما بقي هو على الحدود ولكن العربي لم يعد مطلقاً .

حدث في ذلك الوقت أن خالد زقل والأميرين البقّاريين اللذين أرسلا لمراقبته قد اشتبكوا في نزاع عنيف مما نتج عنه أنهم استدعوا جميعاً إلى أم درمان . واتخذ الخليفة قراراً لمصلحة الأميرين البقّاريين وألقي بخالد زقل في السجن مقيداً بالحديد . وعيّن يونس الدكيم ابن أخيه أميراً على دنقلا . وكانت للأخير وجهات نظر مختلفة فيما يتعلق بالاتصال بمصر . وهذا هو سبب عدم رجوع العربي إلى حلفا . وعلى أي حال قبل خمسة عشر يوماً من هروبي جاء العربي إلى أم درمان وأخبرني بالأمر . سيده نفسه وابنه متورطان في النزاع الذي حدث في دنقلا وقد تم تقييدهما وإيداعهما السجن وذلك كان هو السبب في عدم رجوعه . وبعد ذلك لم أره مرة أخري .

في غضون ذلك سلّم أحمد حسن الرسالة التي أرسلتها معه للقاهرة إلى رئيس الأساقفة سوقارو الذي عقد معه اتفاقية مكتوبة لخلاصنا . كذلك أعطي تعليمات للقبطي حنا أن يواصل السفر من حلفا إلى كورسكو وان يسلم هناك إلى أحمد حسن البضائع التي يبلغ ثمنها ١٠٠ جنيه . ومن خلال توسط رئيس الأساقفة سوقارو فقد أعطت السلطات العسكرية المصرية أحمد حسن كل مساندة . وقد أعطته تلك السلطات مبلغ ٢٠ جنيها ومروراً حراً إلى كورسكو وفي الخامس عشر من سبتمبر ١٨٩١ غادر ذلك المكان إلي أم درمان ومعه البضائع .

في أم درمان جاء الشتاء وذهب والنيل فاض إلي أعلى مستواه وانخفض ولكن لم يظهر أحمد . لم أندهش لذلك لأنني تعودت منذ زمن طويل على خيبات الأمل من هذا النوع . فقط قلت لنفسي إن عدد الأشخاص الذين خدعونا قد ازداد واحداً وانه إذا لم يأت مخلّص من مصر قريباً فإن هناك مخلّصاً آخر . الموت . أصبح اقترابه مؤكداً . كان العمل الثقيل يضعف قوتنا المتناقصة . وبدأت أبصق دماً وشعرت بآلام شديدة في صدري وكنت أقل من جلد وعظم .

والراهبات البائسات كن أقرب إلي القبر . وإن آلامنا الروحية والجسدية خلال هذه السنوات العشر الطويلة من الأسر قد أثرت علينا بصورة فظيعة . الموت هو أكثر شيء اشتقنا إليه وله انتظرنا بصبر . إن التوقع المحزن بعدم استعادة حريتنا مطلقاً وبالعيش في حياة عبودية محرومين من كل ميزات وتقدم العالم ، لا نعبد مرة أخرى في كنائسنا العظيمة ونتنعم بمواساة ديننا المقدس بل نعيش ونموت بين صخور ورمال أم درمان النارية حيث أحالت الشمس المحرقة أجسام الموتي إلى مومياءات. أن تعيش وتدفن في العبودية. توقع العيش كان حقيقة أمراً غير جذاب . وما المدهش في أن نتوق إلى الموت لتخليصنا من مثل هذا البؤس !

بعد كل هذه الآلام كان من الصعب رؤية تحقق السراب الخادع الذي تابعناه كثيراً فتلاشي ووجدنا أنفسنا مرة أخري ضحايا للاحتيال والخداع . لقد فكرنا كم محظوظون أولئك الذين قتلوا في المعارك أو ماتوا من المجاعة والمرض ! وقد حسدنا حتى أولئك الذين قتلوا في مجزرة فتح الخرطوم . ومع كل ذلك فإن عذاب الموت ما هو إلا للحظة وتنتهي جميع الآلام والعذاب بينما نبدو نحن وقد عبرنا مائة موتة وما زلنا في قبضة الموت مرات ومرات من جوع وعطش ومرض فجميعها في وقت أو آخر كادت أن تودي بنا كضحية من ضحاياها . لقد شاهدنا تدمير مدن وإبادة جيوش وذبح الآلاف ومذابح لا رحمة فيها وإراقة دماء أناس أبرياء وكرامة الإنسـان تمرغ بالتراب وقيمة الحياة الإنسانية أقل بكثير من حياة خروف أو شاة . وبعد كل هذا علينا أن نعيش ونموت منسيين مجهولين ، مرقدنا الأبدي في بلاد غريبة وجثثنا في جميع الاحتمالات طعام للضباع . وهكذا فقد تمنينا الموت لإبعادنا من هذه المشاهد للقسوة والظلم السرمدي . أعصابنا أصبحت متوترة بحيث أن أخف طرق على الباب يجعلنا نجفل فزعاً وصوت الأمبايه الكبيرة تجعلنا نرتجف حقيقة . تقريباً نصف مجموع الأوربيين والإغريق والسوريين واليهود قد مات . وكل ما أمَّلنا فيه هو أن نلحق بهم بسرعة .

إن موت إحدى أخواتنا الراهبات زاد من رغبتي في الموت كذلك . ففي الرابع من أكتوبر ١٨٩١ توفيت فجأة الراهبة كونشيتا كورسي بحمي التيفوس وكانت في حالة صحية

ضعيفة جداً . وحسب عادات السودان فقد لففنا جسدها بقماش وربطناه إلى حصير (لأنه لا توجد توابيت) وحملناها مباشرة تقريبا بعد الوفاة إلى منطقة تبعد حوالي ست أميال شمالي المدينة ـ وهو الاتجاه الذي كانت تتجه إليه عيناها أثناء حياتها . تبع النعش جميع الإغريق والسوريون . وهناك في سكون الصحراء وضعناها في الرمال الدافئة . وحمينا جثتها من الضباع الضارية ببضعة أغصان من الشوك . وقدمنا صلاة قصيرة من أجلها ومن أجل أرواح من سبقوها ثم عدنا والحزن يخيم علينا متمنين أن نرقد بجانبها قريباً .

لكنني شعرت بأن حياتي بيد الله وعزيت نفسي بالاعتقاد بأن الله الإله يتصرف بي حسبما يراه الأفضل وأنه يجب علّي أن استسلم لمشيئته . كوخي كئيب للغاية ولعدة أيام لم أتحدث مع أي أحد . وعندما جاء الليل رميت نفسي على العنقريب ولكن النوم قد جفا عينيَّ وعندئذ أحدق في قبة السماء الكبيرة وأفكر أن نفس هذه السماء هي فوق بلادي التي أنا منفي منها ومحاط بالآلام والمرض .

في ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر ١٨٩١م ظهر أحمد حسن من دون توقعه تماماً . أخذته إلى كوخي وبعد السلام العربي المعتاد قال لي " أنا هنا ، هل أنت آت ؟ " للحظة لم استطع الكلام . لقد أدركت تماماً ما قصده . ولكن آلاف الأفكار لمعت في ذهني وكان قلبي يخفق بعنف ولبضعة لحظات لم أستطع الإجابة . وعندئذ جمعت أفكاري الشاردة وقلت : " إذا لم أقصد الذهاب معك لما كنت أرسلت إليك . "

ثم بدأت أسأله جميع أنواع الأسئلة عن القاهرة . وأخبرني بإيجاز بأنه قابل رئيس الأساقفة سوقارو وأنه أجرى ترتيبات معه فيما يتعلق بخلاصنا وأنه تخلى عن خطة النزول بالمركب إلي بربر وأنه تلقى ١٠٠ جنيه لشراء الجمال . وسأل عن الراهبات . وعندما أخبرته أن إحداهن قد ماتت قبل حوالي شهر كاد أن يبكي وضرب جبهته بكفه وقال : " آه ليتني جئت قبل شهر ! " لكنني قلت له إنني سوف آخذ راهبة أخرى في مكانها .

ثم بدأنا نتحدث بجد عن خططنا . أخبرته بأن يشتري على الأقل خمسة جمال جيدة

وأن يتأكد أن لديه أسلحة كافية . وتوقعاً للهروب حصلت منذ زمن طويل على مائة خرطوشة رمنجتون وأخفيتها بعناية . وعندما غادر أحمد الكوخ بدأت أشك إن كان مخلصاً حقيقة . بدا الأمر يكاد لا يصدق أن يرسلوه من القاهرة بدون سطر أو حتى توقيع في مشروع مهم مثل هذا .

في اليوم التالي ظهر أحمد مرة أخرى ومعه عربيان استخدمهما في هذه القضية أحدهما في كورسكو والآخر في بربر . يبدو أن أحمد كان خائفاً بعض الشيء من ألا نجرؤ للقيام بالهروب . وأخبرني أنه قد أحضر معه رسالة من رئيس الأساقفة سوقارو ولكنه تركها في بربر . الصعوبة الرئيسية بالنسبة للعرب ستكون مغادرة المنزل بدون أن يلاحظهم شخص . ولكني طمأنتهم من هذه الناحية . يكاد القمر أن يكون بدراً كاملاً في ذلك الوقت لذلك تقرر أن نؤخر مغادرتنا إلي أن يكون القمر في طور المحاق ، وينبغي بذلك أن نستطيع تحت جنح العتمة . ورجوت أحمد ألا يأتي إلينا مرة أخرى لتفادي إثارة الشكوك .

الآن بدأت في عمل الاستعدادات . كان هدفي الأول هو إحضار إحدى الراهبات التي كانت تسكن في منزل إغريقي لتأتي إلي منزلي . لم يكن هذا أمراً سهلاً لأنني لا أجرؤ على ذكر كلمة واحدة عن نوايانا لأي أحد وإلا فإن خططنا بدون شك سوف يتم إحباطها . لذلك تظاهرت بالمرض وقلت لا أستطيع أكثر من ذلك القيام بهذا العمل الشاق وحدي وهكذا سمح للراهبة أن تأتي ومن غير أن يدري تماماً أعارني الإغريقي بسرور خدماتها . والآن قضت معي حوالي عشرين يوماً لذلك شعرت أنه لا يمكن أن يعتبر الإغريقي مسئولا عن اختفائها والذي حدث بعد بضعة أيام .

أعطاني أحمد رسالة رئيس الأساقفة سوقارو التي حصل عليها من بربر . وقرأت بإثارة شديدة السطور القليلة التي تمنى لي فيها كل النجاح في المشروع . هذه الرسالة شجعتني كثيراً وليس لديَّ الآن شك في إخلاص أحمد . لقد أحصينا الأيام والساعات السابقة لمغادرتنا . ولم احتمل التفكير في المحن التي سوف تقاسيها الراهبات أثناء الرحلة . وكانت لديَّ أيضاً بنت صغيرة سوداء من المستحيل بالنسبة إليَّ تركها ورائي

حيث أن مغادرتنا سوف تنكشف . كان اسمها عديلة وقد ولدت في دار بعثة الخرطوم الكنسية . بعد سقوط الخرطوم بيعت هي وأمها كرقيق وأرسلن إلي القضارف .

بين قوات أبو عنجة كان هناك شخص يسمى بانرازيو يوسف وهو عسكري شاب ذكي للغاية ارتفع فيما بعد إلي مرتبة أمير . حدثوه عن عديلة فاشتراها بخمسة ريالات وأخذها معه عندما كان مرافقاً للأمير الزاكي طمل إلي أم درمان . وعند وصوله أهداها إليّ كتذكار لمعروف سابق . كما أعطاني كمية من القهوة وكنت ممتناً حقاً لذلك .

أصبح يوم مغادرتنا المستهدف يقترب وقد ارتقبناه بما يكاد يكون نفاد صبر وحبس أنفاس . لقد فقدنا كل الشهية للأكل . الخوف والكرب الذهني وفكرة أننا ينبغي أن نكون أحراراً جعلنا كل ذلك في حالة حمى إثارة تامة . لم أستطع التوقف عن التفكير في رفاقي في المحنة الذين سوف أضطر إلي تركهم ورائي والذين ربما عانوا بعد مغادرتنا . هؤلاء كانوا معنا باستمرار للسنوات العشر الأخيرة يشاطروننا حياة آلامنا وبؤسنا . والآن لا أستطيع إلا أن أشعر بالألم عند التفكير في الفراق . لكن جميع هذه المشاعر لا بد أن نضعها جانباً وأن نركز كل أفكارنا في الحاضر . تشوقت إلي المغادرة حتى أتحرر من هذا القلق المحموم الذي كان يمزق أرواحنا نفسها . ثم جاء أحمد قبل يوم فقط من يوم المغادرة وقال إن العرب الذين جاء معهم من كورسكو لم يعودوا بعد وأنه لا بد لنا من أن ننتظر مغادرتهم قبل أن نشرع في المغادرة .

الآن بدأت أفكر أن خططنا قد أحبطت . عدة مصريين بما فيهم بعض النساء حاولوا الفرار إلي بربر . وقصدوا أن يتخذوا طريقهم من هناك عائدين إلي مصر ولكن تم اعتراضهم وأحضروهم ورموهم في القيود . وقد حدث أيضاً أن بعض الإغريق الذين كانوا يعيشون في القضارف ممن سرقت بضائعهم قد أحضروهم أيضاً إلي أم درمان وألقوهم في السجن لأنهم ظنوا أنهم ينوون الهروب إلي الإيطاليين .

كل هذا جعلني أتوجس واعتقدت أن من المحتمل أن يصدر الخليفة أوامر أشد صرامة ضد الأوروبيين . أخبرني أحمد أن لديه صعوبة كبيرة في شراء الجمال . فلم يجرؤ أن

يشتريها في السوق إذ أن ذلك سوف يثير الشبهات . وكان لديه أيضاً صعوبة كبيرة في إطعامها إذ من المؤكد أن تثير التعليقات إذا كان جمعها كلها في مكان واحد . على أية حال عالج الأمر بصورة جيدة . عندما يرى جملاً جيد المظهر نحو الغروب فإنه يتبعه حتى يصل إلي منزل مالكه ثم يعود في الصباح الباكر من اليوم التالي ويساوم عليه . وبهذه الطريقة حصل على ثلاثة جمال جيدة بسعر يتراوح بين ١٢٠ و١٥٠ ريالاً للجمل الواحد . وقام بتوزيعها على عدد من أصدقائه وقام بإطعامها جيداً . وفي نفس الوقت اعتاد أن يأتي أحياناً لرؤيتنا وأمرنا بأن نتمسك بالأمل بالرغم من تأخيرنا الاضطراري.

في الرابع والعشرين من نوفمبر حدثت الاضطرابات بين الخلفاء التي سردتها من قبل . قد بدت أن هذه أكثر لحظة مواتية للهروب . لكن أحمد لم يأت . وكنت نافد الصبر بصورة متهورة وذلك لأنني لم استطع حتى أن أعرف أين يسكن دون أن أثير الشكوك . في كل هذه الفوضى لم يرنا أحد وقد تفاديت رؤية أي أحد لئلا أصبح متورطاً في أي شيء يحدث . ليس لديَّ مزيد من الاستعدادات لأقوم بها لأن أحمد وعد بإمدادنا بكل شيء .

أخيراً وفي يوم الجمعة السابع والعشرين جاء إلي كوخي وتقرر أن نغادر في مساء الاثنين . وعندما لمته لعدم مجيئه أثناء اليوم أو اليومين الأوائل من الاضطرابات قال إنه فكر في ذلك أيضاً ولكن أحد أصدقائه قد تم حبسه لاشتراكه في شجار وقد اضطر إلي الانتظار إلي أن تم إطلاق سراحه .

أخبرني أحمد بأهم خبر وهو أنه لا توجد جمال ركوب في بيت المال فجميعها قد أرسلت إلي المديريات في أعمال مرتبطة بقمع الاضطرابات . لذلك لن يكون من الممكن تعقبنا في الحال . وهذه الاضطرابات قد جعلت جميع الأسرى الآخرين يفكرون أنها فرصة مواتية للفرار . ولكن باستثناء واحد ، لا أحد منهم عرف أن استعداداتي قد اكتملت وأنني سوف أغادر في اليوم التالي .

الباب الخامس والعشرون

على الجمال عبر الصحراء النوبية الكبرى

هرب الأب أورفالدر والراهبتين فنتوريني وشنكاريني – الركوب من أجل الحياة – لقاء مصادفة مع الحراس الدراويش قرب أبو حمد – إنذار المجموعة – الرحلة عبر الصحراء النوبية الكبرى – خمسمائة ميل على ظهور الجمال في سبعة أيام – الوصول إلي النقطة الخارجية المصرية في المُرَّات – سالمون أخيراً – الوصول إلي القاهرة .

في مساء الأحد ذهبت لأزور صديقاً ورجعت في الساعة التاسعة . حدث أن كانت هذه آخر زيارة أقوم بها في أم درمان . وبمجرد أن دخلت في ساحة بيتي هناك رأيت أحمد واقفاً أمامي . وأخبرني في بضعة كلمات مستعجلة أن أكون جاهزاً بأسرع ما يمكن فأصحابه قد ارتكبوا غلطة جاءوا مع الجمال قبل يوم من الموعد . الراهبتان وعديلة جميعهن جاهزات . أعطيت أحمد الأشياء القليلة الصغيرة التي كانت معي وكذلك أسلحتي وأخبرته أن يأخذ الراهبات إلي المكان المعين والذي كان يبعد حوالي ثلاثين ياردة فقط من الكوخ بينما ذهبت وأخبرت الشخص الوحيد الذي كان ملماً بالسر بقرارنا المفاجئ بالمغادرة قبل يوم من الموعد .

ذهب الآن جميع الخوف وأكاد أن أكون خارجاً عن طوري من الإثارة . أسرعت إلي منزل صديقي وطرقت على الباب . سأل من الداخل « من هناك ؟ » وعندما علم من أكون اندهش للغاية وسأل لماذا جئت في وقت متأخر جداً . ولما كان هناك شخص واقفاً بالقرب ، قلت له لقد ألم بي ألم شديد وجئت لأطلب قليلاً من اللودانوم (مستحضر أفيوني لتخفيف الألم) وعندما اقتربت منه ضغطت على يده وهمست في أذنه أننا على وشك المغادرة .

أجفل الرجل المسكين وكاد أن يسقط لولا أن أمسك بشيء . لكنني نبهته من هول المفاجأة بأن طلبت منه بصوت عال أن يحضر لي اللودانوم في الحال . وهكذا دخلنا إلي غرفته وهنا بيد مرتعشة وضع بضعة نقاط من الدواء على قطعة سكر . أخذت الدواء إلي المنزل حيث وجدت الراهبة قد غادرت للتو . ثم لففت نفسي في عباءة سوداء

وأغلقت الباب وأخذت المفتاح معي . رأيت شيئاً أسود على مسافة فعلمت أنها لا بد أن تكون الجمال وإلي هناك ذهبت . وفي لحظات قليلة وصلت إلي الموضع وساعدني رجل لا أعرفه على ركوب جملي ولكن لا يوجد وقت لإلقاء الأسئلة . وضع أحمد الراهبتين على الجملين اللذين ركب عليهما العربيان . بينما أركبت أنا عديلة خلفي على جملي .

على بعد أقل من ثلاثين ياردة من مكاننا كانت هناك بئر وحولها عدد من الإماء متجمعات ولكن الضوضاء القليلة الصادرة منا قد أغرقتها ضحكاتهن . لحظة الركوب ربما كانت هي أخطر وقت لأن الجمال لا تهدأ وترغي وتتوق للانطلاق . وبصعوبة شديدة استطاع العربيان إبقاء أفواه الجمال مغلقة . وسرعان ما أصبحنا على ظهور الجمال وانسلت بنا بسرعة في جوف الظلام . ومن وقت لآخر رأينا نيراناً يقوم الناس بطبخ طعامهم عليها أو يتحلقون حولها للإنس . ولحسن الحظ كانت ليلة باردة ولذلك معظم الناس داخل أكواخهم . تجاوزنا الموضع الذي دفنا فيه الراهبة المسكينة التي ماتت قبل فترة قصيرة . إن من المحزن التفكير في أنها ليست معنا الآن . ظللنا نتحرك بثبات إلي الأمام دون أن ننبس ببنت شفة . والجمال قد علفت جيداً بالذرة وسارت بسرعة بحيث لا نستطيع كبح جماحها إلا بصعوبة . حاولت أن أحدق خلال الظلام بينما كانت أذناي جاهزتين لالتقاط أضعف صوت للمطاردين المحتملين .

سرعان ما تركنا أم درمان بعيداً خلفنا . وفي مجرى خور شمبات ذي الرمال الناعمة نزلنا من الجمال لإعادة تعديل الرِّحال ثم ركبنا مرة أخرى وتابعنا رحلتنا بخطوات سريعة نحو الشمال متابعين شاطئ النهر .عددنا الكلي سبعة أشخاص وعدد الجمال أربعة . القائد هو أحمد حسن . وصديقاه هما حامد وعوض . ثم الراهبة كترينا شنكاريني والراهبة إليزابيتا فنتوريني وشخصي وعديلة .

كانت تهب ريح شمالية باردة . وقد جعلها تقدمنا السريع حادة كالسكين . اتبعت عادة العرب ولففت عمامة ضخمة حول رأسي ولم أترك إلا عيني مكشوفتين . مررنا بعدة قرى ولكن نباح الكلاب أعطانا دائماً تحذيراً ولذلك تفادينا القرى . لم أسمع كلباً ينبح لسنين عديدة لذلك كان صوتها ساراً للغاية بالنسبة إليَّ . قابلنا بعض الجلاَّبة راكبين

على حمير في طريقهم إلي أم درمان ولكن في الظلام لم يستطيعوا أن يتبينوا من نحن ، وتجاوزناهم بسرعة . فقط أحمد ظل في المؤخرة ليحييهم ويتبادل معهم الأخبار .

والآن فإن الطريق الضيق قادنا خلال شجيرات كثيفة لم نستطع رؤيتها بصورة ملائمة . ملابسنا وأيدينا وأرجلنا تمزقت وتخدشت بالأشواك ولكننا لم نهدئ من سرعتنا وواصلنا طريقنا بثبات نحو الشمال . يقولون إن « الوقت نقود » ولكن في حالتنا نحن فإن الوقت حياة . عبرنا مجاري أنهار جافة ، تتعثر فيها الجمال أحياناً وتسقط ومعها الركاب . ولكن لا وقت للتفكير في الآلام والكدمات . النهوض بسرعة والإمساك بالجمل وركوبه فقد يفلت منك ويضيع بسهولة في الصحراء . هذا كل ما لدى الشخص من وقت ليفكر فيه . لا أحد منا لديه ساعة . ولكن خلال الليالي الكثيرة التي أمضيتها دون نوم أصبحت معتاداً على ملاحظة النجوم وأستطيع أن أعرف الوقت بفارق لا يكاد يزيد عن خمس دقائق .

عند الفجر تماماً اقتربنا من قرية ود بشارة فاندفعنا بسرعة أكبر لكي نتجاوزها قبل طلوع النهار . تعتبر هذه القرية عموماً مسافة يومين شمالي أم درمان . وعندئذ تركنا الطريق المعتاد واتجهنا نحو الصحراء لأننا لا نجرؤ على السير بمحاذاة شاطئ النهر أثناء النهار . وعند شروق الشمس نستطيع أن نرى فقط الشريط الضيق من الخضرة الذي يحدد مجرى النهر . ما زلنا لم ننزل من ظهور الإبل ولكن اندفعنا إلي الأمام وإلي الأمام صعوداً ونزولاً من التلال وعبر امتدادات طويلة من السهول الرملية . أصبحت أعيننا محمّرة ومتورمة ولا نرى إلا بصعوبة وهي تؤلمنا ألماً شديداً .

في النهاية وبعد بعض الساعات توقفنا ونزلنا وأكلنا بعض البسكويت وشربنا بعض الماء وأعدنا تعديل رِحالنا ثم ركبنا وانطلقنا مرة أخرى . سافر ذهني راجعاً إلي أم درمان . هل اكتشفوا هروبنا في الحال ؟ ماذا سيحدث لمن تركناهم وراءنا ؟ كم سيكونون مندهشين عندما يجدوا أننا هربنا ! لكن هذا السياق من التفكير انقطع فجأة . إحدى الراهبات سقطت من الجمل وهي راقدة على الأرض فاقدة الوعي . رفعناها ورششنا عليها الماء وبعد وقت أفاقت ثم وضعناها على الجمل مرة أخرى وربطناها بإحكام على

الرحل . لا يوجد شيء آخر يمكن عمله – فالمسألة مسألة حياة أو موت . لذلك ركبنا واندفعنا باستمرار إلي الأمام في الصحراء بالنهار وفي محاذاة شاطئ النهر بالليل .

سألت أحمد عن الشخص الغريب الذي ساعدني على ركوب الجمل في أم درمان فأخبرني أن الجمال أصبحت قلقة شديدة الحركة من أثر التغذية الجيدة بحيث أصبح من المستحيل لرجل واحد أن يمسكها بينما جاء الرجلان الآخران إلي الكوخ ليأتيا بنا . لذلك أفضى إلي اثنين من أصدقائه بسره وجعلهما يقسمان على المصحف على ألا يخونانا . وبعد غروب الشمس مباشرة ركبا جملين بصورة علنية خلال مكان السوق وأسلحتهما معلقة عبر الرِّحال حتى يعتقد الناس أنها من جمال البريد فلا تثور شبهات.

أخبرني أحمد أيضاً عن المزيد من الصعاب التي واجهها في حفظ الجمال قبل هروبنا . اثنان منها ربطت في ساحة منزل امرأة فقيرة والاثنان الآخران وضعهما تحت مسئولية أحد أصدقائه . لكن هؤلاء المشرفين على الجمال خمَّنوا أن هناك شيئاً سوف يحدث وحثوا أحمد على المغادرة بأسرع ما يمكن لأنهم بدأوا يفكرون أنهم ربما تورطوا في الأمر . دفع لهم أحمد بسخاء شديد نظير خدماتهم . كذلك لجأ إلي السحر واستدعى الأرواح واستشار فكيّاً (فقيهاً) وقد تنبأ بأن الرحلة سوف تكون « بيضاء كاللبن » بمعنى أنه لن يقع فيها حادث مؤسف وأعطاه أحمد مقابل هذه النبوءة بقشيشاً كبيراً .

واصلنا رحلتنا دائماً على طول الضفة اليسرى للنيل فلا وقت للتوقف للنوم . وبين الفينة والفينة نمر برعاة من العرب في الصحراء يرعون قطعاناً من الماعز . وهم يحدقون فينا بتعجب ويوجهون أسئلة إلي أحمد الذي يتأخر دائما عنا بمسافة قصيرة عن قصد . رسم أحمد صورة قاتمة عن الانتفاضة الحديثة في أم درمان واصفاً كيف أن الخليفتين قد حارب كل منهما الآخر علناً وكيف أنه لم يسمع أي شيء ليلاً ونهارا خلاف أزيز المدافع وقعقعة البنادق . بينما القتل كان فظيعاً بصورة لا توصف . وأوضح أننا هاربون ممن تركوا الطرق المعتادة خائفين من أن حالة البلاد المضطربة قد تجعل الطرق غير آمنة بسبب ما عرف من أن عصابات من اللصوص تجوب الطرق .

هؤلاء الناس البسطاء الذين يكرهون المهدية تماماً صدقوا أي كلمة قالها لهم أحمد

ورأوا أننا عقلاء إذ هربنا وأعطوه كثيراً من اللبن حسبما أراد . واعتبر أحمد ذلك فَألاً حسناً .

وبالرغم من أن أحمد وأصدقاءه يعرفون الطرق المعتادة جيداً فلم يسبق لهم مطلقاً أن ساروا على نفس الطريق الذي اضطررنا لسلوكه تفادياً للأماكن المأهولة . وهكذا حدث أن اقتربنا من النهر أسرع مما توقعنا . وفي الحقيقة ، تقريباً قبل أن ندرك ذلك ، وجدنا أنفسنا بين المنازل في قرية مكاني التي كانت مخفية بالأشجار بحيث لم نرها . وعندئذ قابلنا مجموعة من الجلاّبة . وحسب نصيحة أحمد أبطأنا سرعتنا فوراً حتى لا نثير الارتياب . نظر إلينا هؤلاء الجلابة بنوع من الارتياب وحاولوا دون جدوى معرفة هدف رحلتنا . ربما تذكرونا فيما بعد عندما تصبح قصة هروبنا معروفة .

أخيراً ، بعد بعض الصعوبات خرجنا من القرية ومرة أخرى اتجهنا إلى الصحراء . ولكن عندما لمت أحمد لقيادتنا في طريق خطأ . وبشيء من المرح أجاب فقط « الله مرقنا ! » يعني الله خلصنا .

عندما ابتعدنا لبعض المسافة من النهر نزلنا وتناولنا وجبة خفيفة من التمر والماء . كانت أطرافنا متيبسة تماماً لدرجة أننا لم نستطع الوقوف منتصبي القامة . وكانت ملابسنا ملتصقة بالجروح التي أصابتنا أثناء ركوبنا عبر غابة الشجيرات الشوكية . يا له من أمر سار أن نقف على الأرض مرة أخرى ونمدّد أرجلنا المقيدة . وكم ذا كانت ستكون سارة غفوة قصيرة ! ولكن ما إن التهمت الجمال قليلاً من الذرة حتى قمنا وانطلقنا مرة أخرى . ما زلنا نسير في اتجاه شمالي . وما إن أصبحت الخدوش التي أصابتنا دافئة مرة أخرى حتى بدأت تؤلمنا بدرجة كبيرة . ولكن الشعور بأننا غير مطاردين والأمل المتزايد بأننا سوف ننجو حقاً شجعنا للتغلب على كل صعوبة . استقينا عند القبة على النيل حيث خيّم الإنجليز في ١٨٨٥م ومن ثم ركبنا بحذر بعيداً خارج قرية المتمه الكبيرة . نباح وعواء الكلاب جعل الجمال تسرع الخطو وسرعان ما كنا خارج رؤية عاصمة الجعليين .

وعندئذ بدأنا مناقشة كيفية عبور النيل . أحمد لديه صديق يسكن في قرية جنوبي

بربر مباشرة . وقد خطر له أنه من الممكن أن نعبر من هناك . فهرولنا بهدوء نحو القرية عندما قفز أمامنا فجأة رجل وصاح : « إنت مين ؟ » أي من أنت ؟ ولكن سرعان ما اكتشفنا أن الرجل قد فزع واعتقد أننا لصوص . إن ظهوره المفاجئ قد جعلنا نجفل بشدة واعتقدنا على الفور أن مطاردينا قد لحقوا بنا وأنه على وشك أن يتم إلقاء القبض علينا مرة أخرى . على أية حال أقترب أحمد من الرجل ، وفي أثناء مرورنا راكبين التفت إلي الرجل وتحدث إليه وهدأ من مخاوفه .

عندما اقتربنا من القرية نزلنا واختبأنا خلف شجيرات كثيفة بينما ذهب أحمد باحثاً عن صديقه الذي سوف يعدِّينا عبر النهر . وفي حوالي نصف ساعة عاد قائلاً إن ذلك مستحيل حيث أن المركب في الضفة الأخرى . وبالإضافة إلى ذلك فقد سمع أن مركبين قد مرا للتو في طريقهما إلى بربر وأن جميع الاضطرابات في أم درمان قد انتهت . وعلى أية حال فإنهم لم يسمعوا شيئاً عن هروبنا . لذلك ركبنا مرة أخري وواصلنا سيرنا شمالاً جميع تلك الليلة واليوم التالي .

وفي هذا اليوم الثالث لرحلتنا كنا على مرأى من بربر ونحو المساء نزلنا إلى النهر فيما يكاد يكون تماماً مقابل المدينة . ملأنا قِرَب الماء ثم رجعنا إلى طريق الصحراء مرة أخرى . لم نجرؤ على الاقتراب من النهر هنا حيث أن أعداداً من البقّارة كانوا يميشون في المناطق المجاورة . وفي حوالي منتصف الليل نزلنا من الإبل حيث أن أحمد لم يعرف الطريق . علفنا الإبل وتناولنا وجبتنا المعتادة من البسكويت والتمر والماء . وكذلك نجح أحمد في الحصول على بعض التبغ والغلايين المصنوعة من الفخار من صديقه . وهكذا دخّنا دون خوف من عقوبة وبدأنا نشعر أن هروبنا الآن يكاد يكون مؤكداً .

لكن ما زال أمامنا عبور النهر الذي حذرنا منه أصدقاؤنا العرب في أم درمان من أنه سيكون أحد أكثر أجزاء خطتنا حرجاً وخطورة . ركبنا مرة أخرى عند الفجر وواصلنا رحلتنا فوق هضبة صخرية لم يتعرف عليها أدلاؤنا . ثم سرنا كل اليوم خلال أودية ضيقة ممتلئة بالصخور الكبيرة التي اكتسحتها إلى أسفل السيول الجارفة . وأخيراً نحو المساء رأينا النهر مرة أخري ونزلنا نحوه من خلال ممر ضيق حيث اضطررنا إلى

النزول من الجمال حيث أنها لا تستطيع المرور إلا بصعوبة عبر الصخور الكبيرة التي تسد الممر . وبمجرد أن أصبحنا في السهل تعرف أدلاؤنا على الطريق . ووجدنا أنفسنا بالقرب من قرية بانقا حيث راودنا أمل في أن نتمكن من الحصول على مراكب لنقلنا عبر النهر .

تقدمنا الآن بحذر شديد ناظرين حولنا في كل اتجاه . وقد رأيت من بعيد ثلاثة رجال على جمال وهم ينطلقون بوضوح في اتجاه أبو حمد . وفي الحال لفت انتباه أحمد لذلك . وبالرغم من أنهم بعيدون فيمكن أن يكونوا قد رأونا . لذلك نصحنا أحمد بأن ننزل على الفور ففعلنا وأخفينا أنفسنا في خور بين بعض الشجيرات .

أحمد ورفاقه لم يكونوا ـ وأستطيع أن أرى ذلك ـ متوجسين ولو قليلاً من ظهور الرجال الثلاثة ، وبدأوا يتحدثون إلى بعضهم بلهجتهم الخاصة . لكنني خمنت من التعابير على وجوههم ما كانوا يفكرون فيه وهو أن هروبنا قد اكتشف وأن أخباراً أرسلت إلي بربر . والآن الرجال الثلاثة في طريقهم لتحذير أمير أبو حمد لاعتراضنا . حاولت أن أبرهن لهم أن من المستحيل تماماً أن تصل الأخبار حتى الآن إلى بربر حتى ولو أنهم أبلغوا الخليفة بهروبنا في الصباح التالي لفرارنا . فمن غير المرجح أن تكون المطاردة قد بدأت قبل المساء وأننا بهذا قد حصلنا على أربع وعشرين ساعة متقدمين عليهم . كنا عندئذ على بعد أربع ساعات شمالي بربر وكنا قد أمضينا ثلاثة أيام ونصف منذ خروجنا من أم درمان . لذلك فإن مطاردينا حتى لو أنهم ركبوا بنفس السرعة والإصرار فليس من الممكن أن يكونوا قد وصلوا إلى بربر حتى الآن . لكن حسابي لم يقنع أدلاءنا بأية صورة من الصور . وبعد مشاورات طويلة ذهب أحمد وعوض نحو النهر على بعد حوالي أربع أميال بينما بقي حامد وراءهم ليرعى الجمال .

الآن حان الوقت لأخذ بضعة ساعات من النوم قبل أن يجئ الليل . فخلال الأيام الثلاثة ونصف اليوم التي كنا مسافرين فيها لم نأخذ إلا أربع ساعات من النوم . كنا مجهدين للغاية . وجباتنا البسيطة من البسكويت والماء لم تزودنا بكثير من التغذية . أطرافنا أصبحت في غاية التيبس بحيث أننا نادراً ما نتحرك وجروحنا تكشفت أنها

أكثر تهيجاً . تحت مثل هذه الظروف يمكن أن يفهم جيداً كيف يكون النوم مرحباً به . لكن ظهور هذه الجمال الثلاثة وتوجس الأدلاء وقلقنا من عبور النهر طرد كل فكرة للراحة . وكل ما يمكن فعله هو أن ننتظر بما نعرفه من صبر عودة العربيين .

أخيراً وعند غروب الشمس مباشرة عاد أحمد وعوض بكثير من الفرح . لقد قاما بتحريات عن الرجال الثلاثة راكبي الجمال واكتشفوا أنه ليس لديهم شيء يتعلق بنا وأنه لم يعرف شيء حتى الآن عن هروبنا . وقد قام العربيان بإجراء الترتيبات مع صاحب مركب لتعديتنا عبر النهر بحجة أنهما يقودان مجموعة صغيرة من الرقيق سيقومان بتسليمهم إلي أمير أبو حمد . هذه الأنباء المرضية للغاية بددت تعبنا وأكلنا بسكويتنا وتمرنا البائس بشهية ممتازة . وبمجرد أن أظلمت الأرض تحركنا نحو النهر ونزلنا من الجمال قريباً من حافة الماء . وحتى ذلك الوقت لم يظهر أثر لصاحب المركب ولكن رأينا ولدين يجدفان نحونا .

في نفس الوقت ذهب أحمد إلى منزل قريب لإحضار بعض الذرة ثم جاء صاحب المركب وأعلن أنه لا يستطيع تعديتنا في تلك الليلة ، وأنه لابد لنا أن ننتظر حتى الصباح . هذا ما لا يمكن فعله . ليس فحسب أننا سوف نفقد ليلة كاملة بل أنه بلا شك سوف يمكن التعرف علينا في ضوء النهار . على أية حال لم تكن هناك جدوى من الكلام أما الرجل فذهب إلى كوخه . ولكن ذلك لم يثبط من همتنا لأنه إذا سارت الأمور إلى الأسوأ فإننا نستطيع أن نجدف المركب بأنفسنا عبر النهر .

عند هذا الوقت وصل الولدان إلى الضفة وتقدما وعرضا أن يعبرا بنا إلى الضفة الأخرى . بالطبع وافقنا وفي فترة قصيرة لا تصدق أدخل الأدلاء الجمال إلى المركب . كان مركباً كبيراً بحيث عبرنا جميعنا معاً . وعندما وصلنا إلى الضفة الأخرى أعطي أحمد الولدين ريالين وكانا مسرورين غاية السرور وقبلا أيادينا وتمنيا لنا رحلة سعيدة . ثم رجعا إلى الضفة الغربية . سقينا الجمال وملأنا القِرب بالماء وركبنا ومرة أخرى اتجهنا شمالاً .

الوقت الآن تجاوز منتصف الليل . الجمال قد انتعشت بالراحة والعلف الجيد واندفعت

بسرعة وخلال تلك الليلة وكل اليوم التالي واصلنا السفر دون انقطاع أو حادث مؤسف . لا أحد يُرى في هذه الصحراء الموحشة . ولكن أحياناً نمر على قطعان من الظباء والأرانب وقليل من الضباع . تقف الظباء على بعد عشرين خطوة وترفع آذانها وتنظر بفضول إلى القافلة الغريبة .

كان الجو بارداً جداً عندما غادرنا أم درمان . ولكن الآن تغير الجو تماماً وشعرنا بأنه حار خانق . رأينا السراب بصورة دائمة وكثيراً ما خدعنا به . نحن وجمالنا بدأنا الآن نعاني . لقد استوقفني كثيراً التغير في مظهر هذه الجمال . فالسنام السمين والعنق الغليظ اللذين رأيتهما في أم درمان قد انخفضت إلى نصف حجمها . في البداية كانت لدينا صعوبة شديدة في كبح تقدمها السريع . أما الآن فهي مجهدة للغاية بحيث تحتم مواصلة ضربها كل الوقت . وأخفافها تآكلت بحيث أن وطأها على حجر يجعلها تقفز جانباً . ولإراحة الإبل كان الرجال الأربعة ينزلون بالتناوب ويقودونها لبعض المسافة .

يقع طريقنا عبر سهل عريض تتخلله شجيرات صغيرة . وعندما مررنا بإحدى هذه الشجيرات لاحظ أحمد أفعى أخافها اقترابنا فحاولت الهرب . وفي الحال قتلها بضربة من سيفه ثم مدد جسمها وقفز فوقه ثلاث مرات بطريقة فيها استثارة قوية . وعندئذ هنأ الأدلاء بعضهم بعضاً قائلين إنه لا يوجد بعد الآن شيء نخشاه وأننا قد قهرنا أعداءنا . هذا الاستعراض للشجاعة من جانب الأدلاء قد سرني كثيراً . مرة أخرى ركبنا واتخذنا طريقنا إلى أبو حمد حيث نوينا أن نتزود بالماء لآخر مرة قبل دخول الصحراء النوبية الكبرى .

في الليلة التالية وقعت حادثة أفعى أخرى ولكنها انتهت بطريقة أخرى نوعاً ما . كنا نعبر مكاناً صخرياً عندما انحرف جمل المقدمة فجأة إلى جانب وسمعنا صوت هسهسة والذي عرفنا أنه لابد أن يكون أفعى ولكن الظلام دامس بحيث لا يمكن محاولة القبض عليها . هذه الواقعة أخافت العرب خوفاً شديداً إذ نظروا إليها كفأل سيء . ومن الغريب تماماً أنه عندما اقتربنا من أبو حمد حدثت واقعة أكدت تماماً خرافات العرب .

في اليوم التالي وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً رأينا الجبل الذي يعتبر معلماً يبيّن

المكان الذي نوينا أن نتزود عنده بالماء . توقعنا أن نصله في ظرف ثلاث ساعات وهناك نوينا أن نرتاح بينما يأخذ العرب الجمال إلى النهر . لكن بطريقة ما ذهبنا بعيداً إلى الشرق ولم نكتشف غلطتنا لبعض الوقت . وكان الوقت منتصف الليل بدلاً من منتصف النهار عندما وصلنا الجبل . هذا الجبل شكله مثل وتدين بينهما الطريق وتهب الريح بقوة من خلال هذه الفرجة حتى لتكاد أن تقذف بنا من الجمال .

حذرنا أحمد بأن نصمت صمتاً مطبقاً أثناء نزولنا فوق المنحدر الصخري ووصلنا إلى النهر أخيراً . هنا يتدفق النهر العظيم بسرعة وصمت عند سفح صخرة عظيمة ويقطع السكون أحياناً رشاش كثير من الأسماك التي تفرح باللهو في هذه الأعماق الباردة . مكان الاستقاء هذا معروف باسم مُشرع الدحيش وهو حوالي ستة أميال جنوبي أبو حمد . قليل من أشجار الدوم والشجيرات قامت على الضفة المنحدرة وانعكاس النجوم اللامعة في النهر الساكن لا تستطيع إلا أن تجعل المرء يشعر بالإعجاب بالعزلة العظيمة لهذا المكان . انحنيت إلى أسفل وغرفت الماء في يديّ وأنعشت حلقي الجاف . ثم أنزلنا الرِّحال من الجمال وملأنا قِرب الماء وأكلنا بعض البسكويت . أردت أن أغسل وجهي وعيوني التي تؤلمني من الشمس الحارقة والرمال ولكن أحمد أعطى الأمر بالركوب .

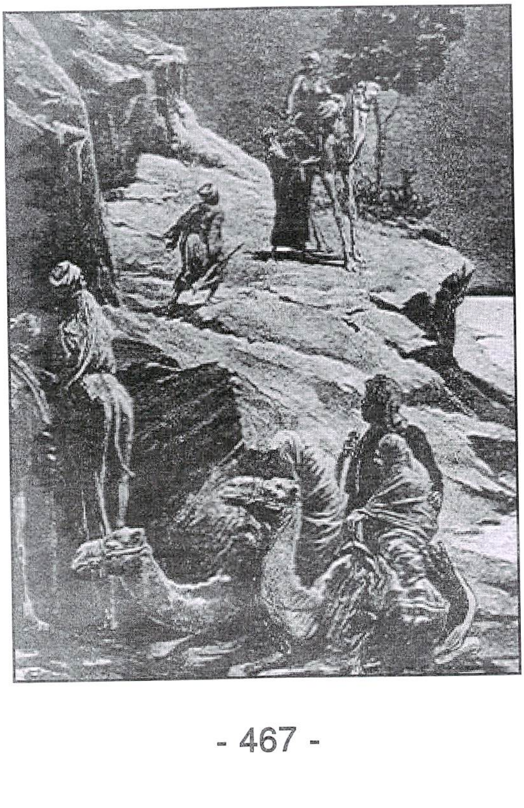
كانت أطرافنا متيبسة وأضعف من أن نستطيع الوقوف منتصبي القامة وأما بالنسبة للراهبات المسكينات تحتم على أحمد أن يرفعهن ويضعهن على الجمال . وهن من الضعف بحيث لا يستطعن الحديث . قدنا الجمال عبر الممر الصخري الضيق بقصد الركوب عندما نصل الأرض المنبسطة . كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير وكنا نهنئ أنفسنا على تجاوز النقطة الحرجة الأخيرة . آملين أن نكون عند طلوع الفجر قد غادرنا النهر الذي ينثني غرباً بعيداً خلفنا .

ما كدنا نبتعد عن النهر عشرين خطوة عندما سمعنا فجأة صوت جمل . كدنا أن نسقط من الفزع . ولكن أحمد والأدلاء ذهبوا نحو مكان الصوت . وهناك رأوا رجلاً على جمل وهو مسلح ببندقية رمنجتون ، وهو يحدق فينا من وراء شجرة دوم . لكن كان الظلام أشد من أن يتعرف على وجوهنا البيضاء . ذهب إليه أحمد في الحال وأمسك

بندقيته بيده اليسري ومد يده اليمنى لمصافحته وطالباً منه في نفس الوقت أن ينزل .

ربما توجس الرجل من طريقة أحمد النشطة في المشي والكلام فنزل في الحال وانضم إلي الأدلاء . في البداية ظننا أن هناك أوامر قد وصلت من أم درمان لاعتراضنا ولكن لحسن الحظ أن الأمر لم يكن كذلك . قال الحرس (وقد تبين أنه كذلك) إنه أرسل من بربر للتأكد من أن التجار المصريين لم يصدروا رقيقاً من السودان إلي مصر . وحكى كيف أنه تم القبض في اليوم السابق على تاجر مع خمسة عبيد ولكن أطلق سراحه مرة أخرى بعد إيداع قيمة العبيد . وعندئذ سأل الحرس أحمد إن كان أحضر أي عبيد فأجابه بالإيجاب .

أصر الحرس الآن على أحمد أن يذهب إلي أبو حمد ليقابل الأمير هناك . وليس هناك أي قدر من الجدل يقنعه بألا ضرورة لفعل ذلك . جاء حامد الآن وأخبرني بما حدث ولكن حيث أنه كان مرتبكا حدث أن قال لقد ضعنا . هذه الكلمات وصلت إلي أذن إحدى الراهبات فأفزعها ذلك فزعاً شديداً بحيث سقطت من الجمل ولربما كانت أصيبت إصابة خطيرة لولا أننا تلقيناها قبل أن تصل الأرض .



ما كدنا نبتعد عن النهر عشرين خطوة عندما سمعنا فجأة صوت جمل .

أعطيت حامد سكيني الطويلة وأبلغته أن يفعل ما يستطيع لكسب الرجل بالمال ولكن إذا وجد ألا جدوى من ذلك " حسناً ! فنحن أربعة مقابل واحد " فهم حامد تماماً ما قصدته ثم رجع إلى الآخرين . المحادثة ما زالت مستمرة لمدة طويلة . أخيراً رجع العرب . وضعنا الراهبات على الجمال فوراً ثم ركبنا نحن . إرهاقنا زال وحتى الجمال يبدو أنها شمت الخطر فقد انطلقنا بخطوة سريعة وسرعان ما غبنا عن الأنظار .

هذه الواقعة جعلتنا نتذكر بقوة أننا مازلنا في إقليم الخليفة . أفكار غريبة عبرت بذهني في تتابع سريع : أم درمان ، الخليفة ، السابر الإساءات غير المحتملة ثم الموت . جميع هذه تنتظرنا إذا أخفقنا في محاولتنا . لكن عندئذ واسيت نفسي بفكرة أنه لا ينبغي أبداً أن نؤخذ أحياءً . لقد اتفقنا على ألا نستسلم أبداً . بهذه الحالة الذهبية غادرنا مُشرع الدحيش وركبنا ليل نهار لإنقاذ حياتنا . الجمال المسكينة أصبحت هياكل عظمية ونحن كذلك لسنا سوى جلد وعظم .

أخبرني أحمد أن الحرس عندما عرفه أظهر نفسه كصاحب مزاج طيب ووعد بألا يخوننا . ولكن أحمد لم يثق فيه . ولذلك لم يدعه يذهب إلى أن قبل بعض المال . لقد ضغط في يده مبلغ عشرين ريالاً . قبل الحرس المبلغ بعد أن أخذ من أحمد وعداً قوياً بألا يحاولوا الانتقام منه أو من قبيلته . المناصير . عند عودتهم إلى كورسكو . وأقسم الحرس كذلك قسماً مغلظاً بألا يخوننا أو يتابعنا وبالإضافة إلى ذلك وعد بمنع الدوريات من الذهاب إلى داخل الصحراء لمدة ثلاثة أيام حتى يجعلنا بعيدين عن طريق الخطر . وعندئذ تعانقوا وقبلوا بعضهم كعلامة على الإخلاص .

على أية حال بالرغم من كل هذه الأيمان المغلظة لم أثق في الرجل . تذكرت مصير البائس العقيد ستيوارت ورفاقه . تذكرت أنهم قتلوا بوحشية من قبل المناصير الجبناء الخونة . لذلك أسرعنا بجمالنا إلى الأمام بكل السرعة الممكنة تاركين أبو حمد بعيداً على يسارنا .

أسفر الصبح كالعادة وسرعان ما ارتفعت الشمس وهي تتقد بشراسة أكثر مما مضى

ولكن ذلك لم يهمنا . فقد كنا مستغرقين للغاية في الأحداث الهامة التي حدثت للتو . مر طريقنا عبر سهل منبسط تماماً حيث لا ترى فيه شجيرة أو ورقة حشائش . ومررنا بآثار تاجر الرقيق المقبوض والدوريات . وفي ذلك المساء دخلنا في طريق القوافل المؤدى من أبو حمد إلى كورسكو . يمر الطريق عبر جبال عظيمة جرداء وأودية مهجورة . وقد دفعت الرياح الرمال تقريباً إلى قمم الجبال وملأت جميع الشقوق بركام الرمال.

وبمجرد أن أصبحنا وسط الجبال عادت إلينا شجاعتنا لأننا عرفنا أننا سوف نستطيع الدفاع عن أنفسنا . لذلك نزلنا وأكلنا آخر ما كان لدينا من بسكويت . والآن كل ما بقي لدينا هو الماء وهو بالمناسبة غال إلى حد ما حسب ملاحظة مرحة إذ كلفنا عشرين ريالاً .

بعد راحة قصيرة واصلنا السير مرة أخرى ولكن كل منا ومن جمالنا كان في غاية الإجهاد . ذراعي اليمني تؤلمني من ضرب الحيوان المسكين باستمرار بالسوط . ورفاقنا العرب قد خففوا علينا متاعب الطريق بمئات من النوادر المسلية عن صحاريهم . حكوا كيف أن عربياً وست نساء مصريات هربوا عند سقوط بربر . ولكن الرجل قد أحضر جملاً أو اثنين فقط وقليلاً جداً من الماء . لذلك مات أربعة منهم من العطش . وأشاروا إلي النقطة التي وصل إليها رندل بك عندما استطلع أبو حمد في ١٨٨٥م. الطريق معلَّم بعظام الجمال والحمير . وقبل ظهور المهدي كان طريق تجارة مستعمل كثيراً .

محمد علي باشا ركب على طول هذا الطريق تحت إرشاد حسين باشا خليفة . عبَّر محمد على بصورة مستمرة عن رغبته في التوقف ولكن دليله لم يسمح له بالنزول إلا في أماكن معينة قائلاً له : " أنا القائد هنا " وقد وافق محمد علي على ذلك عن طيب خاطر لأنه علم تماماً أن رفضه أن يعمل كما أمره شيخ الصحراء في تلك الصحراء المخيفة قد تتلوه نتائج خطيرة للغاية .

اقترابنا من ملاذ سلامة أعطانا شجاعة لنتحمل إجهاداً فظيعاً جداً . إلى حد بعيد فإن عدونا الأسوأ هو النوم . فمن المستحيل تماماً بالنسبة لي أن أصف الهجمات المخيفة التي شنها علينا هذا العدو الطاغية . لقد حاولنا كل وسيلة في استطاعتنا لنبقي

مستيقظين . صحنا وتكلمنا بأصوات عالية لبعضنا البعض . وقد حاولنا ترويع أنفسنا بتعمد خضة مفاجئة وقرصنا أنفسنا حتى سال الدم ولكن جفوننا كانت ثقيلة مثل كرات من معدن الرصاص وقد اقتضى بقاء عيوننا مفتوحة مجهوداً مخيفاً . " ما تناموا " ظل أحمد يردد " وإلا فإنكم ستسقطون وتكسرون أرجلكم " .

لكن كل ذلك دون جدوى . يفتر الحديث ثم يتلوه صمت . ويبدو أن الجمال تعرف أن راكبيها نائمون فتهدئ غريزياً من سرعتها . يستمر الرأس في الانحناء لا إرادياً من النعاس إلى أن تستند الذقن على الصدر وبانتباهة مفاجئة يستعاد التوازن الذي كاد أن يفقد وعندئذ يطير النوم .

أحيانا نصيح لبعضنا البعض بكلمات تشجيع ثم نضرب جمالنا بالسياط ونواصل مرة أخرى صعوداً وهبوطاً وخلال سهول رملية ومضايق صخرية حيث تعيد الأصداء نفسها مئات المرات . هدفنا الوصول إلى المُرَّات حيث تذكرنا أن غردون قد أصدر أوامر لحفر بئر وهو ما لم ينفذ قط .

قال أحمد إنه علينا أن نكون في المُرَّات في صبيحة السابع من ديسمبر . وأخبرنا كيف أن الدراويش يلاحقون الهاربين أحياناً إلى هذا المكان . وقبل زمن ليس بالبعيد قتلوا شخصاً بالقرب من هنا . جمالنا البائسة أصبحت الآن تجر أطرافها المجهدة ببطء شديد . والسوط الآن لا فائدة منه تماماً إذ أنه ليس له أدني أثر في زيادة سرعتها . بجانب ذلك ، إنه من المؤلم بالنسبة لي ضرب مخلوقات طيبة ساعدتنا على الهرب . كنا مجهدين للغاية بحيث أننا نجحنا بصعوبة كبيرة في البقاء على ظهور جمالنا . فالجوع وعدم النوم والكلال التام قد قهرتنا تماماً وجروحنا تؤلمنا وتثيرنا ولكن الشعور بأننا نكاد أن نكون آمنين كان كالبلسم لكلا الذهن والجسد .

قبل غروب الشمس مباشرة دلفنا إلى خور يؤدى إلى المُرَّات . الطابية التي تغطي الآبار كانت مرئية على التلال يعلوها العلم الأحمر وعليه هلال ونجمة بيضاء في منتصفه . " أحمد " صحت " حيِّ علم الحرية ! " وأمسك مخلِّصنا الشجاع ببندقيته وأطلق طلقة وراء طلقة في الهواء ليعلن وصولنا للحامية المصرية . فتردد صدى هذه الطلقات مرات

ومرات في الوديان العميقة كأنما تشاركنا في فرحتنا بالخلاص من أيدي الخليفة عبد الله القاسي . وكأنما تعلن " إطلاق سراح أرواحنا من تحت فروة صلاته " . هذا تعبير كان الخليفة يستخدمه بفرح عندما يتحدث عن أعدائه المقبوض عليهم الذين أرواحهم كما يقول تقبع تحت فروته ويعني بذلك أن أرواحهم تحت قبضته كلياً .

الآن نحن في أمان بالفعل . صلاة بأعمق الشكر صدرت من أعماق قلوبنا الشاكرة . إنه من المستحيل أن نجد كلمات تعبر عما كنا نشعر به عندئذ . يبدو أن جمالنا استجمعت قواها لآخر مجهود حتى تقدمنا بصورة محترمة إلى العبابدة الذين بدأوا يخرجون لمقابلتنا .

أحدث دوي بنادقنا في البداية بعض الحراك في الحامية الصغيرة التي خشيت هجوماً مباغتاً وقد خرجت بكامل سلاحها ولكنهم سرعان ما عرفونا وجاوبوا تحيتنا بإطلاق أعيرة في الهواء . هؤلاء الناس الطيبون استقبلونا بلطف شديد وسألونا ألف سؤال وهم يحيطون بنا وأحضرونا إلى كوخ القائد . هنا في الثامن من ديسمبر عيد الحبل بلا دنس المسيحي نزلنا من جمالنا والآمال التي حفظتنا أحياء لسنوات قد تحققت أخيراً . هذه اللحظة العظيمة التي تحدثنا عنها كثيراً مع رفاقنا في المحنة والتي فكرنا فيها وحلمنا بها وصورناها لأنفسنا ، هذه اللحظة اللذيذة قد جاءت أخيراً وقد أصبحنا أحراراً !

لكن آثار الجوع والإجهاد والمناظر والمشاهد التي مررنا بها خلال الشهر الأخير لم تختف بسهولة . يبدو أن مشاعرنا قد تبلدت . وأول فكرة عند دخولنا كوخ القائد كانت الرقاد على الأرضية والانخراط في النوم ولكن من الغريب القول إن النوم قد طار من أعيننا . جلسنا نتجاذب الحديث مع العبابدة الذين صدقوا بصعوبة أننا استطعنا خاصة الراهبات أن نعيش بعد هذه الرحلة . لقد قطعنا المسافة بأكملها والتي تبلغ ٥٠٠ ميل بين أم درمان والمُرَّات في سبعة أيام بما في ذلك اليوم الذي أمضيناه متجولين في الجبال قبل عبور النهر .

إن قدرة التحمل لجمالنا قد أدهشتني . كم كان من السهل أن يتعثر أحدها ويكسر رجله عندما هرولنا بشدة خلال الليالي المظلمة ونحن لا نستطيع أن نري أين نحن

ذاهبون ! ولكن أحمد ورفاقه قد استخدموا كل معرفتهم في الحصول على جمال جيدة تماماً . وأدلاؤنا الممتازون كانوا مستعدين دائماً لمساعدتنا وهم ممتلئون بالنشاط والشجاعة . لقد نفذوا مشروعهم بمنتهى الحصافة والنزاهة .

أحمد المسكين قد تضاءل وزنه إلى هيكل عظمي تقريباً . وعندما نزل في المُرَّات غلبت عليه نوبة من الدوار لم يستفق منها لمدة ساعة .

وفي الوقت نفسه أنعشنا أنفسنا بكوب من القهوة وبعض الخبز واللبن الذي قدمه لنا القائد محمد صالح مما أعاد إلينا الحيوية بصورة كبيرة . تقع المُرَّات في الصحراء حوالي منتصف المسافة بين كورسكو وأبو حمد . وهنا تتصل ثلاثة أودية ببعضها في شكل فوهة بركان وقمم التلال متوجة بطوابي صغيرة بناها العبابدة ومن هنا يستطيعون حراسة الآبار الرئيسية . وبجانب ذلك الرؤية لمسافة بعيدة في كل الاتجاهات .

هذه أكثر محطة خارجية متقدمة تابعة لمصر ويحرسها عرب العبابدة التابعون لصالح بك ابن حسين باشا خليفة . هؤلاء الناس يعيشون بصورة بسيطة جداً في جوف هذه الصحراء العظيمة يأخذون موادهم الغذائية شهرياً من كورسكو . هناك عدة آبار ولكن الماء مالح . وفي الصيف يكاد أن يستحيل شربه بالرغم من أنه لا بأس به في الشتاء . ولكن لا زال معنا بعض من ماء النيل الذي كلفنا كثيراً في مُشرع الدحيش . وبالقرب من الآبار هناك كوخ صغير بني وفقاً لأوامر غردون .

إن المُرَّات هي أكثر نقطة موحشة ومعزولة . وهي حارة بصورة غير محتملة في الصيف عندما تنعكس أشعة الشمس الرهيبة من جميع جوانب الوادي العميق الذي يشبه حفرة البركان الذي تقع فيه . في نفس اليوم الذي وصلنا فيه وصل أحد أبناء أخ أحمد حسن إلى المرات من كورسكو وأعطانا بعضاً من التمر والدقيق الذي كان يحمله إلى السودان . وغادر إلى أبو حمد في اليوم التالي . ولا شك أن أنباء وصولنا سالمين سرعان ما أعلنت في أم درمان .

خلال اليومين الثامن والتاسع من ديسمبر خلدنا إلى الراحة . أمدنا محمد صالح ببعض البسكويت . وفي اليوم التاسع بدأنا رحلتنا مرة أخرى من المُرَّات إلي كورسكو .

فالراحة التي أخذناها قد أنعشتنا كثيراً . والآن نستطيع أن نركب بهدوء دون خوف من المطاردة . أحد أدلائنا كان يركب على ناقة زودنا بها القائد وقد أعطتنا كثيراً من اللبن . كان حوارها الصغير قد مات قبل بضعة أيام من تحركنا . وقد قام صاحب الناقة بسلخ جلد الحوار . والآن متى ما احتجنا إلى لبن علينا فقط أن ننشر الجلد أمام الناقة وندعها تشمه .

الآن نركب فقط أثناء النهار ونرتاح ليلاً . نزلت أمطار غزيرة قبل حوالي شهر . وقد وجدنا خزاناً من الماء الصالح علي بعد حوالي يوم من المُرَّات . بعض أفراد حامية المُرَّات ذهبوا إلى كورسكو قبل وصولنا للحصول على رواتبهم الشهرية وهم الآن راجعون . وحدث أن خيّموا بالقرب من هذا الخزان الطبيعي . وعندما رأونا اعتقدوا أننا من الدراويش فاندفعوا إلى أسلحتهم واتخذوا موقعاً خلف صخرة ووجهوا بنادقهم إلينا . ولكن أحمد الذي عرفهم في الحال صاح فيهم فأسرعوا إليه طالبين العفو للخطأ الذي وقعوا فيه . وأعطونا بعضاً من الدقيق والتمر والتبغ وتجاذبنا معهم أطراف الحديث إلى حلول المساء .

لم نتوقف وقوفاً طويلاً بعد ذلك . وفي الصباح الباكر من اليوم الثالث عشر من ديسمبر وصلنا إلى كورسكو . وفي الوادي العميق الذي يفضي فجأة إلى النيل في هذا المكان نزلنا ونظفنا أنفسنا بقدر الإمكان ثم ركبنا جمالنا لآخر مرة وسرعان ما رأينا أولاً أشجار النخيل ثم النيل الذي رأيناه آخر مرة في أبو حمد . وفي الحال أحاط بنا عدد من الناس الذين حملونا إلى الطابية وهنا حيانا بود شديد القائد المقدم على بك حيدر . ولأول مرة لسنوات عديدة وجدنا أنفسنا مرة أخرى في غرف مريحة ونستمع إلى موسيقى فرقة الفوج التي استمتعنا بها كثيراً .

وفي مساء الخامس عشر من ديسمبر ركبنا باخرة أخذتنا بارتياح إلى أسيوط . وهنا حيانا السيد سانتوني والأخ ساير الذي وجهته بعثة القاهرة الكنسية ليصعد إلينا في الباخرة ويرحب بنا . ومن أسيوط أخذنا القطار إلى القاهرة حيث وصلنا بسلام في الحادي والعشرين من ديسمبر ١٨٩١م .

الانتقال السريع من البربرية إلى الحضارة ورحلتنا اللطيفة من كورسكو إلى القاهرة والتخاطب مع أناس متعلمين وتغير المناظر الذي لا ينقطع. جميع ذلك أثر علينا تأثيراً كبيراً . ولكن فرحنا وبهجتنا بالحرية قد شابهما الأسى بعض الشيء عند التفكير في معاناة رفاقنا في المحنة الذين تركناهم وراءنا في العبودية والأسر . أدلاؤنا رافقونا إلي القاهرة حيث تلقوا المبلغ المتفق عليه . وقد شعرنا بكثير من الشكر لأحمد حسن النشط ورفيقيه ولكننا ندين بدين كبير لرئيس أساقفتنا سوقارو لأنه عن طريق وساطته نفذت جمع الترتيبات لإطلاق سراحنا السعيد .

وقد يكون من المفيد أن ندرج هنا أحكام الاتفاقية التي أبرمت باللغة العربية بين السيد سوقارو وأحمد حسن فيما يتعلق بإطلاق سراحنا . النص كالآتي :

" أنا الموقع أدناه ، أحمد حسن العبادي ، من عرب باشري محمد على ، أوافق على الذهاب على الفور إلى أم درمان لإحضار الأب أورفالدر والراهبتين من أم درمان إلى القاهرة . وأوافق على العناية بهم أثناء الرحلة وأن أفعل كل ما في استطاعتي لإحضارهم هنا ولإرضائهم كل الإرضاء وكمكافأة لتعويضي عن النفقات التي سوف أتكبدها بين أم درمان والقاهرة فقد وافق السيد سوقارو أن يعطيني :

" ١ . جميع البضائع التي تبلغ قيمتها ١٠٠ جنيه الموجودة الآن في حوزة الشيخ عبد الهادي في كورسكو .

" ٢ . ٢٠ جنيهاً كمقدم قبل مغادرة القاهرة .

" ٣ . عند رجوعي من أم درمان مع الأب أورفالدر والراهبتين مبلغ ٣٠٠ جنيه أي ١٠٠ جنيه عن كل شخص .

" هذه هي الاتفاقية بيني والسيد سوقارو وقد أبرمتها بمحض إرادتي الحرة وموافقتي ولم يحدث أن أجبرت على فعل ذلك من أي شخص . السيد سوقارو وشخصي وقعنا هذه الاتفاقية وونجت بك مساعد رئيس أركان حرب للاستخبارات كشاهد . هذه

الاتفاقية سوف تحفظ في وزارة الدفاع حتى أعود من أم درمان مع الأشخاص الثلاثة المذكورين أعلاه . وسوف أعامل وفقاً لمحتوياتها .

التوقيع

أحمد حسن العبادى

من مديرية السيَّالة الحدودية

" ليون هنريوت (عن السيد سوقارو) "

" القاهرة في التاسع من يوليو ١٨٩١م "

أدناه كتبت بالإنجليزية :

" هذه اتفاقية خاصة بين السيد سوقارو وأحمد حسن العبادى الذي يغادر القاهرة إلى أم درمان في يوم الجمعة العشرين من يوليو ١٨٩١م وسوف يحاول إحضار الأب أورفالدر إلى مصر

" شهدت على ذلك أنا ف . ر . ونجت

قائمقام

مساعد رئيس أركان حرب ، استخبارات ـ الجيش المصري

وزارة الدفاع التاسع من يوليو ١٨٩١م " .

كنت بالطبع قلقاً للغاية لسماع ما حدث في أم درمان بعد مغادرتنا . اعتقدت أن هروبنا سوف يظل غير مكتشف في تلك الليلة واليوم التالي وربما في الليلة التالية . لكن الأمر لم يكن كذلك . في وقت مبكر من صباح الثلاثين من نوفمبر اكتشف غيابنا بواسطة بعض النسوة اللائي كن يقفن أمام باب بيتي . لقد رأيننا وقد اندهشن لأننا ما

كنا نغادر البيت عادة بعد غروب الشمس .

فكرة الهروب ربما لم تخطر ببالهن في الحال ولكن شكوكهن قد ثارت . وفي الصباح الباكر طرقن على بابي ولما لم يتلقين إجابة حكين ما كن رأينه إلي أمة جارى التي أبلغت بدورها سيدها . وقام هو في فزع شديد بحمل المعلومات إلى مقدوم الأوربيين . هذا الرجل مصحوباً بكثير من أصدقائي أسرعوا إلى منزلي وعند كسر الباب تأكدوا من هروبي من رسالة كتبتها وتركتها ورائي . واضطر الرجل البائس لينقذ حياته أن يخبر الخليفة على الفور . وأمر الخليفة شيخ السوق أن يجدنا حتى ولو كنا قد دفنا في الأرض . ود الريِّس أغلق لذلك جميع المنازل واعتقل كل واحد يمكن أن يكون قد علم بهروبي والقاهم جميعاً في السجن مقيدين مع تهديد بالشنق والذبح . جيراني اعتقلوا أيضاً . ولما لم يستطع الحصول على أية معلومات مهما كانت من هؤلاء الناس ، أرسل الخليفة شخصاً يسمى إبراهيم ود الأحمر إلى المتمة . وكانت معه ثلاثة جمال وقد أمره الخليفة بإعادتنا رغم جميع المخاطر . لكن كان على بيت المال أولاً أن يشترى الجمال بأسعار عالية جداً . ١٢٠ و ١١٠ و٨٧ ريالاً على التوالي . وقبل أن يتمكنوا من بدء الرحلة ، أخبر أحد الفضوليين الخليفة أن الخليفة شريف قد أخفاني في مركب يتبع لشخص يسمى عثمان فوزي وأنه ساعد في هروبي لكي أقوم بتحريك الحكومة المصرية لمساندة جماعته المضطهدة . وأعلن آخر أنه رأى وجوهاً بيضاء في المركب .

هذه الإفادات أعجبت الخليفة الذي أرسل رجالاً في الحال للقبض على المركب وفحص الركاب . تم القبض على المركب بالقرب من أم درمان وتم الفحص وبالطبع لم توجد أية نتيجة تهدئ الخليفة فأرسل الجمال في المطاردة . إبراهيم تحرى بدقة على طول الطريق إلى المتمة ولكنه لم يستطع أن يجد معلومات . وفي نفس الوقت فإن الذين لهم موقف ودي نحونا عاشوا في خوف شديد من أن يتم القبض علينا . فقط عندما عاد إبراهيم بدون أية أنباء استطاع أصدقاؤنا التنفس بحرية والتأكد من أننا لا بد قد نجونا بسلام . وعندئذ أطلق سراح الذين تم اعتقالهم .

فيما بعد تلقيت رسالة من أم درمان تخبرني بأن هروبنا قد أثار اضطراباً في جميع

أرجاء المدينة وأنه قد تحتم على السجناء أن يعانوا كثيراً . وقد يمكن التعلم من هذا ما هي العواقب الوخيمة التي توضع في الاعتبار قبل اتخاذ خطوة الهروب المهمة . هل لأي شخص آخر أن يحاولها . أولئك الذين يبقون عليهم أن يعانوا . وحمى الله رفاقنا البؤساء !

الباب السادس والعشرون

حكم الخليفة المطلق الحالي في السودان

(نذكر القارئ بأن جميع الآراء المعبّر عنها للأب أورفالدر
.ف . ر . ونجت)

في الصفحات السابقة ألقينا نظرة عجلى على فترة دموية في تاريخ السودان . ظهور المهدي ومسيرته المنتصرة خلال كردفان وغزوه للخرطوم . وذكرنا مجمل التطورات لإمبراطوريته العظيمة والتي تأسست على إراقة الدماء والثورة ورأيناه كيف تم تبجيله من ملايين السودانيين كمبعوث من الإله . معظماً لا بل معبوداً من قبل شعبه ومنظوراً إليه من جيران إمبراطوريته من المسلمين بإعجاب مختلط بقلق شديد . ثم وفي أثناء الاستمتاع التام بانتصاراته وفي اللحظة العظمى لسلطته وبينما هو جالس في عاصمته أم درمان قلّب الرأي في مشاريع غزو لجميع العالم الذي يعرفه . ثم مات . مات من الفسوق والمرض مات في عمر عندما تكون معظم وعود الحياة في أبهي صورة . ثم رأينا الإمبراطورية تترنح . عبد الله يرتقي لمساندتها يقوي السلطة المرتجفة ببطء ولكن بحزم . وبقوة التعصب الأعمى والجهل حالاً (بحكم القوة الحديدية) محل خرافة محطمة .

هنا أقدم بصورة صحيحة بعض الأفكار عن الوضع العام . غزا محمد على السودان وفي أعقاب غزوه جاءت كل انتصارات التقدم والمدنية . اكتشفت أقاليم واسعة جديدة خصبة ومأهولة بكثافة سكانية . المكتشفون والمبشرون توغلوا إلى قلب أرض الزنج . والأماكن المعزولة على النيل قد تحركت مياهها بفعل تقدم البواخر ووصل التلغراف إلى ما بعد خط الاستواء . وشكلت مدن السودان جزءاً من شبكة البريد العالمية . وازدهرت التجارة في ظل الأمن . ويستطيع الرجل الأبيض أن يذهب إلى بلاد النيام نيام وهناك يتعاون مع أخيه من الكونغو والثقافة الأوروبية انتشرت . ودين المسيح غرز راية إنقاذ

العالم في أبعد التخوم .

تقدم خمسين عاماً قد دمرته ثورة المهدي . وتراجع السودان إلى عهود الظلام التي أنقذته منها الأعمال الخيرية . المدنية غرقت في فيضان التعصب الديني . علامة الخلاص قد دمرت وحاملوها قد قيدوا بالسلاسل كالعبيد وراية الطغيان قد خفقت فوق خرائب محترقة من دارفور إلي البحر الأحمر ومن الرجاف إلى الشلال الثاني في الشمال . عصابات من المتعصبين قد اندفعت على وجه الأرض تدمر كل علامة للمسيحية . يقع السودان مكشوفاً في خرابه وعريه . كل شيء غير ضروري إلا من قطعة قماش صغيرة وقليل من الذرة . وليس في هذا شر بالنسبة لأولئك الذين يقبلون وعد المهدي بالحياة الأبدية .. عقول الناس أصبحت متوحشة من خلال سنين الحرب . البقّارة الجهلاء يحكمون . والجعليون والدناقلة الأكثر اعتدالاً مقهورون . الأرض رجعت إلى حالة القفر والصحارى .

الحاكم الحالي عبد الله ماض بثبات في طريق الخراب . إنه يقتلع بحماس كل أثر للحكم المصري . إنه يبعد كل نفوذ أجنبي لأنه سيتحكم في شعب جاهل . إنه لا يريد أي شيء من خارج حدوده . فإذا لم تكن لديه عملة فإن القماش يصبح وسيلة التبادل . وأما الذخيرة فيصنعها بنفسه . وبقبيلة البقّارة التي ينتمي إليها يحكم بيد من حديد . وأولئك الذين يقاومون تنهب أموالهم دون شفقة ويسجنون وينفون .

عبد الله يحكم باسم المهدي الذي يعتبر مقامه الديني أكثر سلاح جاهز للسيطرة على الجماهير . إنه يحتفظ من دون تغيير بكل القرارات والرؤى والأحلام الجامحة التي رسخت الدجل بقوة . إنه يعتبر الحج إلى مكة خطيراً . وحتى مثل تلك الاستنارة التي يمكن أن يجدها أتباعه في مزار عقيدتهم فإن أتباعه قد منعوا بحذر .

أمر المهدي بنمط الحياة الاسبارطية لأتباعه . وما زال عبد الله هذا يحاول أن يحافظ على ذلك لأنه يرغب أن يكون الناس مستعدين لإتّباعه . وهو حريص بألا يكون لديهم حافز ليستقروا في البيوت . والخليفة مثل المهدي يضع أوامره في صورة رؤيا لها وزن التجليات الإلهية . وكثيراً ما يغلق قبة المهدي عليه ويقضي ليالي في الظلام في

ادعاء للاتصال بالمهدي .

سياسة الخليفة موجهة لتقوية سلطته وتركيزها في أيدي البقّارة . وبمجرد تأكده مما حصل عليه فسوف يحاول توسيع ملكه . وسوف يتم تمديد البربرية والخراب إلى مديريات منعته المصاعب الداخلية استيعابها . إنه لا يفكر في شيء خلاف الحرب . فأم درمان ما هي إلا معسكر كبير . جميع الناس يحملون السلاح وإلا فإنهم سوف يجلدون . وكل من يركب دابة عليه أن يحمل حربة عريضة وخمسة رماح صغيرة . والخطب والطويلة الرنانة منها جميعها ترفع من روح الحرب .

وضعف هذه الملكية يقع في الخلافات بين البقّارة وأولاد البلد أي الجعليين والدناقلة وغيرهم . الدناقلة هم الأهداف الخاصة لكراهية الخليفة وإن مما يسره إبادتهم . ولكن بمساندة البقّارة يستطيع في الوقت الحاضر أن يدافع عن نفسه بسهولة.

المهدية مؤسسة على النهب والعنف . وبالنهب والعنف استمرت . في بعض المقاطعات مات نصف السكان وفي بعضها فإن الفقد أعظم . قبائل بأكملها قد دمرت تماماً وفي أماكنهم تتجول الحيوانات الضارية . ينتشرون ويزدادون في الشراسة والأعداد حتى ليؤمل منهم أن ينهوا تدمير الجنس البشري . ولأنهم يدخلون الأكواخ فإن النساء والأطفال لم يعودوا آمنين .

إلى متى سوف تستمر هذه الأوضاع ؟ المفاوضات مع الخليفة لا أمل فيها وهذا ما دلت عليه كثير من الجهود التي تمت بحسن نية . لكن هل تستمر الهمجية والخراب إلى الأبد؟ هل تظل الطرق المؤدية من حلفا إلى سواكن وإلى أغنى بقاع أفريقيا مغلقة دائماً؟ إن السودان قد فقد الثقة في إنسانية أوربا . كما أنه لا يتوقف عن التعجب لماذا لم تتدخل أوربا حتى الآن . قناصل أعظم الأمم قتلوا وأعلامهم مزقت ووكلاؤهم ظلوا في الرق . ما كان يمكن للتدخل أثناء ما كانت الثورة في أوجها أن يكون فعالاً . هذا مفهوم . لكن الآن وجه الأشياء قد تغير . السودانيون قد عوقبوا بشدة لثقتهم الخاطئة . لقد قاسوا حتى النهاية المرة . من أين لهم أن يتوقعوا مخلّصاً ؟

من أجل ثلاثة أشخاص ألم تقم إنجلترا بحرب مكلفة وصعبة ؟ ألم يكن هدفاً أكثر

استحقاقاً معاقبة عبد الله وتخليص الشعب المستعبد والذي أهلك معظمه ؟ لقد ضويت عشر سنوات في العبودية . والآن بمساعدة الإله قد هربت . فباسم الرفاق الذين عانيت معهم وباسم شعب السودان الذي رأيت بؤسه وباسم جميع الشعوب المتحضرة أسأل هذا السؤال :

إلى متى تقف أوربا ـ وقبل كل شيء جميع الأمم التي لها نصيب أول في مصر والسودان ـ التي تقف في المقدمة باستحقاق في تحضير الأجناس المتوحشة ؟ إلى متى تشاهد أوربا وبريطانيا العظمى دون أن تتحرك ضد انتهاكات الخليفة وتدمير شعب السودان ؟

كتب للمترجم

ليالي النيل	– ديوان شعر
قيادة السيارات في الصحراء	– ترجمة
(دليل السلامة)	

،، فهرس ،،

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٦٣٨م